

بازار السكك الحديدية الكبير  
عبر آسيا على متن القطار  
تأليف: بول ثيرو  
ترجمة: أميمة قاسم

---

## حاشية

أعلن بول ثيرو Paul Theroux بعلو الصوت تأييده للسفر بالقطارات وتفضيله على السفر جواً، ويشبهه بالسفر في الغواصات لما تحجب عن راكبها عن نظر راكبها وقلبه من أماكن ومشاعر.

بازار السكك الحديدية العظيم، الصادر في 1975 سرد لرحلة أربعة أشهر بالقطار عبر أوربا وآسيا، تبدأ بعبارة " بحثت عن القطارات، ووجدت الركاب".  
إنهم بالتأكيد الأشخاص الذين يلتقيهم ثيرو على طول الطريق، أكثر من المدن، والمباني أو المواقع ذات الأهمية السياحية، وهم من يستأثرون بمعظم شروحاته السخية.

يبدأ من محطة فيكتوريا بدوفيل، رجل مسن ذو قبعة من الصوف الخشن، وهندام يفتقر إلى التناسق، ومهنة غامضة في اسطنبول. (صار اسم دوفيل Duffil فيما بعد مرادفاً لمن فاته القطار، أو تخلف في "محطة القطار").

تطل رحلات ثيرو على عدد كبير من الشخصيات المتنوعة، من الهيببين المتجهين إلى المعابد، إلى عبّاد كالي الأتقياء من شعب التاميل، مروراً بفاسيلي بروكوفيفيتش Vassily Prokofyevich، مدير العربية الروسي السكير على القطار العابر لصحراء سيبيريا، يفصل ثيرو لقاءاته المختلفة، مولياً اهتماماً خاصاً لكل ماهو غريب على طول "البازار".

في مدينة كلكتا "وهي مدينة الأشخاص المشوهين "حيث" ليس ثمة غريب سوى المسوخ الفعليين"، يقابل المؤلف "الرجل النطاط"، وهو ذو رجل واحدة مفتولة العضلات، يقفز خلال قمامة المدينة؛ وعلى قطار سايجون المتجه إلى بين هوا دفعت إليه امرأة فيتنامية بطفل أميركي، متوقعة من ثيرو أن يأخذه ويربيه؛ وفي اليابان، حيث النظافة والإتقان، وهذوء ركاب القطارات تمثل تبايناً صادماً لما عرفه المؤلف وعندما اعتاد ذلك فوجيء بأن الاتجاهات الثقافية السرية للإباحية السادية.

أسس بول ثيرو وجوده كروائي وقت قيامه برحلة الشهور الأربعة: بازار السكك الحديدية العظيم، الذي يعتبر اليوم من كلاسيكيات أدب الرحلات، سبق عشرة كتب، بينها ست روايات. في الواقع ، يبدو أن رحلته التي استمرت أربعة أشهر قد تم تمويلها أو الشروع فيها على الأقل بسبب ارتباطات أكاديمية نظّمها المؤلف في مدن تقع على مسار الرحلة.

وهي الأولى بين عدد من مؤلفات ثيرو في هذا الخط، والتي تضم دارك ستار سفارى (2002)، وقطار الشبح إلى النجمة الشرقية (2008)، جاء بازار السكك الحديدية العظيم كسرد خارج قيود الزمن، للبشر والسفر وقطعة تاريخية مميزة للعلاقات العالمية من وجهة نظر كاتب جَوَّاب للآفاق. إلا أنَّ الرحلة مع ذلك لم تخل من طول، وعلى الرغم من مسارها المرسوم بعناية، إلا أنَّها في أغلب الأوقات عبّرت فقط عن مرور الوقت كيفما اتفق داخل مقطورة القطار، وبنهايته، حتى إنَّ ثيرو يصاب بالتعب من أسفاره. تتخلل القصة مقتطفات مشرقة، ولكنها كما تتخيلها، تمر بسرعة كما لو أنَّها تظهر من نافذة قطار عابر.

\*\*\*

بازار السكك الحديدية الكبير  
عبر آسيا على متن القطار  
تأليف: بول ثيرو  
ترجمة: أميمة قاسم

-----

"إلى فيلق المفقودين، وإلى سرب الملعونين، إلى إخوتي في منافي حسراتهم..."

ولإخوتي وأخواتي، إيوجين، وإليكساندر، وأن-ماري، وميري، وجوزيف، وبيتر.  
مع حبي.

والتقطت ماريان صوت القطار القصي. في شوق اشرايت نظرتها، ولم تمض لحظات حتى رآته يقترب. تقترب مقدمته  
السوداء أكثر فأكثر، في سرعة وقوة هائلتين.

يطوي المسافات طياً، ويرسل باتجاه الجسر زخة هائلة من بخار اقتبس من الشمس سنئ وضياء.  
ركض ميلفين ورفيقه إلى الدرابزين المقابل، ولكن القطار كان قد وصل بالفعل وفي غضون ثوانٍ، اختفى مع دوران الطريق في  
منحنى حاد.  
انثنت الفروع المورقة التي نمت على جانب الطريق إلى الأمام وإلى الوراء مع ضربات الهواء الذي أثاره القطار بمروره الجبار.  
"إن كنا أصغر بعشر سنوات،" قال غاسبر، وهو يضحك، "لقلت إنها جولي! لشد ما كانت تتعشني. وتعلنني متحفراً للرجوع  
خلفاً والقذف بنفسي في القتال من جديد."  
جورج غيسنغ، شارع غراب الجديد

صوت صافرة القاطر ينطلق معبراً عما في تلك المحركات من قوة كعالمقة جبابرة، والمياه تنحدر عليها وخارجها من كل الجوانب  
كما نهاية أغنية حب قديمة عذبة [End of Love's Old Sweet Song]، الرجال المساكين الذين اضطروا لأن يظلوا خارج  
منزلهم طوال الليل، بعيداً عن زوجاتهم وعائلاتهم في تلك المحركات المشتعلة.  
جيمس جويس- عوليس  
أول شروط الفكرة المناسبة هو الإحساس المناسب- وأول شروط فهم بلد أجنبي هو التعرف على رائحته..

ت. س. إليوت " " روديارد كيبلنغ"

-----

## الفصل الأول

### قطار الساعة 15:30- من لندن إلى باريس

----

منذ الطفولة، عندما كنت أعيش على بعد خطوات من بوسطن وماين، نادرة هي المرات التي سمعت فيها صوت القطار يمر ولم أتمنَّ أن أكون على متنه. كان لصوت صافرته وقع السحر عليّ: لقد كانت السكك الحديدية أسواقاً لا تُقاوم، وهي تتسلل بثبات مهما كانت التضاريس، تحسّن من مزاجك بسرعتها، ولا تفسد لك شراباً أبداً.

للقطار قدرة على طمأنئك عندما تسوء الأمكنة- صرخة بعيدة من تعرق القلب الذي تثيره طائرات الموت، أو إعياء الغاز المثير للغثيان في الحافلات السفرية، أو الشلل الذي يعتري ركّاب السيارات.

إن كان القطار كبيراً ومريحاً فلن تحتاج إلى وجهةٍ حتى، وسيكون وجود مقعد في الزاوية كافياً، فربما كنت من أولئك المسافرين الذين يتحركون باستمرار، تتقاطع بهم المسارات فلا يصلون أبداً، أو يشعرون بأنهم مضطرون لذلك- مثل ذاك الرجل المحظوظ الذي يعيش على خطوط القطار الإيطالية لأنّه متقاعد ولديه تذكرة مجانية.

وستفضّل البقاء مسافراً في الدرجة الأولى بدلاً عن الوصول، أو كما قال الروائي الإنجليزي مايكل فراين ذات مرة: " الرحلة هي الهدف". ولكني اخترت آسيا، وعندما تذكرت أنّ مسافة تعادل نصف العالم تفصل بيني وبينها، لم أكن إلا راضياً سعيداً.

ثم ظهرت آسيا من نافذة القطار، وكنت أستقل أحد تلك القطارات السريعة المتجهة شرقاً، مسحوراً بالقدر ذاته من البازار الذي انعقد بين جنبات القطار نفسه، مررنا وصوت الصافرة يدوي. كان كل شيء ممكناً داخل القطار: وجبة رائعة، حفلة سمر، زيارة من لاعبي البطاقات الورقية، أو مؤامرة، أو نومة ليلية هائلة، ومونولوجات غرباء تشبه في صياغتها القصص القصيرة الروسية. لقد أضمرت النية لركوب كل قطار يقف في محطة فكتوريا في لندن إلى مركز طوكيو، حتى آخذ الخط الفرعي إلى مدينة شميلا، الخط الذي يعبر ممر خيبر، والخط الوتري الذي يصل بين الخطوط الحديدية الهندية وسيلان؛ وقطار الماندالاي السريع، والسهم الذهبي الماليزي، والخطوط المحلية في فيتنام، والقطارات ذات الأسماء الساحرة، قطار اورينت اكسبريس، ونورث ستار، والترانس-سايبيريان. لقد بحثت عن القطارات، ووجدت الركاب.

كان أولهم دوفيل Duffill. تذكرته لأنّ اسمه تحول إلى فعل في ما بعد- مولسورث، ثم اسمي. لقد كان أمامي مباشرة في الصف على الرصيف رقم 7 في محطة فيكتوريا، للمغادرة القارّة. لقد كان مسناً، وثيابه تبدو أكبر حجماً منه، لذا ربما كان قد غادر على عجل، وتناول القياس غير الصحيح، أو ربما خرج لتوه من المشفى. لقد سار وهو يدوس على أطراف بنطاله، حاملاً شتى الطرود غريبة الشكل مغلفة بورق بني ومثبتة بالخيط- تبدو كأمتعة لمفجر قنابل مشغول لحد الإهمال، أكثر منها لمسافر مغامر. كانت الديباجات تتمايل بفعل النسيم، وقد حمل كلّ منها اسم ر. دوفيل، وفندق سبلينديد بالاس، في اسطنبول بصفته العنوان. سنكون معاً في هذه الرحلة. كنت

لأرحب أكثر بأرملة ساخرة في وشاح سميك، وإن كانت حقيبتها عامرة بشراب الجن وشيء من الإرث فذاك أفضل جداً.

ولكن لم تكن هنالك أرملة، بل مسافرون، وعائدون من القارات بحقائب التسوق التي تحمل علامة هارودز، وبحارة، وفتيات فرنسيات رفقة أصدقائهن الأجلاف، وزوجان إنجليزيان وخط الشيب رأسيهما، وبدوا كما لو أنهما محملان بالكثير من روايات أدب السفاح باهظة الثمن. لم يكن يصل أي منهم لأبعد من ليوبليانا. كان دوفيل يتجه إلى اسطنبول- تساءلت عن الغرض من سفره. كنت أقوم بحماقة أنا الآخر. لم أضع ألواناً على ساريتي، وليس لدي وظيفة، ولم يكن ثمة من يلاحظ صمتي، وقبلتي لزوجتي، وركوبي قطار الساعة الثالثة والنصف ظهراً وحدي.

كانت عجلات القطار تواصل صريرها طوال الرحلة باتجاه كلافام. قررت أن السفر هروب وهواية على حدٍ سواء، لكن بحلول ذلك الوقت كنا قد اجتزنا الأسطح الطوبية، وفناءات الفحم، والحدائق الخلفية الضيقة التي اتسمت بها ضواحي جنوب مدينة لندن، وكنا نمر بملاعب كلية دولويتش، والأطفال يتمرنون وعلى أعناقهم ربطاتها.

كنت قد وطنت نفسي على إيقاع عجلات القطار، ونسيت تماماً صفحة الإعلانات بالجريدة التي كنت أقرأها.

بيبي كريستين: امرأة تدان ويُخطط لإطلاق سراحها، تطعن فتاة في التاسعة من العمر- روائي غير معروف يختفي هو الآخر، هكذا وحسب. ، يمر صف من البيوت المتباعدة بعض الشيء، ودخلنا نفقاً، وبعد دقيقة أخرى ساد ظلام تام، ثم وجدنا أنفسنا في مشهد مختلف تماماً يا للعجب، مروج واسعة، وأبقار ترعى في الشعب، ومزارعون يحصدون القش في بزّاتهم الزرقاء. خرجنا من لندن، مدينة رمادية مطيرة تقع تحت الأرض. يقابلنا في سيفن اوكس نفق آخر، ولمحة أخرى من مزارع أحصنة الرهان، رعي الأحصنة المخصصة للرهان، بعض الخراف المسترخية، والغربان على بيت البلوط، ومنظر سريع يمر عبر النافذة لمجموعة من المنازل الجاهزة، ومنزل زراعي يعود إلى الحقبة اليعقوبية والمزيد من الأبقار.

هذه هي إنجلترا: الضواحي تتداخل مع المزارع. عدد من المسارات المتقاطعة، وقد غصّت شوارع البلد بالسيارات المصطفة لمئات الأمتار. كان ركاب القطار يشمتون على توقف حركة السير وبدوا كأنهم يهتممون: "توقفن أيتها العاهرات!".

كانت السماء رائعة. تلاميذ المدارس يرتدون قمصانهم الزرقاء الداكنة، ويحملون مضارب الكريكت، وحقائبهم المدرسية، وجواربهم مرتخية، كانوا يبتسمون على رصيف القطار في محطة تونبريدج.

تجاوزناهم في سرعة تلاشت معها ابتساماتهم. لم نتوقف، ولا في المحطات الأكبر، والتي كنت أتأملها من داخل عربة الطعام على علبة شاي تضطرب مع حركة القطار، بينما كان السيد دوفيل يقف هو الآخر منحنياً، دون أن يغفل عن مراقبة طروده، يحرك الشاي في فجان الشاي خاصته بخافض اللسان الذي يستخدمه الأطباء.

ثم مررنا من حقول أعشاب الدينار [الجنجل] التي تضيء على مقاطعة كينت طابعاً متوسطياً في شهر سبتمبر. ثم معسكر للغجر، أربعة عشر عربة قديمة تستخدم للسكن، أمام باب كل عربة

تتكسد كومة لا نهاية لها من القمامة. ثم اجتاز القطار مزرعة، على بعد حوالي أربعين قدماً، ثم فناء عقار سكني، ومنظر للكثير من الملابس الجميلة نُشرت على حبلٍ لتجف: بناطيل قصيرة، وسراويل داخلية طويلة، وصدریات سوداء ذات خطاطيف، وشعارات للقبعات، وجوارب، وجميعها بمثابة رسائل صريحة، مثل أعلام رمزية لموكب هذه المنازل المنكوبة. حقيقة أننا لم نتوقف، جعلت هذا سرعة هذا القطار تبدو مقصودة. الإسراع للوصول إلى الساحل حتى يتسنى لنا عبور القنال. ولكنها كانت مسرحية زائفة.

دوفيل يقف على طاولة عرضه، وقد طلب كوباً آخر من الشاي. ظهر قطار آشفورد الأسود واختفى مسرعاً، ثم كنا نسير عبر مرج الهاموك لخراف الرومني مارش، متجهين إلى فولكستون. بحلول ذلك الوقت انضم إلينا ركاب آخرون. عدت إلى مقطورتني لأسمع الإيطاليين يرفعون أصواتهم، ربما شجعهم على ذلك إشرافنا على حدود إنجلترا.

تعالّت أصوات بعض النيجيريين، الذين كانوا قبل تلك اللحظة ربايعاً من القبعات المتمايلة- قبعتين من الهومبيرغ، وعمامة، وشعر مستعار على هيئة خلية نحل- وصاروا يتحدثون بلغة اليوروبا، ويبدو أنهم يتهاجون كل كلمة يستخدمونها، مطبقين الشفاه عقب كل مقطع يُنطق.

وقد هاجر كل راكبٍ إلى لغته الأم فطفق البريطانيون يغمغمون ويديرون المُقل. "أوه، انظروا،" قالت إحدى السيدات وهي تنشر منديلاً على حجرها. "قال الرجل الذي يقف بجانب النافذة: "إنّه نظيف جداً ومرتبّ".

"الزهور الياينة." قالت السيدة بلطف وهي تكلم أنفها بالمنديل وتنفخ من فتحتي أنفها واحدة بعد الأخرى. قال الرجل: "لجنة مدافن الحرب تهتم بهم."

"إنهم يقومون بعمل لطيف."

يسير على الممر شخص ضئيل الجسم يحمل طروداً مغلفة بالورق محزومة بخيط، يكاد مرفقاه يمسّان نافذة الممر. دوفيل.

انحنّت السيدة النيجيرية، وقرأت لوحة المحطة: "فروكيستون." كان خطأ النطق أشبه بالتهكم، وبدأت غير متأثرة كما الليدي غلينكورا في رواية ترولوبي ("لم يكن هناك ما ترغب به أكثر من رؤية فولكستون").

الرياح، تهب من الميناء، وكانت رمادية في لون الرصاص، معبأة بحبات الرذاذ التي تتفجر في عيني. أصاب عيني ارتخاء بسبب عدوى البرد التي التقطتها عندما ضرب برد سبتمبر الأول لندن، وذكرني بمرأى أشجار النخيل وحرارة سيلان الدافئة.

سهّل عليّ البرد السفر، فقد كانت المغادرة علاجاً: "هل جربت أن تتناول حبة أسبرين؟" "لا، أعتقد أنني سأذهب إلى الهند."

حملت حقائبي إلى العبّارة، وذهبت إلى الحانة. وقف هناك رجلان مستان. كان أحدهما يطرق بقطعة عملة معدنية على طاولة الحانة، محاولاً جذب انتباه الساق.

قال الرجل الأول: "لقد صار ريغي ضئيلاً جداً"

- "هل تظن ذلك؟" قال الثاني.

- "أخشى ذلك، ضئيل لحد صادم. ملابسه لم تعد تناسبه."

- "إنّه لم يكن ذا جسم ضخم قط."

- "أعرف ذلك. لكن هل رأيته؟"
- "لا. قال غودفراي إنه كان مريضاً."
- "كنت سأقول مريضاً جداً."
- "إنها الشيوخوخة، رجل مسكين."
- "وضئيل الحجم لحد صادم."

وصل دوفيل. قد يكون هو موضوع الحوار. ولكنه لم يكن: تجاهله السيدان المسنّان. كانت ملامحه مضطربة، مثل رجل ترك أمتعته في مكان آخر، أو نظرة رجل يشعر بأنّ ثمة من يتبعه. جعلته ملابسه الضخمة يبدو واهناً. يتغضن معطف الجبردين الرمادي في طيات تحت كتفيه. ثنيات ساق البنطال طويلة جداً، تناظر طول البنطال الممرغ تحت أقدامه. تفوح منه رائحة فتات الخبز. وما يزال يرتدي قبعته الصوفية، ويصارع البرد أيضاً. كان حذاؤه مثيراً للاهتمام، من نوع بروغان الذي يصلح لجميع الأغراض الشائعة بين سكان الريف. على الرغم من أنني لم أستطع تبين لهجته. كان يطلب من الساقبي نبذ التفاح – إلا أنّ فيه شيئاً آخر من الأرياف، تكشف صارم في هندام لا بأس به لكنه يعتبر مهلهلاً بالنسبة لشخص من لندن. بوسعه أن يخبرك بالمكان الذي اشتري منه القبعة والمعطف، وبأي سعر، وعمر ذلك الحذاء معه.

لم تمض إلا دقائق معدودة، ومررت به في أحد أركان البهو، ورأيت أنّه قد فتح واحداً من طروده. أمامه سكين، رغيف فرنسي طويل، وقنينة خردل، وأقراص من السلامي الأحمر القاني. جلس يمضغ شطيرته في بطنه، تائهاً في أفكاره.

كانت المحطة في كاليه مظلمة، ولكن قطار باريس السريع كان غارقاً في ضوء المصابيح. كنت مسترخياً. قالت السيدة غلينكورا لصديقتها، "بوسعنا الوصول إلى الأكراد يا أليس بدون الدخول في صندوق مرة أخرى. بالنسبة لطريقة تفكيري، فهذا سبب ارتياح كبير للقارة." حسناً، ثم، إلى باريس، و أورينت اكسبريس، والأكراد. صعدت على متن القطار، وجدت مقطورتني ملأى عن آخرها، فانتقلت إلى عربة الطعام طلباً للشراب. أراني النادل طاوله حيث كان رجل وامرأة يفصلان لفائف خبزهما ولكنهما لا يأكلان. حاولت طلب النبيذ. فتجاهل النادلون -الذين كانوا يهرعون جيئة وذهاباً بما في أيديهم من صوانٍ- وجهي المتوسّل.

انطلق القطار، نظرت من النافذة، وعندما عدت ببصري إلى الطاولة وجدت أنّهم قدموا لي قطعة من السمك المحروق. أخبرني زوجا تقطيع الخبز بأنّه كان علي الطلب من نادل النبيذ. فبحثت عنه، فوجدت أمامي الطبق الثاني، ثم رأيته فطلبت.

"كان أنغس يقول في صحيفة التايمز أنّه أجرى بحثاً، قال الرجل. " هذا كلام فارغ."

أفترض أنّ علي أنغس أن يجري البحث،" قالت المرأة.

قلت "أنغس ويلسون؟"

نظرا لي. كانت المرأة تبتسم، أما الرجل فحدجني بنظرة عدائية. وقال، " ليس على غراهام غرين إجراء البحث."

قلت: " ولم لا؟"

أطلق الرجل زفيراً. قال، " كان ليعرف مسبقاً."

قلت له: " ليتني أستطيع الاتفاق معك، ولكنني قرأت كما لو كان ذلك بفعل ساحر، وأقول لنفسني، "الآن لدينا مهندس زراعي حقيقي!" ثم قرأت كتاب القنصل الفخري، وبدا لي الدكتور ذو الثلاثين عاماً مربعاً كما لو كان روائياً في السبعين من عمره. إن لم تكن تمنع، فإني أظنها رواية جيدة. أعتقد أن عليك قراءتها. ألك في بعض النبيذ؟"

قالت السيدة: " لا، شكراً لك."

"أرسل لي غراهام نسخة،" قال الرجل. وهو يتحدث إلى المرأة. " ودّي، جراهام. هذا ما كتبه. إنها في حقيقتي."

قالت المرأة: إنه رجل لطيف، أحب لقاءه دائماً."

ساد الصمت لفترة ليست بالقصيرة. هزت عربية الطعام الأواني الزجاجية وقناني الصلصة، قُدمت الحلوى مع القهوة. لقد أنهيت نصف زجاجة النبيذ خاصتي، وكنت أتوق لأخرى، ولكن النادلون كانوا مشغولين، يمرون مسرعين بالطاولات وهم يحملون الصواني، ليجمعوا الأطباق الفارغة. "أحب القطارات، هل تعرف أن العربية التالية ستتنضم إلى قطار الشرق السريع؟" قالت المرأة. "نعم، في الحقيقة" قلت أنا.

"سخيف" قال الرجل وهو يخاطب قطعة مربعة من الورق عليها كتابة بالقلم الرصاص، أعطاه إياها النادل.

ملاً طبق الفئجان بالمال وأخذ المرأة بعيداً بدون أن ينظر إلى اتجاهي مرة أخرى. بلغت تكلفة وجبتي خمسة وأربعين فرنكاً، أي حوالي عشرة دولارات في تقديري. أصبت بالرعب، ولكنني لم أفوت الفرصة للانتقام بسيط. أدركت عندما ذهبت إلى مقطورتني أنني تركت صحيفتي في طاولة عربية الطعام. عدت إليها، ولكنني بمجرد ما وضعت يدي عليها قال النادل بلغة فرنسية: "ماذا تفعل؟"

أجبت بحسم: " هذه صحيفتي،"

"هل هذا هو مكانك؟"

"بالطبع"

"حسناً إذن، ماذا أكلت؟" بدا كأنه يستمتع بدقة استجوابه.

قلت: " سمكاً محروقاً، وقطعة صغيرة من لحم البقر المشوي. كوسة محترقة ولزجة، وبطاطس باردة، وخبز بائب، وطولبت على هذا بخمسة وأربعين، أكرر، خمسة وأربعين-"

فسمح لي بأخذ الصحيفة.

في محطة غار دو نورد ألحقت مقطورتني بقطار آخر. راقبنا أنا ودوفيل حدوث ذلك ونحن على الرصيف قبل أن نستقل القطار من جديد.

استغرقه الأمر فترة طويلة حتى يصعد على العربية، كما عانى أيضاً عند النزول. كان ما زال يقف هناك، يتنفس بصعوبة عندما تحركنا من المحطة في رحلة أربع وعشرين دقيقة إلى محطة ليون للانضمام إلى بقية أجزاء قطار الشرق السريع المباشر.

كان الوقت بعد الحادية عشر بقليل، وغطى الظلام معظم الشقق. ولكن ثمة ضوء يظهر من إحدى النوافذ حيث كان حفل عشاء في خواتيمه، مثل لوحة لمدينة داخلية، معلقة ومضاءة في معرض



مظلم من الشرفات والأسطح. مرّ القطار وطبع تلك النافذة في عيني: رجلان وامرأتان حول مائدة عليها ثلاث زجاجات، وما تبقى من وليمة حافلة، فناجيل القهوة، وطبق من الفاكهة بعد أن نالت منه الأيدي والأفواه. كل الاحترام، والرجال بقمصان ذات أكمام طويلة، يتحدثون بحميمية ودودة، إنها كوميديا اجتماع الأصدقاء الحزينة. جان وماري كانا مسافرين. كان جان يبتسم، يستعد لدور المهرج وقد سحب واحداً من تلك الأقنعة الفرنسية المحيرة. لوح بيده ذات اليمين وذات اليسار وقال. " لقد سعدت على الطاولة مثل سيدة مجنونة، وبدأت ترقص لي هكذا. غير معقول! قلت لماري: " لن يصدق البيكارديون هذا على الإطلاق!" كانت هذه هي الحقيقة. ثم إنها –

دار القطار حول باريس في بطء، يشق طريقه بين المباني المظلمة، مطلقاً صافرته المدوية في آذان السيدات النائمت. كانت محطة ليون نشطة حية، تزدان بأضواء منتصف الليل المتألقة، وتعجّ بدخان المحركات، وعبر السكك اللامعة، تحول قطارنا بفضل بعض النسيج الممزق على أحد القطارات إلى فراشة على وشك الطيران وطي طريقه طياً عبر الأراضي الفرنسية.

في الرصيف كان الركاب الواصلون يتثاءبون، ويسيطرون بخطى أثقلها التعب. اتكأ الحمّالون على عجلات الأمتعة، يراقبون الناس الذين أرفقهم حمل الأمتعة. التقت عربتنا ببقية عربات قطار الشرق السريع المباشر، واقترنت بها. تسببت صدمة الارتطام في فتح أبواب المقطورة والإلقاء بي في حجر المرأة التي تجلس قبالي، فاستيقظت من نومها على وقع المفاجأة.

-----

## الفصل الثاني

### قطار الشرق- المباشر السريع

-----

ارتدى دوفيل نظاراته الطبية ذات الإطار السلكي، والعدسات المعتمدة بما يكفي من الشريط اللاصق لضمان منعه من النظر إلى المسجد الأزرق. جمع طروده، وطفق ينسج- مغمغماً- حقيقة إضافية من الأحزمة الجلدية والقماشية للتقليل من احتمال انفجار الحقيبة المكتظة واندلاق محتوياتها خارجاً. سرنا متجاوزين بضع عربات حتى وقفنا مجدداً أمام اللوحة المضاءة على جانب العربة: قطار الشرق المباشر السريع- Direct-Orient Express- ومحطاته: باريس- لوسان- ميلانو- تريستي- زغرب- بيلغراد- صوفيا- إسطنبول. وقفنا هناك، نحدق في هذه اللوحة.

استخدم دوفيل نظاراته كمنظار مقرّب. وأخيراً قال: " كنت على هذا القطار عام تسعة وعشرين وتسعمائة وألف."

بدا كما لو أنّه يطلب رداً، ولكن عندما وافاني الرد (" ربما كان هذا القطار لا سواء – نظراً لحالته "!) جمع دوفيل أمتعته وحقائبه الملفوفة بالأشرطة، وتحرك على الرصيف. كان قطاراً ممتازاً في عام 1929، وذهب بدون أن يقول إنّ قطار الشرق السريع كان القطار الأشهر في العالم. مثله مثل الترانس-سايبيريان، يربط بين قارتي أوروبا وآسيا، ومن هنا يستمد بعضاً من رومانسيته. ولكنه كان ذا أهمية أدبية أيضاً: فقد استقلته السيدة شاترلي، وكذلك هركل بوارو وجيمس بوند، وأرسل جراهام غرين بعضاً من لصوصه الكفار على متنه، حتى قبل أن يستقله هو الآخر مسافراً. يقول غرين في مقدمة روايته قطار إسطنبول ("وبما أنني لم أستطع السفر بالقطار إلى إسطنبول، فأقصى ما استطعت فعله كان شراء أسطوانة هونيكر باسيفيك 231"). وكان القطار أيضاً مصدر الإلهام الخيالي لرواية موريس ديكوبرا الرومانسية: "سيدات النوم النوم [La Madones des Sleepings] عام 1925. بطلة ديكوبرا، الليدي ديانا (وهي سيدة من النوع الذي يُبكي عيني جون رسكن بالدمع الغزير). وقد بيع الكتاب بالكامل على قطار الشرق السريع. " لديّ تذكرة للقسطنطينية. ولكني قد أنزل في فيينا أو بودابست. هذا يعتمد بالتأكيد على الحظ أو على لون عيني جرتي في المقصورة." في النهاية توقفت عن التساؤل حول السبب وراء اختيار كتاب كثيرين هذا القطار كمشهد للحبكات الإجرامية، بينما كان القطار في حد ذاته جريمة قتل من عدة نواح.

كانت مقصورتني عبارة عن حجرة ضيقة بأريكة مزدوجة يتوسطها درج بارز. حشرت حقائبي داخلها، وحالما فعلت، لم يعد ثمة متسع لي. شرح لي موظف التذاكر كيف أدفع بحقائبي تحت المقعد السفلي. كان متردداً، يأمل في بعض البقشيش. " أئمة شخص آخر هنا؟ " لم يصدف قط أن كان لي رفيق؛ سعادة مسافر المسافات الطويلة تكمن في قناعته بأن وجهته بعيدة للغاية، ووحدته خلال الرحلة. وليس من المتوقع أن تكون لشخص آخر الفكرة الجميلة ذاتها.

لم يعط الموظف أية إجابة واضحة، ربما نعم، ربما لا. ونسبة لتردده فقد قررت الإمساك عن إكرامه. أخذت جولة في العربة: زوجان يابانيان في تحت مزدوج، كانت هذه أول وآخر مرة أراها فيها. زوجان أمريكيان مستأن، بجانبهما أمٌ فرنسية بدينة تحيط ابنتها الجميلة بهالة من الشكوك. وفتاة بلجيكية ضخمة الجسم، طولها يزيد على ستة أقدام، وترتدي حذاءً عملاقاً، تسافر مع سيدة فرنسية أنيقة، و( كان الباب يُغلق) فلم أتبين ما إذا كانت راهبة أو عابدة شيطان بدينة. في آخر الطرف القصي من العربة رجل يرتدي عنق سلحفاة، وقبعة بحار، ونظارة بعدسة واحدة، يصفّ قوارير على قاعدة النافذة: ثلاث قوارير نبيذ، مياه معدنية تحمل علامة بيرير، وزجاجة جن عريضة الكتفين- يبدو جلياً أنّه يقصد مكاناً بعيداً.

كان دوفيل يقف خارج مقصورتني، يتنفس بصعوبة، لقد واجه صعوبات في العثور على عربة القطار الصحيحة، وعزا ذلك لضعف إجادته اللغة الفرنسية بمستوى عملي. أخذ نفساً عميقاً ثم خلع معطفه الجبردين، وعلقه وقبعته على شماعة بالقرب من قبعتي.

" أنا هنا في الأعلى،" قال، وهو يربت على الأريكة العلوية. كان رجلاً صغير الحجم لكني لاحظت أنه حالما دلف إلى المقصورة لم يترك فيها متسعاً لسواه.

" كم تبعد وجهتك؟" سألته بنبرة جريئة، وعلى الرغم من ذلك كنت أعرفه إجابته، إلا أنها جعلتني انكمش في مكاني عندما سمعتها. كنت قد خططت لمراقبته عن كثب، وكنت قد وطّنت نفسي على الاستمتاع بالمقصورة وحدي. إنه خبر لا يسر. لقد أدرك ما للأمر من وقع سيء عليّ.

فقال: " لم أرد مضايقتك. أنا مضطر فقط لإيجاد مكان لهذه الأمتعة". كانت طروده على الأرض. قلت له: "سأتركك لها". كان الباقون في الممر ينتظرون تحرك القطار. لقد ظل الأمريكيان يمسحان زجاج النافذة حتى أدركا أن الجزء المتسخ من النافذة يقع خارجها. احتسى الرجل صاحب النظارة وحيدة العدسة البيرة حتى ثمل، وكانت المرأة الفرنسية تقول: - سويسرا.

قالت الفتاة البلجيكية " إسطنبول". لديها وجه عريض، لم تزد النظارات الطبية الواسعة إلا تعقيداً، وهي تفوقني طولاً بكثير. " إنها المرة الأولى بالنسبة لي."

" لقد زرت إسطنبول قبل سنتين" قالت السيدة الفرنسية، وهي تشهق كما يفعل الفرنسيون قبل أن يبدأوا التحدث بلغتهم الأم.

"كيف هي" سألت الفتاة البلجيكية. انتظرت الإجابة، ففعلت مثلها. فقالت محاولة مساعدة السيدة. " جميلة جداً؟" ابتسمت السيدة الفرنسية لكل منّا. ثم هزت رأسها، وقالت. " Tres Sale ... متسخة جداً.

كانت الفتاة البلجيكية تحاول جاهدة: " لكنها جميلة؟ عتيقة؟ الكنائس؟ "

Sale

لماذا تبسم إذن؟ انا ذاهب إلى إزمير، كابادوشيا و-"

ضحكت السيدة الفرنسية وقالت: " Sale, sale, sale."

وذهبت إلى حجرتها. قطبت الفتاة البلجيكية وجهها وغمزت لي.

بدأ القطار السير، وفي نهاية العربة كان الرجل صاحب قبعة البحارة ملتصقاً ببابه، يشرب وهو ينظر إلينا. بعد عدة دقائق دخل بقية الركاب إلى حجراتهم- وسمعت من حجرتي صوت سقوط الطرود الورقية التي تكومت في الزاوية. الآن أصبحنا وحدنا أنا والثمل الذي بدأت أعتقد أنه القبطان في الممر. نظر باتجاهي وقال: " إسطنبول؟"

- نعم

- "خذ كأساً."

- " لقد كنت أشرب طوال اليوم، هل لديك أية مياه معدنية؟"

- أجل لديّ، لكنني أحفظ بها لأسناني. لا أقرب مياه القطارات. خذ شراباً حقيقياً. هيا.

ماذا تفضّل؟

" سيكون لطيفاً لو حصلت على بعض الجعة."

" أنا لا أشرب الجعة أبداً. قال. " خذ بعضاً من هذا."

أراني كأسه، ثم اتجه إلى الرف وصب لي بعض الشراب قائلاً: " هذا شابليه سائع جداً،

إنه صافٍ- لا تتمتع الأصناف التي يصدرونها بهذا الصفاء، كما تعلم."

اصطك كأسانا. كان القطار يتحرك بسرعة في هذا الوقت.

- "إسطنبول؟"

- "إسطنبول، أنت على حق"

كان اسمه مولسورث Molesworth لكنه قالها بطريقة مميزة جداً لدرجة أنني سمعت الاسم الأول للمرة الأولى كما لو أنه كان اسماً من مقطعين. في طريقة وقفته، وانضباط حديثه شيء من العسكرية، وهما صفتان قد تشيران إلى ممثل في الوقت ذاته. كان رجلاً نافذ الصبر في أواخر الخمسينيات من عمره، كأني أراه وهو يؤدي دور ضابط صغير في النادي، إما في ألدرشوت أو في الفصل الثالث من مسرحية راتيجان. النظارة المستديرة الصغيرة التي تتدلى من سلسلة معلقة على عنقه لم تكن نظارة وحيدة العدسة بل عدسة مكبرة. كان يستعين بها على إيجاد زجاجة الشابليه.

"أنا وكيل أعمال لممثلين، وكانت لي شركة خاصة في لندن. شركة صغيرة، ولكننا نبلى حسناً. ولدينا من العمل ما يزيد عن قدرتنا على الإنجاز."

"أي من الممثلين الذين قد أعرفهم؟"

فذكر أسماء عدد من مشاهير الممثلين.

قفلت: "لقد ظننت أنك من الجيش."

"حقاً؟" قال إنه كان في الجيش الهندي- بوونا، وسيملا، ومدراس- وإن مسؤولياته هناك كانت ذات طبيعة مسرحية، وهي تنظيم العروض للقوات. لقد نظم لنويل كورد جولة فنية في الهند عام 1946. وقع في غرام الجيش، وقال إن هنالك الكثير من الهنود الذين تلقوا تربية ممتازة، ويستحقون المعاملة بالمثل في الحقيقة، وعندما تتحدث إليهم قد لا تصدق أنك تحدث هنوداً.

قلت: "أعرف ضابطاً بريطانياً كان في سيملا في الأربعينيات، قابلته في كينيا. وكان لقبه "باني"."

صمت مولسورث للحظة قبل أن يقول: "حسناً، عرفت عدداً ممن يحملون هذا اللقب." تحدثنا عن القطارات الهندية. قال مولسورث إنها رائعة. "بها حمامات بمرشآت. وثمة رجل صغير الحجم يحضر لك ما تحتاج. وكان من المعتاد إرسال برقيات مسبقة إلى المحطات التالية لتجهيز المؤونة في أوقات الوجبات. ستعجبك."

وضع دوفيل رأسه خارج الباب وقال: "أعتقد أنني سأأخذ للنوم الآن."

"إنه رفيقك أليس كذلك؟" قال مولسورث. لقد مسح العربة مسحاً. "هذا القطار لم يعد

كالسابق. يا للأسف. لقد كان واحداً من أفضل القطارات، قطار من الدرجة الأولى-

واستقله أفراد العائلة المالكة. الآن لست واثقاً من هذا، ولكني لا أعتقد أن به عربة طعام، وهو أمر جد صعب إن صح اعتقادي. هل لديك مؤونة؟"

أجبت بالنفي، لكن ثمة من نصحتني بأخذها معي.

"تلك نصيحة سيّدة." قال مولسورث. "أنا نفسي لم أتزود لهذه الرحلة، لكني لا أكل كثيراً. أحب فكرة الطعام، ولكني أؤثر عليه الشراب. هل أعجبك الشابليه؟ أترغب في المزيد؟" وضع عينه الزجاجية وعثر على الزجاج، وقال وهو يصب الشراب، "هذا النبيذ الفرنسي يتطلب خففاً شديداً."

بعد ذلك بساعة ذهبت إلى مقصورتى. كانت الأضواء قوية، وكان دوفيل المستلقي في الأريكة العلوية، مقابلاً مصباح السقف بوجهه قد اكتسى لوناً رمادياً يحاكي الجثث، ويرتدي بيجامة أزراها مغلقة حتى العنق. كان التعبير على وجهه يشي بالكثير من الألم. ملامحه جامدة، ورأسه يهتز مع حركة القطار. أطفأت المصباح، وزحفت إلى أريكتي. ولكني لم أستطع النوم، في البداية بسبب الزكام وكل الشراب الذي احتسيتة- وزاد الإرهاق من أرقى. ثم نبهني شيء ما: كان دائرة لامعة، الميناء المضيء لساعة يد دوفيل، لأنّ ذراعه انزلقت، وكانت تتأرجح جيئة وذهاباً مع حركة القطار، محرّكة هذا الميناء الأخضر المضيء أمام وجهي مثل البندول.

ثم اختفى الميناء. سمعت دوفيل ينزل على الدرج، وهو يتذمر مع كل خطوة. تحرك الميناء المضيء ناحية المغسلة. ثم أضاء مصباح الغرفة. استدرت إلى الجانب المواجه للحائط، وسمعت دوفيل وهو يخرج البراد Chamber pot من دولاّب تحت المغسلة، انتظرت، وبعد وقت ليس بالقصير، بدأت أسمع صوت انهمار الماء، بينما يمتليء البراد. ثم صوت تدفق الماء، مثل الزفير، وانطفأ الضوء، ثم عاد صوت صرير السّلم. وتأوه دوفيل للمرة الأخيرة قبل أن أستغرق في النوم.

عندما استيقظت في الصباح لم أجد دوفيل. كنت مستلقياً في فراشي، ورفعت ستارة النافذة بقدمي. وبعد بوصات قليلة ارتفعت الستارة، كاشفة عن جانب الجبل المشرق، سلسلة الألب المزدانة بأشعة الشمس، تبدو من النافذة كأنها تسير إلى الوراء. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها الشمس منذ أيام. أول صباح على القطار، وأعتقد أنّه المكان الذي سيظل مشرقاً طوال الشهرين التاليين. سافرنا تحت السماء الصافية طوال الطريق إلى الهند الجنوبية، والتي كانت تبعد عنّا آنذاك شهرين من الزمان، رأيت المطر مرة أخرى، آخر الموسم في مدراس.

في فيفي تذكرت ديزي، ورأيتني أحمل كأساً من أملاح الفواكه، وفي مونتريو Montreux تحسّن شعوري لدرجة أنني حَلَقْتُ. عاد دوفيل في وقته ليبيدي إعجابه بشفرة الحلاقة الإلكترونية القابلة لإعادة الشحن. قال إنّ كان يستخدم الموسيقى، وكثيراً ما تعرّض للجروح أثناء السفر بالقطارات. أراني نذبة في عنقه، ثم أخبرني باسمه. كان ينوي قضاء شهرين في تركيا، ولكنه لم يقل ماذا سيفعل هناك. بدا أكبر سنّاً في ضوء الشمس الساطع مما كان عليه في فيكتوريا الغائمة. خمنت أنّه كان في السبعينات من عمره. ولكنه لم يكن نشطاً على الأقل، ولم يكن بوسعي تخيل السبب الذي قد يدعو أي شخص لقضاء شهرين في تركيا إلا إن كان محتالاً هارباً.

نظر إلى جبال الألب في الخارج، وقال " يُقال إنّ السويسريين قد صمموا هذه الجبال. لا بد أنّه من قبيل الإطراء".

قررت تناول الإفطار لكني سرت من أقصى قطار الشرق المباشر إلى أقصاه، ولم أر غرفة للطعام- لا شيء سوى المزيد من حجرات النوم والأشخاص الناعسين في مقاعد الدرجة الثانية. فقط عندما وصلت إلى العربة رقم 99، تبعني ثلاثة من الشباب السويسريين الذين كانوا يحاولون فتح أي من الغرف التي يصادفونها، فإنّ انفتح الباب

ألقوا نظرة إلى الداخل في الغالب على أشخاص يرتدون ملابسهم، أو مستلقين في الفراش، ثم يهتفون: " عذراً سيدتي!"، " عذراً سيدي!" بينما كان أصحاب الغرفة يحاولون ستر أنفسهم بسرعة. وصل هؤلاء المتلصصون الأذكياء إلى مقصورة نومي، وهم في روح معنوية عالية، يصقرون ويهتفون، ولكن حالما يفتح الباب، كانوا دائماً يعتذرون بأدب جم: " عذراً سيدتي!" أصدروا صيحة أخيرة قبل أن يختفوا.

كان الباب المؤدي إلى مقصورة الزوجين الأمريكيين مفتوحاً. خرج الرجل أولاً، مؤرجحاً عقدة رباط عنقه، ثم تبعته المرأة وهي ترتجف متكئة على عصاة لها وتابعت بعد ذلك، لتفتح النوافذ في طريقها. كانت سلسلة جبال الألب مشرفة على المشهد، وقد بنيت الشاليهات ذات الأسقف الواسعة على أكثر الأماكن إشراقاً، قريبة من الأرض مثل عيش الغراب، ومتراصة بالطريقة ذاتها على مسافات متعددة من الكنائس المرتفعة عكس الجاذبية الأرضية. ثمة أودية كثيرة معتمة، فالشمس لا تمس إلا أعالي الجروف وجنابات الجبل المقابلة لها، والقمم. أما على مستوى الأرض، فقد اجتاز القطار الحقول المثمرة، والقرى النظيفة والمواطنين السويسريين الذين يمتطون دراجاتهم مرتدين الأوشحة والمناديل. مشاهد رائعة تثير إعجابك لبرهة من الوقت قبل أن تشعر بالشوق للمضي قدماً ومعانقة شهر جديد.

عاد الزوجان الأمريكيان. نظر الرجل ناحيتي وقال: " لا أستطيع العثور عليها". قالت السيدة: " لا أعتقد أننا وصلنا بعد".

- " لا تكوني سخيفة. لم يكن ذاك سوى المحرك".

نظر إلي قائلاً: " هل وجدتها؟"

- "ماذا؟"

- "عربة الطعام"

- "ليس هنالك عربة طعام، بحثت عنها".

- "إذن لماذا بحق الجحيم؟" قال الرجل وقد بدأ لتوه ينقّس عن غضبه، واستطرد، "

لماذا بحق الجحيم يدعوننا لتناول وجبة الإفطار؟"

- " هل دُعيتما؟"

- "نعم. " النداء الأخير". ألم تسمعهم؟ ، قالوا: "النداء الأخير لتناول الإفطار" لذلك

هرعنا."

الشبان السويسريون، الذين يهتفون ويدفعون أبواب الكبائن، ظهروا قبل الأميركيين. هل تم تأويل هذا الإزعاج على أنه دعوة للإفطار؟ أذن الجائع موقورة!.

قال الرجل: " أنا أكره الفرنسيين"

نظرت زوجته خارج النافذة، " اعتقد أننا خرجنا منها. إنها ليست فرنسا."

"أياً كانت"، قال الرجل. وقال إنه لم يكن سعيداً جداً، وإنه لم يرد أن يظهر التذمر والشكوى، لكنه دفع عشرين دولاراً لتاكسي من "الازاروس إلى ليون"، ثم نقل حملاً أمتعته من التاكسي إلى الرصيف، وطلب عشرة دولارات. لم يطلب العملة الفرنسية بل أراد عشرة دولارات.

قلت إنّ هذا من المبالغة بمكان. وأضفت: " هل دفعت؟"  
قال الرجل: "بالطبع دفعت،"  
قالت السيدة: "كنت أريده أن يثور."  
فقال الرجل: " أنا لا أدخل في مشادات مع الناس في البلاد الأجنبية."  
"خفنا أن نفوّت هذا القطار"، قالت السيدة. ثم قهقهت بصوت عالٍ. " كدت أصاب  
بنزيف."

على معدة خاوية، وجدت هذا الأمر جدياً. كنت سعيداً عندما قال الرجل، " حسناً تعالى  
أيتها الأم، فإن كنا لن نحصل على أي إفطار ربما علينا العودة أيضاً." وقادها بعيداً.  
كان دوفيل يتناول آخر قطعة سلامي لديه. وعرض عليّ بعضاً منها، ولكنني قلت إنني  
عازم على شراء الإفطار من إحدى المحطات الإيطالية. رفع دوفيل قطعة السلامي وكان  
على وشك أن يضعها في فمه، عندما دخل القطار إلى أحد الأنفاق وعمّ الظلام كل شيء.  
قال: " حاول إضاءة المصباح، لا أستطيع تناول طعامي في الظلام، ولا تذوقه."  
فضغطت على مفتاح الإنارة، ولكن لم يبدد هذا من شدة الظلمة التي أطبقت على المكان  
من حولنا.

قال دوفيل، " ربما كانوا يحاولون توفير الكهرباء".  
كان صوته في الظلام يبدو أقرب إلى وجهي. تحركت إلى النافذة وحاولت رؤية جدران  
النفق، ولكنني لم أر سوى السواد.  
بدا صوت العجلات الذي يشبه نقر الطبول، أعلى في الظلام، والقطار نفسه كان في حركة  
متسارعة.

بثت الحركة والظلمة في نفسي شعوراً خائفاً من رهاب الكلوستروفوبيا[رهاب الأماكن  
المغلقة] ووعياً حاداً برائحة الغرفة، والسلامي، وملابس دوفيل الصوفية، وفتات الخبز.  
مرت دقائق وما زلنا في النفق. ربما كنا نسقط في بئر، أو هاوية في الألب ستهبط بنا إلى  
أعماق سويسرا بلد صناعة الساعات، الآليات اللامعة، والمجارف، وطيور الوقواق التي  
تعالج آلام عضّة الصقيع.

قال دوفيل: "لا بد أنّ هذا هو نفق السبملون."  
قلت: "ليتهم يضيئون المصابيح."  
سمعت دوفيل يعيد تغطية وحزم ما تبقى من السلامي، ويلقي بالحزمة في إحدى الزوايا.  
قلت: " ماذا ستفعل في تركيا؟"

"أنا؟" قال دوفيل، كما لو أنّ المقصورة تكتظ بالرجال المسنين المسافرين إلى تركيا،  
وينتظر كل منهما دوره للتصريح بالسبب. صمت ثم قال، " سأقضي فترة في إسطنبول،  
ثم بعدها سأذهب في جولة حول تركيا."  
" متعة أم منفعة؟"

كنت أموت توقاً للمعرفة، وفي عتمة الاعتراف تلك لم أشعر بالسوء حيال إزعاجه، ولم  
يكن بوسعه رؤية التوق في وجهي. من جهة أخرى، استطعت سماع نبرة تردد الموجس  
في إجاباته.

"بعض من هذا وذاك" قال.  
لم تكن إجابة شافية. انتظرت أن يقول المزيد ولكنه لم يضيف أي شيء. فقلت: "ما هو عملك على وجه التحديد. يا سيد دوفيل؟"  
"أنا؟" ولكن قبل أن أجيب بالتهكم الذي كان يتمناه، غادر القطار النفق، وغمر ضوء الشمس المقصورة وقال دوفيل: "لا بد أنها إيطالية."  
اعتمر دوفيل قبعته الصوفية. ورآني أحرق فيها، وقال: "لقد ظلت هذه القبعة معي لسنوات. إحدى عشرة سنة. تُنظف بالغسيل الجاف. اشتريتها من بورو اون همبر" وبحث في لفافته عن قطعة سلامي، وواصل وجبته التي قاطعها نفق السمبلون.

في الساعة 9:35 توقفنا في محطة دومودوسولا، حيث ثمة رجل يحمل إبريقاً يصبّ منه القهوة على أكواب، ويبيع الطعام في عربات يدوية معبأة بالأطعمة. كان يبيع الفواكه، والأرغفة، واللفائف، وعدة أنواع من السلامي، وحُزم الغداء، التي قال إنها تحتوي على "tante belle cose" أي الكثير من الأشياء الجميلة". ولديه أيضاً مخزونٌ من النبيذ. اشترى مولسورث زجاجة باردولينو، و (من باب الاحتياط) ثلاث زجاجات من شيانتي؛ واشتريت أنا زجاجتين، واحدة أورفيتو و الأخرى شيانتي، وحصل دوفيل على زجاجة كلاريه.

قال مولسورث: "سأخذ هذه إلى المقصورة. اشتر لي غلبة غداء. هل ستفعل؟"  
اشتريت علبتي غداء، وبعض التفاح.  
قال دوفيل: "النقود الإنجليزية، لا أحمل سوى العملة الإنجليزية."  
اختطف الإيطالي الجنيه من الرجل العجوز وأعطاه الباقي بالليرة. عاد مولسورث وقال: "نحتاج غسل هذه التفاحات. تنتشر الكوليرا هنا." نظر مرة أخرى إلى العربة اليدوية وقال: "أعتقد أنّ علبتي الغداء آمنتان."

وبينما كان مولسورث يجلب المزيد من الطعام وزجاجة أخرى من البار دولينو، قال دوفيل: "لقد ركبنا هذا القطار في 1929."

قال مولسورث: "كان جديراً بذلك حينها،" "نعم لقد كان قطاراً ممتازاً."  
سألت: "حتماً سنظل ماكثين هنا؟"

لا أحد يعرف. نادى مولسورث على حارس القطار، "كم ستطول وقفتنا هنا يا جورج؟"  
هزّ الحارس كتفيه. وما إن فعل حتى بدأ القطار في الرجوع إلى الخلف.  
فسألت: هل تعتقد أنّ علينا الصعود؟"

قال مولسورث: "إنّه يرجع إلى الوراء، أتوقع أنّهم يدفعونه دفعاً"  
قال حارس القطار: "أنديامو."

قال مولسورث: "يحب الإيطاليون ارتداء الأزياء الرسمية، انظر إليه. أترى؟ والأزياء الرسمية دائماً مخجلة. إنهم يبدوون حقاً كتلاميذ مدارس بالعين. هل نتحدث إلينا يا جورج؟"  
فقلت: "أعتقد أنّهم يريدون منا الصعود." توقف القطار عن التراجع. قفزت على متنه، ونظرت إلى الأسفل. كان مولسورث ودوفيل في أسفل الدرج.



قال دوفيل: " أنت تحمل أمتعة، تقدم أولاً." قال مولسورث: " أنا بخير تماماً، تفضل أنت." قال دوفيل: "ولكنك تحمل طروداً." أخرج غليوناً من معطفه، وشرع في مصّ جذعه. "أسرع." ففتح إلى الخلف، مفسحاً المجال لمولسورث. قال مولسورث: " أوافق أنت؟" قال دوفيل: " لم أذهب كل تلك المسافة إذأ، في عام 1929. لم أصل تلك النقطة بعد الحرب العالمية الثانية." وضع غليونه في فمه وابتسم. صعد مولسورث إلى القطار، بخطوات وثيدة، لأنه كان يحمل زجاجة من النبيذ، وعلبة غدائه الثانية. أمسك دوفيل بمقبض الباب الحديدي، وحالما فعل بدأ القطار في التحرك فأقلته. سحب ذراعيه. هرع خلفه اثنان من حراس القطار وأمسكا بذراعيه وسانداه على طول الرصيف إلى الدرج المتحرك للعربة رقم 99. شعر دوفيل بالأيدي الإيطالية، قاوم العناق، وتراجع في وهن، ثم دار نصف دورة ليبتسم في ضعف أمام الباب المتحرك. بدا كعجوز في عامه المائة. كان القطار يتحرك بسرعة متجاوزاً وجهه. "جورج!" صاح مولسورث. "اوقف القطار!" كنت متكئاً على الباب. قلت: " ما زال على الرصيف." وقف إيطاليان بالقرب منا، المحصلّ ومعاون الغرف. كانت أكتافهما متحفزة، في استعداد للاهتزاز. قال مولسورث: " اسحب حبل الطواريء!" قال المراقب: " لا، لا، لا، إن سحبته سادفع خمسة آلاف ليرة. لا تلمسه!" " هل هناك قطار آخر؟" سألت أنا. "Si" قال معاون الغرف في نبرة انفعالية. " بوسعه اللحاق بنا في ميلانو." "متى يصل القطار الآخر إلى ميلانو؟" سألته. قال: "الساعة الثانية." "متى نصل إلى ميلانو؟" " في الواحدة،" قال المراقب. " ونغادرها في الثانية." "حسناً، كيف بحق الجحيم- كيف يستطيع الرجل العجوز أن يصعد على متن القطار،" قال معاون الغرف مطمئناً: " لا تقلق، سيأخذ سيارة أجرة من دوموسولا، سيارة أجرة تسير بأقصى سرعة، وسيصل ميلانو قبلنا!" قال مولسورث: " يجدر بهؤلاء الشباب أن يأخذوا بعض الدروس في كيفية إدارة القطارات" لم تزد الوجبة التي أعقبت تخلف دوفيل الوضع إلا سوءاً. كانت نزهة في مقصورة مولسورث. انضمت إلينا فيها الفتاة البلجيكية، مونيك، والتي أحضرت معها الجبن. طلبت الفتاة المياه المعدنية واعتذر لها مولسورث: " عفواً، أحتفظ بتلك المياه من أجل أسناني." جلسنا كتفا لكتف على سرير مولسورث، نلتقط طعامنا من علب الغداء في كابة.

" لم أكن مستعداً لهذا الأمر أبداً " قال مولسورث وأضاف: " أعتقد أنّ لكل بلد أن يحصل على غرفة طعام خاصة. " مضغ بيضة مسلوقة، وقال: "ربما علينا الاجتماع وكتابة خطاب إلى الطباخ."

كان قطار الأورينت السريع في وقت ما متفرداً في خدمته، وما يميّزه الآن بين القطارات هو فقر خدماته.

قطار راجداني السريع يقدّم الكاري في عربة سفرته، وقطار خبير ميل الباكستاني أيضاً؛ ويقدم القطار الإيراني خبير اكسيرس كباب الدجاج الإيراني، والقطار إلى سابورو في شمال اليابان يقدم السمك المدخن والأرز الغني بالغلوتين. تباع علب الطعام في محطة برانجون، ودائماً ما تشتمل الخطوط الحديدية الماليزية على غرفة سفر، على هيئة كشك لبيع الشعيرية، حيث بإمكانك شراء حساء المي هون، والامتراك. لطالما ظننت أنّ القطارات الأسوأ في العالم هي تلك التي تقدّم الهامبورغر في جيمس وايتكوب رايلي (من واشنطن إلى شيكاغو). يذهب الجوع بمتعة الرحلة، ومن هذا المنطلق فإنّ قطار الأورينت السريع أكثر سوءاً من قطار مدراس الأفقر منه، حيث يمكنك مقايضة كوبونات الغداء الملطخة بصينية من الخضار ومقدار ربع غالون من الأرز.

قالت مونيكا: " أتمنى لو أن يأخذ سيارة أجرة. "

" رجل عجوز مسكين، لقد أصيب بالهلع، هل رأيته. عندما بدا من وراء الباب وكأنّه يسير إلى الخلف. " قال: " أنت تحمل طروداً، فسر أولاً. " كان سيصعد أولاً إن لم يهلع. " حسناً سنرى ما إذا كان سيصل إلى ميلانو. إنّهُ مضطر لذلك. ما يقلقني هو احتمال إصابته بنوبة قلبية. إنّهُ لا يبدو بخير، أليس كذلك؟ هل أخذتما اسمه؟ " "دوفيل"، قلت أنا.

"دوفيل، إن كان له عقل يعقل، فسيجلس ويحتسي بعض الشراب، ثم يأخذ سيارة أجرة إلى ميلانو. إنّها ليست بعيدة، ولكن إن استسلم للهلع مرة أخرى سيضيع. " تابعنا أكلنا وشربنا. إن كانت هنالك عربة طعام لكننا تناولنا اليسير من وجبتنا وتركنا بقيتها هناك. وبما أنّه ليس ثمة واحدة هنا، فقد كنا نأكل طوال الطريق إلى ميلانو. الخوف من الجوع يبعث على الشعور بالجوع. قالت مونيكا لقد بدونا مثل البلجيكيين الذين يأكلون طوال اليوم.

عندما وصلنا إلى ميلانو كان الساعة قد تجاوزت الواحدة. لم يكن هنالك أثر لدوفيل لا على الرصيف ولا غرفة الانتظار الحاشدة. كانت المحطة على هيئة كاتدرائية، بسقف عالٍ، ولافتات بسيطة مثل أوسيتا، اكتست بطابع رمزي للعبارات الدينية من حجمها ومواقعها البارزة على الجدران، ولم يكن للشرفات أي غرض واضح أكثر من إضفاء بعض الراحة مقابل النسور الحجرية الجاثمة التي بدت في وزن ثقيل يمنعها من الطيران. اشترينا المزيد من غُلب الطعام، وزجاجة أخرى من النبيذ، وصحيفة الهيرالد تيربيون.

قال مولسورث باحثاً عن دوفيل: " العجوز المسكين، لا يبدو أنّه سينجح. "

"لقد حذروك من ذلك، ألم يفعلوا؟ تفويت القطار. تظن أنه كان تبديلاً ولكنه كان يتحرك. خاصة قطار الشرق المباشر. تناولت صحيفة الأوبسيرفر هذه المسألة. لقد فوّته الكثيرون، إنه شهير بذلك."

في العربية رقم 99، قال مولسورث، " أعتقد من الأفضل لنا أن نصعد إلى القطار. لا أريد أن "أندوفل".

الآن، وبينما نحن في طريقنا إلى مدينة البندقية، وليس ثمة بارقة أمل في عودة دوفيل. لم يكن هنالك أدنى احتمال للحاقه بنا. أنهينا زجاجة أخرى من النبيذ، وذهبت إلى مقصورتي. وكانت أمتعة دوفيل، وحقيبة تسوّقه، وطروده الورقية مكدّسة في الزاوية. جلست ونظرت من النافذة، مقاوماً ميلي إلى البحث في ما ترك دوفيل عما يشي بغرضه من السفر إلى تركيا. أخذت درجة الحرارة في الارتفاع، حقول الذرة مصفرة تحت حرارة الشمس، بعثرتها الضربات والصدمات. ولدى تجاوزنا بريسشا، أصابتنى النواذ المحطمة في صف من البيوت بالصداع. بعد لحظات غلبني النوم وأنا تحت تأثير الحرارة الإيطالية المخدر. مدينة البندقية، مثل غرفة رسم في محطة بنزين، يمرّ الطريق إليها وسط عدد من المباني الصناعية المسطحة العقيمة، تتقاطع فيها أنابيب البترول السوداء ورائحة النفط النفاذة، والأحواض العملاقة ومواقد المصافي والمصانع، وجميعها تقذف بالرعب في قلب المدينة الرقيقة من ورائها.

تم تنفيذ اللوحات المكتوبة على طول الطريق بمهنية كبيرة، مثل أسماء الشركات: موتا جيلاتي، لوتا كوميونستا، أجيب، نوي، سيامو، توتو اساسيني، رينولت، يونيتا. وتتبعثر على البركة بقع مضيئة من الزيت اللامع كما لو أنّ يد كاناليتو العاجزة اقتفت تعريجاتها، وبها ما بها ركام ومخلفات، من زجاجات بلاستيكية، ومقاعد دورات المياه المحطمة، والصرف الصحي، ورغوة ذلك المصنع الأبيض في لون العظم، تجرفها الرياح حيث تتحول إلى رغوة مترسبة.

وقعت أطراف المدينة ضحية للتخريب الصناعي، ولا يظهر منها سوى النواذ الخلفية المكسرة والفيالات المهجورة المغمورة بالمياه.

بضعة أسوار فينيسية عالية مشققة، يزداد عددها كلما توغلنا، إلا أنّها منخفضة وتكاد توشك على الغرق، والزخارف الجصّية بلون الاسبجايّتي، وأسقف حمراء عليها أسراب من طيور السنونو المحلّقة تعلّم الحمام الطيران.

"وها نحن أيتها الأم." قال الرجل المسنّ الأمريكي الذي كان يساعد زوجته في نزول الدرج، وقام حمّال بنقلها جزئياً في ما تبقى من الطريق إلى الرصيف. من الجميل جداً أنّ هذين الزوجين اللذين شاهدا البندقية في أوقات أفضل: تدهورت المدينة والزوار الآن، في معاناة من مرض الشيوخوخة العضال. ولكن السيدة كيتشم [Ketchum] (لأنّ هذا هو اسمها: كان آخر شيء أخبرتني إياه) بدت وكأنّها مصابة، كانت تمشي بصعوبة، بمفاصل متحجرة، تستعين بعصاها على صعوبة المشي. سيصل آل كيتشم إلى إسطنبول في غضون أيام قلائل، بيد أنّ الأمر في نظري لا يخلو على الأقل من مخاطرة، حمل أجسادهم الواهنة من بلدٍ إلى بلد آخر تفصل بينهما المسافات القصيّة.

قمت بتسليم أمتعة دوفيل المنتهكة إلى المشرف الفينييسي، وطلبت منه الاتصال بميلانو وطمأنة دوفيل. وقال إنه سيفعل لكنه تحدث في شيء من اللامبالاة الإيطالية غير الجديرة بالثقة. طلبت إيصالاً. وقدمه لي مظهراً اهتمامه على مضض، أثناء إدراجه محتويات أمتعة دوفيل على الإيصال. حالما غادرنا مدينة البندقية، مزقته إلى أجزاء صغيرة وألقيت بها خارجاً من النافذة. لقد طالبت به على سبيل الانتقام.

في تريستي، اكتشف مولسورث أنّ المراقب الإيطالي قد مزق جميع التذاكر من محفظة طباخه عن طريق الخطأ. كان المراقب الإيطالي في مدينة البندقية، ولم يترك لمولسورث أية تذكرة لإسطنبول أو ليوغوسلافيا نتيجة لما حدث. ولكن مولسورث ظل هادئاً. وقال إنّ خطته في هذه الحالات أن يقول إنه لا يملك المال ولا يتحدث سوى الإنجليزية. " هذا الأمر ينقل الكرة إلى ملعبهم ". ولكن المراقب الجديد كان مصرّاً. فظل في مكانه في باب مقصورة مولسورث وهو يردد: " أنت لا تحمل تذكرة. " ومولسورث لا يجيب.

" هذا خطأك يا جورج. "

قال المراقب. ولوّح بتذكرة في وجه مولسورث. " ليس لديك تذكرة. " " آسف، جورج، عليك أن تتصل بالطباخ. " قال مولسورث وهو لا يزال يشرب.

- " You no ticket. You pay "

- " I no pay. No money. "

عبس مولسورث، وقال لي، " ليتّه يغرب عن وجهي. "

- " لا تستطيع الذهاب. "

- " سأذهب. "

- " لا تذكرة! لا سفر! "

- " يا لطيف يا الله " قال مولسورث.

استمرت هذه المناقشة لبعض الوقت، واقتنع مولسورث بالذهاب إلى محطة تريستي. بدأ المراقب يتعرق. شرح المسألة لمأمور المحطة، الذي وقف وغادر مكتبه ولم يعد. عثرنا على موظف آخر، قال مولسورث: " انظر للزي الرسمي، رث للغاية. " حاول ذلك الموظف الاتصال بمدينة البندقية، ضغط على الأزرار بأصبع قصير، وقال: بروننتو! بروننتو! لكن الهاتف كان معطلاً.

أخيراً قال مولسورث: " لقد استسلمت- خذ- هذا بعض المال. " وقدم لهم ورقة نقدية من فئة العشرة آلاف ليرة. " سأشتري بطاقة جديدة. "

تناول المراقب المال. وبينما كان المراقب يتناولها من يد مولسورث بسرعة سحبها الأخير بنجاح. " انظر الآن يا جورج، ستجد لي تذكرة، لكن قبل ذلك، تجلس وتكتب لي إقراراً، حتى أستطيع استعادة المال. واضح؟ " ولكن كل ما قاله مولسورث عندما كنا في طريقنا مرة أخرى: " أعتقد أنّهم جميعاً أشقياء جداً. "

في سيزانا، على حدود يوغسلافيا، كانوا مزعجين جداً، أيضاً. حيث دخل رجال الشرطة اليوغسلافية بوجوههم المنتفخة وأحزماتهم السوداء المشدودة على صدورهم ليزحموا ممر

القطار ويفحصوا جوازات السفر. أريتهم جواز سفري. فأمسك به، لعق إبهامه، ومسحه على صفحاته، تاركاً عليه بقعاً رطبة، إلى أن وجد تأشيرتي فمرره لي. حاولت أن أسير إلى جانبه لاستعادة زجاجة النبيذ من مقصورة مولسورث. فشهر الشرطي أصابعه على صدري، وأعطاني دفعة، وعندما رأني أتعثر إلى الوراء ابتسم، كاشفاً عن أسنان بشعة.

"بوسحك أن تتخيل كيف يتصرف أفراد الشرطة هؤلاء في عربات الدرجة الثالثة." قال مولسورث، في تعبير نادر عن ضميره الاجتماعي.

" ظلت هي تصيح، وظل العالم يلاحقها،"

قلت: "زق زق"، وما زال العالم يركض "قلت: "زق زق في آذانٍ موقورة"، من يقول إن الأرض المقفرة قصيدة تافهة؟"

كلمة "زق" تبدو دقيقة للغاية، لأنّ "الزقاق" الصغيرة –[كناية عن الأطفال البدناء- المترجمة]- تتقافز فرحاً حول القطار وعلى المسارات، وزقاق العناية بالأطفال الكبيرة تجلس في صفوف، تنكّئ على الحقائق. وتسير "الزقاق" -في زيّها الرسمي، ومحافظها الجلدية، و هراواتها – الهويّنا، تدخّن لفائف ذات رائحة شريرة، وعلامة تجارية موفقة الاسم: استوب "Stop!" حشر المزيد من الركاب أنفسهم في العربة رقم 99 من مدينة البندقية: سيدة أرمينية من تركيا (لها أخت في ووترتاون بماساشوسيتس)، والتي كانت تسافر مع ابنها- كل مرة أتحدث فيها إلى السيدة الجميلة ينفجر الصبي باكياً، حتى أدركت الرسالة ونأيت بنفسي؛ وراهبة إيطالية لها وجه إمبراطور روماني، وآثار شارب، إنريكو، أخ الراهبة، الذي احتل الآن أريكة دوفيل، وثلاثة رجال من الأثراك، الذين تمكنوا من النوم على أريكتين بطريقة ما؛ وطبيب من مدينة فيرونا.

حاول الطبيب، اختصاصي أورام- كان في طريقه إلى مؤتمر حول مرض السرطان في بلغراد- التودد إلى مونيكا، التي في محاولة منها للتخلص منه، جاءت به إلى مقصورة مولسورث سعياً للحصول على كأس من الشراب. كان الرجل عابساً حتى تحوّل الحوار إلى مرض السرطان، فهتف عندها على طريقة شخصية دكتور بنووي في رواية وليام بوروز: (مرض السرطان، حي الأول!)، فتحوّل إلى شخص أكثر وديّة، بينما كان يلخص الورقة التي كان بصدد تقديمها في المؤتمر. حاول جميعنا أن يكون ذكياً في ما يتعلق بمرض السرطان، ولكني لاحظت أنّ الدكتور يقرص ذراع مونيكا، ويشعر بأنّه ربما وجد أحد الأعراض ويخطط لفحص شامل أكثر. تمنيت لهم ليلة طيبة، وذهبت إلى الفراش لقراءة كتاب دوريت الصغيرة. وجدت بعض الإلهام في مقولة السيد ميغلز: " دائماً ما يبدأ المرء التصالح مع مكان ما حالما يتركه خلفه." بتردد تلك الفكرة في عقلي، استغرقت في نوم عميق مريح كنوم طفل في مهد هزاز عتيق الطراز، ومسافري الطرق الحديدية في عربات النوم.

في الصباح التالي، وبينما كنت أخلق، وأثير دهشة إنريكو بشفرتي الإلكترونية المحمولة كما فعلت مع دوفيل، أصبحنا بمحازاة قطارٍ كان يحمل على جانبه لوحة مصقولة نُقشت عليها عبارة : Moskva-Beograd. توقف قطار الشرق السريع لتطلق وحدات الربط بين عرباته صريراً عالياً، فاندفع خارجاً من الباب. كانت هذه بلغراد، تلفت الانتباه إلى حقيقة الاختصارات:

السنتر وكوب، و Ateks [الأكل]، الراديو [Rad]، والكلمة التي أحببتها أنا [trans jug] أي الوعاء الناقل.

هنا في محطة بيلغراد، خطرت لي فكرة محاولة التصوير. وجدت مجموعة من الفلاحين اليوغسلافيين، ماما-زق، بابا-زق، والجدة-زق، والكثير من الزقاق الصغيرة؛ كان للرجال شوارب مستعارة، وارتدت إحدى النساء فستاناً من قماش الساتان الأزرق على بنطال رجالي؛ ارتدت الجدّة شالاً سابغاً ساتراً لكل جسمها عدا أنفها الكبير، كانت تحمل حقيبة غلاستون رثة. كانت أمتعتهم المتنوعة المبعثرة من الصناديق الكرتونية، والحقائب القماشية المحاكاة باتقان تُنقل عبر الطريق من رصيف إلى آخر. وكان أيّ من هذه الحزم ليتسبب في انحراف القطار عن خطه. المهاجرون في بيلغراد: صورة مؤثرة للعبثية. ركزت وكنت مستعداً لالتقاط الصورة، ولكني رأيت الجدّة من خلال عدستي تهمس للرجل، الذي كان يحرك يديه غضباً ويؤمّيء باتجاهي محدداً.

لاحت لي فرصة ممتازة أخرى في نقطة أبعد من الرصيف، وسار باتجاهي رجل يرتدي الزي الرسمي لمفتش الخطوط الحديدية، بقبعة مثالية الارتفاع، وكتفين معتدلين، وبنطال مضغوط بعناية. ولكن الرجل المثير للاهتمام، وصاحب الملامح الملائمة للتصوير كان يحمل فردة حذاء بكل من يديه، ويسير حافي القدمين، كانت قدماه عريضتين، بيضاوين وجليظتين كحبتين من اللفت. انتظرت حتى تجاوزني ثم نقرت على زر التصوير. ولكنه سمع صوت النقر، والتفت باتجاهي وهو يرفع الصوت بإساءة واضحة. بعد ذلك صرت أختلس الصور اختلاساً. رأني مولسورث وأنا جالس في الرصيف، وقال لي: "أعتقد أنّ عليّ الصعود إلى القطار. لم أعد أتق بهذا القطار مطلقاً."

لكن كان الجميع على الرصيف في الحقيقة جميع الأرصفة في محطة بيلغراد كانت تعجّ بالمسافرين، تاركين لي صورة لا تنسى لبيلغراد باعتبارها المحطة الأخيرة، حيث ينتظر الناس قطارات لن تجيء، مراقبين القاطرات في حركتها اللانهائية. ولفتّ انتباه مولسورث لهذا المشهد. فقال: "إنني اعتبر الأمر الآن نوعاً من "الدوفاة" (مشيراً لما حدث لدوفيل)، لا أريد أن "أندوفل"!". وصعد إلى العربة 99 هاتفاً: "احذر أن تندوفل!". تركنا المحصل الإيطالي في مدينة البندقية، وفي بيلغراد تم استبدال المحصل اليوغسلافي بآخر بلغاري.

قال البلغاري بينما كان يتناول جواز سفري: "أمريكي؟" فأخبرته بأنني كذلك.

فقال: "Agnew" وأوماً: "هل تعرف Agnew؟"

ابتسم. "إنّه في حال سيئة؟"

مولسورث، كان عملياً، وقال: "أنت المحصل أليس كذلك؟"

نقر البلغاري بكعبيه، وانحنى انحناء خفيفة.

"رائع، الآن ما أريد منك فعله هو تنظيف هذه الزجاجات." وأشار إلى أرضية مقصورته، حيث

ربضت كومة من زجاجات النبيذ. فتكلّف البلغاري الابتسام وهو يقول: "الفارغة؟"

"صحيح جداً. نظرة صائبة. استمر.)

قال مولهسورث وانضم إلي بجانب النافذة.

كانت ضواحي بيلغراد مورقة ومبهجة، وبينما الشمس تتجه إلى كبد السماء، وقت مغادرتنا المحطة، وضع العمال الذين مررنا بهم أدواتهم أرضاً وتوزعوا على المناطق الظليلة بمحاذاة طريق القطار، واضعين رجلاً على رجلٍ يتناولون وجبة الغداء.

كان القطار بطيئاً في حركته، وبوسع المرء أن يرى أطباق الملفوف الطري، ويحصي حبات الزيتون السوداء في الأطباق المثلثة. تمرر مجموعات الأكلين هذه أرغفة الخبز بمقاس كرة القدم، وتقطعها إلى قطع صغيرة تعبىء بها الأطباق.

قابلت في مرحلة متقدمة من رحلتي- في حانة السفينة الروسية في بحر اليابان، عندما كنت في طريقي من محطة الخطوط الحديدية اليابانية إلى السوفيتية، والذي يبدأ في ناخودكا - أحد الظرفاء اليوغسلاف، اسمه نيكولا، قال لي: " لدينا ثلاثة أشياء في يوغسلافيا، الحرية، والنساء والشراب."

فقلت: " لكن الثلاثة جميعها في الوقت ذاته؟ أمأكد؟" آملاً ألا يعد سؤالي إساءة. إذ كنت في ذلك الوقت مصاباً بدوار البحر، ونسيت يوغسلافيا، ظهيرة طويلة في أحد أيام شهر سبتمبر أمضيتها على القطار من بيلغراد إلى ديميتروفغارد، جالساً في مقعد بالزاوية، رفقة زوجة مليئة بالنبيذ، وجليوني، وأصوّر بدقة.

كانت هنالك نساء، ولكنهن كبيرات السن، يرتدين الشالات وقاية من أشعة الشمس، ملتصقات بأباريق سقي في حقول الذرة المسحوقة. كان المنظر منخفضاً وغير مستوٍ، وفي غباره عزاء بالكاد لبعض حيوانات المزارع. ربما خمس بقرات ساكنات، وراع يتكئ على عصاه، يراقبهن وهن يتضورن جوعاً، كانت الفزاعتان- حقيبتيّ بلاستيك على صليب رقيق- تحرسان حقول الفلفل الأخضر والملفوف المحطمة. ووراء صف من الملفوف الأزرق، خنزير وردي نطح سياج حظيرته المكسّر، وبقرة تستلقي تحت مرمى الشتلات في ملعب كرة قدم مهجور. الفلفل الأحمر كالقرمز، حاد كأوراق البونسيتا، جف تحت أشعة الشمس خارج مساكن المزارع في أحياء انطوت فيها الزراعة على رجال يتعثرون وراء الثيران التي تجرّ محاريث الخشب، والمسالف، أو يتأرجحون من حين إلى آخر في دراجات محملة بحزم القش. لم يكن الرعاة مجرد رعاة؛ بل كانوا حراس يحمون القطعان الصغيرة من اللصوص. امرأة تراقب أربع بقرات، ورجل يحمل هراوة يقود ثلاثة خنازير رمادية، أطفال هزيلون يراقبون دجاجات هزيلة. كان تعريف نيكولا: الحرية والنساء والخمر، وكانت هنالك امرأة في حقل تقف لتقرب قارورة مياه من فمها، شربت وانحنيت لتواصل ربط سيقان الذرة.

كان القرع الأصفر الكبير يرقد رياناً في حقل عنبٍ ذابل، يشغل الناس المضخات، ويؤرجحون الدلاء خارج الآبار عبر أعمدة طويلة؛ حزم طويلة ضيقة من القش، وحقول الفلفل في مختلف مراحل النضج. خلتها المرة الأولى حدائق للزهور. إنه شعور من الهدوء التام، والعزلة الريفية العميقة التي يكسرهما القطار لوقت وجيز.

هكذا تمضي أوقات الظهيرة في يوغسلافيا، بدون تغيير لساعات. ثم يختفي الناس جميعهم، والتأثير جد عجيب: الطرق خالية من السيارات أو الدراجات، الأكواخ ذات النوافذ الجوفاء على حواف المزارع، الأشجار مثقلة بثمار التفاح، وليس ثمة من يقطعها. ربما كان التوقيت غير

مناسب- 3:30، ربما كان الطقس حاراً جداً. ولكن أين الأشخاص الذين حزموا ذلك القش، ونشروا ثمار الفلفل بعناية فائقة لتجف؟

يمر القطار- هذا هو جمال القطار، هذه الحركة الدؤوب- ولكنه يجتاز المزيد من المشاهد المشابهة. ستة مناحل منظمة، محرك بخاري مهجور، تكلل الزهور البرية مدخنته، ثور يقف على نقطة لعبور الطريق. في غمرة حرّ الظهيرة ازداد الغبار بمقصورتني، وفي الأسفل، في مقدمة القطار استسلم الأتراك جميعهم في المقاعد للنوم بأفواه مفتوحة، بينما ظل أطفالهم يقظين على حجورهم. وعند كل نهر وكل جسر كان هناك موقع من الطوب المربع، مثل النسخ الكرواتية لأبراج مارتيلو، وقد ثقيتها القذائف. ثم رأيت رجلاً بلا رأس، منحنيًا في أحد الحقول، متوارياً بين سيقان الذرة، والتي كانت أطول منه، تساءلت عما إذا كنت لم أر الآخرين بسبب صغر أحجامهم الشديد مقارنة بمحصولاتهم.

كانت هناك دراما أمام مدينة نيش. على طريق بالقرب من طريق القطار تقاطلت مجموعة من الأشخاص على النظر إلى حصان، ما زال في مكانه، ومثبت إلى عربة محملة بإفراط، مسجي ميتاً على جانبه، في بركة من الطين يبدو أنّ العربة كانت عالقة فيها. تخيلت قلبه قد انفجر عندما كان يحاول جاهداً تحرير العربة. وقد حدث: كان الأطفال يتنادون، ويرمي رجل بدراجته، ويركض للخلف ليلقي نظرة، وعلى البعد رجلٌ يتبول مقابل سياج، وهو يناضل كي يرى الحصان. تألف المشهد مثل لوحة فلمنكية، يجسد الرجل المتبول فيها تفصيلاً مفعمة بالحياة.

القطار، يطلّ المشهد من إطار النافذة للحظات، تبدأ صورة. الرجل عند السياج ينفذ آخر قطرة عن قضيبه، ويدسه داخل بنطاله الواسع، ثم يبدأ الركض، فتكتمل الصورة. قال مولسورث: " أكره مشاهدة المواقع السياحية." كنا بجانب نافذة الممر، وقد تعرضت لتوي للتوبيخ من قبل الشرطي اليوغسلافي بسبب صورة القاطرة البخارية تلك، في شمس آخر الظهيرة، والغبار الذي أثاره آلاف الركاب بعبورهم خطوط السكة الحديد، ليقفوا وسط تصاعد مدهش للأبخرة الزرقاء، المختلطة بسحب من حشرات الناموس الذهبية. والآن صرنا في مضيق وعر خارج مدينة نيش، على الطريق إلى ديميتروفغراد، ترتفع الجروف مع تقدمنا، وتكتسب أشكالاً هندسية بين الحين والآخر، مثل أطلال من الأعمال الحجرية العبقريّة في أسوار قلعة محطمة.

يبدو أنّ مرأى هذه المشاهد يتعب مولسورث، وأخاله شعر بالحاجة للتعبير عن إرهاقه. "آه، يتسكع ذاك في الأرجاء بكتبته الإرشادية،" وأردف قائلاً: " التي تحتوي على التماسيح الرهيبة للسياح، وداخل وخارج الكنائس، والمتاحف، والمساجد. لا، لا. أنا أحبّ البقاء في مكاني فحسب، وأجد كرسياً مريحاً. هل تفهم ما أعني؟ أحب أن أتشرب البلد."

كان يشرب. كان كلانا يشرب، ولكنه جعل الشراب زاده ميلاً إلى التأمل، وزادني جوعاً. لم أكل طوال اليوم سوى كعكة جبن في بيلغراد، وعلبة من البسكويت، وتفاحة حامضة.

لم يمنحني مشهد بلغاريا بمنازلها المتداعية وشياهاها الهزيلة أملاً في وجبة طيبة بمحطة صوفيا. أجبر عدد من الأشخاص على النزول من القطار لدى بلدة دراغومان- المخيف اسمها- بسبب عدم حصولهم على جرعة التطعيم من مرض الكوليرا، بما في ذلك عدد من ركاب العربة رقم 99.



يقول البلغاريون إنها ضربت إيطاليا. وجدت المحصل البلغاري وطلبت منه أن يصف لي وجبة بلغارية نموذجية. ثم كتبت الكلمات البلغارية للطيبات التي ذكرها: الجبن، البطاطا، الخبز، السجق، السلطة مع حبوب الفاصولياء، وما إلى ذلك. وأكد لي وجود طعام في محطة صوفيا. " هذا قطار بطيء للغاية،" قال مولسورث بينما كان قطار الشرق المباشر يشقّ الظلام. نرى هنا وهناك، مصباحاً بضوء أصفر، أو ناراً من على البعد، وضوءاً في كوخ على مسافة بعيدة، حيث يرى منها بالكاد، يمكن رؤية مشرف المحطة على بعد خمس خطوات من كوخه، رافعاً رايته للقطار المتباطيء. عرضت لمولسورث قائمتي للأطعمة البلغارية، وأخبرته أنني عازم على شراء ماهو متاح في محطة صوفيا. ستكون آخر ليلة لنا على قطار الشرق المباشر. نستحق وجبة شهية.

" ستكون قائمة مفيدة جداً،" قال مولسورث. " الآن، ماذا ستفعل بخصوص المال؟" " ليس لدي أدنى فكرة." قلت أنا. "إنهم يستخدمون الليف هنا، كما تعلم، ولكن المشكلة تكمن في عجزني عن إيجاد سعر له. يقول مدير مصرفي إنها واحدة من أكثر العملات ضعفاً. أما أنا فلم أكن أراها نقوداً حقيقية على الإطلاق، قطعة من الورق فحسب." من طريقة حديثه، استطعت أن أدرك أنه ليس جائعاً. استطرد مولسورث: " دائماً ما كنت استخدم البلاستيك، البلاستيك مفيد جداً." "البلاستيك؟" "حسناً، تلك الأشياء." وضع مشروبه جانباً، وأخذ مجموعة من بطاقات الائتمان، وخطها، ثم قرأ أسماءها.

" هل تعتقد أنّ بطاقات باركلي قد وصلت بلغاريا؟" "لنأمل ذلك، ولكن إن لم تفعل، فقد تبقت لدي بعض الليرات." كانت الساعة الحادية عشر ليلاً عندما وصلنا إلى محطة صوفيا، وبينما قفزنا أنا ومولسورث من القطار، أخبرنا المحصل أن نسرع: " خمس عشرة دقيقة، ربما عشر." "لقد قلت من قبل إنّ لدينا نصف ساعة." "ولكننا متأخرون الآن. لا تتحدث. اسرع!"

سرنا بسرعة على الرصيف بحثاً عن الطعام. كان هناك مطعم به أشخاص يزدهمون أمام طاولة الاستقبال، ثم لا شيء آخر عدا، في الطرف الأقصى من الرصيف، رجل بعربة يدوية معدنية يتصاعد منها البخار. كان أصلع الرأس، وقد حمل حقيبة ورقية صغيرة في يده، وطفق بالأخرى يفتح عدداً من أوعية عربته، وغرز سكينه في كعكات بيضاء وحمراء، والسجق الذي تقطرت عصارته، وبعض الموز، ولحم وردي يظهر بالكاد بين الأجساد المتراخمة. ثمة ثلاثة عملاء قبلنا. لبي طلباتهم في روية، وهو يزوج بالأقراص والنفاق داخل العبوات بشوكتة التي تتحرك بلا كلل. وعندما جاء دوري، رفعت له إصبعين، وغيّرت رأيي، فعزّزتهما بثالث. فعباً لي ثلاثة من كلّ. "الطلب ذاته مجدداً" قال مولسورث وناولته ورقة نقدية من فئة 1000 ليرة. قال الرجل: "لا، لا" دافعاً دولاري بعيداً وفي الوقت ذاته أخذ علّبتني ووضعها في عربته اليدوية.

فقال مولسورث: "إنّه لن يقبل نقودنا."

قال الرجل: "بانكا، بانكا".

"إنّه يريدنا أن نحصل على الصرف."

"هذا دولار، خذه كله." قلت له.

فقال مولسورث: "لن يأخذه، أين بنككم؟"

أشار الرجل الأصيل إلى المحطة. فركضنا إلى حيث كان يشير بأصبعه، ووجدنا كشك صرّاف. حيث اصطف مجموعة من الناس يمسون بقطعة ورق، ويركلون أمتعتهم إلى الأمام بينما يتقدم الصف ببطء.

"أعتقد أنّ علينا التخلي عن هذه المهمة التعسة." قال مولسورث.

"إنّي أموت رغبة في واحدة من هذه النقانق."

"مالم تكن تريد أن تتدوّل فعليك العودة إلى القطار. وأعتقد أنّي مضطر لذلك."

عدنا، وعقب ذلك بدقائق انطلقت الصافرة، وغابت صوفيا في جنح ليل بلغاريا.

عندما رأنا إنريكو ونحن نعود بخفي حنين، أتانا ببعض المقرمشات من أخته، الراهبة، وقدمها لنا، وكذلك السيدة الأرمينية منحتنا بعض الجبن، وجلست معنا كما شاركتنا الشراب، حتى مر بنا ابنها مرتدياً طقمه البيتي. وقع نظره على أمه تضحك، فانفجر باكياً. قالت هي: "سأمضي الآن." وغادرت.

ذهبت مونيكاً للنوم، وتبعها إنريكو. كانت العربة 99 تغط في النوم، لكننا كنا نستعيد نشاطنا. "حالتنا ليس سيئاً"، قال مولسورث وهو يقطع الجبن إلى شرائح. "لدينا زجاجتا نبيذ بعد- هذا هو كنزنا- وما زال لدينا في زجاجة الأورفيتو باقي الجبن والبسكويت. لنسمّه عشاء متأخراً." ظللنا نشرب، وكان مولسورث يتحدث عن الهند، كيف خرج للمرة الأولى على باخرة لشركة P Amp، وأوشن لاينر، مع آلاف من الرجال المجندين، وعمال المناجم العتاة من حقول فحم دورهام.

كان لدى مولسورث ورفاقه من الضباط الكثير من الشراب، ولكن الرتب الصغيرة كانت ترابط في أماكنها. نفذت الجعة بعد شهر من الزمان. كانت هناك مشاجرات، وثار الرجال، "بحلول وقت وصولنا إلى بومباي كان معظمهم مقيداً في أغلاله. ولكنني حصلت على دبورة إضافية على كتفي لحسن السلوك."

"هذه هي الفكرة"، قال مولسورث. كان القطار يسابق الريح، وكان هو ينزع سداة الزجاجاة الأخيرة. "إنّها في العادة قاعدة جيدة لاحتساء نبيذ البلد الذي تمر به." ألقى نظرة من النافذة على العتمة في الخارج. "أفترض أننا ما زلنا في بلغاريا. يا للأسف."

كلاب رمادية ضخمة، سبعة منها، برية على الأرجح، تركض عبر المنحدرات الوعرة لشمال غرب تركيا، وتنبح على القطار. لقد أيقظتني في مدينة تراقيا، والتي يدعوها ناجل "أكثر افتقاراً للجاذبية"، وعندما خفت الكلاب البرية سرعتها، وتركها القطار الهارب خلفه، لم يعد هناك ما يستحق المشاهدة ما عدا رتبة الهضاب المنخفضة التي لا تخلو من كآبة. اللافتات العسكرية التي

تظهر من وقت لآخر، زاد من وطأة الكآبة مشهد الرجال الذين يغرفون الشمندر السكري المغلف بالوحل ويضعونه في قوادر فولاذية، وغياب الأشجار. لم أستطع تحمّل هذه الهضاب الجرداء. كانت أدرنة (أدرينبول) إلى الشمال، واسطنبول ما زالت على بعد أربع ساعات؛ ولكننا سافرنا عبر المنحدرات لا نتوقف إلا في المحطات الصغيرة، رحلة غير مهمة، في أراضٍ قاحلة: عديمة الملامح: هي الصفة الوحيدة التي تليق بالمنحدرات، وبقول ذلك، وإضافة ظلٍ بنيٍّ للوحة، لم يعد هناك ما يقال. ثم ظللت بالقرب من النافذة، آملاً في شيء يثير دهشتي. مررنا بمحطة أخرى. حاولت العثور على تفصيلة بين أرجائها، ولم تكن سوى نسخة مطابقة للمحطات الخمسين السابقة، وهذا التكرار أبقاها بعيدة عن التركيز. ولكن جاءت بعدها حديقة صغيرة، وبالقرب منها ثلاثة ديوك رومية، تتحرك مثل ما تفعل الطيور في ضجة صاخبة. "انظر!" ها قد رآها مولسورث. فأومأْتُ إيجاباً.

"الديوك الرومية في بلاد الروم" وتعجّب قائلاً: "أتساءل إن كان هذا هو السبب في تسميتها- لكن الأمر ليس كذلك. فقد جاء اسم هذه الدواجن من طيور تعيش في غينيا الأفريقية، يتم استيرادها عبر اسطنبول، كانت تسمى الديوك الرومية. ناقشنا هذا الأمر مع كأس الصباح في مدى ساعة أو اثنتين، وقد ذهلت، بالنسبة لرجل متزوج وله أطفال، لقد شرعت في مغامرة بلا هدف، وخمول يلزم متعة السفر لذاتها. صار القطار الكبير السريع من باريس مثيراً للشكوك، وانزعاج المحليين حالما وصل ضواحي اسطنبول، متوقفاً في كل محطة ليمنح المحصلين فرصة للهرج بدفاترهم في تقاطعات النسخة التركية لكافلام سكيرديل.

على ميمنة القطار كان بحر مرمرة، حيث سفن الشحن بهياكلها الصدئة، وزوارق الصيد بأشكالها التي تحاكي السيوف المعقوفة تحيط بها السفن الصغيرة في المياه المتألئة. وعلى اليسار تمر الضواحي، وتتغير كل خمسين متراً: مستعمرات من الخيام المبعثرة، وقد أفسحت قرى الصيادين المجال للمباني ذات الشقق العالية، والأكشاك في الأسفل، ثم قرية شيدت أكواخها على نتوء صخري، والمساكن الصغيرة في السهل، وصَفُ بيوت خشبية مختلفة الأحجام تنحدر بشدة من الجرف- أسلوب في البناء (الساقط، بلا طلاء، والمنازل ثلاثية الطبقات) مفضلٌ في سمر فيل، وماساتشوستينس، وأسطنبول أيضاً. يتطلب الأمر وقتاً لإدراك أن ما تعبر عنه هذه الاختلافات الحادة في أساليب البناء ليس الطبقات الاجتماعية، بل القرون، حيث يمثل كل أسلوب حقبة زمنية معينة. كانت اسطنبول مدينة عمرها سبعة وعشرين قرناً، تزداد رسوخاً وصلابة مع الزمن (من الرمل للخشب، ومن الخشب للطوب، ومن الطوب للحجر) مع اقترابك من سيراغليو. تبدأ مدينة اسطنبول عندما يجتاز القطار سور المدينة من البوابة الذهبية، قوس نصر ثيودوسيوس- المبني في عام 380 ولكنه لا يظهر أكثر تفسّخاً من حبال الغسيل التركية التي تتأرجح في قاعدته. هنا ولسبب غير واضح، زاد القطار من سرعته وانطلق باتجاه الشرق متجاوزاً مداخن اسطنبول، والمسجد الأزرق، وقصر توبكابي، ثم ينعطف إلى القرن الذهبي. لا تشبه محطة سيركيتشي اختها

هايدار باسا في شيء، تقع على الضفة الأخرى من مضيق البسفور، ولكنها أقرب إلى ساحة إميندو العامرة، وواحد من أجمل المساجد في المدينة، يني فاليدي كامى، بدون ذكر غلاطا الذي يستوعب كل مجتمع الباعة، وأكشاك الأسماك، والمتاجر، والمطاعم، والنشالين المتنكرين على هيئة باعة وتجار، مما يعطي المسافر لدى وصوله إلى اسطنبول على متن قطار الشرق السريع المباشر صدمة مركبة وإثارة الإلقاء به منكباً على وجهه في "المولد". "يبدو كل شيء جامحاً وفضاً، لكنه سيروق لي على ما أظن." قال مولسورث ولكن وهو يبتسم.

كان منطلقاً صوب قرية الصيد غالية الثمن في طربيا. أعطاني رقم تيلفونه وشجعني على الاتصال به إن شعرت بالملل. ما زلنا على رصيف سيركشي. انتقل مولسورث إلى القطار. "علي أن أقول إنني لست حزينا لمفارقة ذلك القطار. ماذا عنك؟"

ولكنه قالها في نبرة إعزاز شديد، وعندما يصف امريء نفسه بالجنون فهذا يعني العكس في الحقيقة.

النظر إلى صورتك في مرآة مذهبة الأطراف طولها عشرة أقدام في فندق قصر بيررا في اسطنبول؛ يضعك للحظة في رحاب المجد، وفرحة أن يرى المرء وجهه في صورة أمير. الزينة في خلفية الصورة عنوان للبذخ البالي، وفدان من السجاد المخملي، والألواح السوداء، والزخارف الركوكية على الجدران والأسقف، حيث تبتسم تماثيل كيوبيد بصبر وبلا نهاية.

تتدلى الثريات المعقدة التشكيل، مثل أجراس ريح عملاقة من الكريستال، ومن وراء الأعمدة الرخامية وأصص شجيرات النخيل، لوح من خشب المهوغني معلقة عليه نسخ رائعة من لوحات فرنسية متواضعة.

يدير هذا القصر - الذي لا يشي مظهره الخارجي بأي نوع من الفخامة أكثر ما لمصرف شارلستون للإدخار في مدينة بوسطن - رجال ضئيلو الأجسام داكنو البشرة إن نظرت إليهم خلّتهم من أسرة واحدة وإن فرقت بينهم في العمر أجيال. ترسم تحت شارب كل منهم ابتسامة مهذبة بينما يقدمون إجاباتهم باللغة الفرنسية على الأسئلة التي تُطرح عليهم باللغة الإنجليزية.

لحسن الحظ فإنّ الفندق مؤسسة خيرية، بناءً على رغبة المالك الأخير، وهو من رجال البر الأتراك: حيث تتحسن أحوال الكثير من الفقراء الأتراك بفضل إنفاقكم الأميري بسخاء على ما تشتهييه أنفسكم.

انقضى أول يوم لي في المدينة وأنا أتمشى بهوس، كرجل تحرر فجأة من ضيق الأسر الطويل. الخسارة الوحيدة التي يلحقها القطار بمشأئي مثلي، هي هذا الحرمان من نعمة التنزه. وبينما تمضي الأيام أزداد بطلاً، وفي يدي دليل تركيا لناجل، بدأت مشاهدة المعالم السياحية، وهو نشاط يبهج العاطل فعلاً، لأنّه يبدو كمنحة دراسية، يحدّق، ويصغي السمع لثقافات العصور القديمة، مطرباً النفس بفكرة استكشاف الماضي عندما يعيد المرء ابتكاره حقاً، مستخدماً دليلاً سياحياً كسيناريو للتدوين السريع. ولكن كيف ينبغي للمرء أن يرى اسطنبول؟

يقترح غوين ويليامز في كتابه [تركيا: التاريخ و دليل المسافرين] الآتي:  
يوم للأسوار والتحصينات، وبضعة أيام في تتبع قنوات المياه وخزاناتها داخل وخارج المدينة. وأسبوع للقصور، وآخر للمتاحف، ويوم للأعمدة والأبراج، وأسابيع للكنائس والمساجد...

وربما تكون تمضية أيام في الأضرحة والأديرة وزينة الموت أكثر كآبة من المتوقع. وبعد تلك الغزوات المرهقة حتى الموت، ناهيك عن الزينة، سيبدو من الضعف بمكان. على أية حال لدي قطار لألحق به، لذلك زرت بعض الأماكن وأقنعت نفسي بأنه هذه مدينة ستسرنني العودة إليها مجدداً. في حريم توبكابي أروني مقار الأغوات السود. خارج كل زنزانة مجموعة من أدوات التعذيب المختلفة، آلات نزع الأظافر، والجلد بالسياط، وما إليها. ولكن العقوبات بحسب المرشدة، لم تكن دائماً واضحة. ألححت عليها للحصول على بعض الأمثلة.

"لقد كانوا يعلقونهم في الأعلى ويضربونهم على الأقدام" قالت هي.

التفت الرجل الفرنسي نحوي وسألني، "هل تتحدث الإنجليزية؟" يعني الفتاة.

لقد كانت تتحدث الإنجليزية والألمانية أيضاً ولكنها أضفت على اللغتين إيقاعات وقلقلة مما تتسم به الحروف التركية.

لم يبدُ أنَّ هنالك من يمانع هذا الأمر، على أية حال ومعظم الناس يخلطون ذات اليمين وذات الشمال، قائلاً، "هل لك في واحدة من هذه؟" في غرفة الجواهر تتطلب الملاحظة مفارقة عجيبة بما أنَّ الجواهر على الخناجر والسيوف مزيفة، إذ سرقت الحقيقية قبل سنوات. تكلفة السفر بالطيران إلى اسطنبول قد تشتري بلا شك كامل كنز توبكابي، إلا أنَّ الأتراك يصرون لأسباب وطنية على أنَّ قطع الزمرد في حجم البيضة هذه أصلية، تماماً كما يصرون على أنَّ أثر قدم محمد في المتحف المقدس في الجزء المقابل من الفناء هي أثر قدم النبي حقاً. إن كانت كذلك فربما كان العربي الوحيد في التاريخ الذي يرتدي مقاس 14 ثلاثي الهاء، يالها من فضيحة."

الأغرب من هذا ولكن أكثر منه صدقاً، هو قصة الفسيفساء في الجزء العلوي من بهو القديسة صوفيا، والذي يصور الإمبراطورة زوي (1050-980) وزوجها الثالث قسطنطين مونوماخوس. يتسم وجه قسطنطين بميزة تجعله كمن يرتدي قناعاً، مثل جيرترود شتاين في لوحة بيكاسو الشهيرة. في الحقيقة وضع وجه قسطنطين على هذه الفسيفساء بعد زوج زوي الأول، رومانوس الثالث، الذي توفي أو نُفي. ولكن أفضل قطع الفسيفساء لم تكن في الكنائس الكبرى أو مساجد وسط اسطنبول. إنها في مبنى صغير متحلل، تعلو الأوساخ جدرانها يدعى الكاري كامي في ضواحي المدينة. وهنا تتميز الفسيفساء بالحيوية والإنسانية، وملايين البلاطات الصغيرة تعمل معاً كضربات الريشة: المسيح يبدو كأنه يتنفس، والعذراء في إحدى الجصيات تشبه فيرجينيا وولف تماماً.

في تلك الظهيرة، وأنا في توق لإلقاء نظرة على الجزء الآسيوي من مدينة اسطنبول، استعددت لشراء تذكرة قطار إلى طهران. وركبت العبارة للضفة الأخرى من مضيق البسفور إلى هيدرباسا، تفاجأت بهدوء البحر على غير العادة. وكنت أظن- كوني قرأت رواية دون جوان- أنه سيكون هائجاً:

ليس ثمة بحر قد يلجه مسافر قط، أشد في خطورة أمواجه من البحر الأسود.  
ولكن هذا البحر على مسافة بعيدة من البسفور.

كان البحر هنا صفحة مرآة صافية، وتنعكس عليها صورة محطة هيدر باسا، وهي مبنى أوربي قاتم اللون جداً ذو ساعة وبرجين مسننين.

تمثل هذه المحطة بوابة غريبة للدخول إلى آسيا. بنيت في عام 1909 من تصميمات لمهندس معمار ألماني كان يفترض على ما يبدو أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تصبح تركيا جزءاً من الامبراطورية الألمانية، حيث يأكل الناس الخاضعون النقانق بتفانٍ في محطات كهذه. من الواضح أنّ النية كانت وضع مبنى يمكن تعليق صورة قيصر فيه ولا تبدو في غير مكانها الملائم.

قلت للفتاة التي تجلس في الاستقبال وأنا أنظر إلى كتيب العبارات لعلي أظفر ببعض الشجاعة: "

"Teheran gitmek ichin hit bilet istyorum,

فقلت بلغة إنجليزية: "نحن لا نبيع التذاكر أيام الأحاد، عد غداً."

ولأنني كنت على الجانب الأيمن من البسفور، سرت من المحطة إلى ثكنات سليمي، حيث قامت فلورنس نايتنجيل بتمريض الجنود أثناء الحرب الكريمية. سألت الحارس الإذن بالدخول فقال: "نايتنجيل؟" فأومت مجيباً. قال إنّ غرفتها مغلقة أيام الأحاد وأرشدني إلى الدير في أوزكيدار، أكبر أديرة اسطنبول.

في طريقي إلى أوزكيدار أدركت ما كان يزعجني في تركيا حتى ذلك الوقت. كان والد الأتراك، وهو ما يعنيه لقبه، مصطفى كمال أتاتورك، وفي كل مكان يقصده الإنسان في تركيا يرى صورته ولوحاته وتماثيله. صورته تحتل اللافتات، وطوابع البريد، والعملات النقدية- الصورة الجانبية العابسة ذاتها. حملت اسمه الشوارع والساحات والمباني ويدخل اسمه تقريباً في كل حوار قد يجريه المرء في البلاد. أصبح الوجه شعاراً للدولة.

يشبه في الشكل نجماً برؤوس منحنية، مع ما يشير إلى الأنف والذقن، وقوي كتلك الشخصية المجردة التي يستخدمها الصينيون لطرد الشياطين وإخافتهم.

جاء أتاتورك للسلطة في 1923، وأعلن النظام الجمهوري في تركيا، وبمناسبة التحديث أغلق جميع المدارس الدينية، وحلّ الرتب الصوفية، وعزّف بالأبجدية اللاتينية، والقانون المدني السويسري. وتوفي في عام 1938، وكان هذا رأيي: توقف التحديث في تركيا بوفاة أتاتورك في التاسعة وخمس دقائق، اليوم العاشر من شهر نوفمبر عام 1938.

والغرفة التي توفي فيها تركت كما هي، كأنها برهان على ذلك، وقد أشارت كل الساعات في القصر إلى الساعة التاسعة وخمسة ودقائق.

ويبدو أنّ هذا الأمر يفسّر أيضاً السبب الذي يجعل الأتراك يرتدون ملابسهم كما كانوا يفعلون عام 1938، معاطف فرو بنية، وجوارب أرجيلية، وبناطيل مخططة واسعة، وبزّات زرقاء مبطنة عند الأكثاف، وتلابيب مرفرفة مثل الأجنحة، ومنديل بثلاث طيات مدببة في جيب الصدر. شعرهم مموج بكريم الشعر بريلينتاين، وشواربهم مصفوفة بالشمع. الحافة الدنيا لتتورات الجبردين البنية التي ترتديها النساء عادةً تصل إلى ما تحت الركبة ببوصتين. إنّها حادثة ما بعد الحرب، ولن تبحث طويلاً قبل أن تقع عينك على موديلات عام 1938 من سيارات باكارد، ودودج، وبونتياك تنهادي في الشوارع والتي شهدت آخر توسعة لها عند ظهور هذه الموديلات.

تعرض متاجر الأثاث باسطنبول آخر تصميماتها في من النوافذ- كراسي جلوس مربعة قوية التنجيد، وأرائك مسمارية الأرجل.

كل هذا يقود إلى حقيقة لا مفر منها، وهي إن كانت الأناقة العثمانية قد بلغت أوجها في القرن السادس عشر أثناء حكم سليمان العظيم، فإن العلامة المائية للحدث كانت عام 1938، عندما كان أتاتورك يعيد تشكيل الأزياء التركية على التصميمات الغربية المحافظة.

"لم؟ هذا ذكاء منك شديد"

قال مولسورث، عندما اتصلت به لأشرح له هذا الأمر. ثم قام بتغيير الموضوع. لقد كان يستمتع بوقته في طريبه، وطقسها المثالي. " تعال لتناول وجبة الغداء، سوف يكلفك التاكسي الكثير، لكن أعددك بأنك ستحصل على نبيذ فائق الجودة.

إنه يدعى إما كانكيا، أو أنكيا. قوي، وأبيض، بلمعة طفيفة من اللون القرمزي، ولكنه ليس وردياً بالتأكيد، لأنني أكره هذا اللون، وقد كان سائغاً جداً في الحقيقة."

لم أستطع مقابلة مولسورث على الغداء. كان لدي ارتباط مسبق، وهو التزامي الوحيد في اسطنبول، محاضرة على وجبة الغداء قام بتنظيمها رجل خدوم من السفارة الأمريكية. لم أستطع إلغاءها: كان علي سداد فاتورة الفندق. عليه ذهبت إلى غرفة المؤتمرات حيث كان حوالي العشرين تركياً يحتسون شراب ما قبل المحاضرة؛ وقيل لي إنهم شعراء، وكتاب مسرحيون وروائيون، وأكاديميون. كان أول من تحدثت إليه رجل هو الأكثر عجرفة، رئيس اتحاد الأدباء الأتراك، السيد إركومينا بهجت لاف، وهو اسم واجهتني صعوبة في تذكر كيفية نطقه. لقد كانت له نظرة شهرة زائفة- وشعر أبيض، وقدمان صغيرتان، ونظرة تشعّ حقداً وازدراء على نحو مفرط. كان يدخل بذلك النفور الواضح الذي يبديه من أوشكوا على الإقلاع عن عادة التدخين. فسألته عما كان يفعل. " يقول إنه لا يتحدث الإنجليزية." قالت السيدة نور، مترجمتي الحسنة. تحدث الرئيس وأشاح ببصره. " إنه يفضل الحديث بالتركية، إلا أنه سيتحدث إليك بالألمانية أو الإيطالية."

قلت: "Va bene, allora, parliamo in Italiano. Ma dove imparava questa lingua?"

وجه الرئيس حديثه إلى السيدة نور باللغة التركية.

"هو يقول، " هل تتحدث الألمانية؟""

"لست أتقنها."

قال الرئيس شيئاً آخر.

"سوف يتحدث التركية."

"أسأله عن عمله. هل هو كاتب؟"

"هذا،" كان الرجل يتحدث مستعنياً بالسيدة نور- "سؤال غير ذي معنى على الإطلاق. لا أحد يستطيع أن يقول في كلمات قلائل ماذا فعل أو من يكون. يتطلب الأمر شهوراً، وفي بعض الأحيان أعواماً.

أستطيع أن أخبرك باسمي. أما الباقي فعليك اكتشافه بنفسك."

" أخبريه أنه عمل كثير جداً."

قلت هذا وسرت مبتعداً. دخلت في حوار مع رئيس قسم اللغة الإنجليزية في جامعة اسطنبول، الذي قدمني إلى زملائه. كان كلاهما يرتدي الصوف ويقف متأرجحاً على كعبيه، الطريقة التي يستوعب بها الأكاديميون الإنجليز الأعضاء الجدد في الغرفة المشتركة العليا. "إنه عجوز آخر من مواطني كامبردج"، قال المدير، وهو يصفع زميله على الظهر. "كليتي ذاتها. فيتزبيل".

"كلية فيتزويليام؟"

"لقد أصبت. بيد أنني لم أعد إليها منذ سنوات طويلة."

"ماذا تدرس؟" سألته.

"كل شيء من بيولف لفرجينيا وولف!"

بدا كما لو أن الجميع قد حفظ دوره عداي. وبينما كنت أفكر في رد، أحاطت بي ذراع، وسحبني بعيداً بقوة كبيرة. كان الرجل الذي يسحبني طويل القامة، وقويّ البنية، له رقبة ثور، وفكّ عريض. لا تكاد نظارته ذات الطلاء الشاحب تخفي عينه اليمنى، والتي كانت مطفاة مثل حبة العنب الذابلة. كان يتحدث بسرعة باللغة التركية بينما يجرنني إلى زاوية الغرفة. "

قالت السيدة نور محاولة مجاراتنا: " هو يقول، إنه كثيراً ما كان يقبض على الفتيات الجميلات والكتاب البارعين وأنه يريد التحدث إليك."

كان هذا هو يشار كمال، كاتب رواية محمد النحيل، الرواية التركية الوحيدة التي تذكرت أنني قرأتها. كان يعتقد أنه سينال جائزة نوبل للأدب منذ فترة طويلة. قال إنه عاد لتوه من زيارة للاتحاد السوفيتي حيث كان يحاضر مع صديقه عزيز نيسين. وقد خاطب الجماهير في موسكو، وليننغراد، وباكو، والماتات.

"قلت في محاضراتي الكثير من الأشياء الفظيعة! لقد كرهوني، وانزعجوا جداً. على سبيل المثال، قلت إن الواقعية الاشتراكية مناهضة للماركسية. وهذا ما أؤمن به. أنا ماركسي: أعلم ذلك. كلنا معشر الكتاب في الاتحاد السوفيتي باستثناء شولوخوف كنا مناهضين للماركسية. لم يرغبوا في سماع هذه الأمور المزعجة."

لقد أخبرتهم: " هل تريدون أن تعرفوا أعظم الكتاب الماركسيين؟" وعندها قلت: " ويليام فولكنر!" وكانوا في غاية الاستياء. نعم، شولوخوف كاتب عظيم، ولكن فولكنر كان ماركسياً عظيماً للغاية". قلت إنني لم أتصور أن فولكنر كان سيتفق معه. لقد تجاهلني ومضى في حديثه. " وأعظم كاتب كوميدي، جميعنا نعرفه بالطبع، مارك توين. ولكن يليه في العظمة عزيز نيسين. ولم أعتقد أنني أقول ذلك ببساطة لأنّ كلينا كان تركياً، أو لأنّه أعز أصدقائي."

ألف عزيز نيسين- الذي كان في الجانب المقابل من الغرفة يقضم في حزن حلوى الفولوفون التي قدمتها السفارة الفرنسية- ثمانية وخمسين كتاباً. معظمها مجموعات من القصص القصيرة. ويقال إنها بديعة جداً، لكن لم يُترجم أيّ منها للإنجليزية.

" ليس لدي شك في ذلك،" قال يشار. " عزيز نيسين كاتب كوميدي يفوق في عظمته أنطون تشيكوف!"

ونظر إلينا عزيز نيسين، عندما سمع اسمه، وابتسم في أسي.



قال يشار: " تعال إلى منزلي، " "سنذهب إلى السباحة، أها، ونأكل بعض السمك. سوف أخبرك القصة كاملة."

"كيف لي أن أعر على منزلك؟" سألت يشار يوم أمس. وقال: "سل أي طفل. لا يعرفني الكبار، ولكن جميع الصغار يعرفونني. فأنا أصنع لهم الطائرات الورقية." أخذت بكلامه، وعندما وصلت إلى المبنى السكني على ربوة فوق قرية للصيد على بحر مرمرة تدعى ميناكسي، سألت طفلاً صغيراً جداً عن الطريق إلى منزل يشار. فأشار إلى الطابق العلوي. كان في فوضى شقة يشار من تلك البعثة المريحة، والتكديس ما لا يراه غير كاتب آخر ضرباً من النظام. البعثة الكبيرة للأوراق والكتب التي يحيط بها الكاتب نفسه حتى تمنحه ثبات العش الحاني. وفي عدد من رفوف يشار توزعت نسخ من كتبه الخاصة في ثلاثين لغة، اضطلعت زوجته بالترجمات الانجليزية منها.

ثيلدا، التي حوى مكتبها الضيق إحدى النسخ الأقصر من قاموس أكسفورد الإنجليزي. أجرى يشار لتوه حواراً مع صحيفة سويدية. وأراني المقال، و على الرغم من أنني لم أقرأه، جذبت كلمة Nobelpreiskandidate عيني. وعلقت عليها. قالت ثيلدا: " نعم"، وهي التي ترجمت أسئلتي، وإجابات يشار، " إنه جائر. ولكنهم يشعرون أنه دور غراهام غرين."

قال يشار: " صديقي،" وهو يسمع اسم غرين. وضع يده المغطاة بالشعر على قلبه وهو يقولها. بدا لي أن لدى غراهام غرين الكثير من الأصدقاء على هذا الطريق. ولكن يشار عرف كتاباً آخرين، وكان يضرب على موضع القلب عندما يعددهم. ويليام صارويان كان صديقه، وكذلك إرسكين كالدويل، وأنغوس ويلسون، وروبرت غريفس، وجيمس بالدوين، الذي دعاه "جيمي". ذكرني بأن رواية "بلد آخر" قد كتبت في أحد قصور أسطنبول الفخمة. "لا أستطيع تحمّل السباحة"، قالت ثيلدا. إنها امرأة صبورة وذكية وتتحدث الإنجليزية بإتقان، لم أجرؤ على الإطراء عليها خشية ما قد تقوله، كما فعل ثيربير في ظرف مشابه. " كان علي أن أمضي أربعين عاماً في مدينة كولومبوس بأوهايو، أعالجها مثل كلب." تشرف ثيلدا على الجانب العملي من شؤونه، ومحادثاته، وتعاقباته، وإجابة خطابات، شارحة خطب يشار حول الجنة الاشتراكية التي يتصورها، تلك الرعية السوفيتية، حيث العمال يمتلكون وسائل الإنتاج، والأعمال الكاملة لفولكنر.

كان من سوء الحظ أن لم تأت ثيلدا للسباحة معنا لأنّ هذا يعني ثلاث ساعات من الحديث بلغة إنجليزية محدودة، وهو نشاط يعتبره يشار مرهقاً مثلماً أفعل قطعاً. سرنا ونحن نحمل أردية السباحة، عبر الهضبة المتربة حتى الشاطيء. أشار يشار إلى قرية الصيد قائلاً إنه كان يخطط لكتابة مجموعة من القصص من وحي الحياة هناك. وفي طريقنا قابلنا رجل ضئيل الحجم، راعش الجسد، حليق الرأس، يرتدي بزّة مجمدة على غرار موضة الثلاثينيات. هتف يشار محبباً إياه. وزحف إليه الرجل ليمسك بيد يشار محاولاً تقبيلها، إلا أن الأخير ثبت يده، وحول تعظيم الرجل لمصافحة بالأيدي. تحدثنا معاً لبرهة، ثم ربت يشار على ظهر الرجل وودعه ليبتعد مترنحاً. " اسمه أحمد" قال يشار. ووضع إبهامه في فمه، ويميل كفه. " إنه ثمل."

بدلنا ملابسنا في نادي السباحة حيث كان بعض الرجال يتشمسون. تحديته في سباق داخل الماء. وفاز به بكل سهولة، ونثر علي الماء، بينما كنت أحاول جاهداً اللحاق به. بدا في اليوم السابق كالثور، ولكنه الآن يسبح، ويثير بجسمه الزبد في الماء بذراعيه، يتحرك كما لو كان وحشاً بحرياً ضخماً، بكتفيه اللذين غطاهما الشعر، وعنقه الغليظ، وقد طفا على الماء وهو يزار بينما يقطر الماء من رأسه العريض. ينحدر جميع أبطال السباحة- الذين ادعى أنه واحد منهم، كما يقول، من أدانا، مسقط رأسه في جنوب الأناضول.

"أنا أحب بلدي"، قال وهو يقصد أناضوليا. "أحبها، جبال طوروس، والسهول، والقرى العتيقة، والقطن، والنسور، والبرتقال، والجياد من الخيول- خيول فارعة الطول." وضع كفه على قلبه: "أحب".

تحدثنا عن الكتاب. كان يحب تشيكوف؛ كان ويتمن رجل طيباً، بو أيضاً كان رائعاً. ميلفيل كان قديراً: كان يشار يقرأ موبى ديك، ودون كيشوت، "وهوميروس". كنا نتمشى جيئة وذهاباً تحت شمس الشاطيء لاهبة الحرارة، وكان يشار يلقي بظله العملاق علي فيقضي أي احتمال لخطر إصابتي بحروق من أشعة الشمس.

قال إنه لم يحب جويس. عوليس، أكثر بساطة. جويس رجل بسيط جداً، ليس كفولكنر. اسمع. إني مهتم بالصيغة. الصيغة الحديثة. أكره الصيغة القديمة. إن الروائي الذي يستخدم الأساليب القديمة... "ظل لبرهة يبحث عن كلمة مناسبة قبل أن يقول "قذارة".

وقال: "أنا لا أتحدث اللغة الإنجليزية" الكردية هي لغتي، والتركية، ولغة الغجر. ولكني لا أتحدث اللغات الأعجمية." اللغات الأعجمية؟

"الإنجليزية! الألمانية! نعم! الفرنسية! جميعها أعجمية." وبينما كان يتحدث، ارتفع صراخ. كان أحد الرجال يتشمس في أحد مقاعد الشاطيء. ناديت يشاراً، وأريته شيئاً في إحدى الصحف. وهو في طريق عودته قال: مات بابلو نيرودا.

صمم يشار على التوقف في قرية الصيد في طريق العودة. كان حوالي خمسة عشر رجلاً يجلسون أمام مقهى. قفزوا على أقدامهم فور رؤيتهم يشار، وحياهم الأخير واحداً واحداً بعناق كالدب. كان أحدهم رجلاً في الثمانين من العمر، يرتدي قميصاً رثاً، وكان بنطاله مربوطاً بقطعة حبل. في بشرته اسمرار شديد، وكان حافي القدمين، أورد الفكين. قال يشار إنه بلا منزل. كان الرجل ينام كل ليلة في قاربه الشراعي، مهما كان الطقس، وظل على هذا الحال أربعين عاماً. "إذن هو يملك قارباً وينام فيه أيضاً." هؤلاء الرجال، وواحد التقيناه في وقت لاحق على الطريق المنحدر (قبله يشار بحذر على الخدين قبل أن يعرفني به)، كان ينظر إلى يشار كأنه نجم مشهور، ويراقبه بامتنان.

"هؤلاء هم أصدقائي"، قال يشار. "أكره الكتاب؛ وأحب الصيادين." ولكن كانت هنالك مسافة. حاول يشار التغلب عليها بحميمية ضاحكة، إلا أن المسافة ظلت كما هي. في جو المقهى ذاك لن يصدق أياً كان أن يشار – الذي يعادل في الحجم اثنين من غيره، ويرتدي ثيابه كما يفعل محترفو

رياضة الغولف- صياد سمك، ولن يرى فيه أحد أيضاً كاتباً في تسكعه. هناك، بدا كأنه شخصية محلية. جزءاً من المشهد، ولكن في تباين تام معه. يبدو لي أنّ كرمه القلق قاده إلى التناقضات. وما وصلت إليه لا يسهل عملية فهمي له بأية حال. على الغداء الذي كان يتكون من البيض المقلي الأحمر، والنبیذ الأبيض، تحدث يشار عن موضوعات السجن، وتركيا، وكتبه، وخططه. لقد كان سجيناً، أما ثيلدا فقد مكثت في السجن فترة أطول، وكانت زوجة ابنهما في السجن في تلك اللحظة. جريرة الفتاة، والعهدة على تيلدا، كانت أنّها وجدت تعدّ حساءً في منزل رجل سبق وأن استدعي لتحقيق ذي صلة بتهمة سياسية. لم يكن من اللائق التعبير عن عدم تصديق قصة متناقضة. تركيا، والقول للأتراك، ليست مثل غيرها من البلدان. بيد أنّهم وبعد أن يصفوا بأسلوب لا يرقى إليه الشك، أبشع فظائع التعذيب والبطش، يدعونك للقدوم إلى بلدهم وقضاء عام هناك، مؤكدين لك في كل الأوقات أنّك ستغرم بها.

كانت سمات بشار الخاصة أكثر غرابة حتى. كردي، وهو مخلص لتركيا، ولا يسمع بالانفصال؛ إنّّه نصير متحمس لكل من الحكومة السوفيتية، وسولزينتسين، والذي يشبه التأسيس للشيطان، ولدانيل وبيستر أيضاً، إنّّه ماركسي مسلم، وزوجته يهودية، واحبّ بلد أجنبي إليه بعد روسيا هو إسرائيل. "جنّتي". بجسد ثور، ولطف طفل، ويؤكد في الوقت ذاته، أنّ مجد مقاطعة يوكناباتوفا غير منقطع، وأنّ نواب الكرملين ملائكة عظام مكشوف عنهم الحجاب. تناقض قناعاته المنطق والعقل، وفي بعض الأحيان مفاجئة لحد غريب مثل رؤية النمش والشعر الأشقر في آسيا الصغرى. ولكن تعقيد يشار هو الشخصية التركية في معناها الواسع. أخبرت مولسورث بهذا في غداء الوداع. كان متهمكاً. "متأكد أنّ رجل رائع، ولكن عليك التزام جانب الحيطة في التعامل مع الأتراك. لقد وقفوا على الحياد أثناء الحرب، كما تعلم، وإن كان لديهم ما يستندون عليه لوقفوا إلى جانبنا."

&&&&&&

بازار السكك الحديدية الكبير  
عبر آسيا على متن القطار  
تأليف: بول ثيرو  
ترجمة: أميمة قاسم

-----

الفصل الثالث  
قطار فان جولو (ليك فان) السريع

-----

"ارجوك شاهد هذه اللقافة وانظر إلي" قال جي إل، بائع التحف في سوق مدينة اسطنبول المسقوف. رفر ف باللقافة الحربية التي بدأت تتحلل بقرب أذنيه. " أنت تقول إن اللقافة متسخة وبها بقع! نعم! إنها لا تخلو من البقع والأوساخ! أنا في الثانية والأربعين من العمر، وأصلع الرأس، ولدي تجاعيد كثيرة. هذه اللقافة لم تبلغ الثانية والأربعين من العمر- إن عمرها مائتا عام، وتمنعك البقع من شرائها! ماذا تتوقع؟ لقافة جديدة تلمع من النظافة؟ هل تغشني!" لفها ثم وضعها تحت ذراعي، ودخل ليقف وراء المكتب، وأطلق زفرة حرّى. " حسناً، غشني. إنه الصباح الباكر. خذها بأربعمائة ليرة."

"أولماز" قلت هذا وأعدتها إليه. شرحت له كيف أنه عدّ فضولي المذهب اهتماماً حقيقياً، وأني كلما حاولت الابتعاد قلل السعر إلى النصف، معتقداً أن ضعف حماستي ليست سوى حيلة ماهرة للمساومة.

في آخر المطاف تحررت منه. نمت إلى وقت متأخر. كنت جائعاً وعليّ شراء بعض الزاد لرحلتي على قطار بحيرة جولو السريع الذي اشتهر بنفاذ الأطعمة فيه، والوصول إلى الحدود الإيرانية متأخراً عن مواعيد عشرة أيام. تذكرت الطعام لسبب آخر. لقد كنت أنوي تجربة بعض الأطباق المذكورة في الدليل. أغرتني الأسماء، وبما أنني كنت سأغادر في قطار الظهر، فهذه آخر فرصة لي لشرائه. فسحبت لنفسني إحدى القوائم. اشتملت القائمة على "إمام بيلدي، أحد أصناف الراتاتوي)، و(أصبع الملكة)، و(صاحب الجلالة أحبه)، وفخذ الست، وسرة الست.

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لتجربة أكثر من الطبقين الأخيرين في مقهى في طريقي إلى العبّارة، وتساءلت عما إذا كان ذوق الأتراك في التشريح يفصح عن نفسه في اختيارهم للأسماء: الفخذ كان لحيماً، والسرة كانت حلوة، وكان مبلغ العشرين سنناً لكل صفقة رابحة، أخف ثمناً وعلى الأرجح أكثر أماناً من مسمياتها وهي تصطف بعد منتصف الليل في الأزقة المتفرعة من شارع اسطنبول. تتعلق قطط الشوارع هذه على أكمامك بينما تحاول السير في الدرب المنحدر المرصوف بالحصى في اتجاه أصوات الساكسفون العالية في الحانات ذات الإضاءة الخافتة، ولكنني كنت عاقد العزم. لم أقرب فخذ امرأة في اسطنبول عدا الفطائر ذات الأسماء المتجانسة. بجانب ذلك حُذرت من أن معظم قطط الأزقة كائنات متحوّلة تعمل أثناء النهار كأفراد في طواقم عبّارات البسفور.

صدقت ذلك عندما حثني على الإسراع بينما كنت أصعد إلى العبّارة في آخر رحلتي متجهاً إلى حيدر باشا صوتٌ مخنّث لشاب في زي البحّارة، يخاطبني في عذوبة بلقب الأفندي. وجدت الطابق العلوي ورتبت مؤونتي: كانت لديّ علبة من سمك التونا، والفاصولياء، ومحشي ورق العنب، وعدد من ثمار الخيار، وقطعة من جبن الماعز، وبعض البسكويت والمقرمشات، وثلاث زجاجات من النبيذ- واحدة لكل يوم من أيام الرحلة إلى بحيرة فان. وقد أخذت معي أيضاً ثلاث علب من اللبن الرائب المخفوق، والذي يدعونه ايران، ويعتبر الشراب التقليدي للرعاة الأتراك.

لكن، لم أكن بحاجة لكل ذاك العناء، لأنني لمحت عربة الطعام بينما كان قطار فان ليك واقفاً في محطة حيدر باشا. عثرت على مقصورتي، ثم ذهبت إلى غرفة الطعام للغداء، وأخذت أسلي نفسي بالنظر إلى الحركة على الرصيف.

أنظر للحركة على الرصيف. مجموعة من الهيبيز، كمجموعات من رجال القبائل ينطلقون بحثاً عن البراز، أو المراعي الجديدة، يشقون طريقهم وسط العائلات التركية بأزيائها الرصينة. بعد دقائق وجد الهيبيز والأتراك أنفسهم في مقصورات الدرجة الثالثة ذاتها، يتعاركون على المقاعد الملاصقة للنوافذ.

كانت القاطرات البخارية التي تستخدمها الخطوط الحديدية التركية في الرحلات القصيرة تنزود بالوقود داخل الرصيف، فكانوا يصبون السخام على الركاب، ويسودون السماء بالدخان، فيكسبون المحطة الألمانية طابعاً ألمانياً.

كان من اللطيف تناول الطعام، والشرب، وقراءة رواية دوريت الصغيرة، والسفر باتجاه الشرق مرة أخرى على القطار الذي كان سيأخذني إلى أكبر بحيرة في الساحل التركي. وكنت مطمئناً لتجربتي مع الخطوط الحديدية التركية: كان القطار صلباً وطويلاً، وعربة النوم أحدث من العربة المضاءة في قطار الشرق المباشر، كانت طاولات عربة الطعام مزدانة بالزهور الطبيعية، وحافلة بالنبيذ والجعة. يستغرق الطريق ثلاثة أيام حتى نبلغ بحيرة فان، وخمسة حتى طهران، وكان القطار غاية في الراحة.

عدت إلى مقصورتي، ووقفت مقابل النافذة. في مقعد ركني رائع. وكنت قد ركنت إلى شعوري بأرض آسيا وهي تدمدم تحت عجلات القطار.

اقتربنا من الساحل، وتوقفنا هناك، في الجزء الأقصى من الساحل الشرقي لبحر مرمرة. توقفنا في بلدات كارتال، وجيبيزي (حيث قتل هانيبعل نفسه)، ثم إلى خليج إزميت، الذي كان يتلأأ بآخر دوامات أشعة الغروب.

بدأ الظلام يلفنا حيث كنا نسافر على البر باتجاه أنقرة. أصبحت وقفاتنا أقصر زمناً، وأقل عدداً، وفي هذه المحطات كان الرجال القصار القائمة في قبعاتهم القماشية، وملامحهم المحبطة ينزلون من القطار حزماً ملفوفة بالحبال، وحالما نزلوا من الدرج وضعوا أمتعتهم ليجتثوا عن القطار التالي. كنت أراقبهم بينما كنا نغادر المحطة، آخذين معنا النور، حتى لم يعد يُرى منهم سوى لفافات التبغ التي تلمع من أثر أنفاسهم المقلقة.

كان بأغلب محطات المحافظات مقام مفتوحة، زاخرة بالمقاعد والطاولات البيضاء، والأشجار الخضراء المضاءة. الأشخاص الذين يشربون فيها ليسوا مسافرين، بل من السكان المحليين الذين جاءوا إلى المحطة بعد تناول وجبة العشاء لقضاء الأمسية في مراقبة القطارات التي تروح وتجيء. كان قطار بحيرة فان السريع حدثاً بالنسبة للمقهى: حالما نغادر، يتحول الرجل الضخم في مقعده، وينادي- مشيراً فوق قدح قهوته، على النادل ذي المعطف الأبيض، والذي وقف للحظة في تركيز شديد من أثر القطار، فيسمع صوت الرجل، وتعود إليه الحياة، فيسير إلى الطاولة بعد أن يربت على المنشفة الصغيرة المطوية على ذراعه، مستعداً للانحناء على سبيل التحية.

"Guten Abend." كان هنالك تركي على باب مقصورتي. قال إنه لا يتحدث الإنجليزية، ولكنه يعرف بعض الألمانية. لقد أمضى سنة يعمل في تجميع السيارات بمدينة ميونخ. وكان يعتذر عن إزعاجه لي، لكن لدى صديقه بعض الأسئلة. كان صديقه يقف إلى جواره، رجل عجوز لا يتحدث أية لغة أخرى غير لغته الأم. دخلا المقصورة على استحياء، ثم بدأ الناطق بالألمانية: لم أنا وحيد في المقصورة؟ وإلى أين أذهب؟ ولم تركت زوجتي خلفي؟ هل أحببت تركيا؟ ولم كان

شعري طويلاً؟ هل لدى الجميع شعر طويل في بلدي؟ انتهت الأسئلة. التقط الرجل العجوز كتاب دوريت الصغيرة، وكان يقلب الصفحات، مندهشاً من الطبعة الصغيرة ، ووزن الصفحات التسعمائة للكتاب الذي يحمله بين يديه.

لقد شعرت أن لي الحق في طرح ذات الأسئلة عليهما، ولكني ترددت. لقد تناولا للتو وجبتهما في مقصورتهما، ونقلنا إلى مقصورتي رائحة الخضروات الحاذقة. كانا ينظران إلى مشروب الجن خاصتي. كانت أزرارهما العلوية مفتوحة، والآن استطعت فهم السبب وراء تسمية الجنود البريطانيين لهذه الأزرار "الميداليات التركية" في الحرب العالمية الأولى. طفق الرجل المسن يبلل أصبعه بريقه ويلطخ به كتابي.

بدت وجوه الأطفال على الباب، بدأ أحد الصغار في البكاء، وبلغ انزعاجه أقصاه. طالبت بإعادة كتابي، وتخلصت منهم. أوصدت الباب بالمزلاج ونمت. وفي حلمي رأيتني أحاول الطيران، مرفراً بذراعي في وجه الريح العاتية التي حملتني مثل طائرة ورقية، بينما كنت أحاول الارتفاع عن الأرض. ولكني ظللت أسحب نفسي أفقياً على طريقة طائر الغرّة وهو يدفع نفسه في المياه. كنت أرفرف بشدة لكنني أجزر أصابع قدمي. تكرر هذا الحلم عدة مرات في الأسبوع على مدى ثلاثة أشهر، ولكن الأمر تطلب ملء رئتي من الأفيون في فيتنام حتى أصل إلى مرحلة الطيران في الجو.

لم يكن هناك سوى الأتراك في عربة النوم الديلوكس. وهذا أكبر مما تذهب إليه بديهة المسافرين من عدم اختيار السكان الأصليين الدرجة الأولى للسفر. كما لو أنهم كانوا يخشون التقاط عدوى ما من بقية الركاب، نادراً ما كان هؤلاء الأتراك يغادرون أماكنهم، ولم يتركوا العربة نفسها قط. كانت كل مقصورة تحتوي على تختين، وكنت أقضي الوقت في تخمين كيفية استغلال هذين التختين. على سبيل المثال كان بجانب رجل تحاكي سحنته اصفرار الزعفران، يسافر مع امرأتين بدينيتين وطفلين. رأيتهم يجلسون في صف على التخت السفلي أثناء النهار. ولكن الله وحده يعلم ما يحدث في الليل. لم تكن أي من الأرائك تحمل أقل من أربعة أشخاص، أضفى هذا الاكتظاظ على عربة النوم شيئاً من تلوث عربات الدرجة الثالثة، وهو الشيء الذي حاول مسافرو الأولى تجنبه بحرص بالغ.

وصف الأتراك الناطقين بالألمانية بقية القطار بعبارة "Schmozy"<sup>1</sup>، وعبسوا. ولكن الجزء الخاص بـ Schmozy فقط من الحوار كان باللغة الإنجليزية. وهناك، رأى أحدهم أناساً طوال القامة، يصففون شعرهم كذيل الحصان، ويرسلون ضفائره، ومعهم فتيات ذوات شعر قصير، يتهادين قرب أخدانهن، ويبدون مثل الغلمان العابسين. أما الصبية بشعورهم الشعثاء وأجسادهم النحيلة، وأنوفهم المحروقة بأشعة الشمس، فيحملون حقائبهم على أكتافهم ويقفون وهم يتأرجحون في الممرات، وتفتقر أقدام الجميع إلى النظافة.

جميعاً تفتقر للنظافة. وبينما كنت أتحرك عبر العربات كنت أراهم يزدادون اتساخاً وتعباً، وفي أقصى مقدمة القطار، ربما مروا بأقربائهم البعدين الأقل حظاً من الأتراك الأكثر نظافة الذين تشاركوا مقصوراتهم، يمضغون الخبز وينظفون شواربهم مما قد يعلق بها من طعام، ويساعدون

<sup>1</sup> في إشارة لطلاوة الحديث وظرف الحوار.

أطفالهم على التجشوء. وبالمجمل تجاهل هؤلاء الهيبيز الأتراك، وعزفوا على الجيتارات، وآلات الهارمونيكا، وتماسكوا بالأيدي، وأقاموا مباريات اللعب بالورق. ونام بعضهم ببساطة على مقاعدهم بالطول، مستولين على نصف المقصورة، وراكعين تحت بصر السيدات التركيات اللواتي جلسن في أوسحتهن الداكنة ينظرن، وأكفهن معقودة في حجورهن. وألمح من وقت لآخر العاشقين وهما يغادران المقصورة يداً بيد للذهاب معاً لدورة المياه. كان أغلبهم في طريقه إلى الهند ونيبال لأن "أغرب أحلام حدائق كيو حقائق في كاتماندو.. وجرائم كافلام هي الطهر عينه في مرتبان<sup>2</sup>.

إلا أن أغلبهم يقصدها للمرة الأولى، تعالي وجوههم نظرة توجس جامدة، كتلك التي تقنّع وجه الهارب. في الحقيقة لا يساورني أدنى شك بأن هؤلاء الفتيات المراهقات اللواتي المشاركات في هذه التجمعات القبلية الماجنة سيظهرن على لوحات الإعلانات للقنصليات الأمريكية في دول قارة آسيا، مع لقطات مشوشة وصور معدلة أخذت في مناسبة التخرج من المدرسة الثانوية: شخص مفقود، وهل رأيتم هذه الفتاة؟

لدى هذه المبادرات قادة يمكن التعرف عليهم فوراً من أسلوب هندامهم: بدلة الدراويش الباهتة، وحقيبة رثة على الكتف، والمجوهرات- أقراط، والتمايم، والأساور، والقلائد. يعتمد المركز على التجربة فقط، ومن الممكن جداً معرفة من نصبته التجربة قائداً على هذه المجموعة المعينة من الحلي وحدها، والتي تصلصل في الممر. الكل في الكل، نظام اجتماعي معروف لدى الرجال من قبيلة الماساي.

حاولت أن أعرف وجهتهم. لم يكن الأمر سهلاً، فهم لا يأكلون في عربة الطعام إلا نادراً، وعادة ما يكونون نائمين، فلم يكن مسموحاً لهم بذلك في معتزل الأتراك الفخم. كان بعضهم يقف على النوافذ في الممر، في حالة من الافتتان تفرضها مناظر تركيا على وجدان المسافرين. تسالت إليهم خلصة وسألت عن نواياهم. لم يكلف أحدهم عناء الالتفات إلى الوراء حتى. لقد كان رجلاً في الخامسة والثلاثين من العمر، بشعر أغبر، وقميص قطني عليه عبارة "Moto-Guzzi"، وعلى أذنه قرط ذهبي صغير. خمنت أنه باع دراجته البخارية ليؤمن تكلفة السفر إلى الهند. لقد أبقى النافذة مفتوحة، وظل يحدّق في السهول الصفراء الممزوجة بالحمرة. وقال بصوت خافت رداً على سؤالي: "بونديتشيري".

"الضريح؟" ويقع في أوروبيل<sup>3</sup> بالقرب من بونديتشيري في جنوب الهند، وهي بلدة أشبه بالنسخة الروحية من مدينة من ليفيتاون<sup>4</sup>، أنشئت إحياءً لذكرى سري اوروبندو<sup>5</sup>، وكانت في ذلك الوقت تخضع لإدارة عشيقته الفرنسية [الأم] ذات التسعين عاماً. "نعم أود أن أبقى هناك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً"

<sup>2</sup> الاقتباس من قصيدة روديارد كبلنغ: البحار السبعة، 1896. (المترجمة)، المصدر:

([https://en.wikisource.org/wiki/The\\_Seven\\_Seas](https://en.wikisource.org/wiki/The_Seven_Seas))

<sup>3</sup> أوروبيل هي مدينة عالمية ناشئة، تهدف إلى ضمّ حوالي خمسين ألف نسمة من جميع أنحاء العالم.

<sup>4</sup> في الأصل Levittown واحدة من عدة مستعمرات أمريكية شيدت لاستقبال المحاربين العائدين من الحرب العالمية الثانية، وسميت تيمناً بوليام ليفيت William Levitt صاحب الشركة التي قامت ببنائها Levitt & Sons. "ويكيبيديا"

<sup>5</sup> اوروبيندو غوز؛ 15 أغسطس 1872-5 ديسمبر 1950)، فيلسوف هندي ومعلم لليوغا وغورو وشاعر وقومي. انضم إلى الحركة الهندية من أجل الاستقلال. "ويكيبيديا".

"كم من الزمن؟"

"سنوات" رفع بصره ليشاهد قرية مررنا بها، ثم استدرك. "إن سمحوا لي." كانت لهجة رجل يحدثك بمزيج من التقوى والغرور، بأن لديه مهنة. ولكن لدى موتو غوزي زوجة وأطفال في كاليفورنيا.

ما يثير الاستغراب: أنه هرب من أطفاله، وبعض الفتيات في مجموعته هربن من ذويهن. يقف رجل آخر على عتبة القطار، تاركاً إحدى قدميه تتدلى في الهواء. كان يأكل تفاحة. فسألته عن وجهته.

قال: "ربما سأحاول زيارة نيبال" وأخذ قضمه من التفاحة. "وربما سيلان، إن أعجبتني." وأخذ قضمه أخرى. كانت التفاحة مثل الكرة الأرضية التي ينتسب إليها، صغيرة، ونضرة، وفي متناول اليد. أشهر أسنانه الناصعة البياض وأخذ قضمه أخرى. "ربما بالي" وأثناء مضغ التفاحة قال: "ربما أذهب إلى استراليا." وتناول آخر قضمه وقذف بما تبقى في الأرض. "ماذا تفعل؟ أتؤلف كتاباً؟"

لم يكن تحدياً. كان سعيداً، جميعهم كانوا كذلك باستثناء واحد، هو عداء المارثون الألماني الجنسية والذي قد تراه في أي وقت من اليوم يؤدي التمارين متساوية القياس في عربة الدرجة الثانية. كان مدمناً لأكل الزبادي والبرتقال ويرتدي بزته الرياضية، وهي بدلة زرقاء بسحاب، ويسير على اخمص قدميه. قال وكان معتاداً على الركض اثني عشر ميلاً في اليوم. : "سأصاب بالجنون، وإن طال بي الأمد في هذا القطار سأفقد لياقتي." لسبب ما لم أدرك أنه يقصد تايلاند للجري. لقد زار بلوشستان من قبل. أخبرني أن القطارات كانت تصل إلى زاراند. رسمت الفكرة ابتسامة على وجهه وهو يقول: "سوف تكون متسخاً جداً عندما تصل إلى زاهدان." أيقظتني في تلك الليلة إحدى المطبات، فنظرت من النافذة لأرى لوحة محطة إسكيشير وهي تتلاشى عن النظر.

وفي السادسة صباحاً كنا في مدينة أنقرة، حيث قفز عداء المارثون من القطار، وبدأ يقفز في حماسة بالقرب من المحركات التي يجري تبديلها. وفي وقت الغداء، في وسط تركيا، أخبرني العداء بأن لديه من اللبن الزبادي ما يكفي ليلبغته حدود أفغانستان، حيث سيجد المزيد منه.

ثم بدأ ينظر من نافذة عربة الطعام في صمت. لم يكن ثمة ما يدعو للتعليق. كان المنظر ثابتاً، وقاسياً: خطوط طويلة من الهضاب الجرداء على مد البصر، وأمامنا سهل مقفر، يشقه نهر من الغبار البرتقالي الذي أثاره قطار بحيرة فان السريع. تؤلمني عينايا من البهجة في الصحراء. الشيء الوحيد المختلف الذي يمكنني النظر إليه كان من أقدار الله، آثار الفيضانات، والجفاف، والعواصف الرملية، ومجاري الأنهار الجافة، في وديانها المنخورة، والتنوءات الصخرية البارزة. كان باقي المشهد تجسيدا للقط مستمراً لساعات تحت السماء الصافية الزرقاء. وكان الأشخاص الذين رأيتهم مثل شخصيات مسرحية ببيكت المثيرة للشفقة، وقد زداتها حركاتها المقلقة غرابة في مشهد من الدمار القاسي. ومن العدم ظهرت فتاة صغيرة الحجم، في تنورة جميلة، وهي تحمل دلو ماء، نموذج عبثي لأثر التصحر، وعلى إحدى بوابات السدود، وقف رجل مثل نبتة



برية، كان رجلاً تركياً يعتمر قبعة غولف صوفية، وسترة ذات عنق على هيئة الرقم سبعة، وربطة عنق، وعلى هيئة الرقم سبعة، وربطة عنق، ويحيط شاربه بابتسامته الواسعة كما يفعل الإطار. بعد أن اجتزنا تلك البقعة بأميل، مررنا ببعض المنازل، ستة منها، بنيت مثل أكواخ الطين تبرز منها أعقاب الخشب المتراسة في صف منتظم على مستوى السقف. كانت هذه هي الهضبة الوسطى، وعند هبوطنا منها ساعة الغداء رأينا إمارات السقيا، وبعض الواحات الخضراء، ومن على البعد رأينا الحدود الترايبية للجبال العالية، ولكن المشاهدة من النافذة لم تكن بالأمر السهل أو المريح، بسبب تزايد الوهج والحرارة.

في وقت متأخر من العصر بلغت الحرارة 90 درجة، وتجمع الغبار الخانق على جميع الأسطح. " وهذا ما سيكون عليه الحال بدرجة أكبر أو أقل حتى الوصول إلى باكستان. " قال عداء الماراثون. " سيكون الوضع هو ذاته، الأرض مسطحة، وبنية لكنها بالطبع أشد حرارة وأكثر غباراً. "

ذهبت إلى مقصورتى لأستلقي قليلاً، مثل أرملة هندوسية على محرقة زوجها في استسلام. وكان من أسباب زيادة بهجتي، أن عرجت على مقصورتى من إحدى عربات الدرجة الثالثة، فتاة استرالية ينتشر النمش على وجهها، وطلبت مني شيئاً تشربه. فقدمت لها الراكي، إلا أنها فضلت الماء. كان في مقصورتها ستة أشخاص. زحف أحدهم بعيداً في الليلة السابقة، وهي لا تعرف أين ذهب. "تقلص العدد إلى خمسة ليس بالأمر السيء. أعني. لقد نمت لبضع ساعات، ولكن اليوم ستكون سناً مجدداً، إلا أنني لا أعرف ما سأفعله حتماً!". جالت بنظرها في مقصورتى وابتسمت: "أنا ليندا".

قلت لها: "كان بودي دعوتك للإقامة هنا، ولكنها يا ليندا صغيرة جداً، حتى إنه قد لا يمر وقت طويل قبل أن نجد نفسينا فوق بعض. " "حسناً، أشكرك على الشراب.

كانت طالبة، ومثل الأخريات، لديها بطاقة طالبة تثبت ذلك. حتى أكبر قادتهم سناً يحمل بطاقة طالب. ولسبب وجيه: يحصل حامل البطاقة على تخفيض بنسبة 50% من قيمة التذكرة. كانت الفتاة الاسترالية ذات الوجه المنمش تدفع تسعة دولارات على الرحلة من اسطنبول إلى طهران. بينما كانت قيمة تذكرتي أنا 50 دولاراً، وهو ثمن زهيد جداً بالنسبة لرحلة ألفي ميل في مقصورة خاصة بمروحة ومغسلة، وما يكفي من الوسائد لأتكيء على فراشي مثل باشا، وأستعين بدليل ناجل فيما يتعلق بمعلومات المدن التي نمر بها في طريقنا. كانت إحداها قيصرية. ظهرت من النافذة في تلك الظهيرة القائظة. وقد تعاقب عليها عدد من الفاتحين منذ عام 17 بعد ميلاد المسيح، عندما جعلها طابيريوس عاصمة لكبادوكيا: والساسانيون في القرن السادس، والعرب في القرنين السابع والثامن، وكانت بيزنطية في القرن التاسع، وأرمينية في القرن العاشر، واستولى عليها السلاجقة في العام التالي لمعركة هاستنجز. وأخيراً غزاها بايزيد، والذي يعرفه بعض المحاضرين الأمريكيين باسم بايزيت، اسير تيمورلنك المجنون، الذي حبباً بين قبضان قفص في الجزء الأول من مسرحية مارلو، تيمورلنك العظيم. وكانت قيصرية قد ضمت بعد أن هزم تيمورلنك التاريخي بايزيد في موقعة أنغورة (1402)، وكانت آنذاك محتلة من قبل المماليك، وفي القرن السادس عشر أصبحت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. ولكنها لم تحمل أي بصمة للغزاة، ولم يضاف

اسم تيمورلينك اللامع على هذه المدينة الرتيبة أي أثر مميز حتى. فالغزاة اللاحقون سلبوا ملامحها، ولم يتركوا من جمالها سوى المسجد الذي بناه كما يقال المهندس المعماري سنان، العبقري الذي شيد أعظم مساجد اسطنبول، والمشهور بترميم كنيسة القديسة صوفية بدعامات ضخمة ورائعة الجمال. وتظهر منارات الجامع الشبيهة بأقلام الرصاص في قيصرية، بين المساكن الغربية، وأبعد من البلدة، وراء صفوف من أشجار الحور، بأوراقها المخروطية الشاحبة. هذه هي ضواحي بيوت الكلاب ذات النوافذ المتعرجة والأكواخ الصغيرة البسيطة حيث يتسكع أحفاد تيمورلنك في حدائقهم ونظراتهم الحزينة تبحث في الأفق عن غاز جديد.

إنه الغسق، أكثر الأوقات سكينة في تركيا الوسطى: بعض النجمات الساطعة في سماء مخملية زرقاء، الجبال سوداء كما ينبغي، والبرك بالقرب من أنابيب آبار القرية تكتسي لوناً متلألئاً، وشكلاً غير محدد لبرك الزئبق. يهبط الليل بسرعة، ويتوارى كل شيء في العتمة، ما عدا رائحة الغبار التي ما زالت موجودة لتذكرك باليوم المرهق.

"سيد؟" إنه المحصل التركي ذو العينين الخضراوين في طريقه لإغلاق باب غرفة النوم من اللصوص الذين يعتقد بوجودهم في بقية القطار.

"نعم؟"

"طيبة أم سيئة هي تركيا؟"

"طيبة" قلت.

"شكراً لك، سيدي."

من ملاطية، ذلك اليوم الثالث، حيث عبرنا الجزء العلوي من نهر الفرات، إلى الإزيغ وما بعدها.

حيث كنا نتقدم ببطء باتجاه بحيرة فان، مع وقفات متكررة، وعندما كان صدى الصفارة يتلاشى، بدأنا مرة أخرى. كانت المنازل ما زالت مربعة، ولكنها مصنوعة من حجر دائري، وبدت مثل أكداش من الصخور تبين الطريق للوحدات المروية بعناية.

بعدها كانت هنالك شياه وخراف على السهل المتعرج، إن كان هنالك أي أثر لعشب لخالها المرء ترعى. ولكن ليس ثمة عشب على الإطلاق، وأشكال هذه الحيوانات الهزيلة تناسب الأرض المجربة التي تقف عليها. كان الأطفال يلاحقون القطار عندما يتوقف مرات عديدة. كانوا شقراً، ومفعمين بالنشاط، وربما كان سويسريين، ماعدا رثاءة ملابسهم. المنظر متكرر، ويزداد اتساعاً وجفافاً وخواءً مع التكرار. رسمت البراكين الهائلة آثارها على الجبال البعيدة، بعضها شديد الخضرة، وأما الهضاب الأقرب فبدت عليها التعضنات أيضاً، ولكنها كانت بنية اللون وداكنة مثل قشرة فطيرة محترقة.

انفتح باب مقصورتني على مصراعية بينما كنت أشاهد هذا المنظر الكئيب.

إنه الرجل صاحب الوجه الزعفراني من الباب المجاور، بعائلته الكبي. أوما لي، ثم جفل، وأغلق الباب، وجلس. كان يمسك برأسه. كان أطفاله يصرخون. وصلتني أصواتهم من النافذة. لدى الرجل شارب رفيع، وتشبه ملامحه ملامح كوميدي مبتلى بكل ماهو سيء من الأحداث، الشخصية الحزينة المناسبة للكوميديا. وهاهو يوميء مرة أخرى عاجزاً، في شيء من الاعتذار، ويشعل لفافة تبغ. ثم يجلس مرة أخرى ويدخن. لم يكن يتحدث. تنهد، وأنهى لفافته، ألقى بها في الخارج،

وضرب على ركبته، ثم سحب الباب، فتحه، ودون النظر إلى وراء سار في اتجاه أطفاله الذين لم يتوقفوا عن الصراخ.

إنه وقت الغداء، وللغداء على قطار بحيرة فان أن يكون غاية في اللطف إن وصلت إلى غرفة الطعام باكراً بما يكفي لتجد مكاناً في الجانب المظلم منها، وفسحة في المكان لاستئناف قراءة كتاب دوريت الصغيرة. لقد بدأت للتو تناول طعامي، والقراءة عندما تسلل أحد نواب المشرفين وجلس معي. لقد كان ذا شعر طويل أشقر على طريقة حامل خواتم الزفاف، متأثراً بالأنبياء ذوي الهمة. كان قميصه مقصوفاً بمهارة من زكينة طحين، وارتنى مريولاً باهتاً جداً يحمل العلامة التجارية "واشنطن"، ويضع سواراً من شعر الفيل على أحد رجليه، وأسورة هندية على الآخر. لقد رأيته وهو يجلس على وضعية اللوتس في عربة الدرجة الثانية. ووضع كتاباً قديماً من تأليف إدريس شاه على الطاولة؛ وبه شيء من مظهر المصاحف المهترئة في أيدي المتطرفين الضعفاء الذين رأيتهم لاحقاً في مدينة مشيد المقدسة. ولكنه لم يقرأه. سألته عن وجهته.

فهزّ رأسه، هزة تراقص معها شعره. "Just ~ ne" ورفع عينيه وقال بنبرة درامية – "أسافر". بدا أكثر ورعاً، ولكنه ربما كان القطار. الدرجة الثانية في ذلك الجزء من تركيا تمنح جميع أصحاب الوجوه الغبراء لمحة من خشوع المعاناة.

وصلت بطيخته. وكانت مقطعة لمكعبات. ابتسم لرؤيتها في رثاء وقال: "لقد قطعوها". تطوعت بتقديم معلومة أن الأتراك في الطاولة المقابلة قد حصلوا على بطيخة غير مقطعة. حيث استقرت الشرائح على الطبق كاملة بقشرتها. فكر نائب المشرف في الأمر، ثم انحنى عبر الطاولة مصوباً نظره إلى عيني قائلاً: "إنه عالم غريب".

وأملت، من أجل حالته العقلية، أن لا يزداد الطقس حرارة. ولكن هذا ما حدث، فاشتدت حرارة الهواء، وسحبت الستائر في جميع المقصورات. كل مرة كنت أبدأ فيها القراءة أو الكتابة أغط في النوم، ولا أستيقظ إلا عندما يتوقف القطار تماماً. كانت هذه الوقفات في الصحراء، كوخ صغير، ورجل يحمل علماً، ولوحة إعلانات عليها عبارة MUSH or BUG. كتبت سطوراً قللاً، وانتبهت إلى رؤية خط يدي، مفترضاً قلق عدم استقرار الرحالة الضائع، نص مفكرة الصحراء التي كانت فُكّت شفرتها، ونشرتها أرملة الرجل بعد وفاته. مرة أخرى يعلو صوت الصافرة، وكنت أقول لنفسي سأنهض وأسير إلى غرفة المحرك. ولكنني طالما كنت نائماً وقت انطلاق الصافرة.

وصلنا إلى بحيرة فان حوالي الساعة العاشرة مساءً. وكان هذا أمراً مزعجاً. لقد بات من المستحيل- بسبب الظلام- التحقق من صحة من القصص التي سمعتها عن القطط التي تسبح، ومستويات الصودا المرتفعة في المياه التي تذهب بألوان الملابس وتحول لون شعور الأتراك الذين يسبحون فيها إلى الأحمر القاني. كما ندمت على أمر آخر بعد: هو أنها كانت المحطة الأخيرة لخط هذا القطار. كانت عربة النوم قد فصلت عن القطار، وليس لدي أدنى فكرة عن ترتيبات ما تبقى من الرحلة.

تم فصل محرك الديزل، وسحبنا محرك البخار إلى حيث تقف العبارة، واستغرق تبديل العربات عدة ساعات اثنتين في كل مرة على العبارة ذاتها. وأثناء حدوث ذلك وجدت المحصل الجديد، وكان إيرانياً، وأريته تذكرتي. فدفعها جانباً وقال: " ليس هناك مقاعد. قلت له: " إنها تذكرة الدرجة الأولى". "ليس هناك غرفة، تفضل بالنزول يا عزيزي."

وأشار إلى حيث تم تحميل العربات للتو على العبارة، مقاعد الدرجة الثالثة. بعد ثلاث أيام من المرور عبرها في طريقي إلى عربة الطعام، كنت أراها الرعب ذاته. عرفت ركابها: كانت هنالك عصابة مقوسة الساقين من اليابانيين ذوي البشرة الداكنة، والشعر السميك الذين يسافرون مع محاربة قزمة، يابانية أيضاً، تعلق آلة تصوير على شريط حول عنقها يصل إلى ركبتها. كان رئيسهم رجلاً شاباً ذا ملامح غاضبة، يضع نظارات عسكرية، وبين شفتيه غليون مطفاً، ويرتدي صندل حمام مطاطياً.

وهناك الجماعة الجيرمانية أيضاً: صبية ملتحون وفتيات متخزرات يتمتعون بحسومات الطاقم. كانت رئيستهم غوريلا تتسكع في الممر وأحياناً لا تسمح لأي كان بالمرور. كان هنالك سويسريون وفرنسيون وأستراليون ينامون، ولا يستيقظون سوى للشكوى أو السؤال عن الوقت. ثم الأمريكيون، الذين كنت أعرف بعضهم بالاسم. كان للقادة احتفال على العبارة والآخرين يتفرجون من على القضبان.

قال المحصل: " اذهب".

لكنني لم أرد الذهاب، ففضلاً عن ازدحام مقصورات الأوربيين والأمريكيين هناك، كانت مقصورات الأكراد والأتراك والأيرانيين والأفغانيين الذين ظلوا ينامون فوق بعضهم البعض ويظهون اليخنة بين الأسرة، على مواقد الكيوسين اللاهبة على نحو خطر. انطلقت العبارة وسط دوي الصافرة في البحيرة السوداء. أما أنا فلاحقت المحصل من منطقة إلى أخرى، محاولاً استئناف نقاشي معه. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، قلت- وأنا أحاصره في الأسفل حيث عربات القطار الضخمة تصطك بالسلاسل الحديدية التي تربطها بالقاطرات على ظهر العبارة: أين هي مقصورتني؟

فوجهني إلى الدرجة الثانية مع ثلاثة من الاستراليين. كان موقفاً توصلت إلى فهمه خلال الأشهر الثلاثة التالية. في أسوأ حالاتي عندما كانت الأمور تدعو للإحباط والانزعاج، كنت أجد نفسي في رفقة الاستراليين، الذين كانوا بمثابة تذكير بأنني قاربت الحضيض. كان هذا الثلاثي على متن عبارة بحيرة فان يعتبرني متطفلاً. كانوا مصدومين وهم ينظرون إلى وجبتهم: كانوا يتشاركون رغيفاً من الخبز، ينكبون حوله مثل القروء، شابان وفتاة جاحظة العينين.

تذمروا عندما طلبت منهم أخذ حقائبهم من أريكتي. كان دوي محركات العبارة يهز نوافذ المقصورة، وذهبت للنوم متسائلاً عن طريقة صعودي خارج المقصورة ثم خارج العربة من خلال السلم الضيق إلى متن قارب النجاة إن غرقت العبارة. لم أنم جيداً، وحالما استيقظت على

تأوهات الفتاة الأنتبودية<sup>6</sup>، والتي ترقد تحت أحد رفيقيها اللذين ارتفع شخيرهما، تفصلها عني مسافة أقل من قدمين.

في الفجر مع غمرة الضوء المتسارع للصباح الباكر، وصلنا إلى الساحل الشرقي للبحيرة. وهنا تحوّل قطارنا إلى قطار طهران السريع. كان الاستراليون يتناولون إفطارهم مما تبقى من رغيف الخبز. ذهبت أنا إلى الممر أحصي من النقود ما قد يفي برشوة مقبولة لدى المحصل.

-----

## الفصل الرابع

### قطار طهران السريع

-----

بينما كان قطار طهران السريع الجديد يسحبنا خارج المحطة الحدودية الأشبه بحانوت كبير (سوبرماركت)، في مدينة قطور على القبضان التي تعلن عن جدّتها بالصوت العالي (تُحدّث الخطوط الحديدية الإيرانية وتوسّع)، كان المضيف على عربة الطعام الفرنسية الصنع يضع معطفه السميك الأبيض، ويفرد قطعة جميلة مربعة من السجاد، يركع عليها ويقوم بضع مرات في اليوم، في ركن صغير، بين مكتب أمين الخزينة والمطبخ، وهو ينادي "ألا إله إلا الله، محمد رسول الله". بينما يحتسي رواد العربة الشوربة الغنية بنكهة ومذاق الليمون، ويلتقمون قطع كباب الدجاج. الزجاج العملاق، والمحطات الخرسانية تحمل ثلاث صور، الشاه، ومليكتة وابنه. وهي بالحجم الطبيعي مضاعفاً خمسة عشرة مرة. تضفي عليها الضخامة جحوظاً وجشعاً وملكية شائنة. يبدو الطفل المبتسم كأحد أولئك المهرجين المتقدمين، مؤدّي فقرات الرقص النقري في عروض

المواهب وهو يغني: "أنا 'I've Got Rhythm'"

إنّه بلد قديم كل مكان في العصرية اللامعة يذكّرنا بالماضي الأرتوذكسي- المضيف المصلّي، والصور الشخصية، وتوطين الرّحل، وما نجده على متن أحد أفضل الخطوط الحديدية في العالم، التطلع للبشيش.

مرة أخرى أخرجت تذكرتي للمحصل. وقلت: "تذكرة للدرجة الأولى، استحق مكاناً في الدرجة الأولى."

"لا مكان"، قال. وأشار إلى أريكتي في المقصورة الأسترالية.

فقلت: "لا" وأشرت إلى مقصورة خالية قائلاً: "أريد هذه."

---

<sup>6</sup> في الأصل Antipodean: تطلق العبارة على سكان نيوزيلندا وأستراليا، الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية. (المترجمة)

فرمقني بابتسامة متحمسة : "لا".  
لقد كان ينظر إلى يدي. كنت أحمل ثلاثين ليرة تركية (ما يقارب الدولارين). بدت يده قريبة إلى يدي.

أخفضت صوتي وهمست بالكلمة المعروفة في كل أرجاء الشرق: "بقشيش".  
أخذ المال، ووضع في جيبه. وحمل حقيبتي من المقصورة الأسترالية ونقلها إلى مقصورة أخرى، كانت تحتوي على حقيبة ملقاة وصندوقاً من البسكويت. دفع الحقيبة إلى رف الأمتعة، وربت على الأريكة. سألتني إن كنت أريد ملاءة وغطاء. فقلت نعم. أحضرها لي ومعها وسادة أيضاً. وسحب الستائر فحجب الشمس خارجاً. وانحنى ثم جلب لي وعاءً مليئاً بالماء المثلج، وابتسم، ولسان حاله يقول: "كنت لتنعم بكل هذا منذ أمس".

كانت الحقيبة وصندوق البسكويت لرجل تركي أصلع ضخم يدعى صادق. كان يرتدي بنطالاً صوفياً فضفاضاً، وسترة ممطوطة، وهو من أحد أكثر أجزاء تركيا خطورة، الوادي الأعلى لنهر الزاب الأكبر. وقد استقل القطار من محطة فان وكان متوجهاً إلى استراليا.  
دخل وسحب ذراعه على وجهه المتعرق. وقال، "هل تقيم هنا؟"

"نعم"

"كم دفعت له؟"

أخبرته.

فقال: "لقد أعطيته خمسين ريالاً. إنه عديم الأمانة، ولكنه الآن في جانبنا. سوف لن يضع أي أحد غيرنا هنا، إذن فنحن سنقيم في هذه الغرفة الواسعة وحدنا الآن".  
ابتسم صادق؛ وكانت أسنانه معقوفة. ليس النحفاء هم من يببدون جوعاً، ولكن البدناء، وبدا على صادق أنه يتضور جوعاً.

"أعتقد أنه ينبغي علي أن أقول" قلت، وأنا أتساءل كيف سأنهي هذه الجملة، "أنا لست، أممم، شاذاً. حسناً، تعلم، أنني لا أحب الأولاد و..."

"وأنا أيضاً، لا أحب،" قال صادق، وعندها استلقى ونام. لقد كان يملك موهبة الراحة؛ لم يعُزه سوى أن يأخذ وضعية أفقية واستغرق في نوم عميق. ودائماً ما كان ينام في ملابسه ذاتها -البنتال والسترة.

لم يخلعهما قط، وطوال فترة الرحلة إلى طهران لم يخلق ولم يستحم.  
لا يحتمل أن يكون تاجرًا. لقد اعترف أنه كان يتصرف كخنزير، ولكنه كان يملك الكثير من المال وكانت مهنته سجلاً حافلاً من الأصالة. لقد بدأ في تصدير الخردوات التركية إلى فرنسا، وبدا أنه في طليعة الحركة، موحداً تجارة الأنية النحاسية والخواتم السحرية في أوروبا سابقاً في تفكيره الجميع بوقت طويل. لم يدفع أي رسوم تصدير في تركيا، ولا رسوم استيراد في فرنسا. لقد تمكن بهذا من بشحن قرارات من الأشياء الرخيصة إلى الحدود الفرنسية، وتخزينها هناك. ثم يذهب إلى تجار الجملة الفرنسيين حاملاً عتبات منها، فيتلقى الطلبات، ويوفر على التجار عناء استيراد البضائع. كان يقوم بالعمل لمدة ثلاث سنوات ويودع الأموال في بنوك سويسرا.

قال صادق- الذي لم يكن يجيد اللغة الإنجليزية تماماً: "عندما يكون لدي ما يكفي من المال سأفتح وكالة سفر. إلى أين تريد الذهاب؟ بودابست؟ براغ؟ رومانيا؟ بلغاريا، جميعها بلاد جميلة، أه يا

فتى! يحب الأتراك السفر. ولكنهم سخفاء. لا يتحدثون الإنجليزية. يقولون لي: "سيد صادق، أريد قهوة"- هذا في براغ. وأقول: "اطلب من النادل." إنهم خائفون. يغمضون أعينهم، ولكن جيوبهم تكتظ بالمال. أقول للنادل: "coffee فيهم. الجميع يفهم كلمة Coffee إلا أن الأتراك لا يتحدثون أية لغة أخرى. لذا أقوم بدور المترجم طوال الوقت. ولا أخفي عليك أن هذا الأمر يغيظني. يتبعني الناس." سيد صادق، خذني إلى الملهى الليلي"، "سيد صادق، ساعدني في العثور على فتاة." يتبعونني حتى عندما أذهب للمغسلة، وأحياناً أشعر برغبة في الهرب، ويلهمني ذكائي باستخدام مصعد الخدمات.

لقد عدلت عن زيارة بودابست وبلغراد. وقررت الذهاب للحج في مكة. يدفعون لي خمسة آلاف ليرة وأقوم بكل شيء. أحصل على حقن التحصين ضد الجدري، وأختم الدفتر! لي صديق في الحقل الطبي. ها! ولكني أهتم بهم جيداً. أشتري لهم الحشايا المطاطية، واحدة لكل، وأنفخها لهم بالهواء حتى لا يضطرون للنوم على الأرض. وأخذهم في جولة حول مكة والمدينة وجدة، ثم أتركهم. "لدي عمل في جدة. ولكني سأذهب إلى بيروت. هل تعرف بيروت؟ مكان لطيف- النوادي الليلية والفتيات، والكثير من اللهو. عندما أعود من جدة، أخذ الحجيح وأعيدهم إلى اسطنبول مرة أخرى. ربح طيب."

سألت صادق عن السبب في عدم حجّه حتى الآن، إن كان مسلماً ويجد نفسه قريباً جداً من مكة. "حالما تزور مكة، عليك أن تعاهد نفسك على عدم شرب الخمر، وعدم القسم، والامتناع عن النساء، وبذل المال للفقراء." وضحك وهو يقول: "هذا للشيوخ، أنا غير مستعد لذلك بعد!" هو الآن متجه إلى استراليا، التي ينطقها: "أوستراليا"؛ ولديه فكرة أخرى. خطرت عليه ذات يوم بينما كان في المملكة العربية السعودية، عندما كان يشعر بالملل (قال إنه فقد الاهتمام بأحد المشروعات حالما بدأ يجني منه المال). أما فكرته الجديدة فتتعلق بتصدير الأتراك إلى أستراليا، حيث يوجد نقص في العمالة. كان يذهب، وكما كان يبيع الخواتم السحرية للفرنسيين، يزور رجال الصناعة الأستراليين ويعرف احتياجاتهم من العمال المهرة، ويكتب قائمة بها. ويقوم شريكه في اسطنبول بتوفير مجموعة من المهاجرين ويضطلع بالإجراءات والوثائق المطلوبة، مثل الحصول على جوازات السفر، والبطاقات الصحية، والخطابات. ثم يُبعث بالأتراك على رحلة طيران ينسق لها صادق بنفسه. وبعد أن يحصل أتعابه من الأتراك، كان يأخذ عمولته من الأستراليين أيضاً. يغمز لي بعينه ويقول: "ربح جيد."

كان صادق هو من أشار علي بأن الهيبيز كانوا تعساء. إنهم يرتدون ملابس الهنود المتوحشين لكنهم ليسوا سوى أمريكيين من الطبقة الوسطى. لم يفهموا معنى البقشيش. ولأنهم كانوا يمسون أيديهم وأموالهم، وينتظرون الطعام المجاني والضيافة فسيخسرون دائماً. كان يشعر بالأسى حيال الفتيات الجميلات اليافعات اللواتي كن يحطن بزعماء الهيبيين. "هؤلاء الفتية دميمون، وأنا دميم أيضاً، إذن لم لا تحبني الفتيات؟"

كان يستمتع بسر القصة التي يسخر فيها من نفسه. كانت أفضلها تحكي عن شقراء وجدها في إحدى حانات مدينة اسطنبول. كان الوقت منتصف الليل، وهو تحت تأثير الخمر والشهوة، فأخذ الفتاة الشقراء إلى منزله، وضاجعها مرتين، ثم نام لبضع ساعات واستيقظ فضاجعها مرة أخرى.

وفي وقت متأخر من اليوم التالي كان يزحف خارجاً من فراشه ليلاحظ أنّ الشقراء احتاجت أن تحلق، ثم رأى الشعر المستعار، وقضيب الرجل الضخم. " يقول أصدقائي، " من غير صادق، يضاجع رجلاً ثلاث مرات ظناً منه أنّه امرأة" ولكنني كنت ثملاً جداً."

وجدت في صادق رفقة طيبة في امتداد الرحلة الممل. أخذنا ثلاثين عربة بضائع وتحرك القطار ببطء شديد عبر شمال غرب إيران باتجاه طهران، يشق القطار طريقه وسط أشد الأراضي التي رأيتها في حياتي قحطاً. هنا، في الصحراء المحرقة، يمتن المرء لوجوده على متن قطار جيد، وقطار طهران السريع ولا أجمل. كانت عربة الطعام مبهجة ونظيفة، وفيها آنية زهر الغلادبولي الأحمر على الطاولات المزدانة بالمفارش المنشأة. كان الطعام ممتازاً، ولكنه غير متنوع؛ دائماً شوربة بالليمون، والكباب، ومكدسة من الخبز المسطح المربع الأشبه بدفاتر الفواتير.

كانت غرفة النوم مكيفة الهواء لدرجة يحتاج معها الراكب لغطائين معاً في الليل. وكلما بعدنا عن أوربا، ازدادت القطارات فخامة، أو هكذا كان بدا لي الأمر. في قزوين، وهي محطة أخرى مشيدة في الصحراء على طراز السوبرماركت. اكتشفت أننا كنا متأخرين عشر ساعات، ولكنني لم أكن مرتبطاً بموعد وعلى أية حال لطالما فضلت الراحة على الانضباط. لذا جلست وقرأت، وعلى مائدة الغداء استمعت إلى خطة صادق للنجاح في أستراليا.

خارجاً، بدأت تتضح ملامح المشهد- شمخت التلال، وظهرت الهضبة، ثم إلى الشمال سلسلة من الجبال الزرقاء في خضرة، وبدت القرى تترى في الطريق، وهناك مصافي النفط التي تنفث اللهب، ثم لم تمض فترة قصيرة حتى وصلنا إلى طهران.

جلب صادق تذكرة قطار لميشيد الذي كان يغادر في ذلك اليوم. لم يخطط لذلك، ولكنه كان يقف في الصف، فسمع صبيتين جميلتين تشتريان تذاكر للدرجة الثالثة، ورأى الكاتب يخصص لهما إحدى المقصورات. في الدرجة الثالثة على الخطوط الإيرانية لا تمييز من حيث الجنس. فطلب صادق تذكرة للدرجة الثالثة وألحق بالمقصورة ذاتها: " إذن سنرى ما سيحدث! تمنّ لي الحظ الطيب."

يمتزج في طهران طابعا المدنية والقروية في شيء من الازدهار، وهي مكان لا عراقه فيه ولا ما يثير الاهتمام، مالم يكن للمرء شغف خاص بالقيادة السيئة والأوضاع المرورية التي تفوق نيويورك بعشرين ضعف سوءاً. هنالك حديث عن بناء نظام لقطار الأنفاق. ولكن شبكة مياه طهران من النوع القروي، ويضخ الصرف الصحي إلى تحت الأرض أسفل كل مبنى، عليه من المحتمل جداً أن تتسبب عملية حفر الأنفاق في انتشار وباء الكوليرا بنسب هائلة.

أكد لي أحد الرجال الذين قابلتهم هذا الأمر زاعماً أنّ علينا الحفر لعمق عشرة أقدام فقط في أي مكان في المدينة وستصل إلى المجاري، وفي غضون سنوات قلائل سيقف عمقها إلى خمسة أقدام. على الرغم من حجمها وحدثاتها الظاهرة، فهي تحتفظ بأشد ملامح البازار دمامة، مثل قطار دالاس، ولطهران جميع صفات مدينة تكساس الغنية بالنفط: الألق الزائف، والغبار والحرارة، ومذاق البلاستيك، وأثر المال. النساء حسناوات، ويتسكن في المدينة ممسكات بأيدي بعضهن- حتى أكثرهن أناقة- أو ربما اثنان إلى جانب الطريق ويدهما بيد جدة هزيلة الجسم تحت حجابها. لم تسمح الثروة للإيرانيين بالقليل عدا المغالاة في ارتداء الملابس الزائدة؛ وفي الحقيقة بدا أنّ مكيف الهواء شديد البرودة لم يصمم إلا للسماح للإيرانيين الأثرياء بارتداء الملابس الإنجليزية



الأنيقة، والتي يعجبون بها أيما إعجاب. في خضم هذا الانحطاط يسجل المادي غياباً غريباً والذي بدأ يتمظهر في غياب مواز للحضارة بطريقة مقيدة للغاية. نادراً ما تُرى النساء رفقة الرجال؛ هنالك بضعة أزواج، لا عشاق، وفي المساء تتحول طهران إلى مدينة للرجال، يسرقون في جماعات، أو يتسكعون. الحانات حصراً على الرجال، يشرب الرجال في بزاتهم الباهظة الثمن، يجولون في الغرفة بعينين قلقتين، كما لو كانوا في انتظار امرأة. ولكن ليس هناك نساء، والطرق التعيسة البديلة للجنس واضحة: تبرز في أحد الملصقات فتيات فارسيات بديئات في مناماتهن القصيرة؛ الملاهي الليلية وراقصاتها الشرقيات، المتعريات، والرقص الجماعي، والكوميديون في قبعاتهم المضحكة والذين يمنع الرعاة سردهم لأية نكتة فارسية ذات إحياءات جنسية. يجذب المال الإيرانيين في اتجاهه، ويجذبهم الدين في الاتجاه الآخر، والنتيجة مخلوق غبي متعطش يعتبر النساء مجرد لحم. هكذا تكلم زرادشت: المهووس القميء وعلى رأسه تاج من الماس، الذي يدعو نفسه "ملك الملوك"، هو الرد على سؤال الحكومة، وفرقة إعدام هي الرد على سؤال القانون. أما ما هو أقل رعباً من ذلك ولكن ليس أقل اشمئزاً فالذوق الإيراني في المربى المصنوع من الجزر.

بسبب النفط، أصبحت طهران مدينة للأجانب. هنالك صحيفتان يوميتان باللغة الإنجليزية، وصحيفة يومية واحدة باللغة الفرنسية، جورنال دو طهران [Journal de Teheran]، وأسبوعية ألمانية داي بوست [Die Post]. ولا غرو أن صفحة الرياضة في صحيفة طهران باللغة الإنجليزية مأخوذة من الأخبار غير الفارسية كسيرة هان آرون (لاعب عظيم- إنسان رائع)، والذي كان وقتذاك على وشك أن يكسر رقم 714 لبيب روث الذي احتفظ به طوال الحياة، وأمام حشود اطلانطا غير المهتمة (اطلانطا ولاية لا تهتم بكرة القدم الأمريكية)؛ كانت بقية أخبار الرياضة أمريكية على النحو ذاته ما عدا مادة صغيرة حول فريق إيران لقيادة الدراجات. ليس عليك أن تذهب بعيداً لتعرف جمهور هذه الصحف في طهران. ليس ثمة نقص في الأمريكيين بالمدينة، بل حتى الأمريكيين العاملين في تشغيل حفارات النفط في المناطق الطرفية يُسمح لهم بالبقاء في طهران لسبعة أيام مقابل كل سبعة أيام عمل في الموقع. عليه فإن الحانات تضج بمناخ صالونات الغرب الجامح.

خذ على سبيل المثال حانة فندق كاسبين. هنالك أمريكيون طوال القامة يتكئون على الأرائك يحتسون جعة التوبورغ مباشرة من القارورة. وغير بعيد منهم جلست بضع زوجات وعشيقات جامدات الملامح يدخن بشراهة، وأحد الرجال يخاطبهن من المشرب. "صعدت إلى ابن العاهرة وقلت، "صور لي اللحم بالأشعة السينية"، فنظر إلي بغباء. ليس ثمة تصوير بالأشعة السينية هنا لثلاثة أسابيع. كل هذه الأشياء ستساقط بالتأكيد مثلها مثل أي شيء. قال موجهاً حديثه إلي-"

"لقد رأينا ألبرائيس في قم. لقد حصلت على أجمل فستان،" قالت السيدة التي تجلس على الأريكة. ركلت حذاءها فنزعتها عن رجلها. وقالت: "لقد اشتريته من هنا".

" حسنًا، هراء، لم أعرف ما أفعل،" قال الرجل الذي يتحدث من المشرب. " أخبرته أنني لن أغادر المكان إن لم يبد الأمر جيداً بالنسبة لي، فإن استطاع الحفاظ عليه سيحافظ على وظيفته اللعينة. لا أستطيع الذهاب إلى السعودية وقتما رغبت في ذلك." دخل رجل ضخم يرتدي الجينز الأزرق. كان يترنح قليلاً لكنه مبتسم. "جين، أنت ابن عاهرة عجوز، تعال إلى هنا" هتف الرجل من المشرب. " مرحباً، روس" قال الرجل الضخم بينما كان يقولها تحرك بعض الإيرانيين إلى الجانب. "اجلس قبل أن تسقط على الأرض." " اشتر لي مشروباً، أيها الوغد الوسخ." "سأفعل بمؤخرتك،" سحب محفظته المنتفخة وأراها لجين قائلاً: " لا أملك سوى مائة ريال فقط باسمي."

إنهم تكساس،" قالت المرأة التي تجلس على الأريكة، " ونحن أوكلاهوما." تصاعدت الأصوات من على المشرب. يقول روس: " أولي بادي" لرجل يجلس على المشرب، ينحني على زجاجة ويبدو من الخلف كأنه ثمل للغاية. يقف جين على بعد بضعة أقدام، يحتسي الجعة ويبتسم بعد كل حسوة من قارورته.

قال روس للرجل المنحني: "أيا واين، من سنقاتل اليوم؟" يهزّ واين رأسه، فيمسح جين على خده بيد أحرققتها الشمس بشدة، فتظهر الأوشام عليها بالكاد. يقول روس: "تفضل، خذ كأساً يا واين، خذ كأساً يا جين. ويسأل بيلى عما يريد." يصفع روس واين على ظهره، فصدر دوي عظيم لسقوط واين على الأرض بين مقاعد المشرب، وانطوى قميصه الصوفي فوصل إلى إبطيه. جاء بيلى (كان يشرب مع النساء) وساعد روس وجين على رفع واين على قدميه وأسندته إلى أحد المقاعد. انكشف ظهر واين الزهري. كان حليق الرأس، وأذناه بارزتان إلى الخارج، مرفقاه مقوّسان على طاولة المشرب، وهو يمسك بزجاجته كما يفعل بحار بسارية وسط عاصفة هوجاء، ينظر إلى كفيه ويغمغم. شرع الإيرانيون الذين صمتوا طوال الوقت في الهمهمة باللغة الفارسية موجهين حديثهم إلى النادل. كانوا يبدون كما لو أنهم سيستهّلون مشهداً، وقال بيلى لأحد الإيرانيين- مستشعراً ما يحدث: " ماذا تقولون له؟" " تعال هنا أيها الصديق،" قال روس للإيراني الآخر، وغمز باتجاه واين، ونهض واين، - مستعيداً لياقته. فهزّ روس كم معطف الإيراني قائلاً: " أريد أن أتحدث إليك بسرعة."

بدأت السيدات الجالسات على الأريكة في المغادرة، تأبطن حقائبهن الصغيرة واتجهن إلى الباب. فخطبهن روس قائلاً:

"هيا!"

" إنكم تصعدون الأمور أيها الفتيان."

غادرت السيدات، ولرؤيتي ما كان على وشك الحدوث، تبعتهن حتى الشارع الصاخب، أقسم بأن أهرب من طهران في أول قطار أجده.

كان مساري الأصلي، المحدد على خارطتي قبل مغادرتي لندن، يأخذني إلى الجنوب من طهران إلى خالد آباد حيث المرفأ الذي أغادر منه إلى أصفهان، ومن هناك باتجاه الجنوب الشرقي إلى

يزد، وبافق، وزاراند، حيث تنتهي السكة الحديدية، ثم ساعبر بلوشستان بالحافلة، وألحق هناك بالخطوط الحديدية الباكستانية الغربية في محطة زاهدان الإيرانية، واتجه إلى الشرق على الخطوط الباكستانية الرئيسية.

"ممكن بالتأكيد." قال موظف السفارة: "ولكن لا يُنصح به. ستحتاج إلى أكثر من أسبوع لبلوغ مدينة كويتة، وناهيك عن أي شيء آخر فهذه مدة لا تحتل للبقاء من غير استحمام." قلت له إنني أمضيت لتوي خمسة أيام دون استحمام، ولم يكن الأمر مثيراً للقلق. ما كان يقلقني هو ما إذا كان رجال القبائل البلوشية يتقاتلون في تلك المنطقة أم لا؟ "يجدر بك تصديق ذلك!"

"إذن أنت لا تعتقد أنّ السير في ذاك الطريق فكرة جيدة بالنسبة لي؟" "كنت لأراك غيباً إن جازفت بالسير فيه."

ربما غامر مسافر آخر بالسير إلى الجنوب الشرقي. كنت ممتناً لفرصة العدول عنه. شكرته لنصيحته واشتريت تذكرة لقطار يتجه إلى ميشيد، شمال شرق البلاد.

&&&&&

-----

## الفصل الخامس

### القطار الليلي إلى ميشيد

-----

تقع ميشيد شمال شرق إيران، حوالي مائة ميل من الحدود مع أفغانستان، وأقرب من ذلك إلى الحدود السوفيتية. وهي مدينة مقدسة، وبالتالي يستقل المسلمون وبأعداد كبيرة هذا القطار، وفي كل مكان كان الفرس في هينات تدل على الخشوع، ويهمهمون بالصلوات والدعوات بدخول الجنة، ومع ذلك:

جنة الفارسي غاية في البساطة: ليست سوى عيين سوداوين وليمونادة.

في النداء المسائي للصلاة يبدو القطار كما لو أنّه أصيب بمرض غريب. يخزُّ الركاب على رُكبهم ويسلمون. ربما كان قطار البريد الليلي إلى ميشيد هو الوحيد في العالم الذي يوجه جميع ركابه وجوههم إلى عكس اتجاه القطار الذي يسافرون فيه: ينحنون وأعينهم باتجاه مكة. ازداد ضغط الصلاة أثناء الرحلة، وبدأت العربات تهتز من أثر ذاك الخشوع.

ارتدت النساء على قطار طهران التناير والأقمصة النسائية، وفي قطار البريد الليلي لفتهن المعاطف، والخمر التي لا تكشف سوى الوجه. كانت هذه بلا شك الشخصية المسلمة للقطار الذي منع الجعة من غرفة الطعام. ولكنه كان نهراً قائظاً عندما غادرنا طهران، وكنت أتوق لاحتماء بعض الشراب. كنت أدخر زجاجة الجن خاصتي بكاملها لافغانستان.

"لا جعة؟" قلت للمضيف. "ماذا لديكم؟"

"شيشينشيوب"

"لا، ماهي المشروبات الأخرى التي تقدمونها؟"

"بيفتيك"

"هل من نبيذ؟"

هز رأسه بالنفي

"أي نوع؟"

"شيشن بيلاف، وشورية، وسلطة"

تخلّيت عن فكرة الشرب، وقررت أن أتناول وجبة. كنت آكل وأنظر للحفر في الصحراء، والجبال العذراء في الأفق، والرمل على مد البصر. عندما اقترب مني رجل يرتدي معطفاً قديماً، ويحمل صحيفة، وحقيرة تسوق، وقال: "أتمنع إن انضممت إليك؟"

"لا على الإطلاق." صحيفته الديلي تيلغراف اللندنية، صادرة قبل خمسة أيام، وكانت حقيرة التسوق خاصته تحتوي على الكثير من العبوات المضادة للعدوى. جلس وهيئته تشيء بتركيز عالٍ، ووضع مرفقه على الصحيفة. ارتاح ذقنه في كفه.

"انظر لتلك الفتاة،" قال. فتاة جميلة مرت بنا، وكانت ترتدي فستاناً ضيقاً بدون الخمار الثقيل الذي ارتدته السيدات الأخريات، فجذبت إليها أنظار رواد العربية. بدأت في ملاحظة ذلك، ولكنه حذرني. "انتظر، أريد التركيز على هذا." راقب الفتاة من الخلف حتى خرجت من العربية، ثم قال، "أود أن أقابل فتاة كهذه."

"لم لا تقدم نفسك لها؟ إنه أمر غاية في البساطة."

"مستحيل، سوف لن يتحدثن إليك. وإن أردت الخروج معهن- لوجبة أو عرض ما- لن يذهبن مالم تكن تنوي الزواج بهن."

قلت: "هذا تخلف."

"وهذا ليس كل شيء. أنا أعيش في البرية- لا نساء في إرنا."

"خلتك تأتي في العطلات الأسبوعية."

"أنت تمزح! هذه هي المرة الثانية التي زرت فيها طهران- كانت الأولى قبل أربعة أشهر."

"هل كنت في الصحراء لمدة أربعة أشهر؟"

"الجبال، ولكن لا فرق بينهما"

فسألته لم اختار العيش في جبال إيران، في مكان لا نساء فيه، إن كان مهتماً بلقاء فتاة لطيفة.

كان من المفترض أن التقى واحدة هنا. عرفتُها في الرياض- سكرتيرة، فتاة لطيفة جداً- وقالت إنَّها كانت في طريقها إلى طهران. تغيير في الوظيفة. عليه عندما ذهبت إلى المملكة المتحدة أخذت هذا العقد وكتبت لها خطاباً. ولكن كان هذا قبل ستة أشهر، ولم ترد بعد."

كان المكان مظلماً في الخارج، لا قمر، عتمة، صحراء كالحة السواد، نقلت طاولات غرفة الطعام اهتزازات العجلات للسكاكين والشوك، وكان المضيفون ينزعون سترات أزيائهم الرسمية المكوية بإتقان، لصلاة العشاء. استأنف المهندس-كان مهندساً- يشرف على بناء حفارات النفط-حكايته الحزينة، حول توقيع عقد لمدة ثلاث سنوات في إيران على أمل ضئيل بمقابلة السكرتيرة.

" ما أحب فعله حقاً هو مقابلة فتاة ثرية، ليست صوفيا لورين، ولكن جميلة ولديها بعض المال. كنت أعرف واحدة- كان والدها يعمل في مجال الصيرفة- ولكنها كانت متحررة، ودائماً ما تتصرف كفتاة صغيرة. لم أستطع تخيل نفسي زوجاً لها! انظر."

الفتاة التي مرت عبر غرفة الطعام قبلاً، عادت لتمر بنا مجدداً. وهذه المرة نظرت لها جيداً، وأفكر إنَّ كان على شخص عاش وحيداً في جبال إيران لأربعة أشهر أن يجد فيها أي شيء من الجاذبية. كان المهندس منتشياً جداً على نحو أشعرنى بالتأثر واليأس.

قال: " يا إلهي، ما قد أفعله معها."

فسألته محاولاً تغيير الموضوع، ماذا يفعل على سبيل التسلية في الموقع؟  
"هناك طاولة سنوكر، ولوح رماية، ولكنهما في حالة سيئة لا تسمح باستخدامهما. على أية حال، حتى إن كانا بحالة جيدة فلن أذهب للنادي. لا أستطيع تحمل رائحة دورات المياه. وهذا هو أحد الأسباب في سفري لطهران، لشراء قليل من مطهر الحمامات هاربيك. اشتريت تسع علب منه.  
"ماذا أفعل؟ حسناً، لنر. في العادة أقرأ- أحب القراءة. وأتعلّم اللغة الفارسية، بعض الأحيان أعمل لوقت إضافي. أستمع للراديو كثيراً. إنَّها حياة هادئة. لذلك أردت مقابلة إحدى الفتيات."  
افترضت أن لبقائه- كما قال لي- طيلة السبع سنوات الماضية في المملكة العربية السعودية، وأبوظبي وإيران أثرها على عزوبيته المزمنة. فاتفق معي بسهولة.  
"ماذا عن المواقير؟"

" لا تناسبي، يا صديقي. أنا أريد فتاة لطيفة مستقرة، نظيفة، جميلة، ذات مال، وتعمل. لدى أخي الكثير منهم. يزعجني هذا الأمر جداً. كانت هناك مصففة شعر نسائية من اوكسبريدج، كانت حسناء، وكانت مجنونة به. وكنت أقيم معه- كنت في إجازة- في شقته في هايز. ولكن هل كان يوليها أيّاً من اهتمامه؟ مطلقاً! في النهاية تركته، وتزوجت شخصاً آخر. لا ألومها. كنت لأحب أن تتاح لي فرصة مع فتاة مثلها. كنت لأخذها للسينما، وأشتري لها الزهور، وأدللها بوجبة رائعة. هذا ما كنت سأفعله. سأحسن معاملتها. ولكن أخي أناني، ولطالما كان كذلك. يريد سيارة كبيرة، وتلفازاً ملوّناً، ولا يهتم سوى نفسه. أما أنا فأهتم بالناس بمختلف مشاربهم.

"لا أعرف لماذا أفعل هذا، ولكن آخر إجازة لي للوطن أنهكتني. وجدت فتاة جميلة، ناسخة على الآلة الكاتبة من تشيستر، وكانت الأمور تمضي جيداً، حتى اتصل بي صديقها السابق وقال إنَّه سيقتلني. فتخلّيت عنها مجبراً.

خلت عربة الطعام الآن. أنهى المضيفون صلواتهم وكانوا يعدّون الطاولات لوجبة الإفطار.  
قلت: "أعتقد أنَّهم يريدون منا أن نغادر الغرفة."

قال المهندس: "أكنّ لهؤلاء الناس احتراماً عظيماً، وبوسعك أن تضحك إن أردت، لكني فكرت في كثير من الأحيان في اعتناق الإسلام."  
"لم أكن لأضحك على هذا."

عليك معرفة القرآن جيداً. وهو ليس بالأمر السهل. لقد كنت أقرأه في الطريق إلى الموقع، وأبقي الأمر سرّاً. إن اكتشف مديري قراءتي القرآن فسوف لن يقبل. سيخالني مجنوناً. ولكني أعتقد أنّ ذلك هو الحل. أن أعتنق الإسلام، أجدد عقدي بعد ثلاث سنوات، وأقابل فتاة فارسية لطيفة. سيكون أمر مقابلتهم سهلاً للغاية إن كنت مسلماً."

اكتسب الحوار صراحة تلقائية، مثله مثل الحوارات التي أجريها مع الكثيرين ممن يصادفونني على متن القطارات وهذا بسبب السفر معاً، وعربة الطعام المريحة، ومعرفة أننا قطعاً لن نلتقي مرة أخرى. كانت السكة حديد عبارة عن بازار خيالي، حيث يتسنى لأي شخص ذي صبر أن يحمل ذكرى يستحضرها سرّاً. كانت الذكريات غير محسومة، ولكنها وفي جميع الأحوال لم تخل من خاتمة، تماماً كأفضل رواية خيالية.

لن يعود المهندس النعس إلى انجلترا أبداً، لأنّه سيصبح واحداً من أولئك المغتربين الذين يختفون في بلدان نائية، بمشاعر غريبة، وضعف تجاه الدين المحلي، غضب غير منطقي، ونوع من الذكرى الشاملة التي تسوق الغرباء الفضوليين بعيداً بعيداً.

كان هنالك ثلاثة أشخاص في مقصورتني، زوج وزوجة كنديان، وطفل دميم كثيف الشعر من أحياء لندن العشوائية، يقصدون أستراليا- الزوجان الكنديان: بسبب: " لم نشعر بالرغبة في تعلّم الفرنسية، لهجة كوكني، لأنّ لندن تؤوي الهنود البؤساء." لابد أنها حقيقة إثنية، أنّ التعصب يدفع للهجرة أكثر مما يفعل الفقر، ولكن ما يثير اهتمامي هو أنّ هؤلاء الثلاثة كانوا ذاهبين إلى أستراليا بالوسيلة الأقل تكلفة، مثل ما يفعل الكثيرون، عبر أفغانستان والهند، ويعيشون كالفقراء الذين كانوا بينهم، يأكلون الطعام الرديء، وينامون في غرف فنادق تسكنها البراغيث، لأنّهم كانوا يرفضون مجتمعاً يخالونه منحلاً.

كان حوارهم مخيفاً. لقد استأجرت بطانية ووسادة من المحصل، الذي طلب رشوة رمزية، وتناولت الجين كمخدر، ونمت.

أيقظني دوي صافرة القطار في وقت مبكر من الصباح التالي على مرأى الجمال ترعى بين الشجيرات البنية اللون، وقطعان كبيرة من الخراف تجمعت معاً على جوانب الهضاب الرملية. كانت القرى قليلة العدد ولكن تصميماتها كانت فائقة للعادة. كانت مسورة ومنخفضة، وتشبه ذلك النوع من القلاع الرملية التي ترى الآباء يشيدونها لأطفالهم على الشواطئ، بدلو ومجرفة. ذات نوافذ صغيرة، وأسوار مفككة، وفرجاتها غير دقيقة، وهي رائعة من على البعد، ومن القرب تبدو آيلة للسقوط. بالكاد تشكل تحدياً سهلاً أمام المتطفلين. جلست النساء القرفصاء أمام الأسوار في وجه الريح العاصفة، يثبتن الحجاب على الوجه بعضّ إحدى زواياه، بالعضّ على القماش حتى لا ينكشف.

بدت ميثيد فجأة في وسط الصحراء، مدينة المساجد ذات القباب الذهبية، ووالمنارات الشامخة البيضاء. تكدس الحجيج في المحطة وهم يخرجون من القطار يجربون حقائب سجاداتهم، وفُرشهم المطوية. تقع هذه المحطة على بعد 4000 ميل من لندن، نهاية الخط: بين هذه المحطة

في أقصى شرق الخطوط الحديدية الإيرانية، والمحطة الباكستانية الصغيرة لاندي كوتال في معبر خيبر. تقع أفغانستان وهي بلد لا تعرف طرقها السكك الحديدية.

بعد ساعة في ميشيد كنت حريصاً على المغادرة. كان شهر رمضان، فترة صيام المسلمين، ولم يكن الطعام يباع أثناء النهار. أكلت الجبنة الإيرانية المطبوخة، ووجدت اثنين من الهيبين، الزعماء الذين يبدو أنهم ضيعوا مجموعتهم. لم يستطيعوا فهم عدم قدرتي على البقاء في ميشيد. "إنها جميلة"، قال أحدهما. إنها رائعة، ومتحررة. يمكنك التسكع هنا."

قلت: "أنا أحاول الوصول إلى باكستان."

فقال الآخر: "عليك عبور أفغانستان أولاً"، كان صغير الحجم، ملتحمياً، ويحمل جيتاراً. "إنها على الطريق"

"تعال معنا إن كنت ترغب في ذلك. سنخرج. لقد سلكنا هذا الطريق مرات كثيرة جداً، نحن نأخذ ذاك القطار فقط، أسدل الستائر، وارتمي." لقد كان يرتدي منامة هندية، وصندلاً وصدرية مطرزة، وعقداً من الخرز، وأساور مثل تركي في رسم من العصر الفيكتوري، ولكن بدون السيف المعقوف أو العمامة. "أسرع إن كنت قادماً، وإلا فلن نلحق بالحافلة."

قلت: "أكره الحافلات."

"اسمع هذا، بوبي؟ إنه يكره الحافلات."

ولكن بوبي لم يجب. كان يحدّق في إحدى الفتيات. أمريكية على الأرجح، كانت في طريقها لمغادرة المحطة. كانت تسير الهويني في زوج من القباقيب الخشبية العالية الكعب.

قال بوبي: "تلك الأحذية تدهشني حقاً، لا تستطيع الفتيات السير فيها حتى. أراهن أنّ الشاب الذي اخترعها سفاح كاره للنساء فعلاً."

أفغانستان مزعجة. كانت في الماضي رخيصة وبربرية، والأشخاص يذهبون إليها لشراء حزم الحشيش، فيمضون أسابيع في فنادق هيرات وكابول القذرة، ويبقون تحت تأثير المخدر. ولكن وقع انقلاب عسكري عام 1973، وعُزل الملك (الذي كان يتشمس في إيطاليا). والآن أفغانستان ليست غالية، ولكنها ليست بربرية كسابق. حتى الهيبين بدأوا يعرفون أنّها غير متسامحة. تنبعث من الطعام رائحة الكوليرا، لم يكن السفر إليها مريحاً قط، وفي بعض الأحيان كان محفوفاً بالمخاطر، والأفغان كسولون وعاطلون وعنيفون. لم أزرها منذ زمن طويل، ندمت على تغيير خطتي لأخذ الطريق الجنوبي. حقاً كانت هنالك حرب في بلوشستان، ولكن بلوشستان كانت صغيرة. عازمت على التعامل مع أفغانستان بسرعة، ووضعت ذلك الانزعاج بين قوسين. ولكن لم يمض أسبوع حتى كنت على متن قطار آخر.

كان مكتب الجمارك مغلقاً أثناء الليل. ولم نستطع العودة إلى الحدود الإيرانية، كما لم نستطع التقدم إلى هيرات. لذا ظللنا في شريط من الأرض، لا هي أفغانستان ولا هي إيران، في فندق لا اسم له. ليس ثمة كهرباء في هذا الفندق، ولا دورة مياه. وكان هنالك ما يكفي من الماء فقط لشرب كوب واحد من الشاي لكل شخص. فرح بوبي وصديقه، الذي كان يستعير اسم لوبيز (اسمه الحقيقي كان موريس)، فرحاً مخيفاً، وعندما أخبرنا الأفغاني في البهو المضاء بالشموع أنّ أسرتنا ستكلف خمسة وثلاثين سنتاً للواحد. طلب لوبيز الحشيش، وقال له الأفغاني إنه لا يوجد، فنعت لوبيز بالقدر. جلب الأفغاني قطعة في حجم براز الكلب، وطفقنا ندخنها في البقية الباقية من ذاك المساء.

حوالي منتصف الليل رن جرس الهاتف في الظلام. قال لوبيز، " إن كان لي قل لهم إنني لست هنا!"

في طريقنا إلى هيرات في اليوم التالي أطلق الراكب الأفغاني النار من بندقيته على سقف الحافلة، ونشبت مشاجرة حول من سيدفع تكلفة إصلاح الثقب.

في اليوم التالي كانت أذناي ما تزالان تطنان من وقع الانفجار في هيرات، بينما كنت أراقب مجموعات الهيببيين الذين وقفوا في الشجيرات الشوكية يتذمرون حول سعر الصرف. في الساعة الثالثة من الصباح التالي سار موكب في الشارع الرئيسي بهيرات، كانت آلات الكورنيت تزغرد، والطبول تدوي: إنه ذلك النوع من الكوابيس الغريبة التي تزور الرجال العجائز في الروايات الألمانية. سألت لوبيز عما إذا كان قد سمع الموكب، ولكنه تجاهل سؤالي. لقد كان قلقاً. قال وهو يصرخ مثل سمسار، ويلوح برسغه المزدان بالأساور، مفصلاً عن أخباره السيئة في إحباط: تم تسعير الدولار بخمسين أفغاني. "إنها خدعة!"

ذهبت بالحافلة والطائرة إلى كابول، عبر مزار شريف. علق بذاكرتي حدثان من كابول: زيارة لملجأ المجانين في كابول، حيث عجزت عن الحصول على إفراج لكندي وضع هناك عن طريق الخطأ (قال إنه لا يمانع البقاء هناك طالما لديه مؤنثته من قوالب الشوكولاتة؛ فذاك أفضل من العودة إلى كندا)، وفي وقت لاحق من ذلك الأسبوع، بينما كنت أمرّ بمخيم أفغاني، ورؤيتي جماً ينهار فجأة تحت وطأة حمولة ثقيلة من الخشب. وبعد لحظة، قفز الأفغاني فحراً الحيوان المسكين وبدأ يسلك جلده. لم أعد أود البقاء أكثر في كابول. فركبت الحافلة متجهاً إلى الشرق، إلى أعلى ممر خيبر. حيث كنت أحاول اللحاق بقطار هناك، في لاندي كوتال، في الطريق إلى بيشاور؛ وأخشى تقويته فليس هناك سوى قطار واحد في الأسبوع، وهو قطار الأحد المحلي المسمى: "132 داون".

-----

## الفصل السادس

### قطار ممر خيبر المحلي

-----

يفوق ممر خيبر من جانب الحدود الأفغانية الجانب الباكستاني بصخريته الزائدة، وارتفاعه، وخطورته، ولكن في تور خام- الحدود- يتحول إلى الخضرة، التي يشعر المرء تجاهها بالامتنان العظيم. كانت أول خضرة مستمرة أراها منذ مغادرة اسطنبول. بداية من ليشن على الواجهات الصخرية، والتجمعات الشاحبة للأعشاب النامية في الشقوق، ثم الشجيرات، والأشجار المنخفضة



المقوسة أغصانها، والخاتمة مع المنحدرات المعشوشبة، تزداد فيها الأوراق بينما يقترب المرء من بيشاور. كان الأمر مثل تغيير موسمي بين ليلة وضحاها. هذه الحركة من المرتفعات الحادة الشكل والمضائق خارج جلال أباد إلى جروف لاندي خانا، التي اتخذت من تجمعات الأزهار البرية التي ضربتها الرياح لحية وشارباً. كان التغيير فجائياً، لا يمكن أن تكون هنالك دول قريبة جداً من بعضها جغرافياً، إلا أنها مختلفة لحد كبير. يزداد المنظر نعومة عندما يبدأ خط الحدود على الخارطة. وجوه الأفغانيين الرمادية، الملفوفة رؤوسهم بعناية في العمام البيضاء تُستبدل بوجوه الباكستانيين المستدقة، والذين يرتدون الصنادل الضيقة، ولديهم شوارب كحثة السحرة، والشخصيات السينمائية الشريرة.

هناك خط حديد خبير، متعة إضافية. بنيت قبل خمسين عاماً بتكلفة باهظة. وهي تحفة هندسية. تشتمل على أربعة وثلاثين نفقاً، واثنين وتسعين قنطرة، وقناة، ويصعد إلى ارتفاع 3600 قدماً. تأمين القطار ممتاز: على جوانب الهضاب فوق القضبان، في مقار وملاجيء، ودوريات خبير تقف في نقاط الحراسة، وتحقق بإهمال في الوديان الزرقاء القاتمة المتضائلة على الحدود الأفغانية المعادية.

لم يكن هناك سوى رحلة واحدة أسبوعياً على خط حديد خبير، وكان الركاب جميعهم حرفياً ممن يسميهم الباكستانيون: "العشائريين"، الكوكي، المالكدين، الكامبار، والزاكا خيل، لا يكادون يتمايزون في ثيابهم الرثة. كانوا يستقلون القطار في زيارتهم الأسبوعية للبازار في بيشاور. إنه متنزه بالنسبة لهم، هذا اليوم في المدينة، لذلك تمتليء الأرض في محطة لاندي كوتال بممر خبير رجال العشائر المتحمسين يسرون صعوداً ونزولاً بأقدام حافية، في انتظار تحرك القطار. وجدت مقعداً في آخر عربة، وراقبت رجال العشائر، الذين كانوا يقتربون من الجنون بلا شك، وهم يتشاجرون على الرصيف مع بعض الشحاذين. كان الشحاذ يعرج باتجاه إحدى العائلات المنتظرة ويمد يده، فيندفع المجنون على الشحاذ منتهراً إياه. تجاهله بعض الشحاذين، ورد له أدهم الضربة، بل صفعه برفق، حتى تدخل أحد أفراد الشرطة.

كان المجنون مسناً، ذا لحية طويلة، ويرتدي معطفاً عسكرياً فضفاضاً، وصندلاً من مطاط إطارات السيارات. فصرخ في رجل الشرطة، وركب القطار، واختار مقعداً قريباً مني وشرع في الغناء. أعجب فعله الركاب، فرفع صوته بالغناء. كان الشحاذون يمرون عبر العربة- المجنومون، والمكفوفون يقودهم صبية صغار، والمعتمدون على ركائز أو عصي- إنه الموكب العادي لبؤساء الريف. ينتقلون بين أطراف العربة، وهم يئنون، ويتأهون. يراقبهم الركاب بشيء من الاهتمام، ولكن لم يعطهم أحد شيئاً. يحمل الشحاذون فئات الخبز الجاف في علب من القصدير. أغاظهم المجنون: بعبوسه في وجه رجل أعمى؛ وصرخ في وجه أعرج. فضحك الركاب؛ ومر الشحاذون مروراً.

ركب رجل بيد واحدة. وقف يزهو بذراعه السليمة، يبرز بقية عظمه الذي امتد لمسافة أربع بوصات من كتفه.

"الله كبير! انظروا، خسرت يدي! قدموا شيئاً لنفسي الكسيرة!"

"ارحل، أيها الأجدع!" هتف المجنون.

قال ذو اليد الواحدة: "أرجوكم، اعطوني" وبدأ ينزل من العربة.

تصدى المجنون للرجل متحدياً: " اذهب بعيداً، غبي! لا نريدك هنا!" وبينما كان يفعل ذلك، هجم عليه الرجل ولطمه بشدة على جانب رأسه، فاضطره للتقهقر حتى سقط في مقعده. وعندما غادر الرجل ذو اليد الواحدة، استأنف المجنون غناؤه. ولكنه لم يجد من يسمعه هذه المرة. ترجم هذا الحوار رجلان يجلسان بجانب: السيد حق، والسيد حسن. السيد حق رجل في الخامسة والستين من عمره، وكان محامياً في لاهور. أما السيد حسن فهو من بيشاور وصديق له. وصلا للتو من الحدود حيث "كانا يجريان بعض الاستفسارات" كما قال السيد حق.

قال السيد حسن: " ستحبّ بيشاور، إنها بلدة صغيرة جميلة." قال السيد حق: " أود مقاطعة صديقي العارف بقولي إنه لا يعرف عن أي شيء يتحدث، أنا رجل مسن- وأعرف ما أقول. بيشاور ليست بلدة جميلة على الإطلاق. لقد كانت في السابق نعم، ولكن ليس الآن. أرادت كل من الحكومة الأفغانية والحكومة الروسية الاستيلاء عليها. أخذ الروس والهنود قطعة من باكستان، والتي يسمونها بنغلاديش. حسناً كانت بيشاور جميلة في وقت ما مضى. إنها مدينة تاريخية، لكن لا أعرف ماذا سيحدث لنا."

بدأ القطار يتحرك، والمجنون الآن يغيظ طفلاً صغيراً تبين أنه كان مسافراً وحده، أما رجال العشائر فيضع كل منهم مرفقه على النافذة. كانت رحلة غريبة، تمتليء فيها العربة في لحظة ما بأشعة الشمس، وفي الخارج يتحول رأس الوادي إلى منظر مضيق حجري متداع، وفي اللحظة التالية يعمنا الظلام، هنالك ثلاثة أميال من الأنفاق على خط خبير الحديدي، وبمّا أنه ليس ثمة إنارة بالقطار رافقنا الظلام أثناء هذه الأميال الثلاثة.

قال السيد حق: "إنني أربغ بشدة في الحديث إليك، لقد زرت كابول. هل لك أن تخبرني ما إذا كانت آمنة؟"

فأخبرته إنني رأيت الكثير من الجنود، ولكنني أفترض أنّ وجودهم بسبب الانقلاب العسكري. أفغانستان كانت تحكم بالأوامر.

"حسناً، لدي مشكلة، وأنا رجل كبير السن، لذلك أحتاج للمشورة." كانت المشكلة هي: طفل باكستاني، يمت بصلة قرابة بعيدة للسيد حق، أُعتقل في كابول. مع الصعوبات في الحصول على العملات الأجنبية، واستحالة السفر إلى الهند، لا يجد الباكستانيون وجهة يقصدونها لقضاء العطلات سوى أفغانستان. اعتقد السيد حق أنّ الطفل قد يكون معتقلاً بسبب حيازة الحشيش، وأنّه سئل عما إذا كان ذاهباً لكابول لمعرفة مدى إمكانية الإفراج عن الطفل. ولكنه لم يكن متيقناً من رغبته في الذهاب.

" اخبرني. خذ القرار."

قلت له إنني كنت سأضع الأمر في يد السفارة الباكستانية في كابول. "لدينا علاقات دبلوماسية على الصعيد الرسمي، ولكن الجميع يعرف أنّ العلاقات مقطوعة. لا أستطيع فعل ذلك."

" إذن عليك الذهاب."

"وماذا إن أُعتقلت؟"

" لم قد يفعلون ذلك؟"

" قد يعتقدون أنني جاسوس، نحن نكاد نكون في حالة حرب مع أفغانستان على مسألة باختونستان."

كانت مسألة الباختونستان مجموعة من قرى يسكنها رجال العشائر المسلحين الأفغان، المدعومون من قبل روسيا وأفغانستان، والذين كانوا يهددون بالانفصال عن باكستان وإعلان دولة جديدة، ويكسبون دخلهم من الفواكه المجففة، وقد أصبحت قوة سيادية، سينافس المحاربون المحررون في السوق العالمية لمنتجات الزبيب والخوخ المجفف.

قلت: "أنصحك بعدم الذهاب."

قال السيد حق: " كيف تقول ذلك؟! ماذا عن الصبي؟ إنه قريبي- عائلته في قلق شديد. أود أن أسألك سؤالاً آخر. هل تعرف سجن كابول؟"

أجبت بالنفي، ولكني رأيت ملجأ المجانين، ولم أجده مشجعاً.

"سجن كابول، اسمع، سأخبرك. كان قد بني في عام 1626 من قبل الملك بربر. حسناً إنهم يسمونه سجنًا، ولكنه عدد من الحفر في الأرض، مثل الآبار العميقة. يضعون فيها النزلاء. وفي الليل يضعون فوقها أغطية. هذه هي الحقيقة. لا يقدمون طعاماً. قد يكون الطفل ميتاً. لا أعرف ما علي فعله."

دمدم بكلمات باللغة الأوردية مع السيد حسن، بينما التقطت أنا بعض الصور للوديان. دخلنا في الأنفاق، منشأة عبر مواقف في المحطات المتراجعة، وفوقنا بروج محصنة واستحكامات مدفعية، تلمع في شمس الظهيرة. تبدو كرحلة مستحيلة على القطار. يتمايل قطار 132-داون على جنبات الجرف، فيزداد معدل التنفس، وعندما لا يكون أمامنا سوى الهواء، ثم تعترض طريق القطار صخرة رأسية، فجأة ينحرف القطار داخل الجبل. يمر عبر مغارة، ويوقظ الخفافيش التي ينزل عليها العشائريون ضرباً بالعصي من خلال النوافذ.

ثم يغمرنا ضوء الشمس من جديد، نجتاز قلعة مسجد علي، ونحن نسير على قمة عالية، وعقب ذلك بساعة، بعد عشرين انعطافة حادة، نسير على منحدر ألطف في حي جمرود. وفوق جمرود تقع قلعة الضخمة، بأسوارها التي يبلغ سمكها عشرة أقدام، وتواجه معاقلها أفغانستان.

خرج بعض العشائريين في جامرود، فتحوّل السيد حسن إلى الملاحظة: " نحن نعمل ما بوسعنا معهم، وهم كانوا سريعي الاستجابة"

عاد إلى الصمت مرة أخرى، ولم يتحدث حتى وصلنا إلى ضواحي بيشاور، بجانب طريق للعربات التي تجرها الخيول، والسيارات البالية المصلصلة. هنا، أصبحت الأرض مسطحة، وخضراء، وأشجار النخيل باسقة؛ كانت أشد حرارة مما كانت عليه كابول على الأرجح، ولكن كثرة الظلال الخضراء جعلتها تبدو أكثر اعتدالاً. وخلفنا هبطت الشمس لمستقر لها، واكتست قمم ممر خيبر باللون البنفسجي الفاتح في ضباب أرجواني رائع الجمال - كزهر- وبدأ له عبق.

قال السيد حق عندما وصل إلى محطة معسكر بيشاور: إنّ لديه عمل هنا- "علي أنّ أتخلص من مشكلتي الكبيرة، لكن دعنا نلتق لاحقاً، سوف لن أرهاقك بمشاكلي. سوف نحتسي الشاي ونحدث عن القضايا العالمية."

بيشاور مدينة جميلة. كنت لأنتقل إليها بكل سعادة، وأستقر في إحدى الفرندات، وأمضي سنوات عمري وأنا أراقب الغروب في ممر خيبر. تُعد منازل بيشاور الواسعة، جميعها نماذج مثالية

للعماراة الأنجلوإسلامية القوطية، تمتد على طوال شوارعها الهادئة تحت الأشجار الظليلة: المكان المناسب للتعافي من تجربة كابول الصادمة.

قم بإيقاف تونغنا من المحطة، لتأخذك إلى الفندق. حيث تجد في الفرندة مقاعد ذات امتدادات معلقة لإراحة القدمين وتحسين دوران الدم.

يجلب لك النادل النشاط قارورة كبيرة من جعة موريه اكسبورت لاجير. كان الفندق خالياً؛ والضيوف الآخرون غامروا برحلة مضنية إلى سوات أملاً في استقبال سمو الوالي. تنام نوماً هائناً تحت خيمة من شبكة الحماية من الناموس، وتوقظك الطيور المغردة لتتناول فطوراً إنجليزياً يبدأ بالعصيدة وينتهي بكلمة. عقب ذلك تأخذ التونغنا<sup>7</sup> للمتحف.

كيف حملت والدته بوذا به، ربما تتساءل. هنالك جدارية جرايكوبوذية في متحف بيشاور تصوّر والدته بوذا وهي تستلقي على جانبها، وتحمل به من ضلعها عن طريق ما يشبه قناة بالون هواء ساخن معلق فوقها. في لوحة أخرى يظهر الطفل بوذا وهو يقفز من فتحة في جنبها- ميلاد بكامل الطاقة الكافية لقفزة عريضة. وكذلك لوحة أخرى يظهر فيها بوذا وهو يستلقي وسط شخصيات من الحضور، وكان يركع مصلياً: وضع بطاقة عيد الميلاد المعتاد منحوت برقة على الحجر بوجوه تقليدية. أما أشد القطع تأثيراً فهي نحت على الحجر بطول ثلاثة أقدام لشيخ يجلس في وضعية اللوتس. الرجل صائم: عيناه غائرتان، وقفصه الصدري بارز، وركبته معقودتان، وبطنه فارغ. يبدو أقرب إلى الموت ولكن ملامحه مشرقة. إنه أدق ما رأيت من حفر على الجرانيت لجسد نحيل، ومراراً وتكراراً في الهند وباكستان، كنت أرى الجسد ذاته، في الأبواب والمداخل، وأمام الأكواخ، وراكعاً مقابل أعمدة محطات القطارات، ويضفي الجوع مسحة من القداسة على الوجه النحيل.

على مسافة قصيرة من المتحف، عندما كنت أشتري بعض أعواد الثقاب من أحد الحوانيت. عُرض علي المورفين. تساءلت ما إذا كنت سمعت العرض جيداً وطلبت أن أراه، فأخرج الرجل من علبة ثقاب (ربما كانت "أعواد الثقاب" هي كلمة السر؟) وسحبها فاتحاً إياها. كانت بداخلها قارورة صغيرة، عليها عبارة سولفات المورفين، عشرة أقراص بيضاء. قال الرجل إنها تؤخذ في الذراع، وأخبرني أنّ بوسعي الحصول على الكمية بكاملها مقابل عشرين دولاراً. فأعطيته خمسة دولارات وضحكت، ولكنه رأى أنّه تعرض للسخرية. فالتفت بفضاضة، وطلب مني أن أبتعد.

كنت أود الانتظار لفترة أطول في بيشاور. أحببت الاسترخاء في الفرندة، أهرز صحيفتي، وأراقب عربات التونغنا وهي تمرّ، واستمتعت بسماع الباكستانيين يناقشون مسألة الحرب مع أفغانستان. كانوا في قلق وانزعاج، ولكنني شجعتهم وقلت لهم سأتمنى لهم التوفيق من كل قلبي إن همّوا بغزو ذلك البلد الهمجي. فاجأهم ردي المطمئن السريع، ولكنهم رأوا فيّ الإخلاص. "أمل أن تساعدنا" قال أحدهم. شرحت له أنني لم أكن جندياً ماهراً. فقال: "لا أعني بصفة شخصية، بل أمريكا عموماً." فقلت له أنني لا أستطيع أن أعدهم بالدعم الوطني، ولكنني سأذكرهم بالخير عندهم. كل شيء سهل في بيشاور باستثناء شراء تذكرة قطار، فهذا عمل صباحي، ومرهق. أولاً عليك الاستفسار عن جدول الخطوط الباكستانية الغربية، ثم العثور على قطار خبير الذي يغادر في

<sup>7</sup> عربة تجرها الخيول.

الساعة الرابعة. ثم الذهاب إلى نافذة الاستعلامات وسيقال لك إنه يغادر في الساعة 9:50 مساءً. سيرسلك موظف الاستعلامات إلى قسم الحجز. الرجل في قسم الحجز لن يكون موجوداً، ولكن سيقول عامل النظافة إنه سيعود سريعاً، فيعود في غضون ساعة ويساعدك على اتخاذ قرار بشأن الدرجة. ويكتب اسمك في دفتر ويعطيك إيصالاً. وأنت تأخذ الإيصال إلى التذاكر، حيث تحصل على تذكرتين مقابل 108 روبية (حوالي 10 دولارات)، وإيصال موقع بالأحرف الأولى. سوف تعود إلى قسم الحجز، وتنتظر حتى يعود الرجل مرة أخرى. ثم يعود، ويوقع التذاكر بالأحرف الأولى، ويفحص الإيصال، ويكتب التفاصيل على دفتر أستاذ بحجم ستة أقدام مربعة تقريباً. لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة، فالرجل الذي يعمل في قسم الحجز أخبرني بعدم توفر شراشف في قطار خير. افترضت أنه كان يحاول الحصول على بقشيش، فأعطيته ست روبيات لإيجاد مفرش لي. وبعد عشرين دقيقة قال إنها محجوزة بالكامل. كان يعتذر بشدة. وطلبت إعادة رشوتي. فقال: " كما تحب."

في وقت لاحق من ذلك اليوم وصلت إلى حلٍ مثالي. كنت أقيم في فندق دين، واحد من سلسلة فنادق ضمنها فندق فليتي في لاهور. اضطررت للإلحاح على أحد الموظفين بشدة، ولكنه في النهاية وافق على منحي ما أردت من شراشف. كنت لأعطيه ستين روبية وكان سيعطيني إيصالاً. في لاهور كنت أقدم المفروش والإيصال لموظف فليتي ويعيد لي الستين روبية. كانت صيغة الإيصال كالتالي:

رجاءً اعد لهذا الرجل مبلغ 60/ (فقط ستين روبية)، إن قدم لك هذا الإيصال وبطانية واحدة وملاءة واحدة ووسادة واحدة ووردها في حساب فندق دين ببشاور.

&&&&&&&

بازار السكك الحديدية الكبير  
عبر آسيا على متن القطار  
تأليف: بول ثيرو  
ترجمة: أميمة قاسم

-----

## الفصل السادس

قطار ممر خير المحلي

-----

يفوق ممر خيبر من جانب الحدود الأفغانية الجانب الباكستاني بصخريته الزائدة، وارتفاعه، وخطورته، ولكن في تور خام- الحدود- يتحول إلى الخضرة، التي يشعر المرء تجاهها بالامتنان العظيم. كانت أول خضرة مستمرة أراها منذ مغادرة اسطنبول. بداية من ليشن على الواجهات الصخرية، والتجمعات الشاحبة للأعشاب النامية في الشقوق، ثم الشجيرات، والأشجار المنخفضة المقوسة أغصانها، والخاتمة مع المنحدرات المعشوشبة، تزداد فيها الأوراق بينما يقترب المرء من بيشاور. كان الأمر مثل تغيير موسمي بين ليلة وضحاها. هذه الحركة من المرتفعات الحادة الشكل والمضائق خارج جلال أباد إلى جروف لاندي خانا، التي اتخذت من تجمعات الأزهار البرية التي ضربتها الرياح لحية وشارباً. كان التغيير فجائياً، لا يمكن أن تكون هنالك دول قريبة جداً من بعضها جغرافياً، إلا أنها مختلفة لحد كبير. يزداد المنظر نعومة عندما يبدأ خط الحدود على الخارطة. وجوه الأفغانيين الرمادية، الملفوفة رؤوسهم بعناية في العمام البيضاء تُستبدل بوجوه الباكستانيين المستدقة، والذين يرتدون الصنادل الضيقة، ولديهم شوارب كثالة السحرة، والشخصيات السينمائية الشريرة.

هناك خط حديد خيبر، متعة إضافية. بنيت قبل خمسين عاماً بتكلفة باهظة. وهي تحفة هندسية. تشتمل على أربعة وثلاثين نفقاً، واثنين وتسعين قنطرة، وقناة، ويصعد إلى ارتفاع 3600 قدماً. تأمين القطار ممتاز: على جوانب الهضاب فوق القضبان، في مقار وملاجيء، ودوريات خيبر تقف في نقاط الحراسة، وتحقق بإهمال في الوديان الزرقاء القاتمة المتضائلة على الحدود الأفغانية المعادية.

لم يكن هناك سوى رحلة واحدة أسبوعياً على خط حديد خيبر، وكان الركاب جميعهم حرفياً ممن يسميهم الباكستانيون: "العشائريين"، الكوكي، المالكدين، الكامبار، والزاكا خيل، لا يكادون يتمايزون في ثيابهم الرثة. كانوا يستقلون القطار في زيارتهم الأسبوعية للبازار في بيشاور. إنه متنزه بالنسبة لهم، هذا اليوم في المدينة، لذلك تمتليء الأرصفة في محطة لاندي كوتال بممر خيبر برجال العشائريين المتحمسين يسرون صعوداً ونزولاً بأقدام حافية، في انتظار تحرك القطار. وجدت مقعداً في آخر عربة، وراقبت رجال العشائريين، الذين كانوا يقتربون من الجنون بلا شك، وهم يتشاجرون على الرصيف مع بعض الشحاذين. كان الشحاذ يعرج باتجاه إحدى العائلات المنتظرة ويمد يده، فيندفع المجنون على الشحاذ منتهراً إياه. تجاهله بعض الشحاذين، وردّ له أحدهم الضربة، بل صفعه برفق، حتى تدخل أحد أفراد الشرطة.

كان المجنون مسناً، ذا لحية طويلة، ويرتدي معطفاً عسكرياً فضفاضاً، وصندلاً من مطاط إطارات السيارات. فصرخ في رجل الشرطة، وركب القطار، واختار مقعداً قريباً مني وشرع في الغناء. أعجب فعله الركاب، فرفع صوته بالغناء. كان الشحاذون يمرون عبر العربة- المجذومون، والمكفوفون يقودهم صبية صغار، والمعتمدون على ركائز أو عصي- إنه الموكب العادي لبؤساء الريف. ينتقلون بين أطراف العربة، وهم يئنون، ويتأوهون. يراقبهم الركاب بشيء من الاهتمام، ولكن لم يعطهم أحد شيئاً. يحمل الشحاذون قنات الخبز الجاف في علب من القصدير. أغاظهم المجنون: بعبوسه في وجه رجل أعمى؛ وصرخ في وجه أعرج. فضحك الركاب؛ ومروا.

ركب رجل بيد واحدة. وقف يزهو بذراعه السليمة، يبرز بقية عظمه الذي امتد لمسافة أربع بوصات من كتفه.

"الله كبير! انظروا، خسرت يدي! قدموا شيئاً لنفسي الكسيرة!"  
"ارحل، أيها الأجدع!" هتف المجنون.

قال ذو اليد الواحدة: "أرجوكم، اعطوني" وبدأ ينزل من العربة. تصدى المجنون للرجل متحدياً: " اذهب بعيداً، غبي! لا نريدك هنا!" وبينما كان يفعل ذلك، هجم عليه الرجل ولطمه بشدة على جانب رأسه، فاضطره للتقهقر حتى سقط في مقعده. وعندما غادر الرجل ذو اليد الواحدة، استأنف المجنون غناؤه. ولكنه لم يجد من يسمعه هذه المرة. ترجم هذا الحوار رجلان يجلسان بجانب: السيد حق، والسيد حسن. السيد حق رجل في الخامسة والستين من عمره، وكان محامياً في لاهور. أما السيد حسن فهو من بيشاور وصديق له. وصلا للتو من الحدود حيث "كانا يجريان بعض الاستفسارات" كما قال السيد حق.

قال السيد حسن: " ستحبّ بيشاور، إنها بلدة صغيرة وجميلة." قال السيد حق: " أود مقاطعة صديقي العارف بقولي إنه لا يعرف عن أي شيء يتحدث، أنا رجل مسن- وأعرف ما أقول. بيشاور ليست بلدة جميلة على الإطلاق. لقد كانت في السابق نعم، ولكن ليس الآن. أرادت كل من الحكومة الأفغانية والحكومة الروسية الاستيلاء عليها. أخذ الروس والهنود قطعة من باكستان، والتي يسمونها بنغلاديش. حسناً كانت بيشاور جميلة في وقت ما مضى. إنها مدينة تاريخية، لكن لا أعرف ماذا سيحدث لنا."

بدأ القطار يتحرك، والمجنون الآن يغيظ طفلاً صغيراً تبين أنه كان مسافراً وحده، أما رجال العشائر فيضع كل منهم مرفقه على النافذة. كانت رحلة غريبة، تمتلئ فيها العربة في لحظة ما بأشعة الشمس، وفي الخارج يتحول رأس الوادي إلى منظر مضيق حجري متداع، وفي اللحظة التالية يعمنا الظلام، هنالك ثلاثة أميال من الأنفاق على خط خبير الحديدي، وبمّا أنه ليس ثمة إنارة بالقطار رافقنا الظلام أثناء هذه الأميال الثلاثة.

قال السيد حق: "إنني أرغب بشدة في الحديث إليك، لقد زرت كابول. هل لك أن تخبرني ما إذا كانت آمنة؟"

فأخبرته إنني رأيت الكثير من الجنود، ولكنني أفترض أنّ وجودهم بسبب الانقلاب العسكري. أفغانستان كانت تحكم بالأوامر.

"حسناً، لدي مشكلة، وأنا رجل كبير السن، لذلك أحتاج للمشورة." كانت المشكلة هي: طفل باكستاني، يمت بصلة قرابة بعيدة للسيد حق، أُعتقل في كابول. مع الصعوبات في الحصول على العملات الأجنبية، واستحالة السفر إلى الهند، لا يجد الباكستانيون وجهة يقصدونها لقضاء العطلات سوى أفغانستان. اعتقد السيد حق أنّ الطفل قد يكون معتقلاً بسبب حيازة الحشيش، وأنّه سئل عما إذا كان ذاهباً لكابول لمعرفة مدى إمكانية الإفراج عن الطفل. ولكنه لم يكن متيقناً من رغبته في الذهاب.

" اخبرني. خذ القرار."

قلت له إنني كنت سأضع الأمر في يد السفارة الباكستانية في كابول.

"لدينا علاقات دبلوماسية على الصعيد الرسمي، ولكن الجميع يعرف أنّ العلاقات مقطوعة. لا أستطيع فعل ذلك."

" إذن عليك الذهاب."

"وماذا إن أُعتقلت؟"

" لم قد يفعلون ذلك؟"

" قد يعتقدون أنني جاسوس، نحن نكاد نكون في حالة حرب مع أفغانستان على مسألة باختونستان."

كانت مسألة الباختونستان مجموعة من قرى يسكنها رجال العشائر المسلحين الأفغان، المدعومون من قبل روسيا وأفغانستان، والذين كانوا يهددون بالانفصال عن باكستان وإعلان دولة جديدة، ويكسبون دخلهم من الفواكه المجففة، وقد أصبحت قوة سيادية، سينافس المحاربون المحررون في السوق العالمية لمنتجات الزبيب والخوخ المجفف.

قلت: "أنصحك بعدم الذهاب."

قال السيد حق: " كيف تقول ذلك؟! ماذا عن الصبي؟ إنه قريبي- عائلته في قلق شديد. أود أن أسألك سؤالاً آخر. هل تعرف سجن كابول؟"

أجبت بالنفي، ولكني رأيت ملجأ المجانين، ولم أجده مشجعاً.

"سجن كابول، اسمع، سأخبرك. كان قد بني في عام 1626 من قبل الملك بربر. حسناً إنهم يسمونه سجنًا، ولكنه عدد من الحفر في الأرض، مثل الآبار العميقة. يضعون فيها النزلاء. وفي الليل يضعون فوقها أغطية. هذه هي الحقيقة. لا يقدمون طعاماً. قد يكون الطفل ميتاً. لا أعرف ما علي فعله."

دمدم بكلمات باللغة الأوردية مع السيد حسن، بينما التقطت أنا بعض الصور للوديان. دخلنا في الأنفاق، منشأة عبر مواقف في المحطات المتراجعة، وفوقنا بروج محصنة و استحكامات مدفعية، تلمع في شمس الظهيرة. تبدو كرحلة مستحيلة على القطار. يتمايل قطار 132-داون على جنبات الجرف، فيزداد معدل التنفس، وعندما لا يكون أمامنا سوى الهواء، ثم تعترض طريق القطار صخرة رأسية، فجأة ينحرف القطار داخل الجبل. يمر عبر مغارة، ويوقظ الخفافيش التي ينزل عليها العشائريون ضرباً بالعصي من خلال النوافذ.

ثم يغمرنا ضوء الشمس من جديد، نجتاز قلعة مسجد علي، ونحن نسير على قمة عالية، وعقب ذلك بساعة، بعد عشرين انعطافة حادة، نسير على منحدر ألطف في حي جمرود. وفوق جمرود تقع قلعته الضخمة، بأسوارها التي يبلغ سمكها عشرة أقدام، وتواجه معاقلها أفغانستان.

خرج بعض العشائريين في جامرود، فتحول السيد حسن إلى الملاحظة: " نحن نعمل ما بوسعنا معهم، وهم كانوا سريعي الاستجابة"

عاد إلى الصمت مرة أخرى، ولم يتحدث حتى وصلنا إلى ضواحي بيشاور، بجانب طريق للعربات التي تجرها الخيول، والسيارات البالية المصلصلة. هنا، أصبحت الأرض مسطحة، وخضراء، وأشجار النخيل باسقة؛ كانت أشد حرارة مما كانت عليه كابول على الأرجح، ولكن كثرة الظلال الخضراء جعلتها تبدو أكثر اعتدالاً. وخلفنا هبطت الشمس لمستقر لها، واكتست قمم ممر خيبر باللون البنفسجي الفاتح في ضباب أرجواني رائع الجمال -كزهر- وبدا له عبق.



قال السيد حق عندما وصل إلى محطة معسكر بيشاور: إنّ لديه عمل هنا- "علي أنّ أتخلص من مشكلتي الكبيرة، لكن دعنا نلتق لاحقاً، سوف لن أرهقك بمشاكلي. سوف نحتسي الشاي ونتحدث عن القضايا العالمية."

بيشاور مدينة جميلة. كنت لأنتقل إليها بكل سعادة، وأستقر في إحدى الفرندات، وأمضي سنوات عمري وأنا أراقب الغروب في ممر خيبر. تُعد منازل بيشاور الواسعة، جميعها نماذج مثالية للعمارة الأنجلوإسلامية القوطية، تمتد على طوال شوارعها الهادئة تحت الأشجار الظليلة. المكان المناسب للتعافي من تجربة كابول الصادمة.

قم بإيقاف تونغاً من المحطة، لتأخذك إلى الفندق. حيث تجد في الفرندة مقاعد ذات امتدادات معلقة لإراحة القدمين وتحسين دوران الدم.

يجلب لك النادل النشاط قارورة كبيرة من جعة موريه اكسبورت لاجير. كان الفندق خالياً؛ والضيوف الآخرون غامروا برحلة مضنية إلى سوات أملاً في استقبال سمو الوالي. تنام نوماً هائناً تحت خيمة من شبكة الحماية من الناموس، وتوقظك الطيور المغردة لتتناول فطوراً إنجليزياً يبدأ بالعصيدة وينتهي بكّلية. عقب ذلك تأخذ التونغاً<sup>8</sup> للمتحف.

كيف حملت والدّة بوذا به، ربما تتساءل. هنالك جدارية جرايكوبوذية في متحف بيشاور تصوّر والدّة بوذا وهي تستلقي على جانبها، وتحمل به من ضلعها عن طريق ما يشبه قناة بالون هواء ساخن معلق فوقها. في لوحة أخرى يظهر الطفل بوذا وهو يقفز من فتحة في جنبها- ميلاد بكامل الطاقة الكافية لقفزة عريضة. وكذلك لوحة أخرى يظهر فيها بوذا وهو يستلقي وسط شخصيات من الحضور، وكان يركع مصلياً: وضع بطاقة عيد الميلاد المعتاد منحوت برقة على الحجر بوجوه تقليدية. أما أشد القطع تأثيراً فهي نحت على الحجر بطول ثلاثة أقدام لشيخ يجلس في وضعية اللوتس. الرجل صائم: عيناه غائرتان، وقصصه الصدري بارز، وركبته معقودتان، وبطنه فارغ. يبدو أقرب إلى الموت ولكن ملامحه مشرقة. إنّهُ أدق ما رأيت من حفر على الجرانيت لجسد نحيل، ومراراً وتكراراً في الهند وباكستان، كنت أرى الجسد ذاته، في الأبواب والمداخل، وأمام الأكواخ، وراكعاً مقابل أعمدة محطات القطارات، ويضفي الجوع مسحة من القداسة على الوجه النحيل.

على مسافة قصيرة من المتحف، عندما كنت أشتري بعض أعواد الثقاب من أحد الحوانيت. عُرض علي المورفين. تساءلت ما إذا كنت سمعت العرض جيداً وطلبت أن أراه، فأخرجه الرجل من علبة ثقاب (ربما كانت "أعواد الثقاب" هي كلمة السر؟) وسحبها فاتحاً إياها. كانت بداخلها قارورة صغيرة، عليها عبارة سولفات المورفين، عشرة أقراص بيضاء. قال الرجل إنّها تؤخذ في الذراع، وأخبرني أنّ بوسعي الحصول على الكمية بكاملها مقابل عشرين دولاراً. فأعطيته خمسة دولارات وضحكت، ولكنه رأى أنّه تعرض للسخرية. فالتفت بفضاظة، وطلب مني أن أبتعد.

كنت أود الانتظار لفترة أطول في بيشاور. أحببت الاسترخاء في الفرندة، أهرز صحيفتي، وأراقب عربات التونغاً وهي تمرّ، واستمتعت بسماع الباكستانيين يناقشون مسألة الحرب مع أفغانستان. كانوا في قلق وانزعاج، ولكنني شجعتهم وقلت لهم سأتمنى لهم التوفيق من كل قلبي إن همّوا بغزو

<sup>8</sup> عربة تجرها الخيول.

ذلك البلد الهمجي. فاجأهم ردي المطمئن السريع، ولكنهم رأوا في الإخلاص. " أمل أن تساعدنا " قال أحدهم. شرحت له أنني لم أكن جندياً ماهراً. فقال: " لا أعني بصفة شخصية، بل أمريكا عموماً. " فقلت له إنني لا أستطيع أن أعدهم بالدعم الوطني، ولكنني سأذكركم بالخير عندهم. كل شيء سهل في بيشاور باستثناء شراء تذكرة قطار، فهذا عمل صباحي، ومرهق. أولاً عليك الاستفسار عن جدول الخطوط الباكستانية الغربية، ثم العثور على قطار خبير الذي يغادر في الساعة الرابعة. ثم الذهاب إلى نافذة الاستعلامات وسيقال لك إنه يغادر في الساعة 9:50 مساءً. سيرسلك موظف الاستعلامات إلى قسم الحجز. الرجل في قسم الحجز لن يكون موجوداً، ولكن سيقول عامل النظافة إنه سيعود سريعاً، فيعود في غضون ساعة ويساعدك على اتخاذ قرار بشأن الدرجة. ويكتب اسمك في دفتر ويعطيك إيصالاً. وأنت تأخذ الإيصال إلى التذاكر، حيث تحصل على تذكرتين مقابل 108 روبية (حوالي 10 دولارات)، وإيصال موقع بالأحرف الأولى. سوف تعود إلى قسم الحجز، وتنتظر حتى يعود الرجل مرة أخرى. ثم يعود، ويوقع التذاكر بالأحرف الأولى، ويفحص الإيصال، ويكتب التفاصيل على دفتر أستاذ بحجم ستة أقدام مربعة تقريباً. لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة، فالرجل الذي يعمل في قسم الحجز أخبرني بعدم توفر شراشف في قطار خبير. افترضت أنه كان يحاول الحصول على بقشيش، فأعطيته ست روبيات لإيجاد مفرش لي. وبعد عشرين دقيقة قال إنها محجوزة بالكامل. كان يعتذر بشدة. وطلبت إعادة رشوتي. فقال: " كما تحب. "

في وقت لاحق من ذلك اليوم وصلت إلى حلٍ مثالي. كنت أقيم في فندق دين، واحد من سلسلة فنادق ضمنها فندق فليتي في لاهور. اضطررت للإلحاح على أحد الموظفين بشدة، ولكنه في النهاية وافق على منحي ما أردت من شراشف. كنت لأعطيه ستين روبية وكان سيعطيني إيصالاً. في لاهور كنت أقدم المفروش والإيصال لموظف فالي تي ويعيد لي الستين روبية. كانت صيغة الإيصال كالتالي:

رجاءً اعد لهذا الرجل مبلغ 60/ (فقط ستين روبية)، إن قدم لك هذا الإيصال وبطانية واحدة وملاءة واحدة ووسادة واحدة ووردها في حساب فندق دين بيشاور.

-----

## الفصل السابع

### قطار خبير إلى تقاطع لاهور

-----

ساعدني راشد- المحصل في عربة النوم- على إيجاد مقصورتني، وبعد لحظة من التردد طلب مني النظر إلى سنيّه، وقال إنها كانت تؤلمه. لم يكن الطلب مفاجئاً، فقد أخبرته أنني كنت طبيب أسنان. بدأت أشعر بالإرهاق من الأسئلة الآسيوية: من أي بلد أنت؟ وماذا تعمل؟ متزوج أم أعزب؟ لديك أطفال؟ جعلني هذا الإلحاح في الأسئلة أتصرف بغموض وتكنم وغباء، ومؤلفاً للقصص الخيالية. سوى راشد الفراش وفتح فمه، مثبتاً شفته للأسفل حتى يريني ناباً نخره التسوس.

قلت له: من الأفضل أن تعرض نفسك على طبيب في كراتشي، وحتى تفعل ذلك أمضغ الطعام بالجانب الآخر."

فقال راضياً عن نصيحتي (أعطيته قرصين من الإسبرين أيضاً): " سترتاح جداً هنا. العربات الألمانية، عمرها خمسة عشر عاماً، ثقيلة كما ترى لذلك لا تهتز. "

لم يستغرق العثور على مقصورتي طويل وقت. والركاب يشغلون ثلاث مقصورات فقط. الاثنان الأخريان بهما ضباط جيش- ومقصورتني، واسمي على الباب، مطبوع بخط كبير على ديباجة. والآن أستطيع من دخولي أحد القطارات معرفة كيف ستكون الرحلة التي تنتظرنا على متنها.

ساورتني على قطار خبير مشاعر الخيبة لقصر الرحلة- فقط اثنتا عشرة ساعة حتى لاهور. تمنيت لو أنها تطول: لدي كل ما أحتاجه. المقصورة واسعة، وجيدة الإنارة، ومريحة وبها دورة مياه ومغسلة في غرفة ملحقة. كانت لدي طاولة قابلة للطي، ومقعد متقن التجديد، ومرآة، ومنفضة سجائر، وحامل من الكروم لقوارير الجين، والتحف. كنت وحدي ولكن إن أردت الرفقة بوسعي السير إلى غرفة الطعام، أو التسكع في الممر مع ضباط الجيش. راكب القطار غير مطالب بأي شيء، أما راكب الطائرة فيقيد في مقعد ضيق لساعات، وتتطلب السفن روحاً معنوية مرتفعة وقدراً من الانفتاح الاجتماعي، أما السيارات والحافلات فصامتة. عربات النوم هي أشد أساليب السفر راحة. وقد كتب روبرت لويس ستيفنسن في كتابه: في الجنوب المنظم:

هنا أعتقد أن عامل الجذب الرئيسي في السفر بالقطارات. السرعة سهلة، والقطار لا يتسبب بكثير قلق للمشاهد التي يأخذنا عبرها، حتى يصبح القلب مفعماً بهدوء وسكينة البلد، بينما يحمل الجسد إلى الأمام في سلسلة طائرة من من العربات، تستتير الأفهام، بينما تحركها الفكاهة، في محطات نادرة.

الرومانسية التي تترافق مع عربات النوم تنبع من الخصوصية الشديدة التي تتسم بها، جامعة بين أفضل خصائص الخزائن مع حركة التقدم. فمهما كانت الدراما النشطة في غرفة النوم المتنقلة هذه، فإنها تتسامى بفضل المشاهد التي تمر عبر النافذة: ارتفاع الهضاب، مفاجأة الجبال، وارتفاع صوت القنطرة الحديدية، أو المنظر الكثيب للأشخاص الواقفين تحت المصابيح الصفراء. وفكرة السفر كروية مستمرة، وتتابع ذكريات صور محفورة في الذاكرة لجولات كبرى عبر الأرض المستديرة- بدون الخواء المشوّه للبحر أو الهواء- شيء لا تجده إلا في القطار. القطار عربات تسمح للمقيم بالعشاء في غرفة الطعام، ولا أجمل من ذلك.

" متى يصل قطار خبير إلى كراتشي؟ "

" يقول الجدول في السابعة والرابع مساءً. " قال راشد: " ولكن قد نكون متأخرين خمس ساعات ونصف الساعة. "

قلت: " لم؟ "

قال: " دائماً نصل متأخرين خمس ساعات ونصف الساعة. إنه واقع الحال. "

نمت جيداً في مفارش فندق دين، واستيقظت في السادسة صباح اليوم التالي على صوت شيخ ثبتت على عمامته ديباجة معدنية، عليها عبارة الخطوط الحديدية الباكستانية الغربية. كانت عينه اليمنى بيضاء من التراكوما.

" هل تريد الإفطار؟ "

قلت نعم.

فقال: "سأعود في الساعة السابعة."

أحضر لي بيضاً مقلياً، وشايًا وشريحة خبز، واستلقيت في نصف الساعة التالية، وأنا أقرأ قصة أريادني الرائعة لتشيكوف، بينما أحتسي الشاي. ثم رفعت الستائر، وغمرت المقصورة بالضوء. كنا نشق حقول الأرز في نور الشمس الساطع، وبرگًا ساكنة حافلة بزهور اللوتس البيضاء، وطيور مالك الحزين. ثم تحت شجرة صغيرة، أفزعنا زوجٌ من ببغاوات الستاكيو الخضراء، فطارا، وعندئذٍ زادت خضرتهما بهاءً بالطيران. النظر إلى نافذة القطار في آسيا يشبه مشاهدة رحلة مصورة بكر لم تمسسها يد التحرير، ولم تفسدها الموسيقى التصويرية الشائبة: كان علي تخمين الهدف من الأنشطة. يضرب الناس على قطع من الروث على هيئة الفطائر، ويلطخون بها جوانب الأكواخ الطينية لتجف؛ رجال يقودون الثيران ويغرسون المحارث، يهيئون حقل الأرز للزراعة، وفي بادامي باغ، التي تقع بالقرب من لاهور، بلدة من الأكواخ القشية، ومظلات من الكرتون، وخيام صغيرة، وأكواخ من الورق، وشعر مستعار، وملابس، والجميع في حركة ونشاط- يرتبون الفاكهة، ويطوون الملابس، وينفخون على النيران، ويطردون كلباً ليبعد، ويصلحون سقفاً. إنها صنعة الفقراء في الصباح، مشغولون ويبدو على ملامحهم الأمل، ولكنه خادع. موقع مستوطناتهم يفضحهم، هذا هو الفقر المدقع، بلدة الصفيح بجانب طريق القطار.

لبلدة الصفيح شاهد آخر: هندي طويل رفيع في العشرين من عمره تقريباً، بشعر طويل، يقف على نافذة في الممر. سألني عن الوقت: لهجته اللندنية لا تخطئها الأذن. فسألته عن وجهته. "الهند. لقد ولدت في بومباي، ولكنني غادرتها عندما كنت في الثالثة أو الرابعة من العمر. لكنني لم أزل هندياً منذ ذلك الوقت وحتى الآن."

"ولكنك نشأت في إنجلترا."

"نعم ولدي جواز سفر بريطاني أيضاً. لم أرد الحصول عليه، بعد كل ما فعلوه معي. ولكن الجواز الهندي صعب المنال. أريد الذهاب إلى ألمانيا في النهاية. إنهم في السوق المشتركة، وهو أمر سهل مع الجواز البريطاني."

"لم لا تقيم في لندن؟"

"أقم أنت في لندن إن أحببت. جميعهم عنصريون. يبدأ الأمر عندما تصل العاشرة من العمر، وهذا كل ما ستسمعه- أجنبي، نيغا، بلاكي. وليس بيدك شيء إزاء الأمر. يزداد الأمر سوءاً في المدرسة- هل سمعت عن استغلال الباكستانيين؟ أنا لست باكستانياً حتى. إنهم لا يعرفون الفرق. ولكنهم جبنا. عندما أكون رفقة أصدقائي لا يأتي أحد ليقول شيئاً، ولكن في كثير من الأوقات يفتعل عشرة أشخاص المشاكل معي. إنني أكرههم. أنا سعيد لكوني هنا."

"هذه باكستان."

"لا فرق، الجميع بلون واحد."

قلت: "ليس تماماً"

"قليلاً أو كثيراً، بوسعي الاسترخاء هنا- أنا حر."

"ألن تشعر بعدم التقدير؟"

"أول شيء سأفعله في الهند هو قص شعري، عندها لن يعرف أحد."

يبدو أنه قدر قاس. إنه لا يتحدث اللغة الهندية، ووالداه متوفيان، ولم يكن على معرفة حقة بكيفية الوصول إلى بومباي، حيث لديه بعض الأقارب الذين نادراً ما كانوا يجيبون على خطاباته مالم تحتوي على المال. لقد كان واحداً من أولئك الاستعماريين المتناقضين، إنجليزياً أكثر مما يرغب في الاعتراف به، ولكنه لم يجد الراحة في البلد الوحيد الذي يفهمه.

" دائماً ما حدجني الناس بنظراتهم في إنجلترا، لكم أكره ذلك."

قلت له: " تعرضت لتلك النظرات هنا."

" هل أحببتها؟" استطعت أن أفهم أنه ينظر إلي بحسب لوني، فوق كل شيء لقد كان أقرب إلى وطنه.

قلت: " إنني أستمع بها أكثر."

"صاحب" إنه راشد جاء بحقيتي. " نحن نقرب."

" إنه يناديك صاحب،" قال الهندي. ونظر باشمئزاز. " إنه خائف منك، هذا هو السبب."

" صاحب،" قال راشد ولكنه كان يتحدث للهندي: " الآن، رجاء، أرني تذكرتك."

كان الهندي يسافر في الدرجة الثانية. فطرده راشد من الأولى، بينما كان القطار يتوقف.

في ملتقى لاهور، نزلت من القطار. (كان راشد إلى جانبي يعتذر عن تأخر القطار) وفي المدينة التي كانت مألوفة: اتفقت مع النمط الذي أذكره. انطباعي عن المدينة الهندية مستمد من كيبلنغ، وقد خرج كيبلنغ من مدينة لاهور ككاتب. يبالغ في تصوير الغوغاء، والبازار الماجن، واللون والحيرة. آل كيبلنغ من القصص القديمة، وكيف كان يصف لاهور اليوم حقاً. ذلك الجانب منها الأبعد من السوق حيث مواكب عربات "الركشا" الثلاثية العجلات، والعربات التي تجرها الأفراس، والباعة المتجولون، والنساء المحجبات يملأون الممرات الضيقة، ويجرفونك في اتجاههم. بازار أناركالي، والمدينة المسورة، بقلعتها، ومساجدها، استعادت تلك الجاذبية المُشتتة التي يذكرها كيبلنغ، بيد أنها الآن وبعد مائة عام من التكرار، اعترتها مسحة من الرعب.

" الفتيات السيئات هنا" قال سائق التونغا عندما أنزلني في حي بائس من المدينة القديمة، لكنني لم أر شيئاً، لا شيء يشبه منزلاً في لاهور. غياب النساء في باكستان، يؤثر علي جميع هؤلاء الرجال الهائمين على نحو غريب. وجدت نفسي أهدق، مع الرجال العاطلين مثلي، في صور مبهرجة لنجوم السينما، وبدأت أعتقد أن قيود الإسلام ستحولني بسرعة إلى هاو لهوامش التشريح، تثيرني الكواحل المميزة، وأسعى للحصول على غمزة من وراء حجاب، أو أنتظر استجابة في كتفي أي من هذه الأشكال المحتجة. يبدو منكرو الإسلام قادرين على تحويل أكثر الأرواح طبيعية إلى مهووسة بالأقدام، -وكأنما لمواجهة ذلك- جاءت ملصقات الأفلام ساخرة من الإثارة الجنسية: الفتيات البدينات في الأحذية الطويلة يصارعن الرجال الشبقيين بوجوهم المشعرة، في استماتة. والنساء المعذبات يمسكن صدورهن؛ الانجلو-هنديات يؤرجحن مؤخراتهن ويغنين في مكبرات الصوت. الرجال في لاهور يسIRONون بأعينهم مقلوبة باتجاه هذه الفانتازيا الكارتونية.

" إنهم يدعونك للأكل،" أخبرني الأمريكي. كان هذا في القلعة الرائعة، كان كل منا معجباً بالجناح الرخامي الصغير، المسمى النولالكها (أسمى كيبلنغ منزله القريب من بارتيلبورو، في فيرمونت تيمناً به، لأن تكلفة بنائه كانت باهظة: "naulakha" تعني تسعمائة ألف). كان الأمريكي منفعلاً. وقال: " استمر أنت في الأكل وسيبدأوا هم في إجابة أعينهم في فتاتك. إنها ما يسعون إليه دائماً."

الفتاة تبرز خارجاً. هيا يا محمد، أليس لك جيوب في "الدهوتي" الذي ترتديه؟" " ليس لدينا أية جيوب سيدتي،" ذلك النوع من الهراء. رجل- هذا أزعجني بشدة- أخذني جانباً وقال: " خمس دقائق، خمس دقائق! هذا كل ما أريده معها!" ولكن هل سيسمح لي بأخذ فتاته لخمس دقائق؟ لا بد أنك تمزح."

النظام في لاهور موجود في العمارة. روائع المغول والمستعمر. جميعها محاطة بحشود الناس والسيارات، وإهمالهم يجعل العظمة تسفر عن جلالها، كما يزيد دهن الطهي وروث الأبقار العطور وعيدان البخور أقوى أريجاً وأزكى رائحة.

حتى أصل إلى حدائق شاليمار كان عليّ المرور عبر أميال من الشوارع المختنقة بأناس يتدافعون بنظرات جائعة كنظرات اللصوص. شققت طريقي عبر بلدة بيغامبورا الشبقة؛ ولكن الحدائق من الداخل كانت هادئة، وعلى الرغم من تجريدها من رخامها، وتحول البرك العاكسة إلى اللون البني الداكن، كان للحدائق جمال وظلال- حس الملاذ الهانيء- لا يمكن أن تختلف عما تخيله شاه جاهان عندما وضعها في عم 1637. ملذات لاهور عتيقة، ومع إن المرء يرى محاولات في كل مكان، إلا أن الباكستانيين لم ينجحوا بعد في تحويل هذه المدينة الجميلة إلى أطلال.

استمر رمضان، والمطاعم ظلت إما مغلقة أو تعمل بالحد الأدنى، البيض والشاي. لذلك أُجبرت دون رغبة مني على الصيام أيضاً، أملاً ألا يقودني إلى الجنون كما فعل مع الأفغانيين والباكستانيين بوضوح. وبدلاً من النعاس، أنتج الجوع أفراداً عاطفيين ذوي عيون لامعة، بعضهم يمر بسرعة من الطرق الجانبية ليمسكوا بكمي.

" خمر، حشيش، ل.س.د.<sup>9</sup>"

قلت: " ل. س. د.؟ هل تباع عقار الهلوسة؟"

" نعم، ولم لا؟ تعال إلى محلي. هنالك مشغولات يدوية من الفضة والنحاس أيضاً"

"لا أريد مشغولات يدوية."

" هل تريد الحشيش؟ عشرين دولاراً للكيلو الواحد."

كان هذا مغريباً، لكنني فضلت عصير المانجو المعلّب، الذي كان حلواً وجليظ القوام، وفطائر الكاري المعروفة باسم السامبوسة. كانت السامبوسة ملفوفة في أوراق دفاتر مدرسية قديمة. جلست وارتشفت عصيري، وأكلت السامبوسة، وقرأت القرطاس: .."تُمثل قوة القص عند أي... [أثر دهن] على الشعاع بمسافة أفقية بين ذلك الخط والخط ج د."

كانت هناك سبع وأربعون طاولة في غرفة الطعام بفندق فاليتي. وجدتها سهلة العد لأنني كنت النزول الوحيد الموجود في الليلتين اللتين تناولت فيهما عشاءي هناك. وقف النادلون الخمسة على مسافات مختلفة مني، وعندما سعلت هرع ناحيتي اثنان منهما. ولأنني لم أرغب في إصابتهما بالإحباط طرحت عليهما بعض الأسئلة عن لاهور، وفي واحد من تلك الحوارات عرفت أن نادي البنجاب لم يكن بعيداً. اعتقد أن لعب جولة من السنوكر بعد الأكل فكرة جيدة، عليه في الليلة التالية، أرشدني نادل إلى مكانه وانطلقت صوب النادي.

<sup>9</sup> عقار مهلوس قوي. في الأصل :L.S.D. Lysergic Acid Diethylamide

أضعت طريقي فور وصولي إلى حي مجاور للفندق تقريباً، حيث لم تكن الشوارع مضاءة. أيقظت خطواتي كلاب الحراسة، وبينما كنت أسير قفزت هذه الكلاب النابحة على الأسيجة والجدران. لم أتغلب على خوفي من الكلاب الغريبة المتجذر في طفولتي، وعلى الرغم من الأشجار ذات الرائحة العذبة ونسيم الليل العليل، لم تكن لدي أدنى فكرة عن وجهة أقدامي. مضت عشر دقائق قبل أن تقترب إحدى السيارات. فأشرت لها بالوقوف.

"من أين جئت؟"

"من فندق فالييتي."

"أعني بلدك."

"الولايات المتحدة."

قال السائق: "أهلاً وسهلاً بك، اسمي أنور. هل لي أن أفلّك؟"

"أنا أحاول الوصول إلى نادي البنجاب."

قال لي: "اركب من فضلك"، وعندما فعلت، قال: "كيف حالك من فضلك؟ هذا هي الطريقة بالضبط التي يحيي بها المعجب بنفسه إيفان توركين الناس في قصة تشيكوف "إونييتش". سار أنور لميل آخر، وهو يخبرني عن المصادفة السعيدة التي جمعت بيننا. فهناك الكثير من اللصوص في الليل، قال- وفي فندق البنجاب أعطاني بطاقته، ودعاني إلى زفاف ابنته، والذي كان بعد أسبوع. قلت إنني سأكون في الهند آنذاك.

"حسناً، الهند هي قصة أخرى قائمة بذاتها"، قال ذلك وقاد مبتعداً.

كان نادي البنجاب، جناحاً صغيراً خلف سياج عالٍ، وكان مضاءً وبدا مريحاً لكنه كان مهجوراً بالكامل. تخيلت حانة مزدحمة، والكثير من الشاربين المرحين، ولعبة سنوكر حامية الوطيس، وزوجان في أحد الأركان يخططان للزنا، ونادلين يحملون صواني الشراب، وأوراقاً طائرة يمنا ويسرة. ربما كانت هذه عيادة من نوع ما. ليس ثمة روح بادية للعيان، ولكنه الطقس-وحتى المجالات- كغرفة انتظار في عيادة طبيب أسنان.

رأيت ما كنت أبحث عنه بضعة أبواب على الممر: حروف حمراء كبيرة على النافذة تقول: انتظر الضربة، وفي الظل حيث تقبع طاولتان، الكرات في مواقعها، جاهزة للعب تحت مجموعة من اللافتات المضئية.

"نعم؟" كان رجل باكستاني مسنّ، ويبدو منزعجاً كما لو قُوطع أثناء القراءة. كان يرتدي ربطة عنق سوداء، وجيئاً قميصه متهدل من أثر الأقلام. "كيف يمكنني خدمتك؟" "لقد مررت بالصدفة من هنا، واعتقدت أن بوسعي الزيارة. هل لديك امتيازات متبادلة مع أي نادٍ في لندن؟"

"لا، على حد علمي."

"ربما كان المدير يعلم بذلك."

"أنا المدير" قال. "لقد كان لنا تنسيق مع أحد النوادي في لندن- قبل عدة سنوات."

"ماذا كان اسمه؟"

"آسف، لقد نسيت، ولكنني أعلم أن النادي لم يعد موجوداً. ماذا كنت تريد؟"

"لعبة سنوكر."

ابتسم وقال: " من سيشاركك اللعب؟ ما من أحد هنا. "  
أراني المكان، ولكن الغرف المضاعة الخاوية أصابتنني بالكآبة. كان المكان مهجوراً، مثل غرفة طعام فندق فالييتي بطاولاتها السبع والأربعين، مثل الحي الذي لم يكن به سوى كلاب الحراسة. قلت إن عليّ الذهاب، وعند وصولي الباب الأمامي قال: " قد تجد سيارة أجرة هنا، في الشارع الثاني. طابت ليلتك. "

كنت يائساً. لقد سرت حوالي مائة ياردة من النادي ولم أستطع إيجاد الطريق، بيد أنني كنت أسير في الاتجاه الذي أشار إليه. استطعت سماع كلب يزمجر وراء سور قريب، ثم سمعت صوت سيارة. تحركت بسرعة باتجاهي، وتوقفت وسط صرير العجلات. خرج السائق وفتح لي الباب الخلفي. قال إن المدير أرسله ليعيدني إلى فندق؛ لقد كان خائفاً من أن أضيع "  
انطلقت بحثاً عن شراب حالما عدت إلى الفندق. كان الوقت ما زال مبكراً، حوالي العاشرة، ولكنني لم أبتعد خمسين ياردة حتى ظهر رجل نحيف في منامة مخططة من وراء شجرة. كانت عيناه جاحظتين لامعتين في مثلث وجهه الداكن.

" عم تبحث؟ "

" شراب. "

سأجد لك فتاة جميلة. متنا روبية. مثيرة جداً. " قال هذا بلا أية مشاعر تميزه عن رجل يبيع شفرات الحلاقة. "  
" لا شكراً "

" صغيرة جداً. تعال معي. مثيرة للغاية. "

" ومثيرة للغاية بالنسبة لك، أنا أبحث عن شراب. "

ظل يلاحقني عن كثب، ويغمغم بالرفض، ثم عندما وصلنا إلى تقاطع، بجانب إحدى الحدائق، قال لي تعال معي، إلى هنا. "

" إلى هناك؟ "

" نعم إنها تنتظر. "

" في تلك الأشجار؟ كانت سوداء، ومعتمة، وتنز بها الجنادب. "

" إنها حديقة. "

" هل تعني أن عليّ فعل ذلك هنا، تحت شجرة؟ "

" إنها حديقة جميلة يا صاحبي. "

على مسافة غير بعيدة، اقترب مني رجل آخر، هذه المرة كان يافعاً، وكان يدخن بشراهة. جذب انتباهي. " هل تريد أي شيء؟ "

" لا. "

" فتاة؟ "

" لا. "

" صبي؟ "

" لا. "

" لا، اغرب عن وجهي. "



تردد، ولكنه ظل ورائي. في النهاية قال بنعومة، " خذني." لم تقربني مسافة العشرين دقيقة التي سرتها من الحانة. استدرت، وأعطيت ظهري للقوادين، عائداً إلى الفندق. وتحت شجرة في المقدمة، ثلاثة رجال شيوخ يتحلقون حول مصباح ضغط يلعبون بالأوراق. رأني أحدهم وناداني: " انتظر يا صاحب!" وقلب وجوه بطاقاته إلى الأسفل وسار إلي.

قلت قبل أن يفتح فمه: "لا".

قال: " إنها لطيفة جداً."

واصلت المسير.

" حسناً، فقط مئتان وخمسون روبية."

" أعرف مكاناً أستطيع الحصول فيه على واحدة مقابل مائتي روبية."

" ولكن هذا في غرفتك! سأحضرها. ستظل معك حتى الصباح."

" هذا مال كثير، آسف."

" صاحب! هنالك نفقات! عشر روبيات على مكنستك، وعشر أيضاً مقابل حارسك، وعشر لحاملك، وبقشيش هنا وهناك. إن لم تفعل سيثيرون المشاكل. خذها! سوف تكون لطيفة جداً. فتياتي خبيرات بكل الأساليب."

"بدينة أم نحيفة؟"

" كما تحب. لدي واحدة لا بدينة ولا نحيفة؛ ولكنها هكذا." فرسم جسداً في الهواء بأصابعه مشيراً إلى الانحناءات. " حوالي الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر. وتحدث اللغة الإنجليزية جيداً. سوف تحبها كثيراً. صاحب، إنها ممرضة مدربة!"

كان ما يزال نادي باسمي بينما كنت أحت الخطى باتجاه الفرندة. اكتشفت أن الحانة الوحيدة في لاهور هي غرفة البولو في فندقي. كانت لدي جعة غالية الثمن، ووقعت في حوار ساخن مع رجل إنجليزي مقيم في لاهور منذ شهرين. سألتها عما يفعل للتسلية. قال إنه لم يكن هنالك الكثير ليفعله، ولكنه يخطط لزيارة بيشاور. أخبرته أن بيشاور أهدأ من لاهور. فقال إنه آسف لسماع ذلك لأن لاهور في نظره لا تطاق. لقد كان يشعر بالملل، وقال، ولكن هنالك أمل، لدي طلب معلق لعضوية النادي."

كان رجلاً طويلاً وبسيطاً، ينفخ أنفه في نهاية كل جملة. " أعتقد أنني سأكون بخير، إن منحوني العضوية. بوسعي الذهاب في الأمسيات- إنه مكان نشط جداً."

" أي نادٍ تتحدث عنه؟ "

قال: " نادي البنجاب،"

-----

## الفصل الثامن

## قطار الحدود

-----

امريستار، على بعد مشوارين بسيارة الأجرة من لاهور (القطار الذي يصل بين المدينتين لم يعمل منذ 1947)، وهي على الطرف الهندي من الحدود. وهي بالنسبة للشيخ في مقام بينارس للهندوس، عاصمة هندية، ومدينة مقدسة. مقصد الحج عند الشيخ هو المعبد الذهبي، وهو شرفة مطلية بالنحاس في قلب خزان. وحرمة هذا الخزان لم تمنع عنه التعفن، فرائحته تُشم من على بعد ميل. رؤية هذا المعبد قبل الممات وأخذ تذكّار من أمريستار هي أعزّ أمانى السيخي. من أحد التذكّارات المفضلة ملصق ملوّن لرجل بلا رأس ويتفجّر الدم من عنقه المقطوع؛ وهو يرتدي زيّ المحاربين. في إحدى يديه يحمل سيفاً وفي الأخرى يحمل رأسه الذي يقطر منه الدم. سألت تسعة أفراد طائفة السيخ عن اسم الرجل، ولم يستطع أي منهم إخباري، ولكنهم جميعاً يعرفون قصته. قُطع رأسه في إحدى حروب البنجاب. ولكنه كان قوي العزيمة، فالتقط رأسه، وحمله في يده، حتى يرى ما يفعل (تلمع عينا الرأس المقطوع بالثبات)، يستمر في القتال. ويفعل هذا حتى يتمكن من العودة إلى أمريستار، وينال فرصته في محرقة لائقة.

تجسّد القصة فضائل التقوى، وشدة البأس، والقوة لدى طائفة السيخ. ولكن السيخ يتميزون أيضاً بالعطف الشديد والود، وعدد كبير منهم أعضاء في نادي الليونز الدولي. وهذا يعود إلى سوء الفهم الثقافي في جزء منه، وبما أنّ جميع أفراد السيخ يحملون لقب سينغ، فهذا يعني الأسد، مما يشعرهم بحتمية الانضمام.

يتطلب دين السيخ نوعاً خاصاً من السراويل الداخلية، وشعر غير مقصوص، وأسورة فضية، ومشط خشبي، وخنجر حديدي. وبما إن الأحذية ممنوعة في المعبد الذهبي، أخذت في القفز على الرصيف الرخامي الساخن، مؤدياً ضرباً من تانغو السير على النار، وأراقب أولئك الشخوص الأسديين، وهم يتجردون من ملابسهم إلا من سراويلهم المقدسة ليغتسلوا في المياه الخضراء ويرتشفوا منها جرعة هي مزيج من النعمة والدسنتاريا. أفراد طائفة السيخ محاربون عظماء، وهناك لوحات رخامية ضمن محتويات المعبد تسجل حقيقة مساهمة كتيبة خيالة بونا، ومهندسي البنغال العسكريين بآلاف عديدة من الروبيات. بالنسبة لبقية الهنود، خاصة الغوجارات، يعتبر السيخ من الفلاحين الأجلاف، وتحكى في بساطة عقولهم الطرف والنوادر، مثل الطرفة التي تتحدث عن السيخي المهاجر إلى كندا، والذي طلب منه إثبات نفسه كمواطن كندي بالذهاب إلى الغابة ومصارعة دب واغتصاب هندية حمراء. فانطلق وعاد بعد شهر، وقد تحولت عمامته إلى أسمال بالية، وامتلاً وجهه بالخدوش، وهو يقول: "الآن علي مصارعة الهندية الحمراء." وأخرى تتعلق بالسيخي الذي لم يستطع اللحاق بحافلته، فطارد البص، محاولاً الركوب فيه، وسرعان ما أدرك أنّه قد قطع المسافة إلى منزله جرياً. وقال مخبراً زوجته: "لقد ركضت خلف حافلتني توأاً ووفرت خمسين بيزة." فردت عليه، "لو ركضت خلف سيارة أجرة لوفرت روبية كاملة."

تناولت وجبة في مطعم سيخي عقب جولة في المدينة، ثم ذهبت إلى محطة السكة الحديد لأبتاع تذكرة على القطار الحدودي المتجه إلى دلهي. وضعني الرجل العامل في قسم الحجز على قائمة الانتظار، وأخبرني أنّ نسبة احتمال حصولي على أريكة تصل إلى 98 بالمائة، ولكن علي

الانتظار حتى الساعة الرابعة والنصف لأؤكد الحجز. محطات القطارات الهندية أمكنة رائعة لقتل الوقت، فهي بمثابة نماذج مصغرة للمجتمع الهندي، بفئاته العرقية، والطبقية والجنسية: غرفة انتظار سيدات الدرجة الثانية، مدخل الحمالين، مخرج الدرجة الثالثة، حمام الدرجة الأولى، المطعم النباتي، المطعم غير النباتي، غرف النوم، غرفة الأمانات، وطيف واسع من المهن على لوحات المكاتب، من اللوحات الصغيرة التي تحمل عبارة كنّاس، إلى أكثرها فخامة، ناظر المحطة. كانت القاطرة البخارية " تنفث الدخان على أحد الأرصفة. عبرت الطريق إليها، وبينما كنت ألتقط الصورة ظهر سيخي على لوح قدم السائق، وطلب مني أن أرسل إليه نسخة منها. ووعدته بذلك. ثم سألني عن وجهتي، وعندما أخبرته أنني سأستقل قطار الحدود قال: " ستظل في انتظاره ساعات طويلة. تعال معي. اركب في هذه الشاحنة". وأشار إلى العربدة الأولى- "وفي أول محطة يمكنك النزول والركوب إلى جانبي."

" إنني أخشى تفويت قطاري." فقال: "سوف لن تقوته، لا محالة." قال هذا بدقة كما لو أنه يتذكر درساً في اللغة الإنجليزية. " لا أملك تذكرة"

" لا أحد يملك تذكرة. جميعهم يغشون!"

عليه، صعدت على متن العربدة، وفي أول محطة انضمت إليه في كابينة القيادة. كان القطار يتجه إلى أتاري، على الحدود الباكستانية، على بعد ستة عشر ميلاً. لطالما رغبت في صعود عربدة المحرك البخاري، ولكن الوقت لم يكن مناسباً لهذه الرحلة. غادرنا في الغروب، وبما أنني كنت أرتمي نظارتي الشمسية وفقاً لتعليمات الطبيب- كانت نظارتي الأخرى في حقيبة سفري في غرفة الأمانات- لم أستطع رؤية أي شيء. فوقفت، أعمى كخفاش، أتعرق في الحرارة المنبعثة من صندوق النار. كان السيخي يهتف شارحاً ما يفعل، سحب الرافعات، ورفع الضغط، وأدار المقابض، ويتفادى مجارف الفحم. أفسد علي الضجيج والحر أي متعة في مغامرة الساعتين هذه. ولا بد أن الإحباط قد بدا علي، لأن السيخي كان حريصاً على تسليتي بإطلاق الصافرة. وبدا لي أن القطار يبطيء سرعته إثر كل صفير يطلقه.

امتلاً وجهي وذراعاي بالغبار من المشوار إلى أتاري. ولم تكن هذه مشكلة تذكر على متن القطار الحدودي، واستمتعت بتجربة الاستحمام بالماء البارد في ذلك المساء الرطب، جالساً القرفصاء على الكعبين تحت الأنبوب المندفع، بينما كان القطار يطوي المسافة من البنجاب إلى دلهي. عدت إلى مقصورتي، لأجد رجلاً شاباً يجلس على أريكتي. حياني بلهجة لم أستطع تحديد نوعها، وذلك لأمرين أولاً لثغته، وثانياً مظهره الغريب إلى حد ما. كان شعره مشقوقاً من المنتصف، يصل إلى تحت الكتفين بقليل؛ وذراعاها النحيفتان محشورتان في أكمام ضيقة، وكان يرتدي ثلاثة خواتم بأحجار برتقالية ضخمة في كل يد، وأساور من عدة أنواع، وعقداً من الأصداف البيضاء. أخافني وجهه: كان كوجه جثة شخص مصاب بالجنون أو بمرض قاتل، وبعينين غائرتين وخدين محددين بعمق، وضيقين أبيضين بلا دماء. وكان يراقبني بنظرات خجلي- كنت ما زلت أقطر ماءً من أثر استحمامي- وكان يلعب بمحفظة جلدية صغيرة. قال إن اسمه هيرمان؛ وإنه ذاهب إلى دلهي. وإنه رشى المحصل حتى يستطيع السفر برفقة شخص أوروبي. قال إنه لم يرد التواجد في مقصورة واحدة مع هندي- حيث قد يقع في مشكلة. وكان يأمل لو أنني أفهم وضعه.

قلت: " بالطبع، ولكن هل تشعر أنك على ما يرام؟"  
" لقد كنت مريضاً- أمضيت أربعة أيام في المستشفى في أمريتسار، وفي كويته أيضاً. كما أنني كنت قلقاً أيضاً. كان الأطباء يجرون الفحوص ويعطونني هذا الدواء، ولكنه لم يجد نفعاً. لا أنام، ولا أكل- لا شيء سوى كوب من الحليب وقطعة من الخبز ربما. لقد أتيت إلى أمريتسار جواً من لاهور. كنت مريضاً جداً في لاهور- ثلاثة أيام في المستشفى ويومين في كويته. عبرت بلوشستان. يازد، هل تعرف يازد؟ إنه مكان فظيع. أمضيت يومين هناك، وكنت في الحافلة ليومين من طهران. لا أستطيع النوم. كل خمس ساعات يتوقف البص فأحتسي بعض الشاي والقليل من البطيخ. أنا مريض. يقول الناس، " لم لا تتحدث؟ أغاضب أنت؟" ولكني أقول: " لا لست غاضباً بل مريض"

كانت هذه هي طريقته في الحديث. فقرة طويلة متلعثمة، يقاطع نفسه، ويكرر أنه مريض بصوت تتم نبرته عن اعتذار. لقد كان ألمانياً، وكان بحاراً، مساعداً على متن سفينة ألمانية، ثم مريضاً على أخرى فنلندية. لقد أبحر لسبع سنوات، وزار الولايات المتحدة.  
قال لي: " نعم، كل البلدان، ولكن لساعات قليلة." لقد كان يحب السفن، ولكنه لم يعد قادراً على الإبحار. سألته عن السبب. فقال: " التهاب الكبد الوبائي." ولكنه ألمانية. لقد التقط العدوى في إندونيسيا، وظل في المستشفى لعدة أسابيع. ولم يستطع التعافي من المرض بعد: ما زال بحاجة لمزيد من الاختبارات. لقد أجرى واحداً في أمريتسار. " يقول لي الناس، يبدو على وجهك المرض." " أعرف أن المرض يبدو على ملامحي، ولكني لا أستطيع الأكل."  
بدا الرعب على وجهه، وكان يرتعش. " هل تأخذ أية أدوية؟"  
" لا" قال وهو يهز رأسه. " آخذ هذا." فتح محفظته الجلدية التي كان يحركها بأصابعه النحيلة وأخرج منها غلاف سولفان، فتحه، وأراني مضغة من مادة بنية لزجة، تشبه قطعة من حلوى التوفي الإنجليزية.

" ما هذا؟"

" أفيون، أتناوله على كرات صغيرة."

أضفت لثغته على كلمة "كرات" شيئاً من العهر الناعم.

" أنا عاشق!"

أخذ قطعة من الأفيون وكورها بين أصابعه، محوّل إياها إلى قرص على مهل.

" مدمن؟"

" نعم، آخذ الإبر. انظر إلى ذراعي."

أغلق باب المقصورة، وأسدل الستائر، وطوى كمّه الأيسر إلى الأعلى. انكشفت ذراعه: كان كل عرق محدداً بندوب بارزة من أثر الإبر، آثار سميكة جعلت الأوردة تبدو كأوتار سوداء. لمس ذراعه في حياء، كما لو أنها ليست له. وقال: "لا أستطيع الحصول على الهيروين. في لاهور لم أكن أشعر أنني بخير. ظللت في المستشفى، ولكني ما زلت واهناً ومتوتراً. الناس مزعجون والجو حار. لا أدري ما أفعل، فهربت وسرت في الشارع. وجدت باكستانياً قال لي إن لديه بعض المورفين. ذهبت معه وأراني إياه. كان من النوع الجيد- مورفين ألماني. طلب مني مائة وخمسين روبية ثمناً له. دفعته له وأخذت الإبرة. هكذا وصلت إلى أمريتسار. ولكن في أمريتسار مرضت

جداً ولم أستطع الحصول على المزيد من المورفين. عليه أخذت هذا -". ربت على جيبه الأيمن وأخذ قرصاً من الحشيش في حجم كرة الأفيون تقريباً، ولكنه جاف، وبه بعض الشقوق وقال: "أو أدخن هذه-". وسحب كيساً صغيراً من الماريجوانا. قلت له إنه محظوظ إذ دخل الهند بهذه الذخيرة من المخدرات. وفي نقطة تفتيش الحدود رأيت ضابط جمارك هندي يطلب من أحد الصبية أن يخلع بنطاله الجينز. قال هيرمان: "نعم. "أنا متوتر جداً! سألني الرجل إن كنت أحمل المخدرات فقلت لا. وإن كنت أدخن فقلت نعم، أحياناً، ولكنه لم يفتش حقائبي. إن كنت متوتراً بوسعي إخفاء مشاعري في مكان سري".

"إذن أقترح أن لا سبب يدعوك للقلق."

"لا أنا أشعر بالحر والتوتر طوال الوقت."

"ولكنك تستطيع إخفاء مخدراتك."

"أستطيع إلقاءها أرضاً وشراء غيرها حتى، ولكن ذراعي! إن رأوا ذراعي سيعرفون. علي إخفاءهما على الدوام." رفع كمّيه ونظر مرة أخرى إلى الندوب الطويلة الداكنة. أخبرني قصة قدومه إلى الهند. في هانوفر، قرر أن يعالج نفسه من إدمانه على الهيروين. فسجل نفسه كمدمن، والتحق بمركز تأهيل- كان يسميه "الإفراج" حيث تلقى منحة تبلغ 700 مارك ألماني في الشهر، وكأساً من الميثادون يومياً. وفي المقابل كان يساعد في تنظيف المركز. ولم يخرج أبداً. كان خائفاً من مقابلة شخص ما يعرض عليه الهيروين مرة أخرى. ولكن حدث شيء غريب: بإقامته في المركز كان نادراً ما ينفق من ثرويته، ووجد في نهاية العام أنه قد جمع مبلغاً كبيراً جداً من المال- كافياً للعيش في الهند لمدة ستة أشهر أو أكثر. وهكذا حزم حقائبه وغادر بتلك البساطة، على رحلة عارضة إلى طهران، حيث بدأت الأعراض الانسحابية في الظهور. حمل غربته إلى أرض غريبة. كان محكوماً عليه بالموت، ورائحته تحاصره. لم تكن حاله بأفضل من حال أولئك البؤساء الذين ظهروا على المحطات التي مررنا بها، الذين كانوا يتجمعون حول الأضواء والماء. هناك أجانب يعرفون أنهم عاجزون، يذهبون إلى الهند ليغمروا أنفسهم في حميم المخدرات، فيشيخوا، ويمرضوا في أحياء صفيح الشرق. إنهم أشخاص، كتب ف. س. نايبول مؤخراً: "من يمني نفسه بمجتمع أكثر هشاشة من مجتمعه الخاص، هو من لا يفعل في آخر الأمر سوى الاحتفاء بأمانه الشخصي"

"سأخذ هذه الآن." ألقى بقرص الأفيون في فمه، وأغلق عينيه. "ثم أشرب بعض الماء." ثم شرب كوباً من الماء. كان قد شرب كوبين للتو، وأدركت أنه إن لم يمت بالمخدرات فإن المياه الهندية هي التي ستقتله. "الآن سأنام. وسأخذ قرصاً آخر من الأفيون إن لم أستطع النوم." انتبهت لإشعال عود ثقاب مرتين أثناء الليل في الدكة العليا، مضيقاً المروحة على السقف. سمعت خشخشة السولفان، والتقاط الأفيون اللزج بين أصابعه بسرعة، ثم سمعت هيرمان وهو يرتشف الماء.

قدمت لي اللافتات في محطة ارميتسار (مخرج الدرجة الثالثة، غرفة انتظار الدرجة الثانية للسيدات، دورة مياه الدرجة الأولى، الكناسون فقط) فكرة رسمية عن المجتمع الهندي. أما الحقيقة

الأقل رسمية فقد رأيتها في السابعة صباحاً في المحطة الأخيرة للخطوط الحديدية الشمالية في دلهي القديمة.

يقول الهنود، إن أردت معرفة الهند الحقيقية، فيم شطر القرى. ولكن هذا غير صحيح تماماً، لأنّ الهنود يحملون قراهم إلى محطات السكة حديد. في النهار - قد تخطي فتظن هؤلاء الناس شحاذين، مسافرين بلا تذاكر، (لافتة: السفر بلا تذاكر فساد اجتماعي)، أو بائعين بغير ترخيص. في الليل وفي وقت مبكر من الصباح تكتمل قرية المحطة، مجتمع في غاية الشروء لحد أن الآلاف من المسافرين يصلون ويغادرون بدون أن ينتبه: إنهم يدورون حوله. يمتلك سكان الطرق الحديدية المحطة، ولكن لا ينتبه لذلك سوى الوافد الجديد، لأنه يشعر بوجود خلل ما فهو لم يعرف بعض عادة الهندي في تجاهل الأمور الظاهرة، فيدور حولها ليحافظ على هدوئه. لا يصدق الوافد الجديد انغماسه في هذه العلاقة الحميمة بهذه السرعة. في البلدان الأخرى لم يكن ليطلع على كل هذا، بل حتى زيارة القرية لم تكن لتكشف له عن نمط الحياة بهذا الوضوح.

القرية في ريف الهند تخبر الزائر القليل جداً ما عدا ضرورة المحافظة على مسافته الشخصية وتقليص تجربته مع المكان إلى احتساء الشاي أو تناول وجبة في قاعة خائفة. أما حياة القرية وشؤونها الداخلية فبينه وبينها حجاب سميك.

ولكن قرية المحطة مكشوفة تماماً وصدمة هذا الكشف تدفعني للهرب بسرعة. لم أشعر أن لي الحق في مراقبة الناس وهم يستحمون تحت صنوبر منخفض- عرايا بين جموع الموظفين، والرجال الذين ينامون لوقت متأخر في أسرّتهم التقليدية، أو يلقون عائمهم، والنساء بأنوفهن المزدانة بالحلقات، وأقدامهن الصفراء المتشققة يطبخن اليخنة من الخضروات الممنوحة لهن على نار كثيرة الدخان، وهن يرضعن الأطفال، ويطوين الألحفة، يتبول الأطفال على أصابع أقدامهن، والفتيات الصغيرات في فساتينهن الواسعة يسقطن من كتوفهن، وهن يحضرن الماء في صفائح قصديرية من حمام الدرجة الثالثة، وبالقرب من بائع الجرائد يستلقي رجل على ظهره حاملاً طفلاً يداعبه في محبة وإعجاب.

عمل شاق، متع بسيطة، ومجاهدة الشهوات. هذه القرية لا أسوار لها. لقد ألهيت نفسي باللافتات. GWALIOR SUITINGS، RASHMI SUPERB COATINGS [بدل غالوار، وطلاءات راشمي الرائعة]، وملصق الفيلم ذي الوجوه المنتفخة الذي لم يرغب أبداً عن النظر، BOBBY (قصة حب حديث). كنت أتحرك بسرعة فتهت عن هيرمان. كان قد خدّر نفسه للوصول: توتره التجمعات. ظل يطفو في الرصيف حتى غرق في بحر المحطة.

تساءلت عما إذا كنت سأرى أي من هذه الظواهر الهندية مألوفاً بما يكفي لتجاهله؟ قيل لي ألا أستمذ أي انطباع من دلهي: دلهي ليست الهند- ليس الهند الحقيقية. حسناً، قلت لهم، ليس لدي أية نية للإقامة في دلهي. أردت الذهاب إلى سيملا، وناغبور، وسيلان- وأي مكان آخر يأخذني إليه القطار.

"ليس ثمة قطار إلى سيلان."

"هنالك واحد على الخريطة." فردت خريطتي وتتبع الخط الأسود من مدراس حتى كولومبو. قال الرجل: "أشأ". كان يرتدي قميصاً ملوناً منسوجاً يدوياً، ويهزّ رأسه يميناً ويساراً كما لو أنه يحاول نفض الماء عن أذنيه- هذه الإيماءة تعني أنه يستمع إلي ويتفق معي.

ولكن الرجل بالطبع، كان أمريكياً. يقوم الأمريكيون في الهند بهذه الحركات لتقربهم إلى الهنود، الذين بدوا في حرج شديد من هذه المحاكاة الساخرة، لحد أن (في السفارة الأمريكية على الأقل) يقول مسؤول الاتصال: "سنثبتكم في ذلك البرنامج" بينما يجيبه الأمريكيون الحاضرين: "أشأ" ويقهقون بقسوة.

قلت: لقد ثبت في برنامج: محاضرات في جيبور، وبومباي، وكالكتا، وكولومبو. قلت أينما يوجد قطار.

" لا قطار يصل إلى كولومبو."

قلت: " سنرى"، ثم استمتعت إلى واحد من تلك الحوارات الغريبة التي وجدتها شائعة مؤخراً كركيزة للأحاديث الأمريكية في الهند: الأمريكي وأمعاء. بعد التحيات الاعتيادية، ولحظات الصمت يقدم هؤلاء الناس تقريراً عن تقلبات قنواتهم الهضمية. كان شغفهم هذا قميئاً، ويبدو إسكاتهم مستحيلاً عندما يبدأون هذا الحوار.

قال أحد موظفي السفارة: " كانت ليلتي سيئة، دعاني السفير الألماني إلى حفل. وليمة شهية- لطالما كانت كذلك. جميع أنواع النبيذ، اطباق كثيرة، وكل شيء. ولكن، يا إلهي، استيقظت في الخامسة صباحاً، مريضاً مثل كلب. بطني تؤلمني."

قال رجل آخر: " إنه لأمر طريف. كنت مدعواً على وجبة طيبة في مكان صغير متسخ، وأنت تعلم أنك ستدفع الثمن. لقد عدت لتوي من مدراس. كنت بخير- وقد جازفت بتناول بعض الوجبات. ثم ذهبت لبعض المناسبات الدبلوماسية، وظللت أتلوى لأيام. عليه لن تعلم أبداً من أين تأتيك المصائب."

"حدث بول عما حدث مع هاريس."

قال الرجل: "هاريس! اسمع!، كان ثمة رجل هنا. هارس. في قسم الصحافة. ذهب إلى الطبيب، خمن السبب! لقد كان مصاباً بالإمساك. إمساك! في الهند! لقد حدث حول السفارة. كان الناس يضحكون بشدة كلما وقعت أعينهم عليه."

قال موظف صغير: " كنت بخير في الفترة الأخيرة. معتداً بنفسه، كما لو كان يخشى الحسد. لقد مررت بأيام عصبية، أعني أزمة حقيقية. لكنني وجدت الحل. ما أفعله دائماً هو تناول الزبادي. أنا اشرب أشياء كثيرة جداً. اكتشفت أن البكتريا الموجودة في الزبادي تقلل من البكتريا الموجودة في الأكل الرديء. شيء من الموازنة."

ورجل آخر، بدا شاحباً، لكنه قال، أنه صامد. ألم في الأمعاء. لم ينم طوال الليل. مغص. بطن دلهي. يسير الطعام جيداً عبرك.

قال الرجل: " لقد حدث معي هذا في اتحاد الطلاب. البكتريا العسوية. هل اصبتم بها من قبل؟ لا؟ لقد ضربتني حد الموت. لم أكن أستطيع فعل شيء طيلة ستة أيام. ظللت أركض جيئة وذهاباً، كنت أعيش في دورة المياه فعلياً."

في كل مرة يُذكر فيها الموضوع، كنت أود أن آخذ المتحدث، ممسكاً بقميصه المنسوج يدوياً، وأهزه لأقوله له: " الآن استمع إلي. أمعائك لا تعاني أي مشكلة على الإطلاق!"

----

## الفصل التاسع

### قطار كالكا إلى شيملا

على الرغم من مذهري الأشعث، اعتقد البعض أنّ الوقوف في الطابور لشراء تذكرة للسفر شمالاً إلى سميلا هو أمر يحط من كرامتي. مع أنّ هذا الاعتقاد كان وسيلة لبقّة للإشارة إلى ماسيحدث إن وقعت في الصف بيني وبين المنبوذين، أو في حالة اشتعال النيران (يتم الإبلاغ عن حرائق طائفة الهاريجان يومياً في الصحف الهندية). قدمني الموظف الأمريكي- الذي زعم أنّ بطنه تتداعى من أثر الدوسنتاريا- إلى السيد ناث، الذي قال: " لا ترهق نفسك، سنتكفل بكل شيء." لقد سمعت هذه العبارة من قبل. اتصل السيد ناث بنائبه السيد سيث، الذي أوعز إلى مدير مكتبه بالاتصال بوكالة السفر. ولم نسمع خبراً عن التذكرة حتى الساعة الرابعة. كان هذا السيد سود هو الذي أوكل أمر شراء التذكرة إلى واحد من موظفيه. تم استدعاء الموظف ولم تكن التذكرة في حوزته. لقد أرسل ساعياً، من منبوذي التاميل اللذين كان دورهم في الحياة كما يبدو هو إطالة الصفوف أمام نوافذ التذاكر. رافقتي السيدان ناث وسود إلى مكتب التذاكر، وهناك وقفنا (هل أنت متأكد من أنك لا تريد شرب قدح لذيق من الشاي؟" نراقب هذا الساعي البائس، على بعد عشرة أقدام من النافذة، وهو يحمل طلبتي. بدأ الهنود المتعجلون يتجاوزونه إلى الشباك. قال السيد ناث: " الآن ترى بأمر عينيك لم تتقهقر الأوضاع هنا. ولكن لا تقلق، طالما توفرت مقاعد للأشخاص المهمين جداً." قال وهو يفسر حديثه بوجود مقصورات محجوزة للشخصيات المهمة جداً ومسؤولي الحكومة على كل قطار حتى ساعتين قبل وقت المغادرة، في حال رغب أحدهم في آخر لحظة. ويبدو أنّ قائمة الانتظار كانت تسحب يومياً لكل من قطارات الهند التي تبلغ في عددها عشرة آلاف.

فقلت: " أنا لست من الشخصيات المهمة جداً."

قال: " لا تكن سخيلاً"، ونفث دخان غليونه وانتقل ببصره من الساعي إليّ. أعتقد أنّه يوافقني الرأي لأنّ كلماته التالية كانت: " بوسعنا المحاولة بالمال أيضاً."

قلت: " بقشيش." فعبس السيد ناث متجهماً.

قال السيد سود: " لم لا تسافر جواً؟"

"تصيني الطائرات بالغثيان."

قال السيد ناث: " أعتقد أننا انتظرنا ما يكفي، سوف نقابل الرجل المسؤول ونشرح له الوضع. دعني أتولى أمر الحديث إليه."

سرنا حول الحاجز حيث يجلس مدير التذاكر، وهو ينظر إلى أحد الدفاتر في انفعال. قال بدون أن يرفع عينيه إلينا: " نعم، ما الأمر؟". فأشار السيد ناث بغليونه إليّ، وقال بعجرفة تلازم الهنود



عند الحديث إلى بعضهم باللغة الإنجليزية، وهو يقدمني ككاتب أمريكي بارز يشكّل انطباعاً سيئاً عن الخطوط الحديدية الهندية.

قلت: "انتظر لحظة."

"من الضروري أن نبذل قصارى جهدنا لضمان-"

قال مدير التذاكر: "سائح؟"

قلت نعم.

أصدر فرقة بأصابعه وقال: "جواز السفر."

سلمته إياه، فكتب طلباً جديداً وصرفنا. عاد الطلب إلى الساعي، الذي زحف في طريقه حتى النافذة.

قال السيد ناث: "إنها مسألة أولويات. أنت سائح. وقد قطعت كل هذه المسافة، لذلك لك الأولوية.

نحن نريد أن نقدم انطباعاً طيباً. إن أردت السفر مع أسرتي- زوجتي وصغاري، وربما والدتي

أيضاً فسيقولون "أوه لا لدينا سائح هنا. مسألة أولوية!"- هذا هو الأمر المهم أليس كذلك؟"

كان الشيخ الهندي يجلس في المقصورة وهو يضع رجلاً على رجل على أريكته يقرأ نسخة من

مجلة فيلم فير. ولدى رؤيتي أدخل، وضع نظارته الطبية جانباً، وابتسم، ثم عاد إلى مجلته. قصدت

أنا الخزانة الخشبية، وضربت بها بيدي محاولاً فتحها. أردت أن أعلق معطفي، فوضعت أصابعي

في المقدمة المرفوعة وسحبت. وضع الهندي نظارته مرة أخرى، وفي هذه المرة أقفل المجلة.

قال: "أرجوك، ستكسر مكيف الهواء."

"هل هذا مكيف هواء؟" لقد كان صندوقاً طويلاً في ارتفاع الغرفة، وعرضه أربعة أقدام، مطلي

بالملمع، وهاديء ودافيء.

أوما: "لقد تم تحديثه. عمر هذه اللعبة خمسون عاماً."

"1920؟"

قال: "تقريباً. كان نظام التبريد مثيراً للاهتمام وقتئذٍ. وكان لكل مقصورة وحدة تبريد خاصة بها.

هذه وحدة. وقد كانت تعمل جيداً."

قلت: "لم أعلم بوجود مكيفات الهواء في العشرينيات."

فقال موضحاً الأمر: "كانت تستخدم الثلج". كانوا يضعون الثلج تحت الأرض في حاويات- وكانت

التغذية بالثلج تنم من الخارج لئلا ينزعج الركاب النائمون. كانت المراوح في الخزانة التي حاولت

فتحها تحرك الهواء فوق الثلج، وإلى داخل المقصورة. ويُجدد الثلج كل ثلاث ساعات. (تخيلت

رجلاً إنجليزياً يشخر نائماً على فراشه في المقصورة، بينما على رصيف بعض المحطات النائبة

كان الهنود ذوو العيون البرّاقة يدفعون بمكعبات الثلج داخل الحاويات.) ولكن انعكس النظام: تمت

إضافة جهاز تبريد تحت المراوح. وبينما كان ينهي حديثه صدر من خلف الصندوق صوت ينبيء

عن بدء عمل المبرّد، ثم صوت مرتفع مستمر.

"متى توقفوا عن استخدام الثلج؟"

قال: "قبل أربع سنوات تقريباً"

قال وهو يتثاءب: "هلا عذرتني في الخلود إلى النوم؟"

بدأ القطار يتحرك، والخشب الذي يغلق عربة النوم العتيقة هذه أصبح يصّر ويئن؛ والأرضية تهتز، ونوافذ المعدن المحصنة ضد السرقة ترن في أطرها، والأزيز المنبعث من الخزانة الفارعة الطول دام طوال الليل. كان قطار كالكا يعجّ بالبنغاليين، في طريقهم إلى شيملا لشهود الاحتفال، عيد الأم كالي. البنغاليون ذوو البشرة الشبيهة بآلهة الدمار السمراء التي يعبدون، والنظرة الحادة ذاتها المعلقة بأنوفهم، وسوء حظهم الذي جعلهم يعيشون في الجهة المعاكسة من البلاد، بعيداً عن معبد كالي الأقرب إلى قلوبهم. تصوّر كالي في العادة وهي ترتدي قلادة من جماجم بشرية، وهي تدفع بلسانها الأحمر خارجاً، وهي تسحق جثة إنسان. ولكن البنغاليون كانوا يبتسمون في عذوبة على طول القطار، وتمتليء سلالهم بالأطعمة، وأكاليل الأزهار المنسوجة ببراعة واقتدار. كنت نائماً عندما وصل القطار إلى كالكا فجراً. ولكن الهندي العجوز أيقظني بلطف. كان مهندياً وجالساً على الطاولة القابلة للطي، وهو يحتسي قدحاً من الشاي ويقرأ صحيفة شانديغار. صب شايه في القدح ونفخ فيه، ثم صب نصف قدح في الطبق الصغير، ولعقه مثل القطة. ستحبّ قراءة هذا، لقد استقال نائب رئيسكم."

أراني الصحيفة، وكانت الأخبار السارة، مشاركة الصفحة الأولى مع مادة عن السيد ديكشيت. بدت تشكيلة سعيدة، ديكشيت وأغنيو، مع أنني متأكد من خلو حياة السيد ديكشيت السياسية من كل شائبة أو لوم. فيما يخص أغنيو فإنّ الهندي ضحك في مرارة عندما أخبرته بما يكافيء المبلغ الذي اختلسه بالعملة الروبية. حتى سعر صرف السوق الأسود حوّله إلى فاسق رخيص. كان الرجل يصرخ بتشنج.

يلتقي في كلكتا منظران اثنان. لا شيء تدريجي في الانتقال من السهول إلى الجبال: تقف الهمالايا في الحد الأعلى من السهل الإندوغانجيتي، الارتفاع مفاجيء ودرامي. كانت القطارات تجسد سيادة التغيير؛ يحتاج المرء إلى الاثنين: وسيلة واسعة في المشوار إلى كالكا، ودابة صغيرة قوية للصعود إلى شيملا. كالكا ذاتها محطة جيدة التنظيم في نهاية طريق القطار الواسع. بين سلسلة الهمالايا وكالكا تستقر محطة هضبة شميلا المعتدلة الجو في جرف أجرد مشمس. لقد اخترت القطارات التي سأستقلها لرحلة الستين ميلاً على الطريق الضيق: قطار اللعبة أو عربة السكة الحديد. عربات القطار الخشبية الزرقاء كانت محمّلة بالحجيج فعلاً- البنغاليون، ينشطون في القطارات الحافلة بالركاب، وهي تؤدي حيلة كالكتا للقفز إلى القطار عبر النوافذ متخبرين أفضل المقاعد. كانت هذه مهارة ريفية، تلك الحركة الهوائية- عكس حقّار النار- وقد تركت أهل الهضبة الأشد صبراً ذاهلي العيون. قررت أنّ استقل العربة المقطورة وهي عبارة عن حافلة قديمة. وقد كانت ملحقة على ارتفاع منخفض من القضبان الضيقة، وتشبه عربات الليموزين القديمة. لكن بالنظر إلى صنعها في عام 1925 (لقد أكّد لي السائق هذا الأمر)، فقد كانت في حال مدهشة.

لقد وجدت المحصل. كان يرتدي زياً أبيض ملطخاً، وقبعة بنية مرتفعة لا تناسبه. كان يشعر بالأسف لسماع رغبتني في ركوب العربة المقطورة. فمرر إبهامه على لوحه الحامل للأوراق ليربكني وقال: "أنا أنتظر مجموعة أخرى."

لم يكن سوى ثلاثة أشخاص في العربة المقطورة. شعرت أنّه كان يحاول الحصول على البقشيش. قلت له: "كم من الأشخاص تسع هذه العربة؟"

قال: " اثنا عشر "  
"كم عدد المقاعد المحجوزة؟"  
فأخفى لوحه الحامل وأشاح بوجهه، وقال: " أنا آسف جداً."  
"إنك خدوم جداً."  
"إني أنتظر مجموعة أخرى."  
"إذا جاءوا، اخبرني، في هذه الأثناء سأضع حقيبتني بالداخل."  
فقال بذكاء: " ربما تُسرق."  
" لا شيء سيسعدني أكثر."

قال رجل ضئيل الحجم وهو يحمل مكنسة يدوية " هل ترغب في الإفطار يا صاحب؟"  
قلت نعم، وفي غضون خمس دقائق كان إفطاري أمامي على مكتب تذاكر غير مستخدم في وسط الرصيف، الشاي، الخبز، والمربى، ومكعب من الزبد، وبيض مقلي. سطع نور شمس الصباح على الرصيف، يبتث الدفء في أوصالي بينما أتناول وجبة الإفطار قائماً.  
كانت محطة غير عادية بالنسبة للهند: لم تكن مزدحمة، وخلت من النائمين، ومعسكرات السكان العراة، لا أبقار أيضاً. كانت معبأة برائحة العشب الرطب والأزهار البرية ذلك الصباح. مسحت شريحة خبز سميكة بالزبد وأكلتها، ولكني لم أستطع تناول وجبتي بكاملها. تركت بعض شرائح الخبز، والمربى ونصف البيض بدون أن ألمسه، وسرت إلى العربدة المقطورة. وعندما نظرت ورائي، رأيت طفلين في ملابس رثة يمدان أيديهم إلى الطاولة ويحشوان فميهما بما تبقى من مائدة إفطاري.

في الساعة السابعة والربع أدخل سائق العربدة ذراع التشغيل داخل المحرك ووكزها. فاهتز المحرك وسعل، وهو ما زال في اهتزازه ودخان، بدأ في الأزيز. وفي خلال دقائق كنا على المنحدر، ننظر إليه من أعلى محطة كالكا، حيث كان في فناء القطار رجلان يرفعان قاطرة بخارية ضخمة في الجوار على منصة. كانت سرعة العربدة مستقرة على عشرة أميال في الساعة، في طريق متعرجة، في الهضبة المنحدرة الجوانب، وتعكس الاتجاه عبر الحقائق المدرجة وأسراب الفراش البيضاء. اجتزنا عدة أنفاق من قبل، ولاحظت أنها مرقمة؛ كتب رقم 4 بالخط العريض على مدخل المحطة التالية. قال الرجل الجالس إلى جانبي، والذي أخبرني أنه موظف مدني، أن عدد الأنفاق يصل إلى 103 نفق. بعدها حاولت ألا أهتم بالأرقام.  
خارج العربدة كان ثمة منحدر حاد، مئات الأقدام إلى الأسفل، لأن محطة القطار التي افتتحت عام 1904، كانت قد حفرت على جانب الهضبة حفراً، وكان الخط فوقها كمرر مزلجة على مضمار تزلج يدور حول التلال.

بعد ثلاثين دقيقة كان جميع من في العربدة نائمين، عداي والموظف المدني.  
وكان رجل البريد في مقعده الخلفي يستيقظ من غفوته في المحطات الصغيرة على طول الطريق، ليلقي بحقيبة البريد من النافذة إلى حمال يقف بانتظاره على الرصيف. حاولت التقاط بعض الصور لكن المناظر كانت تجفل أمام عدستي: تحول منظر إلى آخر، ليدوم لثوانٍ فقط، تلاشت التلة والهواء على نحو محير في الضباب وكذلك جميع درجات الخضرة الصباحية. أصابتنني آلات فرم اللحوم المقابلة للرف أسفل عربدة الطعام التي كانت تتك كساعة قديمة بالدوار. أخذت وسادتي

الهوائية خارجاً، نفختها، ووضعناها تحت رأسي، ونمت في هدوء تحت أشعة الشمس حتى أيقظتني جلجلة كوابح العرب، وضجة اصطفاق الأبواب المفاجئة.

قال السائق: "عشر دقائق"

كنا تحت الهيكل الخشبي مباشرة، منزل عرائس تتدفق أصص نوافذه بالأزهار الحمراء المفتحة، ويقطع الطحلب أفاريزها الواسعة. كانت هذه محطة بانجو. بها فرندة واسعة معقدة التصميم يقف عليها نادل يحمل تحت ذراعه قائمة الطعام.

تزاحم ركاب العرب المقطورة على الدرج. لم يكن إفطاري في محطة كالكا مكتمل النضج؛ وجدت رائحة البيض والقهوة، وسمعت البنغاليين يتساجرون مع النُذل باللغة الإنجليزية.

سرت على الممرات المرصوفة بالحصى لأستمع بمرأى الزهور المعتنى بها جيداً، تحت المحطة غدير نشط التيار له خرير، واللافتات هناك، وإلى جانب الأزهار عليها عبارة: "ممنوع القطف!". كان النادل يلاحقني حتى النهر وهو ينادي: "لدينا عصائر! هل تحب عصير المانجو الطازج؟ القليل من العصيدة؟ شاي-قهوة؟"

استأنفنا المسير، ومر الوقت بسرعة بينما كنت نائماً مرة أخرى، واستيقظت لأرى الجبال الشامخة، وقد قُلت الأشجار، وزادت وعورة المنحدرات، والأكواخ واقفة على شفا جرف هار. تبدد الضباب، وأشرقت جوانب الهضبة، ولكن الهواء كان بارداً، وهبت نسمة منعشة من النافذة المفتوحة للعربة. كان السائق يشغل المصابيح البرتقالية اللون عند كل نفق، وكان ضجيج العجلات المقعقة قد ازداد وصار له صدى. بعد سولون لم يتبق في العربة سوى عائلة من الحجيج البنغاليين (الجميع يغط في نوم عميق، لهم شخير، ووجوههم إلى الأعلى)، أنا والموظف المدني، ورجل البريد.

كانت المحطة التالية هي معمل صولون للجنة، حيث الهواء مشبع بالخميرة والقنب، بعد أن اجتزنا غابات الصنوبر وحقول الأرز. على أحدها تمطى بابون بحجم صبي في السادسة من عمره، تسلل خارج القبضان حتى يسمح لنا بالمرور. شد انتباهي الحجم الضخم للمخلوق.

قال الموظف المدني: "كان هناك سادهو-رجل دين- يعيش بالقرب من شيملا. كان قادراً على التحدث إلى القروء. وكان لرجل إنجليزي حديقة، وتزعجه القروء طوال الوقت. للقروء قدرة كبيرة على التخريب. أخبر الرجل الإنجليزي رجل الدين هذا بمشكلته. قال السادهو: "سأرى ما بوسعي فعله." ثم دخل إلى الغابة واستدعى جميع القروء. وقال: "سمعت أنكم تزعجون الرجل الإنجليزي، هذا أمر سيء، توقفوا عن ذلك، أتركوا حديقته بسلام. إن سمعت عن تسببكم في أية أضرار سوف أعاقبكم بشدة." ومنذ تلك اللحظة، لم تدخل القروء إلى حديقة الإنجليزي أبداً."

"هل تصدق تلك القصة؟"

"نعم، ولكن رجل الدين قد توفي الآن. لا أعرف ما حدث مع الرجل الإنجليزي. ربما ذهب مثل البقية." وقال بعد فترة صمت "ما هي فكرتك عن الهند؟"

فقلت أنا: "إنه سؤال صعب". أردت أن أحدثه عن الأطفال الذين رأيتهم في ذلك الصباح وهم يهجمون على ما تبقى من إفطاري بصورة مثيرة للإشفاق، وأن أسأله عما إذا كان يعتقد بصدق مقولة مارك توين عن الهنود التي تنص على: "إنهم أناس غرباء. تبدو كل الحيوانات بين ظهرانيهم مقدسة ما عدا حياة الإنسان." ولكنني أضفت بدلاً عن ذلك: "لم يطل بي المقام هنا."

" سوف أخبرك ما أعتقد،" قال هو واستطرد: " إن بدأ جميع من يتحدثون عن الصدق، والإنصاف، والاشتراكية، وما إليها، في العمل بما يقولون فستكون الهند بخير. عدا ذلك، ستندلع ثورة ما."

لقد كان رجلاً جاد الملامح في مستهل الخمسينيات من العمر، وقد كان باحثاً سنسكريتياً في إحدى جامعات الهند قبل أن يصبح موظفاً مدنياً. يستيقظ في الخامسة صباحاً كل يوم، ويتناول ثمرة تفاح، وكأساً من الحليب، وبعض اللوز؛ يغتسل وصى، وبعدها يذهب في نزهة طويلة على الأقدام، ثم يقصد مكتبه، ليكون مثلاً يحتذى به لصغار الموظفين، كان يسير إلى العمل على الأقدام. وقد جهّز مكتبه في بساطة، ولم يلزم حمّاله بارتداء الزي الرسمي الكاكيّ اللون. أقرّ بأنّ نموذج لم يكن مقنعاً. كان لدى صغار موظفيه تراخيص لمواقف السيارات، ومفروشات فخمة، وحمّالون بأزياء رسمية.

"سألته لماذا يصرفون كل هذا المال بلا داع. فقالوا إنّ ترك انطباع جميل من أول مرة أمر مهم للغاية. فقلت للأوغاد: " ماذا عن الانطباع الثاني؟"

كانت كلمة "الأوغاد" تتكرر في حديثه. كان اللورد كليف وغداً؛ وكذلك معظم النواب الباقين. يطلب الأوغاد رشوة، يحاول الأوغاد تزييف حسابات الوزارة؛ يعيش الأوغاد في رفاهية ويتحدثون عن الاشتراكية. إنّها مسألة شرف بالنسبة لهذا الموظف المدني لدرجة أنّه لم يدفع أو يتلقّى البقشيش طوال حياته: " ولا بيزة واحدة حتى."

وقد فعل بعض موظفي مكتبه، وخلال ثمانية عشر عاماً في الخدمة المدنية قام شخصياً بفصل اثنين وثلاثين شخصاً. كان يعتقد أنّه حقق رقماً قياسياً ما. سألته عن جريرتهم.

فقال: " التقصير الشديد، واختلاس المال، والفساد الجنسي. ولكني لم أفصل أي شخص قبل التحدث إلى والديه باستفاضة. كان هنالك وغد في قسم المراجعة، ودائماً ما كان يقرص مؤخرات الفتيات. الفتيات الهنديات كريمات الأصل! حذرته من تبعات ذلك، ولكنه لم يتوقف. عليه أخبرته برغبتي في الحديث إلى والديه. فقال الوغد إنّ ذويه يعيشون على بعد خمسين ميلاً. أعطيته المال من أجل تكلفة سفرهما بالحافلة. كانا فقيرين، وقلقين على الوغد. فقلت لهما، " أريدكما أن تعرفا أنّ ابنكما في ورطة خطيرة. إنّّه يزجج السيدات العاملات في هذا القسم. رجاء تحدثا إليه واطمئنه أنّ التمادي في هذه الأفعال لن يترك لي خياراً سوى فصله."

غادر الوالدان، ورجع الوغد إلى العمل، وبعد عشرة أيام عاد إلى ما كان عليه. فأوقفته على الفور، ثم قدمت شكوى ضده."

تساءلت ما إذا كان أيّ من هؤلاء الناس قد حاول الثأر منه!

"أجل، كان هنالك واحد. شرب في إحدى الليالي وجاء إلى منزلي وهو يحمل سكيناً. " هيا اخرج إلي، سوف أقتلك!" وما شابه ذلك. انزعجت زوجتي لكنني غضبت. لم أستطع التحكم بنفسي، فاندفعت خارجاً وركلت الوغد بقوة فرمى السكين وأخذ يبيكي. " لا تستدع الشرطة، لديّ زوجة وأطفال". أرايت؟ لقد كان جباناً حقاً. تركته يمضي وانتقذني الجميع- قالوا كان عليّ اتهامه، ولكني أخبرتهم أنّه لن يعود مرة أخرى.

"وفي مرة أخرى. كنت أعمل لصالح شركة هيفي إلكترويكال، أقوم بأعمال المراجعة لبعض المحتالين في البنغال. أخطاء في البناء، ومداخل مزدوجة، وتقديرات أكبر مما ينبغي بخمسة

أضعاف. بالإضافة إلى الفساد الأخلاقي. كان أحد الرجال- وهو ابن المقاول، وثري جداً، احتفظ بأربع مومسات. قدم إليهن الويسكي وجعلهن يتجردن من ملابسهن ويركضن وسط مجموعة من النساء والأطفال وهم يصلون. يا للخزي. حسناً لم أرق لهم على الإطلاق، وفي يوم مغادرتي كان أربعة مجرمين مسلحين بالمدى في انتظاري على طريق المحطة. ولكني توقعت ذلك، لهذا سلكت طريقاً مختلفاً، ولم يستطع الأوغاد الإمساك بي. عقب ذلك بشهر تعرض اثنان من المراجعين للقتل على يد العصابات.

تأرجحت العربية بالقرب من جانب الجرف، وعلى المنحدر المقابل، عبر واد عميق، تقع مدينة شيملا. اصطفت معظم منازل المدينة على هيئة سرج تشكّله الأسطح الصدفية، ولكن بينما كنا نقرب تبين أنّ الحواف تنحدر باتجاه الوادي. لا تخطيء العين شيملا، لأنّ دليل موراي يصفها قائلاً: " تهيمن على أفقها إحدى الكنائس القوطية، وقلعة بارونية، ومنزل ريفي على طراز الحقبة الفيكتورية" وفوق أكوام الطوب هذه تشمخ قمة جاكهو الحادة (8000 قدم)؛ ومن تحتها واجهات المنازل المتلاصقة. أما الناحية الجنوبية من شيملا فهي شديدة الانحدار لحدّ أنّ درجات السلالم الأسمنتية تحلّ فيها محلّ الطرق. تبدو مكاناً جميلاً عند النظر إليها من عربة القطار، مدينة الأطلال الرائعة، والجبال المتوّجة بالثلوج في خلفية المشهد.

قال الموظف المدني: " مكتبي في تلك القلعة."

قلت: " قلعة غورتون"، ومرجعي في ذلك الكتيب السياحي. " هل تعمل مع محاسب البنجاب العام؟"

قال: "حسناً، أنا المحاسب العام". ولكنه كان يقدم معلومة، بدون أن يتباهى. قام الحمال في محطة شيملا بربط حقيبتي إلى ظهره (كان كشميرياً، يستعد للموسم). قدم الموظف المدني نفسه لي باسم فيشنو باردواج، ودعاني لشرب الشاي تلك الظهيرة.

كان السوق مزدحماً بالهنود من ذوي الحرف في مشوارهم الصباحي، والأطفال الذين يرتدون الملابس الدافئة، والنساء في معاطفن فوق أثواب الساري، والرجال في برّاتهم الصوفية، يمسكون بدليل مدينة شيملا السياحي في يدي وبال عصا في اليد الأخرى.

كان السيّر مقصوراً على ساعات معينة من التاسعة إلى الثانية عشر صباحاً، ومن الرابعة إلى الثامنة في المساء، بحسب توقيت الوجبات وفتح المتاجر. ظلت هذه الساعات ثابتة على مدى قرن من الزمان، عندما كانت شيملا عاصمة صيفية لامبراطورية الهند، ولم تتغير. ظلت العمارة على حالها هي الأخرى- على طراز الحقبة الفيكتورية، بلمسات فخمة واضحة سمح بها العمل الاستعماري، وبذخ في المصارف المائية والبوابات، مدعومة بالأعمدة والمشغولات الفولاذية لمنعها من السقوط. مسرح جايتي (1887)، ما زال يحمل نفس الاسم (مع أنني عندما كنت هناك كان "المعرض الروحي" في موقعه" ولم أحظ برؤيته). استمرت سفاسف الأمور في قلعة غوردون، كما الصلوات في كنيسة المسيح (1857)، والكاتدرائية الإنجيلية، ومجمع النواب (المقر الرئاسي)، ومنزل باروني، أصبح الآن المعهد الهندي للدراسات المتقدمة، ولكن الباحثين الزائرين يسировون بحذر في المكان استجابة لحرص إدارته على مراعاة وضع المكان كضريح. وتتناثر الأكواخ أيضاً بين منازل شيملا الكبيرة - المقر المقدس، قلعة رومني، والثكنات، ومنظر الغابة، وسيفناوكس، وفيرنسايد- لكن السكان الآن من الهنود، أو على الأرجح ورثتها من السلالة

الهندية كما يقول الدليل السياحي، عصا السير، ربطة العنق، والشاي في الرابعة، والسير في المساء إلى سكانيال بوينت. إنها الامبراطورية ذات البشرة السمراء، بؤرة استيطانية حافظ عليها الحرفيون المقلدون من التغير، مع إنها لم تكن مكاناً ساحر الألوان كما وصفه كيم، وبالتأكيد كان أقل جموحاً مما كان عليه قبل قرن من الزمان.

وفوق كل شيء، شهدت شيملا بدايات لولا مونتز، المحظية العظمى، في البغاء، وكانت النساء العازبات الوحيدات اللواتي رأيتهن من العائلات التبتيات حمرات الخدود في معطفهن المبطن، يسرن على طريق السوق وهن يحملن على ظهورهن حزمًا من الأحجار الثقالة.

شربت الشاي مع عائلة بهاردواج. ولم تكن دعوة بسيطة كما توقعت. تكونت من ثمانية أو تسعة أطباق: باكورا، وخضروات مقلية في الزبد، وخليط الأرز والحمص، والكزبرة، والكركم، والخيرة، وهي عصيدة أرز كريمية، بالحليب والسكر، ثم أحد أنواع سلطات الفواكه مع إضافة الخيار والليمون، ويطلق عليه اسم تشات، وموراك، وهو من المقبلات التاميلية، على هيئة قطع كبيرة من الكعك المملح بالمكسرات؛ وتيكيا، وهي معجنات البطاطا، وقطع من حلوى المالاي الكروية المسكرة المغطاة بالكريمة، وكرات الحلى بنكهة اللوز. أكلت ما استطعت، وفي اليوم التالي رأيت السيد بهاردواج في قلعة غورتون. كان مكتبه بسيطاً في أثاثه كما قال في عربة القطار، وعلى مكتبه لافتة تقول:

لا تهمني ذرائع التأخير، بل تهمني الأعمال المنجزة. — جواهرلال نهرو  
وفي يوم رحيلي وجدت مزاراً دينياً في واحد من منحدرات شيملا. وكانت لدي رغبة بزيارة أحد المزارات منذ أن حدثني الهبي في قطار طهران السريع عن روعة هذه الأماكن، ولكن خاب ظني عندما وجدت أن الضريح ليس سوى كوخ متداع يديره شيخ ثرثار يدعى غوبتا، ادعى معالجة عدد كبير من المرضى في مراحل متقدمة من السُّل، وذلك بتمرير يديه على أرجلهم. لم يكن هناك هيببون في هذا المزار، إلا أن السيد غوبتا كان حريصاً على استقطابي. فقلت له إن علي اللحاق بالقطار. فقال لي إن كنت مؤمناً باليوغا فلن أقلق بشأن تفويت أحد القطارات. قلت له إنني لم أكن مؤمناً باليوغا.

قال السيد غوبتا: "سأحكي لك قصة. زار أحد الرجال يوغياً، وكان يريد أن يتلمذ على يد الأخير. فقال اليوغي إنه مشغول، ولا وقت لديه لذلك. فقال الرجل إنه في حاجة ماسة للتلمذة. ولكن اليوغي لم يصدقه. قال الرجل إنه سينتحر قفزاً من السقف إن لم تُقبل تلمذته. ولم يقل اليوغي شيئاً، فقفز الرجل.

وقال اليوغي: "احضروا لي هذا الجسد." فأحضر. فمرر اليوغي يديه على الجسد، وبعد دقائق معدودة عاد الرجل للحياة.

فقال اليوغي: "الآن، أنت مستعد لتكون تلميذي، وأنا أو من بأك ستلتزم بالسلوك القويم، وقد برهنت لي على إخلاصك العظيم." وهكذا صار الرجل العائد إلى الحياة تلميذاً.  
سألته: "هل أعدت أي شخص من قبل إلى الحياة؟"

أجاب السيد غوبتا: "لا حتى الآن."

لا حتى الآن! كان معلمه باراماهانسا يوغاناندا، والذي يُرى وجهه المشرق كالقديسين في جميع أنحاء المزار. في رانشي، كان لباراماهانسا يوغاناندا رؤية. كانت رؤيته: جمع ملايين الأمريكيين

الذين احتاجوا نصيحته، ووصفهم في سيرته الذاتية بالحشد العريض الذي ينظر إلي في اهتمام، والذي اجتاحهم كممثل في مسرح الوعي. يدعوني الرب إلى أمريكا.. أجل! سأمضي لاكتشاف أمريكا، مثل كولومبوس. أعتقد أنني وجدت الهند، بالتأكيد هنالك رابط كارمي بين هذين البلدين! "ربما استطاع رؤية الناس بوضوح، فتعرّف على وجوههم عندما وصل إلى كاليفورنيا بعد ذاك ببضع سنوات.

أقام في لوس أنجلوس لثلاثين عاماً، وبخلاف كولومبس، مات غنياً وسعيداً وراضياً. أخبرني السيد غوبتا بهذه القصة العجيبة في نبرة سادها احترام عظيم، ثم أخذني في جولة لاستكشاف المزار، لافتاً نظري إلى اللوحات العديدة التي تصوّر المسيح (ملونة بحيث تجعله يشبه اليوغّي) والتي علقها على الجدران.

"أين تعيش؟" سأل بلطف أحد منتسبي المزار الصغار الذي كان يأكل تفاحة. (تفاح شيملا لذيذ لكن بسبب اتفاقية التجارة يذهب المحصول كله لبولندا.) "جنوب لندن حالياً."

"ولكنه مكان صاخب ومتسخ جداً!"

صعقتني هذه الملاحظة من رجل قال إنّه من كاتماندو، ولكنني تجاوزت الأمر. قال: "كنت أعيش في حدائق قصر كنسنتون، كانت الأجرة مرتفعة، ولكن دفعتها حكومتي. كنت سفيراً لدولة نيبال آنذاك." "هل التقيت بالملكة قط؟"

"مرات كثيرة. كانت الملكة تحب الحديث عن المسرحيات التي تعرض في لندن. لقد تحدثت عن الممثلين، والحبكة وما إلى ذلك. وكانت لتقول: "هل تحب هذا الجزء من المسرحية أم ذاك؟" وإنّ لم تكن قد شاهدت المسرحية سيكون من الصعب الإجابة. ولكنّها في العادة تتحدث عن الخيول، وأنا أسف لقول إنني لا أهتم بالخيول على الإطلاق."

غادرت المزار، وزرت السيد بهاردواج للمرة الأخيرة. فقدم لي عدداً من التحذيرات العملية حول السفر، ونصحني بزيارة مدراس، حيث أرى الهند الحقيقية. كان في طريقه لفحص مكربن الهواء بسيارته، وإنهاء بعض الحسابات في مكتبه. تمنى لي زيارة ممتعة لشيملا، وقال إنّه لأمر مؤسف ألا أرى الجليد فيها. كان رسمياً، ويكاد أن يكون جافاً في وداعه، ولكنّه قال وهو يسير على طريق كارت، "سأراك في إنجلترا أو أمريكا."

"سيكون هذا رائعاً، أتمنى أن نلتقي مرة أخرى."

قال بنقّة أثارت شكي: "سنفعل،"

قلت له: "وما يدريك؟"

"أنا على وشك الانتقال من شيملا. ربما سأذهب إلى إنجلترا، أو إلى الولايات المتحدة. هذا ما تقوله لي توقعات الفلك."



---  
الفصل العاشر  
قطار الراجدهاني ("العاصمة") إلى بومباي  
--

كان السيد راضي (كان اسمه على ديباجة بجانب الباب، مع اسمي) يجلس على أريكته، يندن بأغنية هندية من أنفه. رفع صوته بالغناء عندما رأي. أخرجت آلة الحلاقة الإلكترونية خاصتي وبدأت أمررها على وجهي؛ وكان هو يعادل أزيز المحرك بأغنيته الحزينة. كان وجهه يكتسي بالجزل عندما يغني، ويبدو كئيباً في الأوقات الأخرى. نظر إلى زجاجة الجن خاصتي باستياء وأخبرني أن "الروحيات" محظورة على الخطوط الحديدية الهندية، وغمغم لدى سماع إجابتي الماكرة: " لكنني اعتقدت أن الهنود يؤمنون بالأرواح". بعد ذلك بلحظات رجاني أن أضع غليونني خارجاً، وقال إنه تقياً ذات مرة في إحدى المقصورات حيث كان أحد الرجال الإنجليز يدخن. قلت: " أنا لست انجليزياً". فغمغم بشيء. رأيت أنه كان يحاول قراءة غلاف اليوغاندانا، وهي هدية وداع من السيد غوبتا، صاحب مزار شيملا.

سأل السيد راضي: " هل أنت مهتم باليوغا؟"  
فقلت وأنا أتفحص الكتاب: " لا". بللت أصبعي، وقلبت صفحة من صفحاته.  
قال السيد راضي: " لا أعني الجانب الجسدي، بل الذهني. هناك تكمن الفائدة."  
"الجانب الجسدي هو الجزء الأفضل."  
"ليس بالنسبة لي. عندي كل شيء ذهني. أحب تمرين عقلي بالمناظرات، والمناقشات بجميع أنواعها."

"صفقت الكتاب، وغادرت المقصورة."  
كنا في وقت متأخر من الظهيرة، ولكن الشمس البرتقالية قد بدأت بالفعل تمتزج بوهج الغبار في الطرف الأقصى من المشهد كامل الانبساط. دلهي مدينة الثلاثة ملايين، ولكن على بعد نصف ساعة فقط من المحطة ستجد نفسك في الريف الخالي من السكان، سهل أخضر منبسطة مثل تلك المساحات من تركيا وإيران، التي كانت مشرقة بنور الشمس وخالية لدرجة أوجعت عيني. شققت طريقي بين عربات الدرجات وصولاً لعربة الطعام: في الدرجة الأولى مكيفة الهواء، وبها سجاد، ومقابض أبواب باردة، ونوافذ يغطيها الضباب، ومرشة ماء في دورة المياه الهندية الطراز، ولكن

لم يكن أيٌّ من المشروبات المريحة المقدمة "غربيّ الطراز" [وكانت هذه ديباجة متطرفة]، كانت غرف نوم الدرجة الأولى ذات غرف خالية وآرائك ذات أغطية بلاستيكية، وغرفة الجلوس كانت ذات مقاعد مرتبة على غرار الطائرة، كان الركاب يجلسون فيها ليلاً بالفعل، تُلف رؤوسهم البطانيات اتقاء الهواء البارد المنبعث من المكيفات، والأضواء المتوهجة على أسقفها، وكانت هناك ألعاب الورق، في مقصورات الدرجة الثانية الخشبية، وفي الدرجة الثالثة النوم ثبتت الأسرة الرقّية إلى الجدران في عجلات كما في قطارات الأفلام الروسية القديمة. استلقى الناس على الأسرة بركبهم النحيلة البارزة، والبقية يصطفون زرافات أمام أبواب دورات المياه.

كانت غرفة الطعام، في الحلقة الأدنى من هذا السلم الاجتماعي الهندي، غرفة ضيقة من المقاعد المكسورة، والطاولات المقلوبة. كانت قسائم الوجبات تُباع. وفي هذه المرحلة من سفري تحولت إلى نباتي. كان اللحم الذي رأيته في الهند نتن الرائحة على أي حال، لذا لم أشتهه مطلقاً، وكنت أسميه في بعض الأحيان: "صرعات اللحم". وعلى الرغم من أنني لا أعاني أية آثار جانبية (عثة، ضعف، أو غازات)، إلا أنني كنت أتردد عندما أرى-كما حدث في ذلك المساء- طباًخاً هندياً بديناً متعرقاً في زيّه المتسخ، يحضّر الخضروات للطبخة، ويجمعها بذراعيه، ثم يضربها ويعصرها حتى تصبح كتلة لبنية.

وقفنا بعد أن حلّ الظلام في تقاطع ماتورا. وشاهدت، في ضوء رصيف المحطة منظر قروي السكة الحديد الذي صار مألوفاً الآن (إلا أنّه ما زال يرعيني). لم يكونوا من السكان المحليين: بل كانوا شديدي سواد البشرة، نحيلين، بأسنان صغيرة حادة، وأنوف ضيقة، وشعر لامع كثيف. وكانوا يرتدون التنانير ويعسكرون على الرصيف بشيء من الأحقية الحصرية، مما يشي باستدامة هذه الإقامة. كانت هنالك صفوف من الأسرة التقليدية، وفي الطرف غير المسقوف من المحطة أغطية تكسوها الشحوم، مضروبة مثل الخيام. كانوا يبصقون، ويأكلون، ويتبولون، ويتجولون بشيء من الثقة قد لا تراها في قرية نائية من أعماق أدغال مدراس. (خلتهم من التاميل) بدلاً عن نظرة مسافري قطار بومباي السريع الدونية لهم. كانت إحدى السيدات تمسك بطفل وتساعد في تمشيط فروة شعره من الصئبان، وامرأة أخرى، التي كنت أظنها في غمرة من اليأس والإحباط، رأيته بعد لحظة واحدة تلعب الغمضة مع طفل يختبئ نصفه وراء قفص برتقال.

اجتازت هذه المستعمرة مرات كثيرة بدون النظر إليهم عن كثب. وجدت رجلاً على القطار، وسألته ما إذا كان بمقدوره ترجمة أسئلتي وردّاً بالإيجاب. ووجدت من وافقوا على إجراء مقابلات معهم. كان هذا رجلاً بوجه ثعلب، وعينين بيضاوين لامعتين، وأسنان قصيرة، يرتدي تنورة بيضاء. وكان يقف عاقداً ذراعيه ويربت بأصابعه الرقيقة على عضلات ذراعيه.

"إنّه يقول إنهم جاءوا من كيرالا."

"ولكن لمّ جاءوا إلى هذا المكان البعيد؟ هل يبحثون عن عمل؟"

"ليس بحثاً عن عمل. هذه ياترا."

إذن فهي قبلة أخرى للحجيج.

"إلى أين يتجهون؟"

قال المترجم: "هنا، ماتورا" وهو ينطقها موترا. تحدث الرجل ذو وجه الثعلب مرة أخرى. واستأنف المترجم: "إنّه يسأل ما إذا كنت تعلم أنّ هذا المكان مقدس؟"

" محطة القطار؟ "

" المدينة. ولد الرب كريشنا هنا. "

وليس هذا فقط. قرأت مؤخراً أنّ راعي البقر المقدس قد استبدل بطفلة جاسودا حتى ينقذه من القتل على يد العملاق كانس، في موازاة لقصة هيرودوس. كانت المدينة أيضاً هي مرتع صبا كريشنا، حيث كان يرتاض مع عاملات الحليب، ويعزف على نايه. كانت الأسطورة جميلة؛ وبدأ المكان ذاته نقيضاً قميئاً.

" كم من الوقت يظل الحبيج هنا؟ "

" بضعة أيام. "

" ولم يقيمون في المحطة وليس في البلدة؟ "

" هنا تتوفر المياه والإنارة، وهي آمنة. في البلدة لصوص، ويُطارد بعض الناس من قبل المجرمين rogues. "

" كيف يحصلون على الغذاء؟ "

" إنه يقول إنهم أحضروا بعضاً منه، ويحصلون على جزء من الطعام من البلدة. ركاب القطار يعطونهم شيئاً من الغذاء أيضاً. " أضاف المترجم: " إنه يسأل من أين أنت؟ " فأخبرته. وفي ركن من الرصيف رأيت شبح طفل منتفخ البطن، نحيل الساقين، عارياً ملتصقاً بصنبور مياه. وكان وحده، يقف، بانتظار لاشيء، فطر قلبي هذا المشهد بما فيه من صبر عبثي.

" إنه يسألك المال. "

" سأعطيه روبية واحدة، إن ذكرني في صلاته في معبد ماتورا. "

ترجمت هذه العبارة. ضحك الرجل الذي من كيرالا، وقال شيئاً ما.

" كان ليدعو لك في صلاته حتى إن لم تعطه شيئاً. "

انطلقت الصافرة، وصعدت على متن العربة. توقف السيد راضي عن الغناء. وكان يجلس في المقصورة وهو يقرأ بليتز. كانت بليتز صحيفة أسبوعية صاحبة وغير مسؤولة، تصدر باللغة الإنجليزية، وتتناول الفضائح بأسلوب أقرب للأمية، ولكن في شيء من الإبهام يظهر بوضوح من خلال المثال التالي من قسم السينما:

النجم المخرج المنتج لفيلم جو هو، أحد أربعة نواب احتفل بعيد ميلاده كما لو لم يعن أحداً. وهناك خرج أمر تنظيم الضيافة عن الحدود. الخمر والعروض والمشاجرات التي افتعلها المضيف نفسه! كان منتشياً، عنيداً، مستعلياً على الجميع. قذف البعض بالإساءات، ثم لكم أحد الضيوف. هنا بدأ البعض يغادر. هذا بعض من كرم الضيافة! ماذا يظن نفسه؟ العراب؟

واصل السيد راضي القراءة، عابساً من أثر ما يقرأ. ثم جاءت صواني العشاء، ولاحظت أنّه لم يكن نباتياً. جاءت شطيرة الهامبورغر خاصته منفصلة تحت سكينه، وعرزها فيها بشكل مقرف. ولكنه أكلها. " أول مرة تناولت فيها اللحم كنت مريضاً للغاية، " قال هو، " ولكن هذا يحدث عندما تفعل أي شيء للمرة الأولى أليس كذلك؟ ثم أخبرني بعد هذا الاقتباس الغامض حول عمله. كان يعمل لشركة شيل عشرين عاماً، ولكنه اكتشف أنّه كان يمقت الإنجليز جداً، إلى أن استقال أخيراً.

كان ندمه عميقاً، وذاكرته تكاد تحصي كل المواقف التي تعرض فيها للإهانة. كان الإنجليز متسلطين ومتكبرين، ولكنه أضاف بسرعة، " إن لم تكن تمنع فنحن الهنود قد نكون مثلهم. ولكن الإنجليز أخذوا فرصتهم فقط لو صاروا هنوداً." قال هذا وهو يدفع شطيرته.

" هل كان ذلك ممكناً قط؟ "

" نعم، كانوا ليفعلوا ذلك. لا مشكلة على الإطلاق. لقد شهدت جلسة تدريب جماعي في دارجيلينغ. مناقشات ومناظرات. مثيرة للاهتمام جداً. كانت زوجة المدير قد وصلت للتو من الولايات المتحدة، وفي اليوم التالي لوصولها كانت ترتدي الساري "

كنت متهمكاً حيال إمكانية إثبات أي شيء بناءً على هذا، فسألته: " وإلى متى ستظل السيدة ترتدي الساري؟ "

قال السيد رضا: " هذا ما أعنيه. "

والآن صار نائب المدير العام لشركة هندية يابانية، تصنع بطاريات السيارات الجافة في غوجارات.

لديه عدد من الأعمال مع اليابانيين – "تصادم رأسي". لم يكن لدي خيار! سألته كيف وجد اليابانيين. فقال: " مخلصون نعم، نظيفون ومجتهدون في العمل نعم! ولكن عباقرة، لا على الإطلاق. بدا أنه يكرههم مع أنه يفضلهم على الإنجليز.

كانت الشركة تعمل على الخطوط اليابانية: الأزياء، لا كناسين، لا حمّالين، اجتماعات صباحية، مقصف مشترك للعاملين، دورات مياه عامة (كانت هذه صدمة). ما ضايق السيد راضي كان أن اليابانيين أصروا على مواعدة فتيات المصنع.

" هذه أفضل طريقة عرفتها لتجريم الآخرين، ولكن عندما سألتهم عن الأمر قالوا إنهم سيجعلون العمال أكثر لطفاً عندما يواعد الرؤساء الفتيات. وكانوا يبتسمون في وجهي. هل رأيت يابانياً يبتسم قط؟ لم أكن لأراهم. قلت : " "بدون عمل أو شغل". قلت هل تريد أن تجادلني؟ حسناً سنتجادل. دعنا نشرك المدير في الأمر الآن!" والآن سأكون صريحاً معك. اعتقدت أن هؤلاء اليابانيين يخرجون في ثنائيات وثلثيات ويمارسون الجنس الجماعي.

" خاصة في ثنائيات، " ولكن السيد راضي كان أكثر إرهاقاً من أن يستطيع سماعي.

"قلت لهم إن الأمر لا يثيرني فحسب. عاهرات- حسناً، يحدث الأمر في العالم كله! فتيات من المدينة- لا مشكلة! نظيفات، صحيحات البدن، مرحات- جميل! نزّهات- أنا معكم! سأحضر زوجتي معي، وسأحضر أطفالي، وسنحظى جميعاً بوقت رائع. ولكن العمال؟ أبداً! "

ازداد انفعال السيد راضي حيال اليابانيين. أما أنا فشكوت من الصداع وذهبت للنوم. أحضر المحصلّ الشاي في السادسة والنصف، وقال إننا كنا في غوجارات. كانت العجول والأبقار تقضم العشب على خط القضبان، وفي إحدى المحطات إنزلت إحدى الشياه على الرصيف. غوجارات هي مسقط رأس غاندي. وهي ولاية مرتفعة الحرارة، ومسطحة، ولكنها خصبة جداً على ما يبدو. كانت هناك حدائق الجوافة، وحقول العدس والقطن والباباي، والتبغ تمتد حتى أشجار النخيل العالية على مد البصر، وكانت قنوات الري مشقوقة كما خط العنق السباعي بين أكمام هذا المشهد.

لا سيما شريط الأشجار الذي يؤطر إحدى القرى، ويمكن رؤية الناس الشعث وهم يغسلون في الأنهار البنية اللون، حيث الضفاف الطينية مغطاة بآثار الأقدام كآثار خطى طيور ضائعة.

"وها نحن في بارودا" قال السيد راضي وهو يتجه بوجهه إلى النافذة.

في مقدمة المشهد مجموعة من المهاجرين رثي الثياب يحملون حزماً على رؤوسهم، ويتبعون عربة يجرها ثور وهي محملة بالأتاآت المحطمة. كانت البقع البيضاء الخالية من الشعر على رؤوس الصبية تتحدث عن الاكتظاظ الشديد، وسوء التغذية، والأمراض، وكانوا يبتسمون جميعاً في وهج الشمس.

"هذا ما أظنه مصنع البتروكيميايات. إنه يعمل الآن." قال السيد راضي.

كنا نمر ببلدة من بلدات الصفيح، مصنوعة بالكامل من الصناديق الكرتونية المسطحة، وقطع من الصفيح المطروق. والنساء منحنيات يضربن روث البقر فيحولنه لأقراص، وبداخل الأكواخ المرعبة رأيت الناس يستلقون وأذرعهم تتقاطع في وجوههم. صرخ رجل على طفل يجري، وآخر هتف للقطار.

كل شيء أت. مصنع باتيل. إنها منطقة صناعية بالكامل. مصانع الجبوتي، تساوي ملايين، صدقني، ملايين!.

كان السيد راضي ينظر إلى الجدول العكر الذي اجتزنه، وإلى وجوه الأبقار الهزيلة، والأطفال بأنوفهم السائلة، والعجوز الشمطاء تغطي رأسها بأسمال بالية، والكثير من السكان العشوائيين الذين تعترى الحيرة ملامحهم ويتلفظون باللغات، والمستئين من الرجال الذين يتكئون على عصي المظلات المحطمة.

"مصنع جديد آخر، اشتهر بالفعل، مصنع بارودا للأتاآت. أعرف المدير. كنا نستقبله لتناول بعض المشروبات."

ثم، قال السيد راضي-كاره الإنجليز- بحرارة: "حسناً، وداعاً!"

عبرنا نهر النارمادا العريض، عند مدينة بروتش، على بعد خمسين ميلاً جنوبي بارودا. كنت أقف بجانب الباب. ربت رجل على كتفي.

"المعذرة." كان هندياً يرتدي نظارة طبية داكنة اللون، وقميصاً مورداً، ويحمل ثمرتي جوز هند وعقد زهور. سار إلى الباب، وأسند نفسه إلى الحاجز الحديد ورمى بعقد الزهور ثم ثمرتي جوز الهند في النهر.

وأوضح قائلاً: "قرايين، أنا أعيش في سنغافورة. وسعيد بعودتي إلى الوطن."

لاحقاً في فترة الظهر كنا في أغوار ماهاشتر، مستنقعات مشرقة، ومرافيء خليج كامبري الخضراء، وبحر العرب يطل من الأفق. كان الطقس رائعاً ولطيفاً في بارودا صباحاً، ولكن مشوار الظهرية إلى بومباي من بروتش كان صعباً: كان الهواء كثيفاً من أثر الرطوبة، وذبلت أوراق النخيل العالية الأشبه بالريش من شدة الحرارة.

وفي طرف قصي رأيت أقدام الهنود الذين خلدوا إلى غفوة الظهرية وهي تبرز تحت حقائبهم المحزومة وسقائهم المتنقلة.

ثم دخلنا بومباي. كنا ما زلنا بعيدين عن مركز المدينة- عشرون ميلاً أو أكثر- ولكن منظر كوخ واحد ذو ركائز مثبتة، تضخم متحولاً إلى قرية من الأكواخ، ثم موكب غير منقطع من المساكن

المنخفضة، مكسوة أسقفها بالألواح البلاستيكية، وقطع من الخشب والورق، وإطارات مطاطية، وقد ثبتت ألواح الخشب بالحجارة، وقش مربوط بأغصان العنب، كما لو أنّ هذه القمامة ستمنع الأكوخ من الطيران مع الريح. أصبحت الأكوخ والسقائف مبانٍ في لون الجبن المتعفن، ثم منازل ثلاثية الطبقات يحيط بها ستار من الغسيل المنشور، ومجمعات شقق من ثماني طبقات، وأبواب طواريء صدئة. ويستمر تضخم المباني باضطراد بينما تقترب من بومباي.

في ضواحي المدينة، يتوقف قطار راجدهاني السريع عدة مرات على نحو مزعج - مفاجيء تماماً، في واحدة منها سقطت حافظة الماء الخاصة بي وفي التالية انكسر كوبٌ زجاجي. وفي هذه الوقفات لم تكن في محطة قطار حتى. على الرغم من أنّ بعض الناس كانوا يغادرون القطار. رأيتهم وهم يلقون بحقائبهم على القضبان ويقفزون بسرعة الهاربين، فيلتقطون أمتعتهم ويتسابقون لعبور الخط، فاككتشت أنّهم سحبوا حبل الطواريء لأنّهم كانوا يمرون أمام منازلهم (عقوبة إساءة استخدامه 250 روبية). كان هذا قطاراً سريعاً، ولكن بشد حبل الطواريء حوله الهند إلى قطار محلي.

كان هناك فتىٌ بدين، تخرج مؤخراً من كلية الدهرا دن للهندسة وكان في طريقه إلى بونا لمقابلة عمل. أخبرني عن سبب توقف القطار بتلك القوة، ووصف لي طريقة عمل التنبيه. قائلاً: " يسحب من يرغب في مغادرة القطار الحبل، المتصل بجهاز يفعل صماماً يوقف المكابح في العربة المعنية. أما المحصل هو الوحيد الذي يعرف العربة التي أطلقت التنبيه، ولكن لا يعرف الكثيرون من قام بسحب السلسلة. على المحصل أن يقوم بإعادة توصيل الجهاز وتفريغ الهواء حتى يتحرك القطار."

كان يتحدث ببطء، ومنطق حتى إنّنا كنا في بومباي عندما أنهى هذا الشرح. أصيب في. س. نايبول بالرعب وهرب في إحدى محطات القطار ببومباي، خوفاً من "الغرق في بحر الزحام الهندي دون أن يترك أثراً وراءه." القصة التي وردت في كتاب " منطقة الظلام" ولكنني لم أجد في محطة وسط بومباي ما يخيف على وجه خاص. وعندما ألفتها، صارت فكرتي عنها كملاذ للاجئين والباحثين عن الثروة، معبّق برائحة التراب والنقود، وفي حي يبدو كالنصف المهمل من مدينة شيكاغو. سيل البشر المنهمر في النهار قد يخيفني أكثر إن كانوا يتسكعون مكتوفي الأيدي، ولكن اللاهفية غابت عن جمعهم ذاك.

كان اتجاه هذه الأقمصة البيضاء المهرولة يجعل هذه الألوف المؤلفة من المشاة أشبه بموكب كرامة من الموظفين وزوجاتهم وقطيعهم، وهم يحضرون لتظاهرة ما وفقاً لتقليد قديم متعارف عليه بين أكثر المعماربيين الذين صنعتهم الامبراطورية البريطانية تميزاً (غُض البصر عما يسوءك، واسكن في محطة فكتوريا في بومباي، وشاهد كاثدرائية القديس بول العظمى الرمادية اللون). تستوفي مدينة بومباي شروط المدينة الكبيرة من عمر، وعمق، ومعاناة، تُوجج الوطنية في قلوب سكانها، كبرياء مدينة دائبة الحركة بئسة لا تباريها فيه سوى مدينة كالكتا. أصابتنني خيبتني الوحيدة في أبراج الصمت، حيث يضع الفرس موتاهم وليمة للنسور. يصدم هذا الزائر العابر باعتباره وحشية سافرة، ولكنه تصرّف سليم من ناحية بيئية. لم يسمح لي الزرادشتيون حارسو البوابة بالدخول للتحقق من ذلك. أحضرني إلى المكان مشتاق، سائقي الخاص، وبينما

كنت أغادر قلت ربما لم تكن القصص صادقة- لم أستطع رؤية أية نسور. قال مشتاق، إنها في الأسفل تأكل إحدى الجثث.

نظر إلى ساعته وقال: " وقت الغداء." ولكنه كان يقصدني.

عقب محاضرتي في ذلك المساء، قابلت عدداً من الكتاب. كان من بينهم السيد في. جي. ديشموخ، وهو الروائي المرح الذي قال إنه عجز عن كسب عيشه من قلمه. كتب ثلاثين رواية. الكتابة هي النشاط الوحيد غير المربح في الهند، وعلى أية حال كتب هذا الرجل عن الفقراء: لم يكن ثمة من يهتم بالقراءة عن الفقراء. كان يعلم لأن الفقراء كانوا شغله الشاغل.

"دحر الجوع، إعادة التوطين، درء الجفاف، والضعفاء، أي شيء يمكنك تسميته، مصدر إزعاج أحياناً. لكن كتبتي ليست رائجة، عليه لم يكن لي خيار. بوسعك أن تعتبرني منظماً."

" كيف تدرأ الجفاف؟"

" لدينا برامج لذلك."

رأيت لجاناً، ودراسات مواقف، ومؤتمراتٍ وحقوقاً مترتبة.

"هل منعت أيّاً منها مؤخراً؟"

قال: " نحن نحرز تقدماً مطرداً، ولكنني أفضل كتابة الروايات."

" إن كنت ثلاثين منها، فلا بد أن الوقت قد حان للتوقف."

" لا، أبدأ! عليّ كتابة مائة وثمانية رواية!"

" وكيف اخترت هذا الرقم؟"

" إنه رقم سحري في الفلسفة الهندوسية. لفيشنو مائة وثمانية اسم. عليّ كتابة مائة وثمانية رواية! إنه ليس أمراً سهلاً- خاصة في الوقت الحالي، في ظل ندرة الورق."

أثر النقص في الورق على مجلة كوشوانت سنغ الأسبوعية المصوّرة. كان عدد ما يتم توزيعه منها يبلغ 300.000، لكنه كاد أن يقلصه بسبب أزمة الورق. كانت قصة هندية: بدا أن الشركات الهندية كانت تعمل جيداً حتى تسببوا في الكوارث، جعلهم النجاح يندفعون إلى خارج حدود الإنتاج على نحو غير مسبوق مما أدى إلى الأزمات ومن ثم الفشل. الهند، أكبر منتج للأرز في العالم، تستورد الأرز. " الحاجة أم الاختراع" كما يقول اقتباس ويلسون المغفل. فوق أحد أبواب بومباي في رواية مارك توين بعد خط الاستواء، وحقاً عباقرة الهند الذين ألهمهم الجوع يهددون بإغراقها. كل نجاح سمعت عنه يقنعني بأن الهند، غارقة في الاختراعات، يائسة ومالم يتوقف ما رأيته في وقت لاحق من تلك الليلة، ستسقط إلى مستنقع الفشل. إنها الحقيقة البسيطة للحياة الهندية: هنالك الكثير من الهنود.

خرجت أتمشى عندما لم أستطع النوم. سرت إلى اليسار من فندقي، وقطعت مائة ياردة مروراً بالموخير حتى جدار البحر، وأنا أعد النائمين بينما أسير. كانوا يتمددون على الرصيف، جنباً إلى جنب؛ بعضهم كان ينام على قطع من الكارتون، ولكن معظمهم نام على الأسمنت، بدون ملاءة وبملابس خفيفة. كانت أذرعهم تندس تحت الرؤوس. ونام الأطفال على جنوبهم، والآخرين على ظهورهم. لم تكن على مقتنياتهم أية علامة. وصلت إلى ثلاثٍ وسبعين وانعطفت من الركن، في

الطريق الذي يسير بمحاذاة جدار البحر حيث هنالك المزيد من الأجساد فحسب، حيث لا حزم ولا عربات، ولا شيء يميز أحدها عن الآخر، لا دليل على الحياة.

في بعض الأحيان يقال إنّ هؤلاء النائمين في شوارع بومباي ظاهرة حديثة؛ ولكن مارك توين رآهم. كان في طريقه إلى حفل أخوي في منتصف الليل.

" يبدو أننا نسير في مدينة الموتى. بالكاد تشعر بالحياة في هذه الشوارع الخالية والساكنة. حتى الغربان كانت صامتة. ولكن المئات من السكان النائمين يستلقون على الأرض في كل مكان، ممددين على استقامتهم، وهم متدثرون بألحفتهم بعناية من الرأس للقدم. يحاكون الموت في السلوك والجمود."

كان هذا في 1896. واليوم ازداد العدد كثيراً، ولكن ثمة فرق آخر. الأشخاص الذين رأيتهم كانوا بلا ألحفة. الجوع- بحسب ويلسون المغفل- هو أيضاً خادم للموت.

----

-----

## الفصل الحادي عشر

### قطار دلهي من جيبور

-----

" ما هذه؟" سألت السيد غوبال، مسؤول الاتصالات بالسفارة، وأنا أشير إلى شيء كالقلعة.

" هذه قلعة ما."

" لديك هذا الكتاب الكبير، لكنني أطلب منك إغلاقه وتركه في الفندق، لأنّ جيبور بالنسبة لي أشبه بكتاب مفتوح."

اتبعت نصيحته، ولم يكن ذاك من الحكمة في شيء. نحن الآن على بعد ستة أميال خارج جيبور، نخوض حتى الكاحل في رمال زاحفة باتجاه أطلال مستوطنة غالتا. في وقت سابق مررنا عبر جماعة من قرود البابون يقارب عددها المائتين: " كن عادياً،" قال السيد غوبال، بينما كانت القردة تقفز وتغمغم مسفرة عن أسنانها، وقد اجتمعت على الطريق بفضول أقرب إلى التهديد. كان المشهد وعراً للغاية ومقفرأ جداً، وقد ثوجت كل هضبة من هضابه الوعرة بقلعة مهدّمة أو حصن محطم.

" لمن هي؟"

" المهرابا"

" لا، من الذي بناها؟"

" ألا تعرف اسمه؟"

" هل تعرف أنت؟"



استأنف السيد غوبال المسير. كنا في وقت الغسق، وبدأت المباني التي تزامت في مضيق غالتا تزداد كلفة وفتامة. سرت مهمة من أحد القروء الذي قفز إلى غصن في شجرة اللبخ الهندية فوق رأس السيد غوبال، جاذباً الغصن، مصدراً أزيزاً كصوت مروحة البنكاه<sup>10</sup>. دخلنا من البوابة، وعبرنا الفناء إلى مبانٍ محطمة، على واجهاتها جداريات جصية ملونة لأشجار وأشخاص. تعرض بعض هذه الجداريات للتشويه بالنقش فوقها، وهناك لوحات كاملة أزيلت بالكامل. "ما هذا؟" سألت أنا. كرهته لأنه السبب في عدم حمل دليلي السياحي.

"آه" قال السيد غوبال. كان فناء أحد المعابد. غفا بعض الرجال في البوابات القوطية، وآخرون يجلسون على مؤخراتهم، وأمام الفناء بالضبط تراصت أكشاك الشاي والخضروات التي اتكأ مالكوها على ما تبقى من الجصيات ليمسحوه بظهورهم. صدمتني عزلة المكان - قلة من الناس في وقت الغروب، لا أحد يتحدث، كان الصمت يطبق على المكان، وكان بوسعي سماع وقع خطوات الشياه على الحصى، وغممة القروء البعيدة. "معبد؟"

قال السيد غوبال - أخيراً - بعد لحظة من التفكير: "نوع من المعابد".  
تعلق المصقات على جدران المعابد المزخرفة، وتُحفر بالأزاميل، ويتبول عليها الناس، ومخربشة بكتابات باللغة الديفاناغرية، تمثل إعلانات لشركات من جيبور. وهناك لوحة مطلية بالمينا الأزرق تحذر الزائرين باللغتين الهندية والإنجليزية من "تدنيس أو تشويه الجدران أو الكتابة أو الرسم عليها أو إساءة استخدامها." وقد تعرضت اللوحة ذاتها للتشويه: قصت اللوحة، فبدت كما لو أن شيئاً ما أكل جزءاً منها.  
بعد ذلك وعلى امتداد طريق الحصى، يضيق الدرب ثم ينتهي الدرج المنحدر إلى جدران صخرية في المضيق.

في نهايته كان المعبد يواجه بركة سوداء أسنة.  
تسبح الحشرات في دوائر على سطح البركة فتتولد من حركتها موجات صغيرة جداً، وتتعلق أسراب من البعوض الدقيق فوق سطح الماء. كان المعبد مكاناً متواضعاً في الواجهة الصخرية، كهفاً غير عميق، تضيئه مصابيح الزيت والشموع الرقيقة.  
وعلى جانبي بواباته كليهما تقف ألواح رخامية يبلغ ارتفاعها سبعة أقدام، على هيئة الألواح التي أنزلت في سينا ولكن بوزن يكفي لإصابة أشد الأنبياء قوة بالفتق. كانت على هذه الألواح تعليمات مرقمة بلغتين. قمت بنقل النسخة الإنجليزية في تلك الإضاءة الخافتة.

1. استخدام الصابون في المعبد وغسل الملابس ممنوع منعاً باتاً.

2. رجاء لا تقترب بحذاءك من الخزان.

3. لا يجوز استحمام النساء بين الأعضاء من الذكور.

4. البصق أثناء السباحة عادة ذميمة جداً.

5. لا تفسد ملابس الآخرين بفصل الماء أثناء السباحة.

6. لا تدخل المعبد بملابس مبتللة.

<sup>10</sup> مروحة هندية بدائية من قطعة قماش مستطيلة تثبت على السقف من جانب وتُحرك بواسطة حبل مثبت إلى أحد جوانبها، يُشد بالأرجل.

7. لا تبصق بطريقة غير ملائمة حتى لا تتسبب في اتساخ المكان.

"الفصل؟" سألت السيد غوبال: "ما هو الفصل؟"

"إنّها لا تقول الفصل."

"انظر إلى رقم خمسة."

"إنّها تقول "نثر"!"

"إنّها تقول "فصل"!"

"إنّها تقول-"

سرنا حتى وصلنا إلى اللوح. كان ارتفاع الحروف يصل إلى بوصتين، وقد حفرت على الرخام حفراً عميقاً."

قال السيد غوبال: "فصل، لم تمر علي هذه الكلمة من قبل لكن أعتقد أنّها تعني نوعاً من النثر" كان السيد غوبال يبذل أقصى جهده، ولكنه رجل يصعب تفاديه. حتى ذلك الوقت كنت أسافر وحدي مستعيناً بالدليل السياحي، وجدول القطارات الغربي، وكنت الأسعد بإيجاد طريقي بنفسني، ولم أحتج إلى مسؤول الاتصال. كانت نيتي أن أظل على القطار، بدون أن أهتم بالوصول إلى أي مكان، فزيارة المعالم السياحية كانت طريقة لقتل الوقت، كما ختمت رحلتي في أسطنبول. وكانت نشاطاً يعتمد على الاختراع الخيالي اعتماداً كبيراً، مثل أن تبدأ أداء مسرحيتك الخاصة في المسرح من حيث هرب جميع الممثلين الآخرين.

كانت جيور مدينة أعاجيب وردية أميرية، ولكن أذى وجهل هؤلاء الناس الذين يراعون شياهم داخل أطلال هشة، ويضعون الطلاء فوق الجصّيات، ويستخدمون القصر كخليفة لتصوير الأفلام، بدد جمالها.

احتلّ فريق تصوير أحد الأفلام قصر المدينة، وصار المكان بحضورهم أشبه بهيكل من الزيف المفرط.

قدمت محاضرتي، وكنت حريصاً على اللحاق بالقطار، ولكن جدول الرحلات كان يشير إلى عدم وجود قطار متجه إلى دلهي قبل الساعة 12:34 صبيحة بعد غد. كان وقتاً مزعجاً للمغادرة: سأنتظر يوماً كاملاً وأمسية بطولها، ولم يرق لي تخيل الوقوف بمحطة جيور في منتصف الليل. قال السيد غوبال: "نذهب اليوم لزيارة المتحف، في اليوم التالي لزيارة غالتا."

"دعنا ننسَ أمر زيارة المتحف"

"مكان مثير للاهتمام للغاية، وقد قلت إنك تتمنى رؤية لوحات المغول. هذا هو بيت لوحات المغول!"

قلت خارج المتحف، "متى بُني هذا المكان؟"

"حوالي عام 1550"

لم يتردد. لكنني اليوم أحمل كتابي. كان المبنى الذي نسبه إلى منتصف القرن السادس عشر هو قاعة البرت، بدأ بناؤه في 1878 وانتهى في 1887. لم تكن جيور موجودة في عام 1550، إلا إنني لم أجد الجرأة الكافية لإخبار السيد غوبال- الذي امتعض لمعارضتي إياه في اليوم السابق- بذلك.

على أية حال، الميل للمبالغة بدا آفة مزمنة لدى بعض الهنود. وجدت دليلاً آخر داخل المتحف يعرض رداءً أحمر اللون لمجموعة من السياح. وكان يقول: " هذا يعود للمهرجان الشهير مادو سينغ. رجل بدين ضخم الجثة. يبلغ طوله سبعة أقدام، وعرضه أربعة أقدام ويزن خمسمائة رطل. وفي مرصد جاي سينغ، وهو حديقة من الأجهزة الفلكية الرخامية التي تبدو للوهلة الأولى مثل ملعب للأطفال، وبألواحها الشفافة، وسلالمها، وشلالاتها التي ترتفع حتى خمسين قدماً وهي ذات شكل مفلطح منتظم بمواجهة الشمس، قال السيد غوبال إنه زار المكان عدة مرات، وأراني قرصاً برونزياً بدا كما لو أنه خارطة للسماء ليلاً.

سألته عما إذا كان كذلك، أجاب بالنفي، وقال إنه يستخدم لمعرفة الوقت. وأراني أنموذجاً، عبارة عن نصف كرة أرضية مبتور ومغطى، وبرجاً ذا ثماني درجات، وسلسلة من المقاعد المشعة: كانت أيضاً تستخدم لمعرفة الوقت. كان الأمير جاي سينغ يستخدم كل هذه الأجهزة الدقيقة (قرأت ذلك في الدليل السياحي) لمعرفة خطوط الطول والسمت وخطوط العرض الفلكية، لم ير السيد غوبال فيها سوى مجموعة من الساعات المكبرة.

وبينما كان السيد غوبال يتناول غداءه، تسلمت خارجاً واشتريت تذكريتي إلى دلهي. كانت المحطة في تقاطع جيبور تحاكي في تصميمها المباني الجميلة في المدينة المسورة. وكانت بلون الحجر الرملي الأحمر، وذات قباب، وأقواس عظيمة، وأعمدة متينة تميل إلى الفخامة؛ وبداخلها جداريات لنساء ذوات وجوه منتفخة، ورجال ذوي عمام، تكبير للوحات تقليدية تحيط بها حدود من الأزهار. قلت: " لا أخالني سألحق بالقطار حتى بعد منتصف الليل."

قال الموظف: لا، لا، قبل ذلك."

وشرح الأمر قائلاً إن الدرجة الأولى من عربة النوم كانت بالفعل على جانب الطريق، لتنظيفها حتى تُضم لقطار دلهي. تمكنت من الصعود في وقت مبكر من ذاك المساء، وبعد منتصف الليل سيتحرك القطار من أحمد أباد، وستكون عربة النوم هذه جزءاً منه. قال لي ألا أنزعج إن ألحقت بعربة منفصلة عن القطار: فسيصل القطار في الوقت المحدد.

" تعال إلى هنا الليلة، وسل عن عربة الدرجة الأولى [ACC -2]، وسنريك إياها."

في وقت لاحق من ذاك اليوم تناولت وجبة مطوّلة مع السيد غوبال في أحد مطاعم جيبور، وبعدها أخبرته أنني ذاهب إلى المحطة. فقال السيد غوبال ليس ثمة قطار هناك: " سيتعين عليك الانتظار لساعات." قلت أنني لا أبالي. ذهبت إلى المحطة وصعدت إلى عربة النوم المضاعة على نحو مناسب، والواقفة في الطرف الأقصى من الرصيف. كانت مقصورتني واسعة. أراني المحصل المكتب، والدوش، والمصابيح. أخذت حماماً، ثم كتبت وأنا ما زلت أرتدي منزري خطاباً إلى زوجتي، ونسخت بعض من وصايا معبد غالتا في مفكرتي. كان الوقت ما زال مبكراً. أرسلت المحصل لإحضار بعض الجعة وتحدثت مع الهندي في المقصورة التالية.

كان بروفيسوراً في جامعة راجاستان، وكان سعيداً عندما علم بالمحاضرة التي قدمتها لقسم اللغة الإنجليزية.

وقال إنه كان لا يحب طلاب الجامعة، لأنهم كانوا يملأون الأرض بملصقات الانتخابات، ثم يدفعون لاستئجار من ينظفها بعد الانتخابات. كانوا أغبياء، وقصيري النظر، وفوضويين، وكثيراً ما يحتجون. وقال إن هذا الأمر كان يجعل دمه يغلي أحياناً."

حدثته عن السيد غوبال.

" أترى؟ سأخبرك بشيء ما. يعرف الهندي العادي الشيء القليل عن دينه، أو الهند أو أي شيء آخر. يجهل البعض أبسط الأمور، مثل المفاهيم الهندوسية أو التاريخ. أتفق مع نييول مائة بالمائة. إنهم لا يحبون إظهار الجهل أمام شخص من الغرب. ولكن معظم الهنود لا يعرفون عن معابدهم وكتاباتهم أكثر من السياح، الذين قد يفوقوا كثيراً من الهنود في معرفتهم بالهند. " ألسـت تبـالغ في ذلك؟ "

" أنا أقول ما أعرف. بالطبع عندما يصبح المرء أكبر سنًا يبدأ في الاهتمام. عليه يعرف بعض الرجال المسنين عن الهندوسية، ويقلقون بعض الشيء حيال ما سيحدث لهم. " قدمت للبروفيسور الجعة، ولكن قال إنه لديه بعض الأعمال المكتبية، وتمنى لي ليلة طيبة ودخل إلى مقصورته، وانسحبت أنا إلى مقصورتي. كنا ما نزال نقف في تقاطع جيبور. صـبـبـت لـنـفـسـي قـدحاً مـن الجـعـة، واطـكأت عـلى أريـكتي أقرأ كـتاب فورسـتر " الرحلة الأطول ". لقد تعرضت للخداع: لم يكن هذا الكتاب من أدب الرحلات؛ لقد كان قصة كاتب قصص قصيرة سيء، وزوجته القاسية، وأصدقائه السذج. فألقيت به جانباً، ورحت في سبات عميق. أوقظت في الثانية عشرة والنصف على صوت ارتطام: تم ربط عربتي بقطار دلهي. كان القطار يدك الأرض وينقر الحديد في طريقه إلى دلهي طوال الليل. بينما كنتُ أغفو في غرفتي الباردة، كنت في غاية النشاط عند وصولنا حتى إنني قررت السفر في المساء ذاته إلى مدراس لأرى ما إذا كان هناك قطار إلى سيلان كما تقول خارطتي- مع إن الجميع يقول باستحالة ذلك. "

-----

## الفصل الثاني عشر قطار الشحن الكبير

-----

قطار الشحن الذي يشق طريقه عبر الهند، في غور من الأرض يبلغ 1400 ميل طولاً من دلهي باتجاه الجنوب حتى مدراس، وقد استمد اسمه من مساره. ربما اشتق الاسم ببساطة من نوع الأمتعة التي كان الحمالون يكسسونها على متنه. كان الرصيف يكتظ بصناديق الشحن الكبيرة. لم أر قط مثل هذه الأكوام من الأمتعة في حياتي، أو هذا العدد من الأشخاص المحملين بالأثقال: كانوا مثل من أعطي زمناً معيناً للإخلاء بدون ما يكفي من وقت لحزم الأمتعة، يهربون في كسل من نكبة غامضة.

في أفضل الأوقات لا يعرف الهندي المسافر على القطار البساطة، ولكن هؤلاء الناس يصعدون إلى قطار الشحن الكبير وهم يبدون كما لو أنهم يجهزون منزلاً- تشي سحتهم وما يحملون بأنهم ينتقلون إلى الإقامة في القطار. في غضون دقائق تحتل المقصورات، وتفرغ الصناديق، وتُرص

الطرود، و سلال الأطعمة، وقوارير المياه والألحفة المطوية، وحقائب غلادستون المدولبة، كلٌ في مكانه من المقصورات، ثم وقبل أن يتحرك القطار تتغير شخصيته، إذ أثناء وقوفنا بمحطة دلهي، خلع الرجال بناطيلهم الواسعة، وستراتهم القطنية، وارتدوا اللباس التقليدي لجنوب الهند: القميص الرياضي التحتي بلا أكمام، والسارونج الذي يدعونه لونجي والتي كانت عليها علامات الحزم والطي. كان الأمر كما لو قطار مدراس، وأثناء انتظارهم لصافرة القطار- قد سمح لهم بالتعبير عن هويتهم الحقيقية، فألقوا بأقنعتهم التي كانوا يرتدونها في دلهي.

كان القطار تاميلياً، وانتقلوا إليها بشكل كامل، شعرت أنني غريب بين هؤلاء المقيمين وهو شعور غريب بما إنني وصلت إلى القطار قبل أي شخص آخر. كان التاميل ذوي بشرة داكنة وجسم نحيل، ويتميزون بشعر خشن ومفروود، وأسنان بارزة وبراقة بفضل كثرة استخدام عيدان السواك الخضراء. راقب أحد التاميل وهو يمرر عوداً من السواك طوله ثماني بوصات على أسنانه، وستبدأ التساؤل عما إذا كان يحاول إخراج غصن من معدته. من عناصر جذب قطار الشحن السريع أن مساره يمر بغابات المادها براديش، حيث توجد أفضل أنواع عيدان السواك. وهي تباع في حزم، مربوطة مثل لفائف الشيروت<sup>11</sup>، في محطات القطار بالمحافظة.

في التاميل تواضع أيضاً. قبل أن يغيروا ملابسهم قام كل منهم بصنع منزر من ملاءته، وطفق يقفز إلى الأعلى والأسفل، ويربض مرفقيه، وقد رمى بحذائه وبنطاله، بينما يهزر ويغمغم مثرثراً بحديث يشبه طنطنة رجل يغني أثناء الاستحمام. يبدو التاميل كأنهم يتحدثون بلا انقطاع- ولا يسكتون إلا أثناء تنظيف أسنانهم.

المتعة عند التاميل هي مناقشة موضوع مهم (الحياة، الحقيقة، الجمال، والقيم)، على مائدة عامرة (خضروات غاية في السيوالة تتبل بالفلفل الحار، والبابريكا، وتقدم مع الزلابيا الطرية و كومتين من الأرز اللزج).

كان التاميل سعداء على متن قطار الشحن الكبير: يتحدثون بلغتهم، ويتناولون أطعمتهم، وأمتعتهم ملقاة كيفما اتفق، مما أضفى على القطار طابع التكدس التقليدي لمنزل المواطن التاميلي. بدأت بثلاثة من التاميل الذين يشاركونني المقصورة. بعد أن غيروا ملابسهم الرسمية، وفردوا فُرشهم المطوية، وتناولوا طعامهم (أبدى أحدهم استخفافه بملعقتي في لطف قائلاً: " الطعام المتناول باليد يختلف في طعمه عن المتناول بالملعقة- به شيء من طعم المعدن")، إنهم يستغرقون وقتاً طويلاً في تقديم أنفسهم لبعضهم البعض.

تخللت أحاديث التاميل المندفعة كلمات إنجليزية مثل " إعادة النشر " و " إجازة طارئة"، و "مراجعة سنوية". وحالما انضمت إلى الحوار بدأوا، بما اعتقدت أنه درجة عالية من اللباقة

<sup>11</sup> الجروت أو الجروت أو الشروت أو الشيروت (من اللغة التاميلية (சுருட்டு) لفافة تدخين تشبه السيجار ولكن تختلف عنه بنوع الأوراق النباتية المستخدمة والمكونات الإضافية وطريقة اللف والتدخين. [ويكيبيديا]

والشجاعة، في الحديث إلى بعضهم باللغة الإنجليزية. كانوا يتفقون في نقطة واحدة: إنَّ دلهي كانت بربرية.

" كنت أقيم في فندق لودي. حجزت قبل أشهر. يخبرني الجميع في "تريش" إنَّه فندق ممتاز. هه! لم أتمكن من استخدام الهاتف. هل كنتم تستخدمون الهواتف؟"

" لم أتمكن من استخدام الهاتف على الإطلاق."

" إنَّه ليس فندق لودي، بل دلهي."

قال الثاني: " نعم يا صديقي أنت على حق."

كنت أقول لموظف الاستقبال، " رجاءً توقف عن التحدث إلي بالهندية. ألا يوجد في هذا المكان من يتحدث الإنجليزية؟ تحدث إلى باللغة الإنجليزية إن تفضلت!"

" إنَّه حقاً وضع فظيع."

" هندي، هندي، تشا!"

حدثتهم عن تجربتي المماثلة. هزوا رؤوسهم وسردوا المزيد من القصص حول الأزمة. جلسنا كأربعة من الهاربين من الوحشية، يتحسرون على الجهل العام باللغة الإنجليزية، وقد كان أحد التاميل – لست أنا من أشار إلى إنَّ الناطق باللغة الهندية قد يضيع في مدينة لندن.

قلت: " هل كان سيضيع في مدراس؟"

" تستخدم الإنجليزية على نطاق واسع في مدراس. ونحن نتحدث التاميلية أيضاً لكن الهندية في ما ندر، إنَّها ليست لغتنا."

" لدى الجميع في الجنوب." موهبة في فهم الاختصارات، " التقويم" تعني التقويم لامتحانات الشهادة الثانوية"، و"تريش" تشير إلى بلدة " تيروشيرابالي".

أطل المحصل برأسه على المقصورة. كان رجلاً متشدداً يحمل شارات ومعدات السلطة الهندية، وآلة تخريم معدنية على هيئة مسدس، وقلماً انتقامياً، ودفتراً سميكاً من قوائم الركاب الرطبة، ودبوس محصل برونزيًا، وخوذة بلون الكاكي. ربَّت على كتفي. وقال: " احضر حقيبتك." كنت قد طلبت مسبقاً النقل إلى المقصورة التي دفعت ثمن الإقامة فيها. وقال لي إنَّها محجوزة. طلبت إعادة المال. فقال إنَّ علي رفع شكوى في مكان إصدار البطاقة. اتهمته بعدم الكفاءة، فانسحب. والآن عثر لي على مكان في العربة التالية.

سألته وأنا أدفع بحقيبتي داخل المقصورة: " هل هناك زيادة في التكلفة؟" لم أكن أحبَّ النبرة الغالية لكلمة بقشيش.

قال: " ماذا تريد؟"

" إذن لا مزيد من النفقات."

" أنا لا أقول إنَّها تكلف المزيد أو لا تكلف. أنا لا أطلب."

راقت لي طريقته. قلت له: " ماذا علي أن أفعل؟"

" أن تعطي أو لا،" قال وهو ينظر إلى قوائم الركاب: " هذا أمر يعود لك وحدك."

أعطيته خمس روبيات.

كانت المقصورة بسيطة. ليس فيها مغسلة. كانت الطاولة القابلة للطي في حال سيئة، والصليل في النوافذ يصل إلى حد مزعج جداً عند مرور قطار آخر، فيصكَّ الآذان.

أحياناً كانت العربية التي تمر بنا مسرعة ليلاً قديمة، مرجلها يغلي، وصفارتها تدوي، و المكابس تصدر هسيساً منبهاً لصمام منفوخ كالذي يسبق الانفجار.

حوالي الساعة السادسة صباحاً وبالقرب من بوبال، كان هناك طرق على الباب. لم يكن شاي الصباح، بل مرشحاً للأريكة العلوية. قال: " معذرة!" وزحف داخلاً.

بدت غابات مادها براديش، حيث تنمو جميع أنواع السواك، كغابات نيو هامشير، مع إزالة آخر سلسلة من الجبال الزرقاء الشاحبة. كانت خضراء، غير مشدبة، وغنية بالشجيرات المورقة والأنهار الظليلة، ولكن بينما كان النهار الثاني ينقضي مالت إلى الغبرة أكثر، وفتحت نيو هامشير المجال لحرارة الهند وهوائها. تجمع الغبار على النافذة وتسرب إلى الداخل، فغطى خارطتي، وجليوني، ونظارتي، ودفتري، وحزمة كتبي الجديدة (المنافي لجويس، قصائد بروانغ، المأزق لسومرست ماغام). غطت وجهي طبقة ناعمة من الغبار؛ واكتست المرأة بغلالة منه، وأضفى شيئاً من الخشونة على المقعد البلاستيكي، والأرضية. كان عليّ ترك النافذة مفتوحة فقط بما يكفي لدخول الهواء بسبب الحر، لكن ضريبة هذه النسمة كانت نفحة من الغبار الخانق من سهول الهند الوسطى.

في فترة الظهيرة في ناغبور، قال مرافقي في الرحلة (مهندس على صدره ندبة غير عادية) "هنالك قوم من البدائيين يعيشون هنا ويدعون غونديز. هم شديدي الغرابة. يمكن لامرأة واحدة أن تحصل على أربعة أو خمسة أزواج والعكس صحيح."

اشتريت أربع برتقالات من المحطة، ولاحظت لافتة تعلن عن الأبراج تقول: زوج نباتك الثلاث مقابل 12.50 روبية فقط، صرخت على رجل صغير الحجم كان يتنمر على أحد المتسولين، وقرأت في كتابي المدخل إلى ناغبور (سميت كذلك لأنها على نهر ناغ).

كان من بين السكان الكثير من الأوبرجينز المعروفين بالغوند. ومنهم قبائل الهضاب ذات البشرة الداكنة، والأنوف المفلطحة والشفاه الغليظة. لباسهم الرئيسي قطعة من القماش تلف في الخصر. يختلف المعتقد الديني من قرية إلى أخرى. ولكن أغلبهم يعبد آلهة الكوليرا والجدي، وهنالك آثار لعبادة الثعبان.

ارتحت جداً لسماع صوت الصافرة، وها نحن ننطلق في طريقنا مرة أخرى. كان المهندس يقرأ جريدة ناغبور. أكلت برتقالات ناغبور، ثم غفوت.

استيقظت على مشهد غريب. أول سحاب ممطر أراه منذ أن غادرت لندن. في الغسق، وبالقرب من حدود محافظة أندھرا بارديش في جنوب الهند، تسبح في الأفق سحب عريضة زرقاء رمادية، وداكنة الأطراف. كنا نتجه ناحيتها في منطقة قريبة العهد بالمطر: والآن أصبحت المحطات الصغيرة ملطخة بالطين، وقد تجمعت البرك البنية على التقاطعات المنخفضة، وقد حمّرت التراب بسبب المطر الأخير. ولكننا لم نكن تحت الغمام مباشرة إلا عندما وصلنا إلى شاندرابور، وهي محطة صغيرة جداً و متسخة وليست على الخريطة.

وهناك هطل المطر غزيراً. وقفز رجال الإشارة على طول الخط يلوحون بأعلامهم المبللة. وقف الناس على الرصيف يتفرجون من تحت المظلات السوداء الكبيرة التي اكتست من بللها لمعة وتلألؤاً. وهرع بعض الباعة تحت انهمار المطر لبيع ثمار الموز لركاب القطار.

زحفت سيدة إلى داخل القطار من مظلة الرصيف. وقد بدت مصابة: كانت تزحف على أطرافها الأربعة وتتحرك ببطء تجاه القطار- ناحيتي. كان ظهرها، رأيته، مقوساً بسبب السحائي، وقد كانت تربط بعض قطع القماش على ركبتيها، وقطع خشب على كفيها. عبرت من القضبان بصعوبة وببطء مؤلم، وعندما اقتربت من الباب نظرت إلى الأعلى. كانت ابتسامتها عذبة- وجه فتاة مشرق على جسد محطّم. رفعت جسمها إلى أعلى ومدت يدها الخالية إليّ، وانتظرت، كان المطر يجري كجداول صغيرة على وجهها، وملابسها مبللة. بينما كنت أبحث في جيوبي عن المال، تحرّك القطار، وكانت إشارتي العاجزة هي أن ألقى حفنة من الروبيات على الخط المغمور بالماء.

في المحطة التالية اقترب مني متسوّل آخر.

كان هذه المرة صبيّاً في حوالي العاشرة من عمره، يرتدي قيمصاً ورداءً قصيراً نظيفين. كان يتوسّل بنظرات عينيه ويقول بسرعة: " أرجوك يا سيدي، اعطني نقوداً. ظل والداي في رصيف المحطة يومين كاملين، إنهما تائهان، ولا طعام لديهما. أبي عاطل عن العمل، وملابس والدتي اهترأت. علينا السفر إلى دلهي في أقرب وقت، وإن أعطيتني روبية أو اثنتين سنتمكن من ذلك." "القطار على وشك التحرك. خير لك أن تقفز."

قال: " رجاءً سيدي، اعطني النقود. أبي وأمي -)

ومضى يعيد ما حفظه بآلية. فرجوته أن يقفز من القطار، ولكن كان من الواضح بخلاف ما قاله، أنّه لا يتحدث اللغة الإنجليزية. فسرت مبتعداً.

بدا الظلام يحلّ، وخف المطر، وجلست أقرأ صحيفة المهندس. كانت الأخبار عن المؤتمرات، عدد مذهل من التجمعات سمعت في عناوينها اصطفاق الأصوات، خشخشة الأوراق المنسوخة، وصرير طي المقاعد، والمقدمة الهندية الأبدية: " ثمة سؤال واحد علينا جميعاً أن نطرحه على أنفسنا- " استغرق أحد مؤتمرات نيبور أسبوعاً في مناقشة " هل مستقبل الزرادشتية في خطر؟" وفي الصفحة ذاتها أبلغ 200 من الهنود عن حضورهم " مؤتمر البلدان المحبة للسلام"، واهتمت مجموعة أخرى بمؤتمر " الهندوسية: هل نحن على مفترق طرق؟" وعلى الصفحة الخلفية كان هناك إعلان عن بدلات رايموند (الشعار: " سيكون لديك شيء تقوله عن بدلات رايموند..). كان الرجل الذي يرتدي بدلة رايموند يظهر وهو يتحدث إلى جمهور أحد المؤتمرات. وكان يؤمي كما لو أنّ لديه شيئاً يقوله. وكانت كلماته: " التواصل تصوّر، التواصل توقعات. التواصل مشاركة." ظهرت يد متسوّل نحيفة في باب مقصورتي، ذراع بها كدمات، وكُمّ بالٍ. ثم صيحة حزينة: " صاحب!"

في سيربور، فقط على حدود اندهرا براديش، وقف القطار. بعد عشرين دقيقة كنا ما زلنا هنا. سيربور ليست مهمة: رصيف غير مسقوف، والمحطة غرفتان، وهناك أبقار في السقيفة.

تنمو تجمعات العشب من طرف نافذة مكتب الحجز. كانت تفوح من المحطة رائحة المطر ودخان الخشب وروث الأبقار، كانت أكبر قليلاً من كوخ، ومزينة بلوحات الطرق الحديدية المعتادة، والتي كانت أجل فوائدها توفير الوقت على القطارات المتأخرة بتجاوزها.

بدأ الركاب على قطار الشحن الكبير في النزول. ساروا في جماعات صغيرة، ليستنشقوا الهواء سعداء بهذه الفرصة للتمرّن.



"امتلاً المحرك، إنهم يبعثون لإحضار آخر. تأخير ساعتان." قال رجل آخر: "إن كان على متن القطار وزير في الحكومة سنحصل على محرك في غضون عشر دقائق."

كان التاميل يتسكعون على الرصيف. خرج أحد سكان سيربور من الظلام وهو يحمل زكية من الحمص المحمص. كان قد انطلق بطلب من التاميل الذي اشترى كل الحمص وطلبوا المزيد. تجمع حشد من التاميل لدى نافذة مدير المحطة للصراخ في وجه رجل يرسل برقية بشفرة مورش ضارباً بمفتاح صغير. قررت البحث عن بعض البيرة، ولكني وجدت نفسي خارج المحطة في ظلام دامس فعدلت عن الفكرة. كانت رائحة المطر على الزرع تضيي على الهواء - الذي كان عذباً - كثافة رطبة. كانت الأبقار تستلقي على الطريق: بيضاء اللون، استطعت رؤيتها بوضوح. وباستخدام الأبقار كعلامات في الطريق، سرت حتى رأيت ضوءاً برتقالياً صغيراً يبعد حوالي خمسين ياردة. اتجهت نحوه، ووصلت إلى كوخ صغير، كشك ضيق منخفض، بجدران من الطين، وسقف من القماش. هناك كان أحد مصابيح الكيروسين معلقاً على الباب وآخر بالداخل يلقي بضوءه على الوجوه المتفاجئة لستة من شاربى الشاي، عرفني اثنان منهم من القطار.

"ماذا تريد؟ سأطلبه لك"

"هل يمكنني شراء زجاجة من البيرة هنا؟"

تم ترجمة هذا السؤال. وضحكوا. عرفت الإجابة.

"على بعد كيلومترين في هذا الطريق." أشار الرجل إلى الظلام. "هناك حانة. حيث يمكنك الحصول على البيرة."

"كيف سأجدها؟"

"عربة" قال الرجل. وتحدث مرة أخرى إلى الرجل الذي يقدم الشاي. "ولكن لا توجد سيارة هنا. تناول بعض الشاي."

وقفنا في الكوخ، نشرب بعض الشاي بالحليب في أكواب زجاجية ذات شقوق. أشعل عود جوس. لم ينبس أحد ببنت شفة. نظر ركب القطار إلى القرويين، وأشاح القرويون بأنظارهم. تهدل قماش السقف، اشتعلت الطاولة بالنور، وملأ عود الجوس الغرفة بعطر كريح الرائحة. انزعج ركب القطار، ودفعهم الانزعاج إلى المبالغة في الاهتمام بالتقويم المعلق، الألوان الباهتة لصور شيفا وغانباتي. كان ضوء المصباح يتراقص في الصمت المطبق بينما تقفز ظلالنا على الجدران.

قال الهندي الذي ترجم سؤالي بصوت خفيض: "هذه هي الهند الحقيقية!"

لم نصل إلى أبعد من ذلك في تلك الليلة. تأخر المحرك البديل، المزيد من التأخير، كان التاميل يرسلون لعناتهم: "اللعة، الانفجار، الحمار، الدماء، ظل القطار متعطلاً طوال الليل فأبطأ الحركة، وتوقف. مات المحرك ثم استطعت سماع صفير الجنادب العالي، بين اللعنات.

وصلنا إلى فيجايواوا بعد تأخير خمس ساعات في فجر مظلم ماطر.

اشتريت تفاحة من أحد الأكشاك، ولكن قبل أن آخذ منها قضمة واحدة، سار صبي يعرج متوجهاً نحوي، ومدّ يده وبدأ في البكاء. فأعطيته التفاحة، واشتريت أخرى، خبأتها حتى وصلت إلى القطار.

كان الجنوب معتدلاً وغنيّاً على خلاف التوقعات: تناغمت خضرة الريف مع الخضرة على الخارطة، ولون مستوى البحر لهذه المنطقة. لأنّ الوقت ما زال مبكراً، ولأنّ القرويين الهنود بدوا كما لو أنّهم يضعون السكة الحديد على هامش عالمهم، كان هناك أشخاص جالسين على طول الخط، يتغوطون. في البداية اعتقدت أنّهم يجلسون مسترخين ببساطة لمشاهدة القطارات المارة، ثم لاحظت وجود كتل صفراء لامعة تحتهم. رأيت ما يقارب المائة منهم، جميعهم يواجهون القطار لما يوفره لهم من إلهاء، وهم يعطون ظهرهم للقضبان في أناة. كانوا يقضون حاجتهم عندما دخل القطار، وكانوا ما يزالون عليها عندما تحرك خارجاً. كانت هنالك مجموعة عجيبة، رجل وصبي وخنزير جميعهم يقضون حاجتهم في صف واحد كل على طريقته. جلس رجل محترم والدوتي خاصته مسحوب إلى أعلى على مسافة قريبة من القضبان. وكان يراقب القطار لبعض الوقت: كان يحمل مظلة سوداء كبيرة فوق رأسه وصحيفة على حجره. في الحقيقة بدا رمزاً مثالياً لما يسميه رجال دلهي "العالم الثالث".

لآخر محطة في الرحلة انعطف القطار إلى الشاطيء، مع خط الساحل المنخفض على طول خليج البنغال. كانت الحقول مغمورة بالماء، ولكن الرجال يحرثون الماء- مجموعة من الجاموس تسحبهم عبر الحقول المغطاة. كانت الأنهار محتمة التيارات السريعة الحمراء، وقد فاضت حتى مستوى الشاطيء. كان هذا الجزء الجنوبي الشرقي من أندھرا براديش هو أخصب أرض رأيتها في الهند. وقد كان مذهلاً بطريقة أخرى، سواد أهله، وحمرة أرضه البنية، وخضرته الشديدة. ما زال المطر ينهمر وتزداد شدته كلما اقتربنا من مدراس.

سألت صاحبي في السفر عن ندبته. قال إنّهُ تعرض لطعنة في مدينة عاصم على يد أفراد عصابة مسلحة خالوه بنغالياً. سار إلى الباب، وقفز عليه ثلاثة رجال وبدأوا في تمزيق قلبه بالخناجر، فسقط على ظهره وهربوا. "نصف الندم- وكنت على ظهري، ولكن نافورة منه نبعت من قلبي وارتفعت عاليًا فوق وجهي، وانتثرت الدماء حولي. " كان ينادي طفله ذا السنوات الخمس حتى يحضر قطعاً من القماش لإيقاف النزيف، ففعل الصبي كما قيل له ولكن يداه كانتا صغيرتين وكان قلقاً لحد أن يده انزلقت داخل الجرح. نُقل الأب إلى المستشفى في سيلينغوري، ولكن الجرح استغرق عاماً ليشفى، وبحلول ذلك الوقت عندما خرج من المستشفى كان بلا مال ولا وظيفة. وكان يصف نفسه بأنّه: مهندس هندي نموذجي جداً".

تحدثنا عن عمله. قال إنّهُ شيء يتعلق بالهيدروليكيات. ولم يكن حواراً مطوّلاً. معظم الهنود الذين قابلتهم كانوا يمتنون أعمالاً لا تقبل التحليل أو حتى التعليق. كانوا مندوبي مبيعات يطبلون لشركات صنعت أنابيب بلا أطر، أو مغاسل بلاستيكية، أو مواد مبيضة، كانوا يسوقون لعلامات المقاعد أو مشابك للمجلدات البيضاء المصفرة اللون.

وفي إحدى المرات التقيت برجل من السيخ يصنع الأشياء البلاستيكية، ولكن ليست العادية مثل الإطارات أو موانع الحمل، كان يصنع الشجيرات والمغلفات. قلت إنني لا أفهم فشرح قائلاً، أغطية-من المطاط- للأسنان المخلوعة.

إنه عجزي عن فهم هذه المهن التي تقود حوارات السكة حديد الهندية إلى حكايات من أغرب الأنواع. المهندس، الذي رأى أنّ فهمي للهيدروليكيات على أنّها اسطوانية، أخبرني قصة عن يوغّي كان لا يأكل ولا يشرب أي شيء في حياته. " علام كان يعيش؟" سألت. ويبدو كسؤال

وجيه. قال: " الهواء فقط، لأنه لم يكن يريد تدنيس الجسد بالطعام والشراب." عاش اليوغي إلى عمر متقدم- فوق السبعين. السيد غوبال، موظف الاتصال، احتار لجهلي بنشاطه. كانت قصته تتعلق بحمار، ونمر اعتادا على السفر معاً. لا أحد يستطيع فهم السبب في عدم افتراس النمر للحمار. ولكن أحد الرجال قام بمراقبتهم عن كثب (من خلف شجرة-بعيداً عن الأنظار)، وأدرك أنّ النمر كان أعمى: وكان الحمار يقود النمر من مكان إلى مكان. وسمعت قصة عن أنّ رجلاً في بومباي كان يسير على الماء، وقصة أخرى عن رجل تعلّم الطيران باستخدام أجنحة من أوراق النخيل. وأخبرني مروج الأنابيب غير المؤطرة بجسر من القروود يربط بين سيلان ودانوشكودي عبر البالك ستريت. رأيت هؤلاء يسردون قصصاً هروباً من الثوابت. الخيال الهندي يسعى لما هو أكثر من مجرد تفاصيل مملة في كتاب.

لذلك أخبرني المحاسب بهاردواج بأنه كان يؤمن بالتنجيم؛ والسيد راضي، صانع البطاريات الجافة كان يقرض (كما قال) القصائد الفلسفية؛ ورجل آخر أكثر عقلانية قابلته في بومباي ادعى إيمان الكثير من الهنود على لدغات الكوبرا: " تخرج لسانك وتبقية ثابتاً، فتلدغه الكوبرا، ويمنحك السم شعوراً بالروعة."

بضعة أميال خارج مدراس، وجدني مبشر إنجليزي أغلق نافذتي، وأنا ألهث في الحر، الذي هبط على القطار لتوه. تجاهل حالتي. وقال إنه غاضب جداً. كان سعيداً لسماع أنني كنت صحافياً (عندما أخبرته): لديه قصة لي.

قال : بعض الأمريكيين الذين يدعون أنفسهم مسيحيين كانوا يدفعون أربع روبيات لكل رأس- وكان هذا يعتبر مالاً طائلاً في مدراس- للأشخاص الذين يعمدونهم. لماذا؟ سأخبرك، حتى يرفعوا أرقام المتحولين إلى المسيحية، وبالتالي يستطيعون الحصول على المزيد من المال من أبرشياتهم في بلادهم. ضرهم أكبر من نفعهم. أمل أنك ستذكر ذلك عندما تعود إلى الولايات المتحدة." قلت: " بكل سرور". أياً كان المسؤول عن هذه الإرساليات الفاسدة التي تدفع رشاوى للمعمودية، هلا أقنعتهم، بأنهم يضرون أكثر مما ينفعون.

ثم وصلنا إلى مركز مدراس، وسائقو الركشة كانوا يطيطون باتجاهي مثل الخفافيش، ويرددون، " إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين أنت ذاهب؟ " وكانوا يضحكون عندما أقول لهم إلى سيلان.

هذا ما تخيلته: في مكان ما، بعد منازل مدراس المشيدة من الحجر المكسو، المصنفة على طول طريق ماونت مثل عدد من كعكات الزفاف المصفرة اللون، كان خليج البنغال، والذي وجدت فيه مطعماً ذا واجهة على البحر، وأشجار النخيل، ومفارش المائدة المرفرفة. كنت سأجلس بمواجهة البحر، وأتناول عشاءاً من السمك، وخمس كؤوس من الجعة، وأراقب الأضواء الراقصة لقوارب الصيد التاميلية الصغيرة. ثم كنت سأذهب للنوم للاستيقاظ باكراً حتى آخذ القطار إلى راميشوارام، تلك القرية الرابضة على أرنبه أنف الهند.

قلت لسائق التاكسي: " خذني إلى الشاطيء "

كان رجلاً من التاميل ذا شعر فوضوي في الرأس والوجه. قميصه مشقوق. كانت له نظرة الطفل البري في كشاكيل علم النفس: الأطفال المتوحشون، الماوكلين البريون المشوهون، يعيشون في جنوب الهند. ويقال إنهم رضعوا لبن الذئاب.

" طريق الشاطيء؟ "

" هذا يبدو كمكان. " شرحت له أنني أرغب في تناول طبق أسماك. "

" عشرون روبية. "

" سأعطيك خمساً. "

" حسناً، خمسة عشر، اصعد. "

سارت بنا العربة لمائتي متر ربما ثم أدركت أنني كنت جائعاً جداً: التحول إلى الحمية النباتية أربك معدتي بما كان أشبه ببديل ناقص عن الأكل الحقيقي. الخضروات ذهبت بشهيتي، ولكن هناك بقية انتهاء- مشاعر لآحم.

السائق: " هل تحب الفتيات الإنجليزيات؟ "

وهو يدير عجلة القيادة برسغيه، كما يفعل الذئب، إن أعطي فرصة لقيادة سيارة أجرة.

قلت: " حباً جماً. "

" سأجد لك فتاة إنجليزية. "

" حقاً؟ "

بدا مكاناً لا يحتمل أن يجد فيه المرء عاهرة إنجليزية- مدراس، مدينة بدون أية مظاهر للازدهار. وربما صدقت الأمر لو كنت في بومباي: رجال الأعمال الهنود اللامعين يسعون من وإلى فندق تاج محل، في ثروات طائلة، يقودون سياراتهم بالسرعة القصوى مجتازين النائمين على الأرصفة، لا بد أنهم كانوا يطعمون العاهرات. وقيل لي إن في دلهي، مدينة المؤتمرات والوفود، الكثير من فتيات الهوى الأوربيات يتسكن في أرجاء الفنادق الفخمة، يغرين بالمتعة بأرجحة أردافهن في خفة. ولكن في مدراس؟

استدار السائق في مقعده، ورسم على قلبه صليباً بأظافره الطويلة. " فتاة إنجليزية. "

" لا ترغ عينيك عن الطريق! "

" خمس وعشرون روبية "

ثلاثة دولارات وخمسة وعشرون سنتاً.

" فتاة جميلة؟ "

" فتاة إنجليزية، ألدك الرغبة؟ "

فكرت في الأمر مرة أخرى. لم تجذبني الفتاة بقدر ما الوضع ذاته. فتاة إنجليزية في مدراس، تمارس البغاء نظير مبلغ زهيد؟ تساءلت أين تعيش، وكيف، ولكم من الزمن، وما الذي أتى بها إلى هذا المكان بربك؟ رأيتها كمتشردة، لاجئة، مثل لينا في نصر كونراد تهرب من أوركسترا متجولة مسافرة في سورابايا. قابلت ذات مرة مومساً إنجليزية في سنغافورة. قالت إنها تجني ثروة من المال. ولكن لم يكن المال فقط هو هدفها: كانت تفضل رجال الصين والهند على رجال إنجلترا، الذين لم يكونوا سريعين جداً فقط، بل أسوأ من ذلك، عادة ما كانوا يرغبون في ضربها.

لاحظ السائق صمتي، وأبطأ. قام بانعطافة أخرى في وسط الزحام المروري الشديد. سنّه المشقوق به بقعة من عصير الـ betel ، وكان أحمرّ ولامعاً عاكساً للضوء الصادر من سيارة تسير خلفنا. قال: " الشاطيء أم الفتاة؟"

قلت: " الشاطيء."

قاد لبضع دقائق. بالتأكيد كانت إنجليزية هندية- إنجليزية كانت كلمة محايدة.

قلت: " الفتاة"

" الشاطيء أم الفتاة؟"

قلت: " الفتاة، الفتاة بحق السماء". كان الأمر كما لو أنّه كان يحاول إجباري على الاعتراف بنزعة شر على وجه الخصوص.

أرجح عربته مستديراً بشكل خطر، وقاد بسرعة في الاتجاه المعاكس وهو يغغم: " جميل -فتيات لطيفات- أنت تحب- منزل صغير- حوالي ميلين- خمس فتيات-"

"إنجليزيات؟"

"إنجليزيات."

اختفت من صوته نبرة التأكيد الواضحة، لكنه أوماً بالإيجاب، ربما في محاولة لتهدئتي. سرنا حوالي عشرين دقيقة. سرنا في شوارع حيث تشتعل مصابيح الكيوسيين في الأكشاك، ومررنا بمحلات الأقمشة ذات الإضاءة المبهرة حيث الكتبة في مناماتهم المخططة يهزون أحزمة من قماش أصفر، و وثوب ساري مطرّز. جلست في الخلف أراقب ملامح مدينة مدراس وهي تمر بي، الأعين والأسنان في الشوارع الخلفية المظلمة، الباعة الليليين بسلالهم الحافلة، والمداخل اللانهائية المميزة باللوحات التي تحفر حروفها في الذاكرة: سانغادا لانش هوم، فيشنو شو كلينيك، ومطعم آلاف الأنوار المظلم حد الكأبة.

دار مع الأركان، واختار أضيق الشوارع المظلمة، ثم صرنا إلى شوارع متسخة. شككت في أنّه سيسرقني، وعندما وصل إلى الجزء الأشد ظلمة من درب وعر- أصبحنا في الريف الآن، فتوقف، وأطفأ الأنوار. كنت متأكداً أنّه رجل مخادع: كانت حركته التالية لتكون غرز سكين في أضلاعي. كيف كنت غيباً لأصدق قصته السخيفة حول فتاة الخمسة وعشرين روية الإنجليزية! كنا بعيدين عن مدراس، على طريق مهجور بجانب مستنقع يلعب في حياء حيث تنق الضفادع، وتتقافز. هز السائق رأسه. قفزت. زفر الرجل بأنفه في أصابعه ورمى بالناتج من النافذة. بدأت أنزل من السيارة.

" اجلس تحت."

جلست.

وضع إبهامه على صدره وقال: " سأعود." انصرف وطرق على الباب، ورأيتة يختفي في درب ما إلى اليسار.

انتظرت حتى ذهب، وحتى اختفى صوت حركة ساقيه في الشعب الطويل، ثم بحذر شديد فتحت الباب. وفي الهواء الطلق، كان النسيم بارداً، وامتزجت رائحة الماء الأسن والياسمين معاً. سمعت أصواتاً على الطريق، رجال يثرثرون. مثلي كانوا في بحر من الظلمة غارقين. كنت أستطيع

رؤية الطريق حولي، ولكنه اختفى على بعد أمتار قليلة. قدرت أنها كانت ميلاً من الطريق الرئيسي. علي الاتجاه إلى هناك ومحاولة إيجاد حافلة ما.

كانت في الطريق ثمة برك. خضت في واحدة منها، وانزلت إلى الجزء الأعمق منها بينما كنت أحاول الخروج. كنت أركض لكن البرك أبطأت من حركتي إلى مستوى المشي المتناقل.

"يا سيد! يا صاحب!"

واصلت السير، ولكنه رأي واقرب. لقد وقعت. قال: "اجلس يا سيدي!" رأيت أنه كان وحده.

"إلى أين أنت ذاهب؟"

"أستكشف."

"فتاة إنجليزية؟"

"لا فتاة إنجليزية."

"ماذا تعني؟ لا فتاة إنجليزية؟" كنت خائفاً والآن بدا الأمر كأنه تحضير واضح لفخ.

اعتقد أنني كنت غاضباً. قال: الفتاة الإنجليزية، أربعون، خمسون. هكذا. "ووقف بالقرب مني حتى أستطيع أن أراه في الظلام وهو ينفخ أشداده؛ وجمع قبضتيه وضرب كتفيه. فهمت رسالته:

فتاة إنجليزية بدينة. "الفتاة الهندية- صغيرة-جميلة. اجلس. لنذهب."

لم يكن لدي خيار آخر. الجري السريع على الطريق لن يأخذني إلى أي مكان- وربما طاردني هو. سرنا عائدين إلى التاكسي. أدار المحرك بغضب، وقدنا في الطريق المعشوشب الذي سلكه من قبل مشياً على الأقدام. كان التاكسي يتقلب من جانب إلى آخر في الحفر، ويصعد في المرتفعات. كان هذا هو الريف حقاً. في هذا الظلام كله لا يوجد سوى كوخ واحد مضاء. صبي صغير يجلس أمام باب ومعه ألعاب نارية، وهو في انتظار للديوالي، مهرجان الأضواء: كان يضيء وجهه، وذراعه النحيلة، وقد عكست عيناه نقطة من ذاك النور.

"كان أمامنا كوخ آخر، أكبر قليلاً، وسقفه مسطح وبه نافذتان مربعتان. كان وحده، مثل المتجر في دغل من الخواء. تحركت بعض الرؤوس الداكنة وراء النافذة.

"تفضل"، قال سائق التاكسي، وهو يوقف سيارته أمام الباب. سمعت ضحكات، ورأيت لدى النافذة وجوها سوداء وشعراً لامعاً. رجل يرتدي عمامة بيضاء انحنى مقابل الجدار، خارج دائرة الضوء بالضبط.

دخلنا إلى غرفة متسخة. وجدت كرسيّاً فجلست. كان هناك مصباح كهربائي خافت الضوء على سلك في وسط السقف المنخفض. كنت جالساً في مقعد جيد- وكانت المقاعد الأخيرة إما مكسورة أو ممزقة البطانة. جلست بعض الفتيات على أريكة خشبية طويلة. كن يراقبنني بينما اجتمع الآخرون حولي. يقرصون ذراعي، ويضحكون. كن صغيرات جداً، وبدون عنيديات وهزليات قليلاً، صغيرات جدا على وضع أحمر الشفاه، ومجوهرات الأنف والأقراط، والأساور التي كانت تنزلق من أيديهن. أكاليل زهور الياسمين البيضاء المثبتة على شعورهن منحتهن مظهر الفتيات، ولكن لطخات أحمر الشفاه والمجوهرات الكبيرة الحجم زادت من عمرهن على نحو لا يخلو من البالغة. رمقتني إحدى الفتيات التي بدت عليها القوة والشجاعة بنظرة غاضبة بينما كانت تحمل

جهاز مذياع مصغراً قريباً من رأسها. كن يشبهن عندي فتيات المدارس في ملابس أمهاتهن. ليس بينهن من تجاوزت الخامسة عشرة من العمر.

"أيهن تريد؟" كان هذا هو الرجل صاحب العمامة. كان قوية البنية ويبدو صعباً في التعامل. كانت عمامته مصنوعة من فوطة استحمام مربوطة على رأسه.

قلت: "آسف."

دخل من الباب رجل نحيل. عريض عظام الوجه وتشي ملامحه بالفطنة. كانت يداه مثبتتين إلى أعلى اللونجي خاصته. "أشار إلى واحدة. "خذها- إنها جيدة".

"مائة روبية، لليلة بكاملها." قال الرجل صاحب العمامة. "وخمسون لدورة واحدة."

"لقد قال لي خمسة وعشرين روبية."

أشار قائد التاكسي بيديه أن لا.

قال الرجل العابس، وهو يتشدد في موقفه: "خمسون."

قلت: "على أية حال، أنس الأمر. لقد أتيت لبعض الشراب."

قال الشاب النحيل: "لا شراب هنا."

"لقد قال إن لديه فتاة إنجليزية."

قال الرجل النحيل: "أي فتاة إنجليزية؟" و صار يبرم العقدة على بنطاله. "هؤلاء فتيات كيرالا-

صغار، ورشيقات من ساحل مالابار."

أمسك الرجل صاحب العمامة بإحداهن من ذراعها ودفع بها إلي. فصرخت في فرح وقفزت مبتعدة.

قال الرجل صاحب العمامة.

"انظر في الغرفة."

كانت الغرفة بعد الباب مباشرة، أضاء المصباح. هذه هي غرفة النوم، حجمها مساوٍ للغرفة في الخارج، ولكنها أكثر اتساخاً وفوضى. ورائحتها مريعة. في وسط الغرفة سرير خشبي ذو حصيرة من خشب البامبو، تشوبها البقع، وعلى الحائط ستة رفوف، يحمل كل منها حقيبة صغيرة من الصفيح مغلقة بقفل. وفي أحد أركان الغرفة طاولة قديمة بها بعض زجاجات الدواء، كبيرة وصغيرة، وحوض من المياه. وكانت على السقف علامات داكنة، وصحف على الأرض، وعلى الجدران حول السرير رسوم من الفحم لأعضاء بشرية مقطوعة، وأثداء وأعضاء تناسلية.

"انظر!"

ابتسم الرجل في وحشية، وهرع إلى الجدار الأقصى ورمى مفتاحاً.

"مروحة!"

بدأت تنن ببطء فوق الفراش البائس، وتحرك الهواء بريشاتها المتداعية، وتزيد الغرفة ضيقاً على ضيق.

دخلت الفتيات إلى الغرفة، وجلسن على السرير يضحكن، وبدأن يتجردن من الساري. فأسرعت خارجاً إلى الصالة، عبر الباب الأمامي، ووجدت سائق التاكسي.

"هيا، لنمض!"

"ألم تحب الفتاة الهندية؟ فتاة هندية جميلة؟"

كان النحيل بدأ يهتف. وصرخ بشيء ما بلغة التامل موجهاً حديثه للسائق، الذي كان يسير بسرعة كبيرة بينما كنت أغادر المكان: لقد جلب زبوناً لا فائدة منه. كان خطأه، وليس خطأي. أما الفتيات فكن يضحكن ما زلن وينادين، وكان النحيل يصرخ بينما كنا نهرب خارج الكوخ وعبر العشب الطويل في الطريق الخلفي ذي المطبات.

----

### الفصل الثالث عشر القطار المحلي إلى راميشوارام

-----

أنشد مطمحين في الهند: أولهما العثور على قطار إلى سيلان، والآخر أن أحصل على مقصورة نوم. وقد بلغت كليهما في محطة إغموري بمدراس.

كان مكتوباً على تذكرتي الكارتونية الصغيرة مدراس- قلعة كولومبو، وعندما تحرك القطار أخبرني المحصل أنني سأكون الوحيد في العربة في رحلة الأربع والعشرين ساعة إلى راميشوارام. وقال إنه بوسعي التحول إلى العربة المقصورة الثانية إن أردت، لأنّ مراوحها تعمل. كان قطاراً محلياً، اتجه الجميع إلى الدرجة الثالثة إذ لا أحد ينوي الذهاب إلى مكان بعيد جداً. كانت قلة فقط من الركاب يتجهون إلى راميشوارام، كما قال، وهذه الأيام يندر أن يذهب الناس إلى سيلان: لأنها كانت منطقة منكوبة، فالغذاء شحيح في الأسواق، ورئيسة الوزراء السيدة باندارانايكي لا تحبّ الهنود. وتساءل عن سبب رحلتي إلى هناك.

قلت: "لأجل متعة السفر."

"إنّ القطار الأبطأ" وأبرز لي جدول الرحلات فاستعرتة، واطّلت عليه في مقصوري دارساً إياه.

لقد سبق لي السفر في قطارات بطيئة، ولكن هذا كان يتعمد التأخير. لقد بدا أنّه يتوقف كل خمس أو عشر دقائق. حملت الجدول إلى النافذة للتحقق منه في الضوء.

مدراس إغموري

11:00

مامبلام

11:11

تامباران

11:33

استراحة بيرونغالاتور

11:41

فاندالور

11:47



غودوفانشاري

11:57

كاتار غولاتور

12:06

سينغابور ومالكويل

12:15

شينغليوت

12:35

وهلم جراً. أحصيت الوقفات. بلغت أربعاً وتسعين مرة في جملتها. تحققت أمنيّتي، ولكنني تساءلت ما إذا كانت تستحق المشقة.

ازدادت سرعة القطار، صرّت المكابح، ثم اهتز وتوقف. بدأ التحرك مرة أخرى، وحالما بدأ يستقر في سيره، أصدرت الفرامل زعيقها المعدني مرة أخرى. أما أنا فغفوت في مقصورتني. كلما توقف القطار سمعت ضحكة، ونقرات أقدام تمر ببابي، ركضاً مكتوماً على طول الممر، والأبواب تُصَفَع، ورنين المعدن على المعدن. كانت الأصوات تخفت عندما يتحرك القطار، ولا تبدأ إلا في المحطة التالية، جلبة في الأبواب، وصياح وصرخات. نظرت عبر النافذة ورأيت أغرب منظر - الأطفال، والفتيات والصبية تراوحت أعمارهم بين السابعة والثانية عشرة، كان الصغار منهم عراة، والكبار يرتدون مئازر، وكانوا يقفزون من القطار وهم يحملون علب المياه. كانوا أطفالاً متوحشين، وقد شحب منهم الشعر الطويل بفعل الشمس فصار إلى اللون البنيّ، أكتافهم سوداء ووجوههم غبراء، وأنوفهم فطساء - مثل سكان استراليا الأصليين - وقد كانوا ذلك الصباح يهرعون - من جميع المحطات - إلى عربة النوم ويأخذون الماء من المغاسل الملحقة بمقصورة دورات المياه. كانوا يتسابقون وهم يحملون علب الصفيح إلى المعسكرات بجانب طريق القطار حيث ينتظرهم أشخاص نحاف يكبرونهم في العمر، رجال مسنون، ذوو شعر أصفر مجعد، ونساء يركعن على قدور يطبخن فيها أمام خيم بسيطة.

لم يكونوا من التاميل. أرجح أنّهم من الأوبرجينز، مثل الغونديين. مقتنياتهم قليلة، وكانوا يعيشون في هذه المنطقة القاحلة التي لم تصلها الرياح الموسمية بعد.

كانوا يقتحمون عربة النوم طوال الصباح بحثاً عن الماء، يقفزون من وإلى القطار وهم يضحكون ويصرخون، ويضفون على رحلة قنص الماء طابعاً من اللهو والمرح. أغلقت بابي الداخلي، مانعاً إياهم من الرقص على الممر، ولكن بدون أن أحول بينهم وبين الوصول إلى الماء.

لم أتدبر أي طعام، ولم يكن معي زاد. سرت في وقت مبكر من الظهيرة على طول القطار ولكنني لم أجد عربة الطعام. كنت أخذ غفوة حوالي الساعة الثانية، ثم سمعت طرقاتاً على النافذة. كان المحصل هو الطارق. وبدون كلمة واحدة، مرر إلي صينية من الطعام عبر القضبان. أكلت على الطريقة التاميلية، مغموراً الأرض بيدي اليمنى، ومغطساً تلك الكرة في الخضروات السائلة، ثم أحشو المزيج في فمي.

ظهر المحصل مرة أخرى في المحطة التالية. وأخذ الصينية الفارغة، وألقى عليّ تحية ناعسة.

كنا نسير بمحاذاة الساحل، على بعد أميال قليلة من البر، وكانت المراوح في المقصورة لا تكاد تخفف من ضغط الرطوبة. كانت السماء ملبّدة بالغيوم التي بدت وكأنها تزيد من وطأة الحرارة الخانقة، وكان القطار بطيئاً للغاية ولم تعبر نوافذه نسمة واحدة. وحتى أبعد ذلك الشعور باللزوجة، استعرت مكنسة وبعض القطع القماشية من المحصل: كنست مقصورتى وغسلت جميع النوافذ والأجزاء الخشبية. ثم تركت غسيلي معلقاً على مشابك في الممر. سددت الحوض، وغمرت نفسي بالماء، ثم حلقت، وارتديت ملابسى وصندلي. فوق كل شيء، كانت عربة النوم لي وحدي. استبدل المحرك الكهربائي في محطة فيلوبورام بأخر بخاري، وفي المحطة ذاتها تمكنت من شراء ثلاث قوارير كبيرة من الجعة الدافئة. نسقت الوسائد في مقصورتى، وبينما كان الغسيل يجف، احتسيت الجعة، وكنت أراقب دولة التاميل نادو وهي تزداد بساطة: كل محطة كانت أصغر من سابقتها، وقلّ ما يرتديه الناس من ملابس- وقد اختفت القمصان بعد محطة شينغليوبوت، واختفت الفانلات التحتية في فيلوبورام، وبعدها ندرت رؤية اللونجي، وصار الناس يركضون في الأنحاء بمنازل فضفاضة.

كانت الأرض منبسطة، بلا معالم بارزة سوى بعض التاميل في هياكل تشبه طيور اللقلق وسط حقول الأزرق البعيدة. كانت الأكواخ فقيرة في مظهرها مثل تلك الأكواخ المؤقتة المنتشرة في قلب أفريقيا، حيث يعتبر المقام في الكوخ ذاته لسنتين متتاليتين من قلة الحظ. كانت مبنية من الطين وأسقفها من سعف النخيل؛ وقد تشقق الطين من أثر الحرارة، وقد تنزع أولى تباشير الرياح الموسمية هذه الأسقف عن أماكنها. بخلاف هذه المباني العشوائية، يتم ري حقول الأرز بعقريّة من خلال توظيف أنظمة ضخ معقدة تدعمها قنوات طويلة.

كان مصدر الإزعاج الأكبر في ظهيرة ذاك اليوم هو الدخان المتصاعد من محرك البخار. لقد انسرب عبر النوافذ، ليغلف كل الأسطح بطبقة رقيقة من السخام، ورائحة الفحم المحترق- وهو السمة المشتركة بين جميع محطات السكة الحديد بالهند- عبقّت الغرفة. يستغرق المحرك وقتاً أطول للوصول للسرعة المطلوبة، وصوت المطرقة الثقيلة والنفخ الموقع كان ينتقل بين العربات. ولكن هذه القوة اتسمت بشيء من اللطف، وأصوات اندفاع العجلات تمنح القطار حركة ليست فقط مختلفة عن حركة آلة جز العشب المضخمة التي تميّز المحرك الكهربائي، بل جعلت محرك البخار يبدو كحيوان لطيفته القوية في التحرك والتوقف. بعد الظلام انطفأت أنوار الغرفة وتوقفت المروحة. ذهبنا للنوم، وعادت الكهرباء بعد ساعة - كانت الساعة 9:30. وجدت مكاني في الكتاب الذي كنت أقرأه، ولكن قبل إنهاء الفقرة انطفأت الأنوار للمرة الثانية. أرسلت لعناتي وأطفأت كل شيء، ثم لطخت نفسي بطارد الناموس (كان الناموس قاسياً وسريعاً مع ميزانيتهم المخصصة لدحر مرض الملاريا)، ونمت ورأسي تحت الأغشية، ولم أستيقظ إلا في ترشينوبولي (تيروشيرابالي) لشراء عبوة لفافات تبغ.

زارني في اليوم التالي راهب بوذي. كان حليق الرأس يرتدي أثواباً حمراء بلون الزعفران، وكان حافي القدمين. كان تجسداً للتقوى على قدمين، الراهب السائح برأسه المتعرق، يسلك الرتبة الثالثة على الخط الفرعي للنيرفانا. وكان بالطبع، صادقاً جداً في ما يخص الجزء الذي حذرته على الفور أي أنه كان أمريكياً، وتبين أنه من منطقة بالتيمور، وفي طريقه إلى كاندي في وسط سيلان. ولم ترق له أسئلتي.

"ما رأي أهلك في تحوّلك للبوذية؟"

قال في عناد: "أنا أبحث عن الماء،"

"هل تقيم في دير أم ماذا؟"

"انظر، إن لم يكن لديكم ماء هنا، فقط أخبرني وسأمضي لحال سبيلي."

"لدي أصدقاء مقربون في بالتيمور، هل عدت إلى هناك مذ جئت؟"

"قال الراهب: "أنت تزعجني."

"أهذا أسلوب حديث لراهب؟"

عندها استشاط غضباً. قال: "تطرح علي هذه الأسئلة ألف مرة في اليوم."

"أنا أشعر بالفضول فحسب."

قال بسطحية مبهمة: "ليس لدي إجابات، أنا أبحث عن الماء"

"واصل البحث."

"أنا متسخ! لم أنم طوال الليل! أريد الاغتسال!!"

قلت له: "سأريك أين يوجد الماء إن أجبت على سؤال واحد بعد،"

قال الراهب البوذي: "أنت وغد متطفل، تماماً مثل بقيتهم،"

قلت: "الباب الثاني إلى يمينك، احذر من الغرق."

بالنسبة لي كانت الأميال العشرة التالية هي أغرب ما قطعتة من مسافة على متن قطار قط. كنا على الساحل نتحرك بسرعة على طول قطعة من الأرض، وعلى كلا جانبي القطار- صفارته تدوي، ومدخنه عامرة بالدخان- رمل أبيض قد تجمع على هيئة كتبان رملية رائعة، وخلف هذه الكتبان كانت شرائح من بحر أخضر. ثارت الرمال بفعل ضربات المحرك قبالة العربات الخلفية، والرذاذ المتطاير من الأمواج المتكسرة على الشاطئ، الذي زاد غسله المنتظم من درامية توقف المحرك، الذي كان يُنتثر ليلطخ النوافذ بفقاقيع من الكريستال. كان هناك النور والماء والرمل جميعاً، في طيران حول القطار يتجهون في سرعة إلى جسر راميشوارام وسط الرياح الشديدة. كانت أشجار النخيل تحت الغيوم السابحة تتحني وتتحرك مثل مراوح من الريش، وهنا وهناك، حتى أبراجها في الرمال، كانت أعلام المعابد الحمراء على صواريتها التي انتثت. غطى الرمل في بعض الأماكن القضبان. وتراكم على بوابات المعابد، وحطّم أكواخ سعف النخيل الضعيفة. كانت الرياح رهيبية، تضرب على النوافذ، تحمل الرمال وتنتثرها، وتدوي الصفارات، تكاد تقلب الزاوي التي تفتح أشرعتها في قوس الأفق حيث ترقد سيلان.

قال المحصل: "بعد دقائق قليلة، ستندم- على ما أعتقد- على ركوبك هذا القطار."

قلت: "لا، لكن اعتقدت إنه وصل إلى دهانوشكودي- هذا ما تقوله خارطتي."

"كان القطار الهندسيلاي السريع يصل إلى دهانوشكودي سابقاً."

"لم لا يصل إلى هناك الآن؟"

"لم يعد هذا القطار موجوداً، وقد تبددت دهانوشكودي."

فأخبرني شارحاً أنّ أحد الأعاصير التي ابتليت بها المنطقة، قد جرف قطاراً، وأغرق أربعين راكباً، وغطى مدينة دهانوشكودي بالرمل. وأراني ما تبقى منها، كتبان رملية على طرف شبه

الجزيرة، وأنقاض من بقايا الأسقف السوداء. اختفت المدينة بالكامل حتى الصيادين لم يعودوا يعيشون في المنطقة مذاك.

قال المحصل: " راميشوارام أكثر جمالاً، هناك معبد جميل، وأماكن مقدسة، وضريح قابيل وهابيل."

اعتقدت أنني لم أسمعه جيداً، فسألته أن يعيد هذه الأسماء عليّ. لم أخطيء السمع. كانت القصة عندما أخرج آدم وحواء من جنة عدن أنهما ذهبا إلى سيلان (دهانوشكودي هي بداية الجزر السبع الواقعة في الجهة المقابلة لمضيق البالك، والمعروف باسم "جسر آدم") ذهب المسيح إلى هناك؛ وكذلك فعل بوذا وراما، وكذلك، على الأرجح، الأب السماوي، وجوزيف سميث، وماري بيكر إدي، وانتهى الأمر بقابيل وهابيل في راميشوارام، التي قد تكون هي أرض نود الواقعة شرقي عدن<sup>12</sup>.

لم يكن ضريحاهما يحملان علامات. لقد كانا في رعاية المسلمين المحليين، في مدينة الهندوس هذه، حيث أغلبية السكان ينحدرون من براهمة الطبقة العليا، وقد واجهتني صعوبة في رؤية أحد المسلمين. كان سائق العربة التي يجرها الحصان (ليس ثمة سيارات في راميشوارام) يعتقد بوجود مسلمين في مرفأ العبارات. قلت له إنه أبعد من أن استطيع الذهاب إليه: كانت المقبرة في مكان ما بالقرب من محطة القطار. وقال السائق إن المعبد الهندي يعتبر الأقدس في الهند. أخبرته عن رغبتني في رؤية ضريحي قابيل وهابيل، فوجدنا مسلماً مستغرقاً في التفكير في متجر متسخ على طريق جانبي. قال إنه سيريني الضريح إن وعدته بألا أدنسهما بألة التصوير خاصتي، فوعدته. كان الضريح نموذجياً: قطع متوازية من الحجر المتصدع تجري على سطحه السحالي، وتشابكت عليه خيوط من الأعشاب الاستوائية الخضراء. حاولت أن أظهر الخشوع، ولكنني لم أستطع إخفاء خيبة أمني لرؤية ما يبدو كأساسات غير مكتملة لبعض الأبنية الباهظة المعتمدة من قبل موظف خائن في دائرة الأشغال العامة لمسجد محلي. أما الأضرحة فلم يكن من السهل تمييزها. قلت: " قابيل؟" وأنا أشير إلى الضريح الأيمن. وأشارت إلى الأيسر قائلاً: " هابيل؟" لم يحر المسلم جواباً.

أسس المعبد الهندوسي على يد راما (في طريقه إلى لانكا، سيلان، لإنقاذ سيتا)، وكان متاهة رائعة، حوالي ميل من الممرات الجوفية، مطلية ومضاءة على نحو مبهرج. الرحالة ج. ج. أوبرتين، الذي زار معبد راميشوارام (ولكنه لم يزر مقبرة قابيل وهابيل: ربما لم يكونا هنا في 1890) يورد ذكر رقصات فتيات النوتش القبيحة المجدفة في كتابه، تسكعات وتساولات [Wanderings and Wonderings] (1892). بحثت ولم أصادف أيّاً من هؤلاء الراقصات. خمس نسوة مسنّات كن يجتهدن في غسيل ملابسهن بالبركة المقدسة في وسط المعبد. في الهند، وصلت إلى أن بوسع المرء أن يحدد مدى قداسة الماء من درجة ركودها. وكانت أكثرها قداسة مثل هذه، ذات لون أخضر فاتح. كانت الرحلة تستغرق ثلاث ساعات عبر مضيق البالك على الباخرة الاسكتلندية العتيقة، التي تعرف ب: ت. س. س. رمانوجام (إروين سابقاً)، من راميشوارام إلى تالينمانار على قمة سيلان. مثل أي ممن قابلتهم في الهند، أخبرني رفيق الباخرة الثاني، أنني كنت

12 "أرض المنفى" حيث نفي قابيل عقاباً على جريمة قتل أخيه هابيل وفقاً لسفر التكوين 4: 16

مغفلاً لزيارتي سيلان. ولكن السبب الذي ذكره كان أفضل مما سمعت من غيره: كان وباء الكوليرا منتشرأ في جافنا، وقد بدا أنه امتد حتى كولومبو. "إنها جنازتك" قال وهو يضحك. لقد كان يحتقر السيلانيين بشدة، ولم يكن الهنود بأكثر حظاً منهم عنده. وأشارت إلى أنه لابد منزعج من ذلك، فهو نفسه هندي.

قال: "نعم، ولكني "كاثوليكي"."

كان من مانغالور على ساحل مالابار واسمه كان لليويلين. كنا ندخن السيجار التريشنوبولي على متن الباخرة، حتى ظهرت تالينمانار، صف من الأنوار خافتة مثل الترتر الباهت، الذي قال لليويلين إنه أول أمطار الموسم.

-----

-----

## الفصل الرابع عشر قطار تالايمنار

-----

كان المطر يهطل بشدة على سقف مكتب التذاكر بمحطة تالايمنار، لحد أن الموظف كان يرفع صوته، طلب أوبرالي لرسوم باهظة، ورفع الصوت أمر غير معروف عن السيلانيين. إنه ليس بالبلد الذي يرفع مواطنوه أصواتهم. كانوا يتناقشون همساً؛ وتدفعهم الكوارث للنوم. لم تكن الحماسة من صفاتهم. ولكن هذه الظروف كانت استثنائية. كان الأمر أشبه بالأفلام الحديثة الوثائقية التي تنسدل فيها ستائر من المطر البني على رصيف محطة القطار، فيتخيم الأذن بأصوات عالية تصم الأذان. صُنعت عربات قطار تالايمنار من ألواح خشبية رقيقة، تضخم صوت المطر؛ فتقرع طبول هذه الأسقف على نحو مفزع، تقود إيقاعاتها الريح فيغرق في خضمها نباح الكلاب المنبوذة الهزيلة التي طردت بعيداً عن دائرة العاصفة. كانت المحطة تتداعى، تقشّرت لافتتها فلم تعد مقروءة، ولم يخل القطار من بقع الزيت، وأضفت الأضواء الخافتة خلف أعمدة السقيفة السوداء على المطر المنهمر عتامة صفراء كصهير البلاستيك. كانت محطة استوائية صغيرة في شمال سيلان، تفوح منها رائحة الأدغال العطنة، والمجاري الطافحة، وبذلك البلى الذي يُعد سحراً في المناطق الاستوائية النائية. سألت موظف التذاكر في مكتب الحجز عن وقت مغادرة القطار. "ربما في منتصف الليل!" كان المطر ما يزال يتدفق على سطح سقيفته البائسة، مما أضفى على عينيه مظهراً ناعساً.

"ماذا تعني برّما؟"

"ربما بعد ذلك."

هرعت وأنا أسير على الرصيف باتجاه العربة التي تحمل على جانبها ديباجة منقوش عليها عبارة "عربة النوم" بحروف مذهبة. كانت مقصورتي ثنائية المهجع، نموذج ممتاز للأشغال الخشبية في الحقبة الاستعمارية، كانت الأخشاب مقطوعة على هيئة ألواح بصورة معقدة للغاية حتى

تستوعب نظام الأرفف المعلقة، والخزانات المحلقة، والمقعد المنزلق، القابل للطّي المثبت على أحد الجدران. كان المطر يصطدم بالشيش الخشبي، فيتسرب قدر وافر من الرطوبة عبر فتحات التهوية. خلدت إلى النوم لكنني استيقظت في الواحدة صباحاً على ضجيج أحدثته ثلاثة صناديق ثقيلة كان يجرها رجل سنهالي، وأوقفها بجانب مضجعي. قال وهو يشير إلى المضجع السفلي، حيث كان السيد هاي: "هذه لي". ابتسمت، كانت ابتسامة هادئة تتم عن عدم الفهم، وقد تعلمتها من عدد من أصحاب الأكشاك الأفغان في كابول. "إنجليزي؟"

أومأت برأسي ولم تفارقني ابتسامتي. ثبت الرجل السنهالي السلم المتحرك على المضجع العلوي. ولكنه لم يصعد. بل شغل المروحة، وجلس على أحد صناديقه، وبدأ في أكل وجبة فاسدة وضعها في قطعة من ورق الصحف. كانت رائحة البصل الفاسد والأرز كريحه الرائحة كافية لترك أثرها على الغرفة حتى نهاية الرحلة. في الساعة 3:15 بدأ القطار التحرك خارجاً من تالايمنار. كنت أعرف هذا لأنه عندما بدأ حركته قفزت من مكاني على فراشي المعلق لاستقر على الصناديق. كانت عربة النوم الخشبية خفيفة للغاية، وكانت تقفز وتترنج على القضبان غير المستوية، وتصدر صريراً لا ينقطع طوال الليل. وهو أشبه بذلك الشد والجذب في الخشب مضجع المسافرين، على السفن القديمة التي تتجاذبها الرياح.

زارتني كوابيس مزعجة بأن النار قد اشتعلت في عربة النوم، فاحترقت بشدة كما لو أنّ السنة لهيبها قد تغذت على ما أصابها من جفاف في تلك الرحلة. كنت عالقاً في المقصورة، عاجزاً عن فتح الأبواب، والتي شوّه المطر واجهاتها. كانت الأبواب شائهة، واستيقظت من الكابوس لأجد رائحة الدخان القوية المنبعثة من لفافة الشيروت في يد السنهالي. كانت المقصورة مضاءة، والمروحة تعمل، وهذا الرجل - كنت أرى انعكاس صورته على المرأة - كان مستلقياً على فراشه، ينفث سيجاره الضخم ويقرأ غلاف عشائه ذي الرائحة النفاذة. بدت منطقة شمال شرق سيلان كحديقة مهملّة في الفجر: جفت حقول الأرزق، وتناولت فيها الأعشاب، وكانت الأوراق كثيفة في الساحات الخلفية للأكواخ المتداعية، كانت مزرعة في السابق كما يبدو. وكنت أرى بطالة متفشية أينما وجهت النظر. يتخذ الناس مختلف وضعيات الراحة. لقد جئت من جنوب الهند حيث أرض التاميل الوثابيين. أما هنا فللسنهاليين لا مبالاة وترنج المسرّنين الثقيل وهم يبحثون عن مكان ينزلون فيه. كان شح الطعام حاداً بوضوح: يدلّ عليه عدم انتظام موقع زراعة الكسافا، وهو أكثر نباتات الأرض بدائية، جذر ينمو بسهولة ولكنه يجهد التربة في عام واحد. كان محصولاً جديداً على سيلان، وقد بدأوا في زراعته باستماتة.

في الدرجة الثانية كان السنهاليون ينامون قبالة أطفالهم. كانت عيون الأطفال يقظة ومفتوحة، ويثبتهم إلى المضاجع أبائهم الذين ارتفع شخيرهم. أظهر رجل قابلته على الممر استياءه بكل صراحة. لقد كان سنهالياً، معلماً للغة الإنجليزية، وقال إنه لم يكن يسافر كثيراً بالقطار لأنه "لا يحب رفقاء السفر هؤلاء".

"السنهاليون؟"

"الصراصير." قال إنّ القطار كان يعج بهم. رأيتهم فقط في العربة التي تحمل اسم البوفيه، بين حبوب الفول السودانيّ، والخبز الفاسد والشاي الذي يباع كوجبة إفطار. سألت المعلم، ما إذا كان هنالك أي مستقبل لمعلم لغة إنجليزية في سيلان. (إن كان علي إضافة هذا على الرغم من أنّ الاسم الرسمي للجزيرة هو الآن سيريلانكا، إلا أنني لم أصادف من يدعوها بغير سيلان: لقد تغيرت مؤخراً فقط ولم يتسن للناس بعد تغيير عاداتهم في استخدام اسمها السابق.)  
"من المضحك أن تسأل هذا السؤال. وبصراحة نحن نتعرض للتحقيق."  
فسألته لم؟

"دروسنا مخربة." طفق يدخن وهو يبتسم بهدوء، لا بد أنّه كان يتحرّق شوقاً لأن أحثّه على الحديث.

"اعطني مثلاً."

"آه، نحن نشدّب الجُمْل. خمسة آلاف جملة. تقول الحكومة إنّها مخربة."

"تشدّبون الجمل لدروس اللغة الإنجليزية؟"

"أجل. نحن من كتبناها. كانت إحداها: " لدى السيدة باندارانايكي ثلاثة أطفال."

" كم طفل لديها؟"

"ثلاثة."

" إذن ما وجه الصعوبة؟"

" أنا أعطيك مثلاً فقط، هنالك واحدة أخرى: " السيدة ب. امرأة."

"أليست كذلك؟"

"بلى. ولكنهم اعترضوا. ربما يمكنك أن ترى في ذلك مساساً بطائفتها الشخصية."

"فهمت."

"أيضاً، " لدى السيدة ب. عملية جراحية في التاسع عشر من سبتمبر، عام واحد وستين

وتسعمائة وألف."

"ألم تعجبهم؟"

" أه لا! الاستعلام في طور الإعداد. كما إنّ الأمر بالنسبة لي، مثير للدهشة برمته."

قلت إنّّه سيفقد وظيفته على الأرجح. وقال إنّّه سيكون بخير طالما لم يدخل السجن. وأجره كمعلم

جامعي يبلغ 25 دولاراً بالاسبوع، قبل خصم الضريبة.

في كورونيغالا، حوالي خمسين ميلاً شمالي كولومبو، اشتريت ثمرة بابايا، وعدداً من صحيفة

الديلي ميرور السيلانية.

المجاعة التي حوّلت الهنود إلى صنّاع لحشوات الأسنان المطاطية الآمنة، وباعة لشرائح وجبات

السّمك، وقطع الخضروات، صنعوا أيضاً متطرفين دينيين سيلانيين. وفقاً للدليي ميرور، كان

هنالك اهتمام متجدد بالقديس جودي الذي كان يعرف لدى العامة بلقب: " راعي الحالات

الميوّوس منها". وله ضريح في كولمبو يحيط به الحجاج من جميع الطوائف حتى البوذيين

والهندوس. " إنّّه بارز حقاً." ويمضي المقال: " كيف لا يزال الناس من جميع الأديان

والقوميات يجتمعون في ضريحه المقدس." ويتوقع في يوم عيد القديس جودي، 28 أكتوبر، أن

يقصد مئات الآلاف من السيلانيين ضريحه للصلاة.

يتضاعف أتباعه. وتتهمر الرسائل على كاهن الأبرشية تشهد على الكرامات المذهلة التي حدثت بفضل التوسل للقديس. كان كثير منهم من العالقين في حبائل البيروقراطية الميؤوس منها على ما يبدو، والذين لجأوا بالتضرع للقديس جودي الذي ساعدهم في العثور على مخرج. ويتلقى كاهن الأبرشية المال بانتظام من الذين كانوا يرزحون في قيود الأنظمة والرسومية القاسية قبل أن يخرجوا من الجزيرة لزيارة عمل، أو منحة دراسية، والذين تغلبوا على هذه القيود بفضل التضرع للقديس جودي.

في ذات العدد من الصحيفة، مظاهرات الجوعى التي شوهت في عدد من المدن بعد أن تم تقليص حصة الأرز (للمرة الثالثة، قال المعلم إنها وصلت لربع ما كانت عليه قبل خمسة أشهر). تعرض موسم الحصاد لإخفاق كبير، لم يكن بالمقدور حصاد الفلفل، وبسبب المطر رأيت صفوف الخبز - مئات من الأشخاص المنهكين في طوابير متعرجة، ينتظرون بسلامهم الفارغة. وفي المحطات، يقف الأطفال وهم يقضمون سيقان الكسافا النيئة، والكلاب الهزيلة تصطرع على القشور الملقة على الأرض، فيمزقونها بأفواه صغيرة كأفواه السمك تملؤها الأسنان. قال المعلم إن هناك مظاهرات ضد الجوع في كولمبو، وقد انتشر خبر يقول إن ثمة انقلاباً عسكرياً وشيئاً.

أنكرت الحكومة بشدة خبر الانقلاب. لم يكن الطعام شحيحاً، قال وزير الزراعة- نجح الكثيرون في زراعة محاصيل الياق والكسافا في حدائقهم. والغذاء متوفر في سيلان، قال، ولكن بعض الناس لم يرغبوا في تناوله: كان على جميع هؤلاء الناس تغيير حميتهم الغذائية من أرغفة الخبز التي اشتوها. هذا الرغبة الأمريكي الطراز الذي قدم لنا كتدبير طارئ أثناء الحرب، أصبح من ثوابت النظام الغذائي السيلاني.

العجيب في الأمر أن ليس هناك حبة قمحة واحدة تُزرع في سيلان، مما يجعل الرغبة كغذاء رئيسي في هذه الجزيرة الجميلة أشبه بكستناء الماء في نيفادا. وقبول الوزير بالاستهزاء في صحيفة استريت تايمز سنغافورة، التي طبعت خبراً حول تجويع الجيش السيلاني حتى أكل جنوده العشب. ولكن الإنكار الغاضب زاد من تأكيد حقيقة الموقف الغذائي الخطير. في قلعة كولمبو، تبغني ثلاثة قراصنة من السنهاليين كل على حدة. قال الأول: " ألدك ما تريد ببيعته؟" وقال الثاني: "فتاة صينية؟" أما الثالث فقال: " اعطني قميصاً،" لم يتحدث بكلمات متقطعة- إلا إنه عرض حمل حقائبى مقابل القميص. يبدو إن كرامات القديس جودي لم تصبه، وكانت الاستعدادات ليوم عيده بادية للعيان في الجزيرة التي لم تعد تُعرف بسرنديب.

---

-----

الفصل الخامس عشر  
قطار الساعة 16:25 من محطة غالي

-----



لقد صدمت كشخص عاقل فعلياً في بلد يتصور جوعاً حتى الموت بسبب اختيار ثلاثين شخصاً لحضور سمنار لمدة ثلاثة أيام في الأدب الأمريكي، الذي قد أكون متحدثاً رئيساً فيه. الأدب الأمريكي لا غبار عليه، ولكنني أشعر أنّ انعقاده في منطقة منكوبة أمر غير مناسب. لم أضع في اعتباري ثراء السفارة الأمريكية، عندما بدأ السمنار لم أجد لتحذيري نفعاً ولا جدوى. طمأنني الرجل اللّماح الذي أشرف على الجلسة بأنّ الحضور سيكون مائة بالمائة، ومنهجه لم يكن مختلفاً من منهج موظف تنظيم الأسرة الهندي الذي يقدم جهاز راديو مصغراً لكل رجل يقبل بعملية استئصال الأنابيب. هنا وفي جزيرة سيلان الجائعة، قُدمت ثلاث وجبات دسمة في سمنار الأدب الإنجليزي، والشاي عالي الجودة، وغرفة مجانية في فندق الشرق الجديد في غالي، وكل ما يمكنك شربه من الويسكي. لا غرو أنّه كان محفلاً مشهوداً. بعد وجبة إفطار من أربعة أطباق، اجتمع الوفد المتخّم في الغرفة العلوية واستمعوا إلى محاضرتي غير المسيئة في شيء من النعاس. استيقظوا في الظهيرة ليهرعوا للطابق السفلي حيث الغداء الفخم بانتظارهم. كانت جلسة العصر قصيرة، فُصلت بالشاي، ثم الحدث الرئيسي على مائدة العشاء، وكانت مناسبة حافلة بالمرح والفكاهة، اتبعتها عرض سينمائي قاد الجميع إلى نومة هائلة.

كانت وجبات اليوم الأول عبارة عن ولائم جامحة من البذخ، ولكن بعد ذلك استقرت الأمور؛ انهمك الوفود جيئةً وذهاباً من غرفة الطعام إلى غرفة السمنار، إلى الوجبات وما يبررها. وبين هذا وذاك يحشون أنفسهم بالمعجنات، من وقت لآخر، ليجدوا في تعسر الهضم ذرائع مقبولة للتغيب، وكثيراً ما يصيبهم الطعام بالخدر، فصاروا كمن يعاني من مرضٍ استسقاوي من أعراضه النعاس لفترات طويلة تقاطعها نوبات من التجشؤ العنيف.

أعطاني بعض الحضور كتباً من تأليفهم. ستظل بقع المرق الثابتة على أغلفتها تذكرني بعطلة الأسبوع تلك، وسأظل دائماً أذكر الصيحة الجماعية التي أطلقها الحضور عند نهاية السمنار بعد سؤال المنسق الأمريكي: "هل نغادر في الساعة العاشرة أم بعد الغداء؟"

في ليلة ما تركتُ الوفود المتجشئة في الفندق وخرجت باحثاً عن لعبة سنوكر. وجدت نادي الجيمخانا، ولكن وجدت غرفة السنوكر مغلقة على عدد من الأعضاء الذين يسمعون إلى مذياع-يشخ- لالتقاط الموجات القصيرة، حيث كانت تذاع آخر أخبار السباق على محطة هيئة الإذاعة البريطانية لخدمة ماوراء البحار، والرجال الذين كانوا من المراهنين، قد خربشوا على أقمشة الحقائق بينما كان الصوت الرخيم يقول: "اليوم في دونكاستر، في سباق السبعة فيرلونغ (1400 متر) على المسار البطيء، جاءت بيل بيرثا في الساعة الواحدة إلا ثلثاً، فغالانت فالكون، فسيفتي ماتش، ثم ساب روزا-التسابق ممنوع في سيلان، لذلك يراهن السيلانيون على سباقات إبسوم، ودونكاستر، وكيمبتون بارك. قال المراهنون إنّ بوسعي استخدام الطاولة حالما ينتهي البث.

كان نادي الخدمات العامة يقع بالضبط في الجهة المقابلة من الطريق. وكانت طاولة السنوكر خالية، وقال الأعضاء إنّهم لا يمانعون استخدامي لها، ولكنهم أضافوا أنّ الأمر قد يكون صعباً نظراً لأنّ صبي البلياردو مضطر للحاق بحافلاته. احترت قليلاً أمام تبريرهم، إلا أنني سرعان ما رأيت في صبي البلياردو إمارة على الكسل الصامت في سيلان.

بدأت اللعب مباراة كرة سنهالية، وبعد عدد من الرميات الموفقة سرت بعض الغممة.

"سيلحق صبي البلياردو بحافلة أخرى."

كان صبي البلياردو، رجل دين بونياً لامعاً، يدعى فيرناندو، حمل الجسر بثقة وخبرة أسقف بعصاه. كانت اللعبة تعتمد عليه. كان يسجل النقاط، وينقل الجسر عند الحاجة، وكان يتابع الكرات، ويؤشر للضربات بالطبشور، ويذكر اللاعبين بالقوانين. ساورني الشك ذات مرة حيال ضربة أخبرني أنها الأفضل، وطفق يلحق أسنانه عندما أخفقت فيها. لم تنطو أي من مهامه على مشقة، ولكنها أثرت على تركيزي سلباً. الميزة الوحيدة للسنوكر والبليارد هي اللعب في صمت. لقد انتهكت تنبيهات فيرناندو هذا الصمت. كنت سعيداً لسماع رأي خصمي- بعد حوالي أربعين دقيقة- "صبي البلياردو مضطر للذهاب."

قلت: "حسناً، دعه يذهب."

علق فيرناندو جسره، وأسرع خارجاً من الغرفة.

"أنا أتفوق عليك بنقطة واحدة."

قلت: "لا لم تفعل، اللعبة لم تنته."

"اللعبة انتهت."

فذكرته أنّ هناك أربع كرات ما زالت على الطاولة.

قال السنهالي: "ولكن صبي البلياردو غير موجود، عليه فاللعبة انتهت. وأنا الفائز."

أليس غريباً أن يغيب الناس عن الوعي من الجوع في هذا البلد الخصب؟ - خصب جداً لدرجة أن ركائز الأسيجة وأعمدة الهاتف الخشبية ترسل جذورها وتنمو لها غصون (والمخجل أنها لا تثمر). لقد طردوا التاميل الذين كانوا يقومون بأعمال الزراعة، ونسوا كيف ينثرون البذور على الأرض- نثر البذور هذا كان سيملاً أرضهم خيراً. كانت مدينة غالي مكاناً رائعاً، مكللة بأزهار الخبازي الحمراء، ورائحة المحيط الممزوجة بشذى النخيل. تتميز بتصميمات داخلية رائعة هولندية الطراز، وتحفها غابات الخيزران. كانت غلالة الغروب المضيئة توشي السماء بحمرة ذهبية لساعة ونصف كل مساء، ويتكسر الموج طوال الليل على أسوار القلعة. ولكن الوجوه الجائعة للمسرّنين، والحرمان في ذلك المرفأ الهاديء جعلاً جماله لا يكاد يحتمل.

انطلق القطار من غالي على طول الساحل شمالاً نحو كولمبو، قريباً جداً من خط الميناء حتى إنّ الزخات التي تثيرها الموجات الثقيلة القادمة من أفريقيا تصل إلى النوافذ المحطمة للمقصورة الخشبية القديمة. كنت في طريقي إلى عربة الدرجة الثالثة، وجلست في الجزء الأول من الرحلة في مقصورة مظلمة مكتظة بالأشخاص الذين، حالما أتبسط معهم في الحديث- طلبوا مني المال. لم يكونوا يتسولون بالحداد، في الحقيقة، لم يبد عليهم الاحتياج للمال، بل كانوا يميلون أكثر لاعتبار أنّهم قد يحتاجون إلى كل ما يستطيعون نيله مني في مقلب الأيام.

وقد حدث هذا معي أحياناً كثيرة. أثناء الحوار مع رجل ما قد يسألني بلطف ما إذا كان لدي جهاز ما يمكنني أن أعطيه إياه. "أي نوع من الأجهزة؟" "شفرات حلاقة" وكنت أقول لا، ونستأنف حديثنا.

بعد حوالي ساعة من هذا، زحفت خارج المقصورة لأقف بجانب الباب، أراقب المطر وهو يهطل من طبقة داكنة من السحب المرتفعة قبالة الساحل- كان المطر من بعيد يبدو كأعمدة ضخمة من الجرانيت. وإلى اليمين كانت الشمس تغرب، وأمامنا الأطفال، يكتسون بحمرة الغروب، ويقفزون

على الرمال. كان هذا على جانب القطار المقابل للمحيط. أما على جانب الغابة فقد بدأ المطر ينهمر بشدة، وفي كل محطة كان رجل الإشارة يتدثر بأعلامه، فيحوّل الأحمر إلى منديل، والأخضر إلى تنورة، ويصطفق الأخضر عندما يقترب القطار، وسرعان ما يستخدمه حجاباً من المطر عندما يمر القطار.

صعد إلى القطار من محطة غالي رجل صيني وزوجته السنهالية، وطفلهما الأسمر البدين. كانوا يدعون آل وونغ، ويقصدون كولومبو لقضاء إجازة قصيرة. قال السيد وونغ إنه طبيب أسنان، وقد تعلم الصناعة من والده، الذي جاء إلى سيلان من شانغهاي عام 1937. لم يحبّ السيد وونغ القطار وقال إنه عادة ما يذهب إلى كولومبو على دراجته النارية ما عدا في موسم المطر. وهو يملك خوذة أيضاً ونظارات واقية. إن عدت إلى غالي مرة أخرى سيريني إياها. وأخبرني بثمرتها.

"هل تتحدث الصينية؟"

"هـمبوا: اذهب، مينغوا: تعال. هذا كل ما أعرفه. أنا أتحدث السنهالية والإنجليزية. الصينية صعبة جداً." وضغط على صدغيه بأصبعيه.

كانت سيملا تكتظ بأطباء الأسنان الصينيين، بلافتات عليها صور مربعة لمقاطع من الفم البشري، وصوّان من الأغلفة السنية البيضاء في النافذة. سألته لم كان الصينيون الذين قابلتهم على كثرتهم يعملون كأطباء أسنان؟

قال: "الصينيون أطباء أسنان ممتازون"

كانت رائحة فمه متبلة بجوز الهند. وأردف قائلاً "أنا ممتاز."

"هل يمكنك أن تجري لي عملية حشو؟"

"لا، لا توقّف."

"هل تنظف الأسنان؟"

"لا."

"هل تستطيع خلعها؟"

"هل تريد خلع ضرسك؟ سأعطيك اسم "خلّاع ممتاز"

"أي نوع من أطباء الأسنان أنت، سيد وونغ؟"

قال: "ميكانيكي أسنان، الصينيون هم الأفضل في ميكانيكا الأسنان."

ميكانيكا الأسنان هي كالاتي: يكون لديك متجر به معجون إنجليزي، شبه سائل وردي اللون. ويكون لديك أدراج أيضاً مليئة بالأسنان بكل الأحجام. يأتي إليك الشخص الذي خلعت سنّاه الأماميتان في مظاهرة ضد الجوع، أو مشاجرة على ثمرة جوز الهند. تحشو فمه بالمعجون الوردي، وتصنع قالباً على لثته، ثم يتم صنع تركيبة من هذا، وعندما يقطع، يُثبت عليه جذراً أسنان يابانيين. لسوء الحظ لا تناسب هذه المعالجات التجميلية مضغ الطعام ويجب خلع التركيبة في وقت الوجبة. قال السيد وونغ إنّ عمله كان ممتازاً وكان يكسب حوالي 1000 إلى 1400 روبية بالشهر، وهي أكثر من ما يحصل عليه معلم جامعي في جامعة كولومبو.

كان الركاب داخل القطار يخطون على النوافذ ليغلقوها حتى تحميهم من دخول المطر. كانت نيران الغروب تتشابه بين السحب القاتمة، وأعمدة المطر التي كانت قريبة جداً، تمنع الرعد من السقوط. كان الصيادون يصارعون قواربهم في محاولة للرسو عبر الأمواج العالية.

صارت رائحة القطار مريضة، واعتذر السيد وونغ عن تلك الرائحة. ازداد الزحام في الغرف، واكتظت الممرات. كنت واقفاً على الباب واستطعت رؤية عدد أكبر من الطفيليين يتعلقون بالدرج الفولاذي، وهم يتشبثون بالسياج. وعندما زاد المطر - صار الآن يهطل بغزارة شديدة - شقوا طريقهم بصعوبة إلى داخل العربات، وصفعوا الأبواب ووقفوا في الظلام بينما كان المطر يضرب على أبواب الحديد مثل البرد.

كان بابي ما يزال مفتوحاً، وكنت أقف على الحائط، بينما تمر بجانب زخات المطر المبهمة الشكل.

"على الأقل يمكنك التنفس هنا."

ربط الرجل الذي تحدث منديلاً على رأسه ووقف معي. لديه حقيبة صغيرة. همس لي بأنه متخصص في الجواهر، وقد أتى من كلكتا للاستفادة من السوق. كان الهنود في السابق يهربون الأحجار الكريمة خارج سيلان لبيعها في الهند. والآن أصبح السعر في سيلان يكافيء خمسة أضعاف ما كان عليه قبل بضعة أشهر، لذلك صار الهنود يعيدون الجواهر المهربة إلى سيلان مجدداً لبيعها بأسعار باهظة.

قال: "إنه وضع مضحك."

"إنه بلد بائس جداً."

"كم عدد السكان في سيلان - هل تعرف؟"

قلت أظنه اثني عشر مليوناً.

قال: "هذا صحيح، إثنا عشر مليوناً أو نحوها."

ولا يستطيعون إطعام أنفسهم. أتعرف كم من الناس لدينا في كلكتا، في كلكتا وحدها؟ ثمانية ملايين!

"وهل يستطيعون إطعامهم."

"بالطبع لا. لكننا لا نتحدث بكل ما يقولونه من هراء. ألم تسمع الهراء؟ حملة ازرعوا المزيد من الغذاء، ازرعوا بعض اليام، هراء ثوري، هراء سياسي، هذا وذاك."

"صفوف الخبز لدينا هي الأسوأ، لم أرها مطلقاً."

"هل تسمي هذه صفوف خبز؟ في كلكتا نحن لدينا صفوف خبز أطول بمرتين من هذا. صفوف خبز، وصفوف أرز، وصفوف حليب حتى. سم ما تشاء وستجد له صفوفاً عندنا. هذا لا شيء بالمقارنة."

توقف المطر، وفي قرية أكواخ القش، ذات الأسطح المنحدرة المائلة، كانت كمائن الجير ترسل سحباً من الدخان إلى مزارع النخيل. كانت نموذجاً إضافياً لقصر نظر السيلانيين. كانوا يفجرون المرجان بالديناميت من الجروف، ويحرقونه ليصنعوا الجير. ولكن الجروف المحطمة تقع في البحر وتؤدي إلى تآكل الشاطئ.

بدأت الحكومة برنامجاً لصب الجروف بالاسمنت، ولكن المفارقة تكمن في أن الاسمنت مصنوع من الجير، وبما إن الاسمنت لا يستورد، فإن الجروف التي فجرت بالديناميت من أجل الجير، ينبغي استبدالها حتى يتسنى إصلاحها. إنهم يسمونها صناعة الاسمنت، وهي صناعة ذاتية الاستهلاك: ليس ثمة إنجاز في الأمر.

في العادة، وفي قطار كهذا-في الهند على سبيل المثال- قد يأكل الناس أو يقرأون لقتل الوقت. ولكن هناك القليل من الطعام، والشح في ورق الطباعة قلل كثيراً من أعداد الصحف المتوفرة. عليه فإن رگاب قطار الساعة 16:25 من غالي إلى كولومبو كانوا يجلسون: في الجزء الأول من الرحلة يجلسون في نور الغروب البديع، والآن يجلسون في ظلمة العاصفة. كان القطار يقعقع، والأمواج تتكسر على الشاطيء. وكلما اقتربنا من كولومبو، كان الرهبان في العربة الأخيرة، (مكتوب على لافتة فوق بابها، مخصصة لرجال الدين) يراقبون الشمس في هدوء وهي تهبط، وقد حملت الدرجة الثانية نزهة مدرسية. يتشاءبون في أزياء موحدة منشأة؛ وفي الثالثة حيث كنت، كان الجميع تقريباً يجلس في صمت في غرف مغلقة مظلمة. بحلول الساعة السادسة، غمر الضوء المكان بالخارج- سكنت العاصفة، وبرزت الشمس من بين سُتر الضباب- ولكن لم يكلف أحدهم نفسه بفتح الشيش. في جبل لافينيا، عندما فتح أحدهم الشيش وثناه للأسفل، اختفت الشمس.

----

-----

## الفصل السادس عشر قطار هاورا

-----

رأيت في محطة مدراس المركزية، بالقرب من قطار هورا، من طريقة وقوفه المترددة، بدا كما لو أنه يستجمع شجاعته للصعود على متن القطار. كان شعره الطويل ينسدل مثل الخرق في ذاك الحر، وكانت ملابسه باهتة كألوان الباستيل من فرط الغسيل. أما حقائبه القماشية، لم تفضله مظهراً، وكانت حوافها تكاد تنفجر. كان رجلاً، ربما إنجليزياً، في بداية الثلاثينات من عمره، وصار السفر بالنسبة له، على ما أظن، روتيناً مرهقاً: قد يتحول السفر إلى إدمان وقد يغير بنية الجسم إلى النحافة المفرطة، مثل المخدرات. انحنى متسوّلاً إلى جانبه، وهو يسعل. والرجل الشاب لا يكثرث لليد الممدودة باتجاهه، فيستمر في التحديق باتجاه القطار. تجنبته أنا. كانت الرحلة إلى كلكتا أطول من أن أتسرع في مد جسور الصداقة. لمحتة وهو يناول المتسوّل عملة نقدية بينما يرفع حقيبته متأهباً للصعود إلى القطار. فعل ذلك دون أن ينظر إلى الرجل الذي كان يسعل، وبتواضع لا يخلو من حرج، كما لو كان يدفع برسوم دخول زهيدة.

كان سائق التاكسي الخاص بي خدوماً. حمل عني حقيبتي ودبر لي أمر المفارش، وحدد موقع مهجعي، وتولى أمر الحصول على ملعقة مع وجباتي. كان على وشك الرحيل. أعطيته خمس روبيات- وهو مبلغ كبير جداً. فقرر البقاء، كحمال قلق ليس لديه ما يحمله.

"ألدك نفود؟"

فأخبرته نعم.

"كن حذراً." "الهنود ليسوا طيبين. إتهم يأخذون المال من الجيب."

أراني كيفية إغلاق المقصورة. كان يجول ببصره في المكان، ويعبس في وجوه الهنود الذين يسرون عبر الممر. كرر علي نصيحته بتوخي الحذر مرات عديدة، واستمر في تحذيري بهذه الصورة لفترة طويلة حتى بدأت أعتقد أنّ رحلتي إلى عنق أندھرا براديش وعبر أوريسا إلى البنغال محفوفة بالمخاطر. ربما كان هؤلاء المدراسيون مقوّسي السيقان، الذين يبصقون عصارة أوراق التنبول من النوافذ، ينتظرون مغادرة هذا الرجل حتى ينقضوا عليّ. وعندما غادر السائق شعرت بعدم الأمان على نحو غريب، وبأنني معرض للهجوم. معظم الوقت أمضيته وحيداً سعيداً في مقعدي على الزاوية، ما عدا في مثل هذه الأوقات، حيث ألتقي برجل يساعدني صدفة، ويجتازني، كنت أشعر بغياب اهتمامه. الغريب الخدم في الهند يخدم فقط ليبدد قدرتي: جعلني حضوره "صاحباً"، وجوده حولني إلى طفل.

كنت سعيداً بالمضي قدماً. إنّهُ الشعور الذي انتابني في قطار الشرق السريع، وعلى قطار الحدود، وعلى قطار الشحن الكبير: الحجم، طول القطار الممتد، كان مصدر راحة. كلما زاد حجم القطار وطالت الرحلة، كنت أسعد حالاً. غاب ذلك التشويق الممتع الذي يبعثه الانتباه المزعج لمحطات توقف القطار. نادراً ما كنت أراقب المحطات وهي تمر في الرحلات الطويلة. كان تقدم القطار لا يثير اهتمامي كثيراً. وتعلمت أن أصبح مقيماً في القطار، وفضّلت السفر ليوم أو يومين، أقرأ، وأكل في غرفة الطعام وأنام بعد الغداء، وأحدت مفكرتي في وقت مبكر من المساء قبل أن أحتسي كأسي الأول، وأحدد موقعنا على الخريطة. السفر بالقطار كان يحفّز مخيلتي التصويرية ويمنحني العزلة التي أحتاجها لكتابة أفكار في العادة: أسافر بسهولة في اتجاهين، على طول قضبان الحديد بينما تتغير مناظر آسيا المطلّة من النافذة، وعلى حافة عالم خاص من الذاكرة واللغة. لا أتخيل وجود مزيج أكثر حظاً من هذا.

في طريقي إلى عربة الطعام رأيت رجلاً شاباً ينحني على النافذة في الممر خارج مقصورته، يتنفس الهواء الساخن الداكن اللون.

" سوف لن تجد الكثير هناك، " قال ذلك بينما كنت أنكمش على نفسي ماراً به.

فهزرت رأسي نفيّاً، وتبادلنا لمحة إدراك متسامح تشيع بين المسافرين المتوحدين الذين يتقابلون على قطارات المسافات البعيدة.

تناولت عشائي-المخصص للنباتيين الذي وطنت نفسي عليه- وفي طريق عودتي رأيت هذا الرجل مرة أخرى في المكان ذاته. وهذه المرة بدا كأنّه بانتظاري. فلم يبد أية محاولة للتحرك الفوري. قال: " كيف كان؟ "

" المعتاد. لا أكثرث- أنا نباتي. "

" لا أقصد ذلك. قصدي طريقة أكلهم. يسيل الأكل على أذرعهم. أفقدتني شهيتي. هل رأيتمهم وهم يجهزونه قط؟ إنّهُ يركلونه، ويدوسون عليه، ويسعلون عليه. ومع ذلك ربما ستكون محظوظاً. " تحدثنا عن الطعام؛ لقد جلب طعامه معه. ثم قال: " لقد رأيته في مدراس، مع ذلك الحمّال. يا لها من حفرة. كلكتا أسوأ حالاً. هل زرتها قط؟ " قلت لم أفعل.

"ربما تحبّ ذلك النوع من الأمور. أعتقد أنّها مكان مخيف. " أخذ آخر نفثة من لفافة التبغ التي كان يدخنها، وألقى بها من النافذة، تطاير منها الشرر في الظلام. " أينما وجّهت بصرك. فظيعة. "

تقدمت نحونا فتاة هندية. فانتهزت فرصة اقترابها لأمرّ، ولكني انتظرت، وتتحينا معاً جانباً لنسمح لها بالمرور. خفضت هي عينيها، وأسرعت مبتعدة. كانت في كتفيها رقة، وفي خديها جفاف وغبرة، وفي شعرها لمعة، ولها رائحة لا تخلو من عذوبة خفيفة كالتّي تنبعث من سحق زهرة واحدة.

" فتاة جميلة."

" إنهن يصبنني بالنفور، لم تصدقني أليس كذلك؟"

" إن قلت ذلك!"

" كانت لديّ عشيقة هندية- أجمل منها. لذلك أنا ذاهب إلى كلكتا."

" هل هي هناك؟"

" هي في بنغالور، هل زرتها قط؟ إنها ليست سيئة، لكني سعيد لأبتعادي عنها- أعني الفتاة. هل أعطلك؟"

" ما زال الوقت مبكراً"

إذن كان يهرب من الفتاة. تساءلت عن السبب، لكني أردت إجابة بسيطة. لقد دعاني إلى مقصورته ليخبرني. معظم الرجال- الوجوديين- يسهرون، يندبون غياب النساء. أعطاني كأساً من مشروب الجن الهندي. لسع شفتيّ لكنه مذاقاً كان مختلفاً تماماً.

قال: كانت ابنة رجل علي مقابلته. لا أعرف ماذا عنك، لكني تجاهلت الفتيات الهنديات قليلاً أو كثيراً في أول مرة زرت فيها البلاد. نعم وجدتهن جميلات، لكن الشيء المضحك في جمال المرأة أنّك تبدأ ملاحظة شيء ما يُحسب على جمالها عندما تتيقن من عدم إمكانية اصطحابها إلى فراشك. أعني أنّ جمالها غير مؤثر. عليه فهي تبدو أبسط حالاً، وتبدأ تفقد اهتمامك حتى تكاد لا تراها. فإن كانت ذات بنية جميلة ستراها زانية أكثر من مجرد امرأة، تنتظر منك أن تقترب منها خطوة قد تنتهي بك إلى السجن. بوسعك حقاً أن تكتسب كرهاً لهؤلاء النساء الهنديات بما لهن من مظهر جميل وفضيلة بلا جدوى. ولهذا أفضل البلاد الإسلامية. فهم يسترون نساءهم ولا يتخرجون من ذلك. لا أحد يريد أن يكون غيباً بما يكفي لأن يورط نفسه بمشكلة مع امرأة من النسوة المحجبات. إنه أمر لا يقبل التفكير. أعني أنّ مظهرهن ليس كمظهر النساء حتى- فهن كالأثاث المغطى حفظاً له من الغبار. يفترض أن تكون الخمارات مغرية. الحجاب لا إغراء فيه. ما يغريك بشيء طوله أربع أقدام وعليه ملاءة؟

" هذا ما شعرت به حيال الفتيات الهنديات. لقد كنّ مصونات، حتى إنهن قد يضعن ملاءات على رؤوسهن. وكل ما زاد جمالهن، ازدادت بعداً عنهن. لم أكن مهتماً لأنني كنت أعرف أنّهن لسن كذلك. أتفهم ما أعني؟ لم أعد ألحظ وجودهن. بالكاد انتبهت لابنة هذا الرجل الذي كنت سأقبله. لقد كانت تسير جيئةً وذهاباً تحضر الطعام والشاي وألبوم العائلة وتقوم بما يقوم به الهنود من أعمال. كان اسم العائلة بابنا، وعندما غادر الرجل الكبير الغرفة تحدثت الفتاة للمرة الأولى وسألتني عن مكان إقامتي. فأخبرتها.

" كانت الساعة حوالي الثالثة والثلاث بعد الظهر. عاد الرجل المسنّ. وبدأ عليه الانزعاج بعض الشيء، ولكنه في النهاية فهم الأمر. قال لي هلا تكرمت بإيصال بريميلا وصديقتها إن كنت عائداً

إلى الفندق؟ إنهما ذاهبتان لمشاهدة أحد الأفلام، لكن هذا يتطلب رحلة طويلة بالحافلة، وربما لا تصلا في الوقت المناسب.

" قلت إنني سأكون سعيداً لفعل ذلك. خرج صبي المنزل، ووجد لي تاكسيًا. وأثناء سيرنا داخل المدينة تحدثت بريميلا وصديقتها إلى سائق التاكسي، لتعطياه التعليمات وربما تتفاوضا على المسار الأفضل، قلت: " هل أنتما صديقتان من المدرسة؟"

انفجرتا ضاحكتين عند سماع هذه العبارة، وسحبت كل منهما ثوب الساري لتغطي به فمها. كانتا في الثانية والعشرين من العمر، واعتراهما حياء عندما خلتهما من فتيات المدارس.

" ثم توقفت سيارة الأجرة. خرجت الصديقة ثم بريميلا، وابتعدنا. " قلت لهما أين عرضكما هذا؟" قالت إنّه كان بالقرب من فندقي. سألتها متى يبدأ. قالت: " يُعرض طوال اليوم."

" كنت أحاول إدارة الحوار فقط، وجدت بعد دقائق قليلة أنهما تتحدثان عن لوحة فنية اشتريتها من بائع لوحات في اليوم السابق، لوحة جميلة جدا، لاكشمي وفيشنو وهما يمتزجان في زهرة لوتس. بريميلا كانت هادئة، وكنت أنا الذي أثير للغاية. يصدق أن يدفعني تحفظ شخص ما للتحدث بكثرة، نوع من التعويض."

قلت لى وصولي إلى الفندق: " أمل ألا تكوني مضطرة للسير لمسافة بعيدة." فقالت إنّ دار العرض في الشارع التالي مباشرة. سألتها عما إذا زارت الفندق من قبل، وعندما قالت لا، شعرت بالأسف من أجلها، كما لو أنّها طردت من المكان لأنّها لم تمتلك المال. قلت: " هل ترغبين برويته؟" قالت نعم. فدخلنا. أريتها المطاعم والحانات، وحامل الصحف، ومتجر التحف حيث ابتعت اللوحة. كانت مثيرة للاهتمام، وسارت بجانبى، مأخوذة بكل شيء كأنّها في متحف.

" ما أعتقد أنّ علي إخبارك به منذ البداية هو أنني كنت في مدراس في الشهور الستة الماضية. كان لدي بعض وقت الفراغ، فزرت قاريء كف ذات ظهيرة، اسمه سوامي سوندرام كان رجلاً مسنّاً، خشن البشرة ومنزله في ميلابوري، لم يُزين بالأشكال والصور الدينية كالمعتاد، ولم يكن يحتوي على العديد من الوسائد حتى. كان يجلس على مكتب ذي غطاء دائري، وبيده قلم رصاص، وفرخ ورق، وفي ما يشبه المكتبة تكّدت بعض الكتب المهترئة، فنظر إلى كفي خطأ خطأ، ثم رسم مخططاً على ورقة ودوّن بعض الملاحظات مع بعض الدوائر، والخطوط التحتية. ظل صامتاً لم ينطق بكلمة طيلة عشر دقائق أو نحوها، مع أنّه كان يتوقف بين الفينة والأخرى أثناء الكتابة ليضغط على جبينه محاولاً تذكّر شيء ما.

" أخيراً قال " لقد كنت مريضاً جداً، الألم في المعدة، والعضلات، ومشاكل في حركة الأمعاء." كدت أن أضحك. أعني أنك لن تحتاج لأن تكون قاريء كف لتخبر شخصاً ما في الهند بأنّه كان يعاني من مشكلات بالمعدة. أخبرني بشيء أو اثنين آخرين، ولكنني قلت له: " انظر، أنا أعرف ما حدث لي- ما أريد أن أعرفه هو ما سيحدث."

فقال: " أرى فتاة هندية، ذات وجه كلاسيكي، ربما كانت راقصة، وأنتما في خلوة." قلت: " هل هذا كل شيء؟"

قال: " ليس كل شيء، قال: " لقد رأيتها ترقص لك""

" حسناً، بطبيعة الحال، فكّرت في ما قاله سوامي سوندرام عندما كنت مع بريميلا في الفندق. فسألتها عما إذا كانت راقصة، فقالت لا. ثم عندما خرجنا إلى البهو قالت: كنت أؤدي الرقص



الكلاسيكي عندما كنت أصغر عمراً، إن كان هذا ما تعنيه. ولكن جميع الفتيات الهنديات يفعلن ذلك." عرضت عليها الشاي، فقبلت. قلت كان بوسعنا الحصول على كأس بدلاً من ذلك. فقالت: " كما تحب." فطلبت الجن والتونيك. قالت إنها كانت لترغب في الروم. لم أستطع تصديق ذلك. " روم حقيقي؟" قلت لها. فضحكت، كما فعلت في سيارة الأجرة. ولكنها لم تغير رأيها. عندما وصل ما طلبنا من الشراب، وبدأنا الشرب، راحت في صمتها مرة أخرى.

كنت أعني بالكاد أننا تحدثنا عن اللوحة الخاصة بي، ولكن لم يكن هنالك الكثير للتحدث عنه. ووجدت صعوبة في وصف الأشياء. كررت قولي: " لا بد لك من رؤيتها." فقالت: " إنني أود ذلك." فانزعجت من الأمر، لأنه يعني الذهاب إلى الطابق العلوي، والبحث عنها، وإحضارها إلى الأسفل. لقد كانت في مغلف مختوم حماية لها من الغبار. وندمت على ذكرني إياها في حديثي. لقد فعلت ذلك لأبقي على الحوار حياً وأحافظ على تدفقه. لا بد أنني كنت أحتسي كأساً من الشراب الشهوي وحدي. مسترخياً. أحتاج للعزلة بعد لقاء الناس، لحد ما لاستجماع شظايا روحي مرة أخرى. أرهقني الغداء مع الشيخ بابنا كثيراً. لم أستطع قول أي شيء آخر.

سالتني الفتاة: " هل هي معك؟". أخبرتها أنها في الأعلى وشعرت أنني محاصر في ركن ضيق بسبب عجزني عن رفض إبراز اللوحة لها. " هل تريد رؤيتها؟" قالت: " كثيراً". قلت حسناً ولكن هذا سيصبح أكثر سهولة إن أتيت معي إلى الأعلى. فوافقت.

قلت: " عندما تنهين مشروبك." ولكنها أنهت مشروبها. فازدرت ما تبقى في كأسي وذهبنا إلى الطابق العلوي. وفي الغرفة قالت: " أكره أجهزة تكييف الهواء." فركلت هذا الشيء فأغلقتها. " نظرنا إلى اللوحة ونحن جالسان على الفراش، فهو المكان الوحيد الذي يمكن الجلوس عليه. وبينما كانت تشير إلى ما رآته فيها من جمال، كيف تم تنفيذ الشخصيات بإتقان، وصلت لأعلى اللوحة ورفعتها من حجري. هل سبق وأن التقطت أي فتاة شيئاً من حجري قط؟ لقد أثارني هذا الأمر. شعرت بدفعة كهربائية مفاجئة في ثنية فخذي من أثر لمستها الخفيفة.

" أررتي هي تفاصيل اللوحة، وعندما نظرت عن كثب، أخذت يدها، ومن سماحها لي بلمس يدها عرفت أن بوسعي تقبيلها. إنهم لا يعرضوا مشاهد التقبيل في السينما الهندية. عرفت السبب، وهو عدم وجود حميمية في الهند كالتقبيل مثلاً بدون أن تتبعها مضاجعة. جزء صغير من العاطفة في الهند يعني الشغف، ولكن ما أذهلني هو أن الأمر كله كان فكرتها، ليست فكرتي. لقد ذهبت إلى الغرفة ضد إرادتي!

" قبلتها، ثم تفاجأت بلهفتها، لقد أغمي علي من الإثارة. كنت سعيداً حقاً، وذلك النوع من الغبطة يتعارض مع شهوة الجنس، لكن الغبطة أقصر عمراً من الجنس، وفي دقيقة أو نحوها كنت أعتليها. لقد ظلت معي قرابة الساعتين.

" كان أثراً غير قابل للتصديق، مثل التحول عن ديانتني. كل امرأة رأيته بعدها كانت جذابة، وكنت أرى في كل منهن عشيقة محتملة. إنهن يثرنني حقاً. لم أستطع رفع عيني عنهن. كنت أراهن حبيات، ذكيات، عبقریات في الجنس قادرات على إخفاء ذلك كله بتلك الكفاءة النشطة التي تتميز بها النساء الهنديات.

ما رأيته زاد من اطمئناني، لم أكلف نفسي بمحاولة الاقتراب من أي منهن. ولكنني فوق كل ذلك بدأت بعض المصادقية في ما قاله سوامي سندرام: " سوف ترقص لك." لابد من أن بريميلا هي الفتاة التي كان يقصدها.

رأيتها بضع مرات أخر، وأغرمت بها حقاً. وأعتقد أن الشيخ بابنا هو الآخر ارتاب في وجود شيء ما بيننا لأنه طرح عليّ كثيراً من الأسئلة عن عائلتي، وماهية عملي، وما كانت خططي؟ تحدثت بريميلا كثيراً عن مغادرة الهند، وفي أحد الأيام انتني وهي ترتدي بلوزة وسروالاً، وبدت جريئة في الأزياء الغربية، ولكن كما قلت، بدأت أحبها، وتخيلت زواجاً رائعاً على الطراز الهندي. قالت بريميلا إنها كانت ترغب دائماً في الذهاب إلى إنجلترا- وأنها قرأت الكثير عنها، وما إلى ذلك. كان بوسعي تخيل ما يحدث. لقد تنبأ به سوامي ساندرام، على ما أظن، ولذلك ذهبت إلى مدراس في أول فرصة سنحت لي، وحتى أضمن ألا يتمكن من التعرف عليّ حلقت لحيتي، وارتديت ملابس مختلفة. وفي هذه المرة كان عليّ الانتظار أمام منزله حتى أنتهى من خدمة عميل آخر، وعندما دخلت، خضعت للخطوات ذاتها والرسم التخطيطي، والملاحظات. ولم أَدع له مجالاً للشك بأنه رأي من قبل. ثم قال: " آلام الرأس. رأيت الكثير من الآم الرأس، شيء مثل الصداغ." فأخبرته أن يستمر فقال. " أنت تتوقع رسالة مهمة، " ضغط على صدغيه وقال: " سوف تتلقى هذه الرسالة عاجلاً." سألته ما إذا كان هذا كل شيء. قال: "لا، لديك شامة كبيرة في قضيبك." قلت: "لا، لست كذلك." ولكنه تمسك بكلمته. قال: " لديك هذه الشامة بكل تأكيد." وأذهلني أنه كان متأكداً ولم يفتأ يخبرني بتلك الشامة على قضيبتي بينما كنت أنكر ذلك، وبإمكانني حتى أن أثبت إلى أي مدى كان بجانب الصواب في ما ذهب إليه. بدا منزعاً من معارضي إياه. فدفعت له وغادرت.

"كان هذا البارحة. لم أعد إلى بنغالور. اشتريت تذكرة إلى كلكتا. سأغادر، بالطيران إلى بانكوك. إن لم أر ذلك السوامي ربما كنت متزوجاً الآن، أو مرتبطاً على الأقل- إنه الشيء ذاته. لقد كانت فتاة لطيفة، ولكن لا بد أنني استحققت كارما سيئة، وليس لدي شامة في قضيبتي. لقد تحققت منها. قال: " ناولني القارورة" وأخذ حسوة ثم قال: لا تعد إلى قاريء كفى مرة أخرى أبداً."

طوال الطريق مروراً ببيرهامبور وكهوردا إلى كوتاك حيث الأطفال ينثرون الماء ويغطسون حول الجواميس حتى أنوفهم في نهر الماهانادي العريض. كان هذا الركن الشمالي الشرقي من أوريسا، عاصمة العالم للجدي- بالاسور، هو الاسم الذي يشير إلى علّة تسبب الحكّة . كانت لافتات المحطة تحمل عناوين لصور رأيته من القطار: توليسوار، وهي امرأة تحمل جرة ماء من الطمي الأحمر على رأسها، تجلب العدوى من قرية نائية. دونتان، بنغالي يتغوط متخذاً وضعية مفكّر رودن. كهاراغبور، رجل يلف ذيل جاموسه ليحته على الإسراع. بانسكورا، حشد من الأطفال في أزيائهم المدرسية يركضون بمحازاة القضبان باتجاه قرية الصفيح لتناول وجبة الغداء في منازلهم، ثم المناطق المتضررة من بدج-بدج، حيث ما ظننته في باديء الأمر مشهداً مؤثراً لرجل مسن يقود صبيّاً عبر ركاب فناء قطار، كان رجلاً ضريراً بوجه شيطاني يضغط على ذراع صبي مذعور كان مرشده في الطريق.

اكتست وجوه المسافرين على قطار هاورا بلمحة من الجدية المنهكة. لم يلقوا بالاً إلى الباعة المتجولين والتجار الذين ازدادت وتيرة ظهورهم كلما اقتربنا من كلكتا، يصعدون من المحطات

الطرفية ليشكلوا دائرة من العربات المفتوحة. صعد رجل يحمل إبريق شاي، ويحافظ على توازن صف من أكواب الفخار على ذراعه. وكان يرفع صوته وهو يلح على الركاب لشراء الشاي، ملوِّحاً بإبريق الشاي في وجه كل منهم، ثم يمضي: دون أن يبيع شيئاً. كان متبوعاً برجل يحمل جرة حلوى وملقعة. يطرق رجل الحلوى على جرتة بالمعلقة ويبدأ لحنه الأحادي. عُرضت الجرة على الجميع، ولم يتوقف الرجل عن العزف بملقحته طوال الطريق إلى الباب، حيث يدخل آخر بصينية ملأى بأقلام الحبر. ثرثر صاحب الأقلام، وبينما كان يفعل، كان يشرح كيف يتم فك الغطاء، وكيف توضع السن، وكيف يعمل الدبوس؛ وكيف يدير القلم ويرفعه ليراه الجميع؛ كان يفعل كل شيء إلا الكتابة به، وعندما ينتهي يغادر، بدون بيع شيء. ويأتي آخرون مع أشياء للبيع: الكعك، والحمص المحمص، والأمشاط البلاستيكية، وشرائط بقياسات مختلفة، وكتيبات متسخة، ولا شيء مباع. وفي بعض المحطات يغوص الهنود من النافذة للحصول على المقاعد، ولكن عندما تمتليء المقاعد، يتكدسون على الباب، حيث لا يربطهم بعربة القطار سوى أواصر العاطفة، فقد كانوا معلقين من السقف على شرائط، مرصوصين قبالة الحائط مثل ألواح الخشب المتساوية، متفرصين على المقاعد مضمومي السيقان، وفي خارج القطار يتعلقون بالحواجر بقوة كالمغناطيس.

أما بالقرب من محطة هاورا كان البهاريون يلقون بأنفسهم زرافاتٍ في نهر غوغلي الدهني من ممرات مقدسة. بعث احتفالهم - شهادت - الحياة في كلكتا، ومنح البهاريون فرصة لاستعراض قوتهم أمام البنغاليين الذين يحتفلون بعيد كالي الخاص بهم، ويغلقون عدداً من الشوارع بخيمة الرعب التي يجسدها معبد الإلهة كالي:

الإلهة ذات العينين الجاحظتين، بحجم يقارب ضعف الحجم الطبيعي، وعقدها المكوّن من رؤوس البشر، وهي تمد لسانها لامعاً كمصاصة التوت العليق، وهي تدوس على جثة زوجها المثخنة بالجراح المميتة.

خلف كالي، لوحة ملصقة لأربعة من الرجال المحكوم عليهم بالموت، الأول مخورق على رمح دامٍ، وهيكل عظمي يعتصر عنق الثاني، وجُنْدِل الثالث على يد شيطانة شمطاء كانت تقطع رأس الرابع في الوقت ذاته. كان هذا تحدياً للبهاريين الذين اشتملت احتفالاتهم على معابد متحركة طويلة مزينة بالأقمشة الصفراء، والعربات المحملة بالنساء الجالسات على قرابين الموز المكّس، وتكسو وجوههن لمحة من الخشوع العميق، ومجموعات صغيرة من المتحولين جنسياً يرقصون على نغمات البوق وقرع الطبول.

" ويذهب البهاريون هناك، ليلقوا بتقدماتهم من الموز في نهر الهوغلي،" قال السيد شاتيرجي، من عربة الجلوس. كان السيد شاتيرجي بنغالياً، ولكنه لا يعرف على وجه التحديد الغرض من احتفال التّشهادت، ولكن أعتقد أنّه يتعلّق بالحصاد. قلت له إنني لا أعتقد أنّ حصاد كلكتا كان وافراً، فوافقني الرأي، ولكنه قال إنّ البهاريين استمتعوا بفرصتهم السنوية في إغاضة الحشود البنغالية. وعلى رأس كل موكب صبيّ أسود مكشّر، يرتدي ملابس الفتيات، ويؤدي حركات رقصة مجنونة بمعصميه القافزين في الهواء، وعضوه التناسليّ يجول في الساري القرمزي الذي يرتديه. ومن وقت لآخر، تسجد الفتيات (اللواتي قد يكنّ فتياناً) وراءه على الأرض، وينبطن على الشوارع التي تنتثر فيها القمامة. الغوغاء المقدسة، والقداسة النتنّة، والصخب المشروع: بدا كل شيء في

الحياة الهندية يناهض الإسراف، وحتى السياسة لها نكهتها الاحتفالية. بينما هذه المهرجانات الدينية تسير بطريقتها الصاخبة، كان مركز الوحدة الاشتراكية ينظم-إضراباً- توقفٌ شاملٌ عن العمل-ومسيراته الطليعية بأعلامهم وملصقاتهم، ومسيراتهم وخطبهم، كانوا لا يتمايزون فعلياً من عروض الخشوع الجماهيري على رصيف شورينغي، ومدرجات الاغتسال.

كان هذا هو وجه كلكتا الذي تلمحه عين المسافر أول شيء، ولكنه يظل مطبوعاً في الذاكرة، إنّه طقس الإزعاج المنظم، الكل مشغول بتنفيذ برنامج ما أو آخر، لدرجة أنّ هذه الألوف المعذبة يراها الشخص موحدة- موحدة لضيق المساحة- رقوداً أو جلوساً على الرصيف بملاح المتظاهرين السلميين الذين يتشبثون بجمرة الحقيقة في نهار طويل.

تخلت مجموعة أخرى بوضعية غامضة عندما أقرأ، في صحيفة كلكتا، "قرر الزعماء اليساريون اللجوء إلى الاعتصام الجماهيري أيضاً..."

من الخارج، تبدو محطة هاورا مثل سكرتارية، بأبراجها المربعة إلى حد ما، وعدد من الساعات تختلف عن بعضها في التوقيت- وبنائها المنيع.

تبدو المباني البريطانية في الهند كما لو أنّها صُممت لتقاوم الحصار- هنالك تحصينات ومواقع مدفعية، وأبراج مراقبة في أماكن غير متوقعة. لذلك بدت محطة هاورا مثل نسخة حصينة من مكتب دائري ضخم، ويؤكد ذلك انطباع شراء التذكرة من هناك. ولكن داخلها عالٍ ودخاني اللون من النيران التي يشعلها ساكنوها، الأسقف مسوّدة، والأرض رطبة ومتسخة، وهي مظلمة-وتسلب ذرات الغبار العالقة ضوء شعاع الشمس الطويل المنسرب من أعلى النوافذ في طريقه إلى الأسفل. قال السيد شاتيرجي وهو يراني أشرئب بعنقي: "إنّها أفضل بكثير مما كانت عليه، لا بد أنك رأيتها قبل تنظيفها."

مرت ملاحظته دون تعليق. إلا إنّ المقيمين اجتمعوا حول كل عمود في المحطة، وسط ما يلقونه من قاذورات: أكواب زجاجية مكسورة، قطع من الخشب والورق، قش، علب صفيح. نام بعض الأطفال بالقرب من أبيهم، وتكوّم بعضهم مثل المبدّلين في الأركان المغطاة بالغبار. لجأت الأسر إلى الأماكن القريبة من الأعمدة، وتحت الطاولات وعربات نقل الأمتعة: ضخامة المحطة أخافتهم بمساحتها ودفعت بهم إلى الجدران. تسكّع أطفالهم في المساحات الواسعة، يمزجون بين الصيد واللعب. إنهم أطفال صغار لأباء صغار، ومن المذهل في الهند إمكانية أن ترى نوعين من الناس في درب الحياة يسيران جنباً إلى جنب، أحدهما فارغ القامة، سريع، ومتجاوب، والآخر نموه في نقصان، نحيل، معذب، ومتقلّص. هؤلاء هم العرقان اللذان تجمع بينهما محطة القطار، وبيد أنّهما يقتربان من بعضهما جداً (طفل يستلقي على ظهره بالقرب من نافذة التذاكر يراقب أرجل الواقفين في الصف)، إلا أنّ دربيهما لا يتقاطعان.

سرت في الخارج، في فوضى منتصف النهار في الطرف الغربي من جسر هاورا. في شميلا كانت عربات الركشا الثلاثية العجلات تُعرف بغرابتها: حيث يجلس الناس داخلها. أما في كلكتا، فيسحب الركشا رجلٌ نحيل في ملابس بالية، وهو نوع من وسائل النقل ضروري، وغير مكلف، وسهل القيادة في الشوارع الخلفية الضيقة. إنّها رمز بسيط للمجتمع الهندي، ولكن جميع الرموز في الهند بسيطة: الأشخاص المتشردون النائمون في مداخل المباني، المسافر الذي يهرع للحاق بقطاره يتعثّر دون قصد بأحد النائمين في المحطة، سائس الركشا النحيل يدعو ركابه المفضلين.

المهرات التي تجرّ العربات تشق طريقها فوق أحجار الأسفلت، يدفع الرجال العجلات المحملة بحزم القش، وحطب الوقود. لم أر في حياتي هذا العدد من وسائل النقل المختلفة: العربات اليدوية، المزالج، السيارات القديمة، العربات التي تجرها الجياد أو الناس، وعربات غريبة قديمة الطراز تجرها الأحصنة والتي قد تكون باروكية الطراز. تكدست في إحداها سحالف البحر الميتة التي تتدلى أذنانها البيضاء، وفي عربة أخرى جاموس ميت، وفي الثالثة عائلة كاملة بمتاعها- الأطفال، وقصص ببغاء، وقدر ومقال. جميع هذه العربات والناس الذين يمرون حولها. ثم ساد هلع وتفرق الناس عندما كانت إحدى عربات الترام تحمل ديباجة تولي-غونج تتأرجح على الجسر. قال السيد شاتيرجي، " عدد كبير من الناس!"

سار السيد شاتيرجي معي عبر الجسر. كان بنغالياً، والبنغاليون هم أكثر من قابلت نباهة في الهند. ولكنهم أيضاً سريعو الغضب، وثرثارون، ودوغمائيون، ومغرورون، ويفتقرون إلى حس الفكاهة، وفيهم قدرة ماهرة على الاستمرار في الحديث بكل موضوع ما عدا مستقبل كلكتا. حيث يدفعهم ذكر هذا الأمر إلى الصمت والاقتراب. أما السيد شاتيرجي فقد كانت له وجهة نظر. كان يقرأ مقالاً عن مآلات كلكتا. عانت كلكتا من سوء الحظ: تعرضت شيكاغو لحريق عظيم، وسانفرانسيسكو لهزة أرضية، ولندن تعرضت للطاعون والحريق أيضاً، ولكن لم يحدث بكلكتا شيء يمنح المخططين فرصة لإعادة تصميمها.

وقال: الحق يقال، هي مدينة حيّة. المشكلة تكمن في ساكني الأسفلت (قدّرهم بربع مليون)، والنظرة المفرطة في الدرامية إلى حد ما التي قبلوا بها، وعندما تضع في الحسبان أنّ سكان الرصيف هؤلاء كانوا يشتركون بشكل حصري في النقاط القمامة ستدرك كيف تخضع قمامة كلكتا إلى "أكثف عملية إعادة تدوير". بدا لي انتقاء غير عادي للكلمات، وانحرف مقترباً من الهذيان: الحيوية في مكان يستلقي فيه الناس موتى في المصارف (" ولكن الجميع يموت في نهاية الأمر"، قال السيد س.)، ربع المليون المبالغ في خطورته، ملقطة ومدوّرو القمامة. مررنا برجل مال نحونا ومدّ يده. كان مسخاً. كان نصف وجهه مفقوداً، وبدا كما لو أنّه تعرض لعملية ذبح غير متقنة. لم يكن له أنف، ولا شفاه، ولا فكّ، ويضغط أسنانه التي ظلت تكشف دائماً عن عضلة لسانه المصاب. رأى السيد شاتيرجي صدمتي "أوه، هو. لطالما كان هنا."

قبل أن يتركني في البارابازار قال السيد شاتيرجي: " أحب هذه المدينة." تبادلنا العناوين وغادرنا. أنا إلى الفندق، والسيد شاتيرجي إلى طريق ستراند، حيث كان نهر هوغلي عبارة عن شق طولي، وسرعان ما لن تجد عليه ما يطفو غير رماد محارق جثث البنغاليين.

مكثت في كلكتا حوالي أربعة أيام، أقدم المحاضرات، وأزور معالم المدينة، وأخسر رسوم محاضرتي في نادي أرض كالكتا الملكي، وقررت المغادرة يوم السبت. في اليوم الأول بدت المدينة مثل جثة يتغذى عليها الهنود كما يفعل الذباب؛ ثم رأيت ملامحها بوضوح أكبر، الأعمدة والأهرام في مقابر شارع الحديقة، المباني المتداخلة ذات الأعمدة والجصيات، والنوافير في فناءات هذه الأماكن: الحوريات والجنات ينفخن على صدفات بحرية كبيرة وجافة، تشبه الأشخاص الذين يعيشون تحتهم في أكياس، بدون أرجل ولا أذرع، ميدالية الترام في الليل، وأنوار

المصاييح المشتعلة تكشف البقر الوحشي يدفع بأنوفه في أكوام القمامة، ينافس الهنود الذين ينبشون بحثاً عما يؤكل فيها.

دفعتها الشقق المغولية المقلدة العالية، وسحققتها، وغرزت فيها أعمدة الطوب والأسمنت، ومنعت عنها الهواء، ووقفت بينها وبين الضوء للأبد.

لقد تحسست طريقك لساعة من الزمان عبر الدروب والطرق الجانبية، والفناءات الخلفية والممرات، ولم تر قط أي شيء يستحق أن يسمى شارعاً. إنه نوع من الإلهاء المضني الذي يعتري الغريب بينما تضع قدماه في هذه المتاهات الماكرة، ويستسلم للضياغ، خروجاً ودخولاً والتفافاً وعودة بكل هدوء عندما يصل إلى طريق مسدود، أو يتوقف بجانب سكة حديد، ويشعر أن طرق النجاة ستفصح عن نفسها في الوقت الذي يناسبها فقط، ولكن انتظارها كان أمراً ميؤوساً منه.

ومن خلال الطرقات الضيقة المتاحة، كانت تقبع هنا وهناك مداخل عتيقة من خشب البلوط المنقوش، التي كثيراً ما تصدر منها، بسبب القدم، أصوات الحفلات والاحتفالات، ولكن هذه المباني الآن لا تستخدم إلا كمخازن، مظلمة مملّة، ممتلئة بالصوف والقطن وما شابههما. مثل البضائع الثقيلة تخنق الصوت وتوقف حجرة الصدى. تبعث انطباعاً حياً بالموت.

في حناجر، وأفواه المتاهات المظلمة، لدى تجار الجملة في مخازن البقالة مدن صغيرة مثالية خاصة بهم، وعميقاً بين أساسات هذه المباني، فككت الأرض وحفرت فيها الإسطبلات، حيث العربات التي تجرّها الأحصنة، مبتلاة بالجرذان، قد تسمع صلصلة سلاسلها في يوم أحد هاديء، عندما تصطدم بها الأرواح المتعبة في حكايات المنازل المسكونة كما يقال.

ثم هناك النائمون، والأبراج، المسلات، الألواح اللامعة، وسواري السفن: غابة متنوعة الأسقف الهرمية، أسطح المنازل، نوافذ العليّات، قفر على قفر. يوجد ما يكفي العالم بأسره من الضجيج والدخان.

وهناك مزيد، وكله خير، ولكني أعتقد أنني اقتبست ما يكفي لبيان أن أفضل وصف لكلكتا هو ركن تودجيرز في لندن في الباب التاسع من مارتن تشارليويت. ولكن مع قرار أن كلكتا كانت ديكنزية (نسبة لتشارلز ديكنز) (ربما أكثر ديكنزية مما كانت عليه لندن قط.)، وبمعرفة أنني لن أستطيع مشاركة حماسة البنغاليين، الذين اتفقوا مع اللافتة العملاقة المثبتة قبالة بنك دولة الهند (كلكتا للأبد)، أو ماهو أكثر غرابية، الملاحظة الودودة للأمريكيين الذين قابلتهم هنا لأن المدينة الشاسعة رغم عدم اكتمالها لحد أنني شعرت بأنّها ستدمرهم يوماً ما، قررت تركها، وترك الهند. كنت في طريقي عندما رأيت رجلاً يقفز في الزحام على تشورينجي. كان غريباً جداً: في مدينة الأشخاص المعاقين لا تستغرب رؤية أحد إلا إذا كان يبدو كالمسخ حقاً. كان لهذا الرجل ساق واحدة- الأخرى مبتورة من الساق- ولكنه لم يحمل عصا. كانت بيده حزمة شحيمة – كان يقفز ماراً بي وفهمه مفتوح، يصطفق بكفيه. تبعته، فانعطف ناحية شارع مدلتون، وهو يقفز بسرعة على رجل واحدة مفتولة العضلات، مثل رجل على عصا بوغو، ورأسه يرتفع فوق الحشود، ثم يهبط فيختفي.

لم أستطع الركض بسبب الأشخاص الآخرين: موظفون سود يركضون، سباحون بمظلاتهم، شحاذون مبتورو الأذرع يحتكون بي، نساء يعرضن أطفالاً مخدرين، عائلات تتسكع، ورجال يبدو أنهم يغلقون الرصيف ببناطيلهم الواسعة المصطفقة، وأذرعهم المتأرجحة. الرجل الواثق بدا

من على البعد. اتجهت ناحيته- رأيت رأسه بوضوح- ثم أضعته. على رجل واحدة كان يسبقني، ولذلك لم أعرف أبداً كيف يفعل ذلك. ولكن فيما بعد، كلما خطرت الهند على بالي، أراه يثب، - هوب، هوب، هوب- يتحرك بخفة وسط تلك الملايين من البشر.

-----

-----

### الفصل السابع عشر

#### قطار ماندالاي السريع

-----

وقت الغروب في رانغون، والغربان التي وشّحت السماء بالسواد طوال اليوم تطير إلى أعشاشها بينما تستيقظ الخفافيش المصرصرة، وتصفق بأجنحتها في دوائر سريعة حول أبراج محطة القطار المشيدة على طراز برج الباغودا pagoda. وصلت في هذه الساعة: كانت الخفافيش تطير إلى جانب الغربان، والسماء الشاحبة الصفراء كانت محبّرة كما الحرير البورمي عليها أجسام سوداء كعلامات الفرشاة. وصلت جواً إلى رانغون في ليلة السبت- لم يكن ثمة قطار من الهند- ولم يختف ولع البورميين بالسينما الذي لاحظته في زيارة سابقة. شارع سول باغودا، بمسارحه الخمسة، كان مزدحماً بالناس الذين يرتدون القمصان القطنية، والسارونج والصنادل المطاطية، رجالاً ونساء على حد سواء، ينفخون سيجار الشيروت الأخضر الضخم، ويبدون-بينما ينفضون الدخان بعيداً بأصابع نحيلة- مثل عرق ملكي، بوسامة صادمة في هذه المدينة الآيلة للسقوط، عرق الأمراء المنفيين.

كان لي هدف واحد في بورما: أن أستقل القطارات المتجهة شمالاً من رانغون عبر ماندالاي ومايميو إلى مضيق غوكتيك في ولايات شان، التي تمتد الصين من ورائها. عبر هذا المضيق يوجد جسر رائع مبني من الفولاذ، جسر غوكتيك، المشيد عام 1899 بواسطة شركة بنسلفانيا للفولاذ لحساب الحاكم البريطاني. لقد قرأت عن الجسر، ولكن ليس في أي من الكتب الحديثة. في وقت مبكر من هذا القرن أنتجت الحماسة للسفر بالطرق الحديدية فيضاً من الكتب المتفائلة حول السفر بالقطارات: كان الفرنسيون يبنون خط الهند الصينية إلى هانوي، ومدّ الروس الترانسبايريان حتى فلاديفوستوك، والبريطانيون وضعوا مساراً حتى نهاية مضيق خيبر، ومن المفترض أن الخطوط البورمية ستمتد في اتجاه واحد حتى خط عاصم البنغالي، وفي الاتجاه الآخر حتى خط حديد الصين.

اتخذت الكتب عناوين مثيرة مثل اكتساح الطرق الحديدية العالم (لفردريك تالبوت، 1911) ووصفت، بلداً بلداً، كيف أنّ الطرق الحديدية سترتق أجزاء العالم معاً. كانت الأحكام تختلف في أحيان كثيرة. كتب إرينست بروثيرو في كتابه طرق العالم الحديدية (1914): "جون شينامان-ماكر، عنيد وذكوري- أبقى "الشيطان الأجنبي" في متناول اليد لقرون. ولكن على الرغم من كره الصينيين الكبير للرجل الأبيض إلا إنهم بدأوا يدركون قيمة الطرق الحديدية..." حظي جسر غوتيك بالكثير من اهتمام هذه الكتب، كان حلقة وصل مهمة في خط امتد إلى داخل الصين، وراء بلدة لاشيو الحدودية الشمالية (لم تكن الحدود البورمية لتلتقي أبداً بالحدود الهندية)، وقد سمعت الكثير من الإشاعات حول هذا الجسر الذي بناه الأمريكيان: إحداها تقول إنه فجر أثناء الحرب العالمية الثانية. وأخرى تجزم بأن الخط وقع تحت سيطرة القوات البورمية المتمردة تحت قيادة الأمم المتحدة، وثالثة تقول إنه كان سداً منيعاً أمام الأجانب. لتجنب استفزاز البورميين في مكتب تذاكر محطة رانغون، سألت عن القطار المتجه إلى ماندالاي. كان هناك رجلان على النافذة. قال الأول إنه لا يتوفر جدول مطبوع أستطيع شراءه. أما الثاني فقال: "نعم ليس لدينا جدول رحلات." يبدو أنّ العمل الثنائي أمر شائع في بورما، يؤكد الثاني ما يقوله الأول. بدلاً من جدول الرحلات، ومثلما هو الحال في سيلان، كانت هناك سبورة في كل محطة، كتبت عليها مواقيت الوصول والمغادرة بالطباشير، ولكن كلا الرجلين كانا متأكدين في ما يتعلق بأمر قطار ماندالاي.

"المغادرة في تمام الساعة السابعة صباحاً."

قالا بوجود درجة واحدة. وكان علي أن أكتشف بنفسي أنّ هذه الدرجة تعادل الدرجة الثالثة الهندية-مقاعد خشبية، نوافذ محطمة، لا أسرة، لا ألحفة، ولا عربة طعام، ولا أي من وسائل الراحة المتعددة التي تتميز بها خطوط الهند الحديدية، بما في ذلك غرف المتقاعدين، وقسائم العشاء، وإيصالات المفارش، وإخطارات الأمتعة من الطبقة العليا، وإيصالات التذاكر، وشاي الصباح.

"أود شراء تذكرة إلى ماندالاي."

"معذرة، النافذة مغلقة."

ولكن النافذة كانت مفتوحة. فقلت لهم ذلك.

"نعم مفتوحة لقول ذلك، لكنها مغلقة بالنسبة للبيع."

"عد في السادسة صباحاً" قال الرجل الثاني.

"هل أنت متأكد من أنني سأحصل على تذكرة؟"

"ربما، من الأفضل حتى أن تحضر في الخامسة والثلاث."

"كم من الوقت تستغرق الرحلة إلى ماندالاي؟"

"اثنتا عشر ساعة. ولكنه يتعطل. ربما تصل ماندالاي في الثامنة."

"أو التاسعة؟"

ضحك كلاهما.

"أو التاسعة لكن ليس بعد ذلك!"

سرت على الجسر إلى المدينة، وكنت بين مجموعة كبيرة من البورميين عندما امتدت يد لتمسك برسغي بأصابعها القوية حتى لم أستطع أن أسحبها. كان راهباً بوذياً، يقبض على يدي ويتحدث معي. صغير الحجم، له وجه قرد، ورأس حليق، كان في نصف حجم جسمي وبدا غاضباً بينما



كان يردد مقطوعاً: " بلم شايب، بلم شايب." تغلبت على المفاجأة، وتوقفت عن المقاومة، مفترضاً أنه يطلب المال، وفي النهاية عرفت أنه كان يتسول طالباً كياتاً واحداً" (حوالي عشرين سنتاً). بدت هذه القبضة طريقة مكلفة للتسول، لذلك أعطيته نصف كيات، وعندما أطلق سراحى ليأخذ المال، اختفيت بين الجماهير. كان هناك رهبان آخرون في المسيرة، يبدون لطفاء مسالمين في طلبهم المال من الغرباء. بعدها ألح علي رجل بورمي لألقي نظرة من خلال منظار مقرب يحمله. دفعت رسماً يبلغ 25 بياز (خمسة سنتات)، ولكن النجمة التي رأيتها بواسطة المقرب بدت أصغر حجماً وأقل روعة مما هي عليه عند النظر إليها بالعين المجردة. سرت هائماً بلا هدف، مسرعاً عندما اقترب مني رجل وعرض علي فتاة صينية ("تعال!")، وكنت أبطيء عندما اقترب من المعابد حيث الأطفال- ما يزالون مستيقظين في الحادية عشرة ليلاً- كانوا ينسجون حبلاً من الزهور ويضحكون أمام تماثيل بوذا. أما الأشخاص الأكبر سناً فقد كانوا يركعون في خشوع، أو ينسّقون عروضاً للفاكهة، فيضعون ثمرة شمام في يد من الموز باتزان على رف المعبد، ثم يغرسون في ثمرة الشمام علماً ورقياً أحمر اللون. وقد انحنى السيدات المتقدمات في العمر على أكشاك الزهور وتمنحهن لفائف الشيروت التي يحملنها مظهرأ من الاستعلاء والثقة بالنفس.

في الليلة التي راودني فيها حلم تفويت قطار الماندا لاي. استيقظت مقطوع الأنفاس في الخامسة والنصف، فتناولت إفطاري، ثم ركضت إلى المحطة. سبق لي في صباح مثل هذا أن رأيتني أنطلق إلى محطة رانغون، وقفزت امرأة من شجيرة، حيث كانت تنام، وحاولت إغرائني بحل ربطة السارونج الذي ترتديه مسفرة عن فخذين أصفرين. كان هذا قبيل الفجر: لم أر وجهها، ولكن تردد صدى صرختها على الطريق. طاردتني طوال المسافة إلى المحطة، كانت قدماها تصفعان الرصيف. كان هذا في عام 1970، وما أذكره من المحطة كان الجرذان تقفز على القضبان لتشم النفائات الورقية وتقرضها؛ وكان الباعة يقدمون الفواكه والأكياس الورقية، ويتركون الجرذان تهرب وتسير على برك المخلفات، الحرارة والذباب في الفجر، والصبية البورميون يسخرون من أصدقائهم المسافرين.

ولكن تغيرت محطة رانغون. لم يكن هناك جرذان، وكانت القبضان نظيفة. كان ثمة سياجان من الأسلاك الشائكة على الرصيف، وأسلاك حادة على طوال القضبان الأربعة. الطعام الوحيد الذي يباع كان يقدم في صناديق الوجبات، وعلب الورق المقوى المعبأة بالأرز البارد الرطب، وقطع من الدجاج اللاحم. كانت المحطة على شيء من النظام، مثل السجن المشدد الحراسة الذي تشبهه في الترتيب، وقد فصلت الحواجز بين المسافرين والمودعين. سألت المحصل عن الأسيجة.

" لمنع التهريب، وأيضاً لمنع الأشخاص من عبور طريق القطار. درءاً للحوادث." "أي نوع من الحوادث؟"

"القنابل. في السنة الماضية ألقى بعضهم بقنبلة. ألقوها باتجاه القطار. وكان بقطار الـ (45-اب)- عدد كبير جداً من الناس. لقد أوقفت القطار، وثلاثة أشخاص خسروا أرواحهم. لهذه الأسباب أقيمت الأسيجة. أعتقد أنها ممتازة. والآن لا مشكلة لدينا"

سار بجانبنا راهب بوذي، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. كان رجلاً بديناً يحمل مظلته مثل مطرقة القاضي، شيخ روماني في عباءة برتقالية. كنت سعيداً لأنه لم يكن من لوى ذراعي أمس. اشتريت

صندوق غذاء، وقارورتي مياه غازية، وصعدت إلى القطار. كان من الجميل أن أغير رائحتي بالقطار: يسير القطار حول المدينة وبعد خمس دقائق من المحطة تجد نفسك في الريف، وهو منطقة مستنقعات منخفضة يُزرع فيها الأرز بجانب خليج بازاندونغ، حيث ساحات الأديرة، والرهبان فيها يصلون، وعبر الحقول يسير الناس جماعات- تلاميذ المدارس يحملون حقائبهم، والعاملون في المكاتب ينطلقون في أقمصتهم البيضاء، والمزارعون بمعاولهم- مسيرة الصباح الباكر في المنطقة الاستوائية على أنغام أجراس المعبد.

وهناك موسيقى في القطار أيضاً. هذا حدث حديث. كانت تبث عبر مكبرات صوت، ولم تتوقف للحظة خلال ثلاث عشرة ساعة. بالنسبة لخلفية من أنغام موسيقى الصالات الشرقية- تتنافس الأجراس والساكسفون في انسجام ساحر- صوت بورمي رقيق مثل النسخة البورمية من "ديب بيربل"، ثم "تسقط النجوم على آلاباما". منعنتي الموسيقى من القراءة، والأريكة المزدحمة منعنتي من الكتابة، وبقية الركاب كانوا نائمين. قمت إلى الباب لأراقب البورميين يبذلون على دراجاتهم على الطرق الريفية، تحت أشجار البيبول العملاقة. اكتست الهضاب البعيدة زرقة من غابات التيك، ولكننا كنا نسافر فوق سهل منبسّط يعرف بالمنطقة الجافة، ونتجه شمالاً في خط مستقيم عبر الحرارة التي تخدّر مسافر القطار فيخال نفسه يغيب في حلق بورما. في بئر بالقرب من استراحة القلعة الهندية جلست فتاة بورمية تمشط شعرها. كانت تميل إلى الأمام، وشعرها ينسدل إلى الأسفل طويلاً حتى إنه يكاد يمس الأرض، وكانت هي تمرر مشطها خلاله، وتهزه، كان منظرها جميلاً في هذا الصباح المشمس- حتى إن شلال الشعر الأسود كان يتأرجح تحت المشط، ووضع الفتاة، وقد ثبتت رجليها مفرقتين، وذراعيها تربتان على غرتها الجميلة. ثم تركته، ورفعت عينيها لترى القطار يمر من أمامها.

كانت الصفارة في محطة تونغو هي نداء العشاء. تونغو تقع في منتصف المسافة تماماً، وحتى تلك اللحظة لم يمس أي من ركاب القطار طعامه. ولكن عندما أطلقت الصفارة، فُتحت صناديق الغداء، وألقيت خارجاً، وانتشرت علب الـ tiffin على المقاعد. كان الأرز المحزوم في أوراق النخيل يمرر عبر النوافذ مع أسماك الكرنك والجمبري المحمّر اللون، بالفلفل، والتفاح واللبو pawpaws - ثمار من عائلة الباباي-، والبرتقال، والموز المحمص. يظهر بائع الشاي وحامل الماء، ويستمر الأكل والشرب حتى تُنفخ الصفارة مرة أخرى، ثم يُعاد ربط الحزم، وتُلقي القمامة على الأرض، والفضلات من النوافذ. وتقفز الكلاب الضالة من العدم لتزجر على البقايا.

وجهت سؤالي لرجل في تونغو: "لم لا يقتلون هذه الكلاب؟"

"يعتقد البورميون أنّ قتل الحيوان أمر غير سليم."

"إذن لم لا يطعمونها؟"

صمت الرجل. كنت أشكك في أحد المبادئ الأساسية في الديانة البوذية، مبدأ الإهمال. بسبب عدم قتل الحيوانات بدت الحيوانات جميعها كأنها في مجاعة حتى الموت، حتى الجرذان، التي سكنت بورما بأعداد هائلة، متعايشة مع الكلاب، التي طردت القطط من البلاد. يُبعد البورميون أحذيتهم وجواربهم من أرض المعابد المقدسة، حيث يبصقون، وينفضون رماد السجائر- لا تناقض هنا. كيف استطاعوا؟ بورما بلد اشتراكي ذو بيروقراطية سيئة السمعة، لكنها بيروقراطية بوذية في طبيعتها، ليس من الضروري فقط أن تكون بوذياً لتتصالح معها، بل إن معوقات البيروقراطية

البورمية تعتبر محفزة على نوع من أنواع التقوى التقليدية- يجتمع السمسار والراهب كأكفاء على أرضية مشتركة من الكسل وعدم الجدوى الباسمة. لا شيء يحدث في بورما، ولكن عند ذلك لا يُنتظر حدوث شيء.

مرت ثماني ساعات منذ أن غادرنا رانغون، والمحصّل، الذي يشتمل دوره في القطارات الأخرى على التحقق من التذاكر، أو إيجاد شخص يُنظف المقاعد المتسخة، يظل جالساً في مشرب صغير بالقرب من دورة المياه ذات الرائحة النتنة، يضع الأشرطة في أجهزة التسجيل الصوتية. لم يكن ثمة ماء في القطار، وكانت الأبواب سائبة مصطفقة. كانت المراوح معطلة، والممر مليء بعضام الدجاج، وقشور الجمبري، وأوراق النخيل الدبقة. ولكن نظام التكبير كان يعمل في حق، مصدراً موسيقى صاخبة طوال الطريق إلى ماندالاي.

في وقت متأخر من العصر تكرر تعطل المحرك. قال الرجل الذي يجلس بجانبني، وكان شرطياً صبوراً للغاية: "الزيت ساخن. إنهم ينتظرون أن يبرد." كان منزحاً من أسئلتي كما هو واضح، وطمأنني أنّ القطار سيصل في السابعة: "إن لم يصل في السابعة فلا بد أنّه سيصل في الثامنة." وقال في تازي حيث القطار تعطل للمرة الرابعة: "إنّه قطار بطيء، متسخ، وقديم- أراك قديمة، ومحركات قديمة. ليس لدينا عملة أجنبية."

"ولكن لا يتطلب الأمر الكثير من العملة الأجنبية لشراء مكنسة." "هذا قد يكون صحيحاً."

تسكنت حول المحطة، وسمعت أنغام الناي، والأجراس، وصخب الطبول الهادرة، وعلى الطريق بجانب القضبان ظهر موكب صغير، أثارت السماء بألوانها الحمراء المتدرجة. فسار حتى السياج القريب من القضيب، وشكّلوا نصف دائرة لافتاة صغيرة، لا تزيد عن عشر سنوات. كانت محشورة في سارونج بطريقة تسمح لها بالحركة، ارتدت قبعة رقيقة مزينة بالخرز على رأسها. توقفت الموسيقى، ثم عادت عالية وحادة، وبدأت الفتاة الرقص وهي تمدّ كفيها، جثت على ركبتيهما، ورفعت رجلاً واحدة، ثم الأخرى في حركة قافزة أضفت عليها السرعة شيئاً من الجمال. "التفت الركاب يراقبونها، وهم ينفثون لفائف الشبوت من نوافذ القطار الذي تباطأت حركته، ثم اقترب ببطء من الرصيف. كانوا هم المقصودين بالرقصة، ولم يكن هناك سوى الصمت- فقط هذه الموسيقى الرنانة والطفلة الراقصة في ذاك المكان الخالي. استمرت ربما لعشر دقائق، ثم توقفت فجأة، وانسحب الموكب، ولكن ما زال الناي يغني، والطبول تهدر. كان هذا جزءاً من المسلسل البورمي: التعطل، والتأخر الملطف بالموسيقى العذبة، والسماء الجميلة، والطفلة الراقصة، ثم استئناف الرحلة غير المتوقع.

قطعنا ما تبقى من الطريق إلى ماندالاي سرى في جنح الليل، وصلنا في الساعة الثامنة والنصف إلى محطة أضائها جموع المحتفلين بكرنفال كاتين، اكتظ المكان بقارعي الطبول المحمومين، والراقصون الوسيمون يتزاحمون في حشد من الأقارب المستقبلين يقفزون لمعاينة الركاب. صارت الزحام وصولاً إلى مكتب ناظر المحطة، ليحيني رجل متقدم السن بحرارة، وهو يرتدي قبعة مرتفعة بدا كأنه يتوقع وصولي. فسألني عن جواز سفري، ونقل اسمي بصعوبة، ثم سألني عن وجهتي.

قال لي: "هناك قطار إلى مايميو في السابعة من صباح الغد". في بلد تغادر قطاراته جميعها في السابعة، كانت طباعة جدول المواقيت أمراً غير ضروري.  
"أود شراء تذكرة"

"مكتب التذاكر مغلق، عد في السادسة. ماهي وجهتك الأخيرة؟"

"بعد مايميو أريد الذهاب إلى غوكتيك. لرؤية الجسر."

"يمنع على السياح الأجانب رؤية الجسر."

ربما كان يحذرنى من انتهاك ضريح مقدّس.

"إذن سأذهب إلى لاشيو."

"إنها محظورة أيضاً. لاشيو منطقة أمنية. هناك تمرد."

"إذن هل تعني أن أظل في مايميو؟"

"مايميو مكان جميل. جميع الأجانب يحبون مايميو."

"أريد الذهاب إلى غوتيك."

"سيئة جداً. لم لا تذهب إلى باغان؟"

"كنت في باغان."

"أو بحيرة إنلي. لديهم فندق هناك."

"أريد أن أسافر بالقطار."

قال ناظر المحطة: "لم لا تستقل القطار للعودة إلى رانغون؟"

شد على يدي وقادني إلى الباب. كانت ماندالاي في الخارج. مدينة منخفضة، مترامية الأطراف، كثيرة الغبار كضباب كثيف تلمع من ورائه في الليل المصابيح على عربات تجرّها الأفراس، وأنوار البصات الخشبية الأمامية. المدينة كبيرة لكن دون فائدة، القلعة محظورة، والأديرة محروقة، والمعبد على قمة هضبة الماندالاي حديث وغير جذاب. ماندالاي اسم سحري فحسب. ماذا عن قصيدة كيبلنغ إذن؟ حسناً الحقيقة أن قدم كيبلنغ لم تطأ المكان، وتجربته في بورما اقتصرت على أيام قلائل في 1889، عندما توقفت سفينته في رانغون.

في ماندالاي فندقان، واحد زهيد، والآخر باهظ التكلفة. كلاهما غير مريح، لذلك اخترت الأقل تكلفة. قال المدير إنَّ الغرف جميعها مشغولة. كان عابساً من الإرهاق والحرص على ذهابي. فقلت: "ولكن أين سأنام؟" أعاد التفكير في السؤال، ثم أراني غرفة، وكان يتذمر أثناء ذلك من مؤتمر للجذام ينعقد في فندقه ("يريدون هذا، ويريدون ذاك-"). طلبت الطعام. فقال إنه غير متوفر وأراني المطبخ الخاوي. أكلت ثمرة موز كنت قد ابتعتها في تازي، وشكرته على الغرفة. كان بورمياً طيباً. لم يستطع أن يتركني أذهب، بيد أنه لم يود بقائي. "قدم لي مأوى ولكن بلا طعام، وعاملني، حرفياً، كعابر سبيل، في نوع من الاحترام الممتنع.

## الفصل الثامن عشر القطار المحلي الى ماييمو

-----

تغتسل آسيا بعنف صابوني نشط في الصباح. يأخذك قطار الصباح الباكر مروراً بالأشخاص الذين اكتشفوا تنظيف الملابس مثل تدريب المجرمين- يشحن الباكستانيون ملابسهم المبللة بالعصي، والهنود يحاولون كسر الصخر (هذا هو تعريف مارك توين للهندي) بضربها بالسروايل الدهوتي المبللة، أما السيلانيون العابسون فينقعون ملابسهم. في بورما العليا، تجلس السيدات في مجموعات تأمرية على ضفاف الأنهار، ينشرن غسيلهن منبسطة ببدايات خشبية واسعة، والأطفال يخوضون حتى الركب في البرك الصخرية، والفتيات ذوات النهود الصغيرة، يتدثرن في عفاف ببناطيلهن حتى الإبطين، ويصبين الماء من الدلاء على رؤوسهن. كانت السماء ملبدة بالغيوم وبدأ المطر يهطل بينما كنا نغادر ماندالاي، والرجل المسن بجاني، بحزمة ملابس النظيفة على ركبتيه، يراقب واحدة من أولئك الفتيات اللواتي يغتسلن.

تغمر جدائلها في الخزان.

أسود مزرق، شهى، سميكة كما شعر الجياد

- ألا أرى وميضاً في عينه الميتة؟

لامعة كما لو كان قرصاناً بربرياً؟

(هذا هو، إن سمح ببيانه!)

لبرهة وجيزة خطر لي أن أقفز من القطار، وأطلب الزواج، وألقي بحياتي بعيداً على واحدة من تلك الحوريات. لكنني لم أبارح مقعدي.

الأنهار الغزيرة، وارتفاع الزبد الأبيض ينبيء عن أمطار غزيرة إلى الأمام. تركنا وراءنا حرارة ماندالاي الخائقة، ونخيلها المكسو بالغبار، وكنا نصعد في طرق جانبية خلال غابات الصنوبر، حيث القمم المكلفة بالذهب، تشبه قمم الصنوبر، وترتفع فوق الأشجار الداكنة الخضرة. استقرت سحابة بيضاء كسفينة جو قبالة إحدى المحطات، وخرجنا منها إلى مشهد أشخاص أقوى، وأكثر التصاقاً بالطين يحملون دلاءً على النيور. بدأ المطر الخفيف ينزل، وكان القطار يسير ببطء شديد، حتى إنني استطعت سماع ضربات قطرات المطر على أوراق الشجر الذي نما بجانب القضبان.

في إحدى المحطات الأولى المنحدرة، كانت النساء يقفن بصوانيهن، يبعن طعام الإفطار للركاب: البرتقال، شرائح الباباوا، الكعك المقلي، والفول السوداني، والموز. كانت إحداهن تحمل مجموعة برّاقة من الزينة المصنوعة من الخرز على صينيّتها. أومت إليها أن تقترب وألقيت نظرة. كانت حشرات بدينة منظومة على عصي- جراد مقلي. سألت الرجل المسنّ، الجالس بقربي إن كان يريد بعضاً منه، فقال في أدب إنّه تناول إفطاره بالفعل، وعلى أية حال لم يسبق له أن تناول الحشرات. " ولكن السكان المحليون يحبونها جداً."

ذهب منظر الجراد بشهيتي ولكن بعد ساعة، عاودني الشعور بالجوع، أثناء عاصفة رعدية. كنت أقف بجوار الباب، وبدأت حواراً مع رجل بورمي في طريقه إلى لاشيو لرؤية عائلته. كان جائعاً هو الآخر. قال إننا سنصل إلى المحطة قريباً، حيث يمكننا شراء الطعام.

قلت: "إنني أرغب في بعض الشاي."

"إنها وقفة قصيرة- دقائق معدودة لا أكثر."

"انظر، لم لا تذهب أنت لشراء الطعام، وسأجلب أنا شيئاً نشربه؟ اختصاراً للوقت." وافق وقبل الثلاثة كايئات التي قدمتها له، وعندما توقف القطار قفزنا خارجاً- هو إلى كشك الطعام وأنا إلى ملحق حيث القوارير على الواجهة.

شرح لي البائع الأمر بابتسامة اعتذار عدم قدرته على السماح بالابتعاد بأكواب الشاي خاصته، عليه شربت كوباً هناك، ثم اشتريت زجاجتي مياه غازية وعدت إلى القطار، ولكنني لم أجد الرجل البورمي، ولم يظهر إلا بعد أن بدأ القطار يتحرك مبتعداً، فعاد وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، يحمل لفافتين من ورق النخيل، محزومتين بحبل مفتول من غصون العنب. فتحنا الزجاجتين بقرب الباب، وجنباً إلى جنب على طرف المقعد حللنا ورقتي النخيل. كان في اللفافة شيء مألوف. في المحتويات عود خشب عليه ثلاثة أشياء مسودة، قطع من اللحم المحترق. لم تكمن الغرابة في عدم انتظام شكلها، بل لأنها جميعاً كانت على ذات النسق من عدم الانتظام. وكانت العيدان نصف مدفونة في طبقة من الأرز.

"نسُميها باللغة البورمية....." قال الكلمة.

نظرت إليها. "أهي أجنحة؟"

"نعم، إنها طيور."

ثم رأيت الرؤوس الصغيرة، المناقير والأعين المحروقة، والمخالب الداكنة على الأرجل الدقيقة.

قال: "ربما تدعوها أنت عصافير الدوري."

فكرت، ربما نفعل. لكنها بدت صغيرة جداً بدون ريشها. فسحب أحد العيدان، ووضع ما علّق عليها كله في فمه، ثم مضغه، الرأس والأقدام، والأجنحة، والطائر كله؛ مضغه، وهو يبتسم. أخذت أنا قطعة صغيرة من اللحم من طائري وأكلتها، لم يكن طعمها سيئاً، ولكن ليس من السهل أكل دوريّ في بورما، بدون الشعور بالذنب عندما تهرب هذه العصافير المسرعة. غامرت بالأرز. عدت إلى مقعدي، حتى لا يراني الرجل وأنا ألقى ببقية الطيور بعيداً.

قال الرجل المسنّ الجالس بجواري: "كم تظنني أبلغ من العمر؟ خمن!"

قلت ستون، وأنا أعتقد إنه كان في السبعين.

فاعتدل وقال: "خطأ." أنا في الثمانين، لقد مرّ عيد ميلادي التاسع والسبعون لتوه، عليه أنا في عامي الثمانين.

أخذ القطار يتثنى في المنعطفات جيئة وذهاباً بحدة كما حدث في الطريق إلى شميلا، ولاندي كوتال. وأحياناً يقف بدون سب واضح، لينطلق بدون صافرة إنذار، وكان كذلك

عندما ظل البورميون الذين قفزوا من القطار ليقضوا حاجتهم يركضون خلفه وهم يعيدون إحكام أربطة بناطيلهم، وأصدقاؤهم داخل القطار يصرخون عليهم. المطر، والضباب، والسحب المنخفضة الباردة بعثت في القطار شعور الصباح الباكر، بعض البرودة وهدوء ما قبل الفجر الذي ظل حتى الظهر. ارتديت قميصاً قطنياً فوق قميصي الرياضي، ثم فوقه سترة، ومعطف مطر بلاستيكي، ولكن شعوري بالبرد لم يتبدد، ونفدت الرطوبة إلى عظامي. كان هذا أشد ما شعرت من برد منذ أن غادرت إنجلترا.

قال الرجل العجوز فجأة: "لقد ولدت عام 1894 في رانغون، كان والدي هندياً، ولكنه كان كاثوليكياً. هذا هو السبب في تسميتي بيرنارد. كان والدي جندياً في الجيش الهندي. وظل جندياً طوال حياته- أعتقد أنه التحق بالجيش في مدراس سبعينات القرن التاسع عشر. كان في وحدة مشاة مدراس السادسة والعشرين، وجاء إلى رانغون مع كتيبته في 1888. كنت أحتفظ بصورة له، ولكن عندما احتل اليابانيون بورما- أنا متأكد من أنك سمعت بالحرب اليابانية- تبعثت جميع ممتلكاتنا، وفقدنا الكثير من الأشياء."

كان يتوق للحديث، وسعيداً بحصوله على مستمع، لم يكن بحاجة لأسئلة تحته على السرد. كان يتحدث بدقة، وهو يمسك بحزمة الملابس، وكنت أضم بعضي في ذلك البرد عندما كان يتوقف لتذكر عبارة ما، وأنا ممتن أنه لا يطلب مني سوى إيماءة بين حين وآخر لإظهار اهتمامي.

" لا أذكر الكثير عن رانغون، وانتقلنا إلى ماندالاي عندما كنت صغيراً جداً. استطعت تذكر كل شيء عملياً منذ عام 1910 وما بعدها. السيد ماكديول، والسيد أوفين، والسيد ستوررات، وكابتن تايلور- عملت لصالحهم جميعاً. كنت أنا رئيس الطهاة بثكنات ضباط المدفعية الملكية، ولكني قمت بما هو أكثر من الطبخ- قمت بكل شيء، سافرت إلى جميع أنحاء بورما، في المعسكرات عندما كانوا في الميدان. أعتقد أن لدي ذاكرة ممتازة. على سبيل المثال، أذكر يوم توفت الملكة فكتوريا. كنت في المستوى الثاني بمدرسة القديس زافير في ماندالاي. قال لنا المعلم: " الملكة ماتت، لا مدرسة اليوم." وكنت في السابعة من عمري أتساءل: ماذا؟.

كنت تلميذاً نجيباً. أكملت دراستي، ولكن عندما أنهيت المدرسة لم يكن هناك ما أفعله. في عام 1910 كنت في السادسة عشرة، واعتقدت أنني سأحصل على وظيفة في السكك الحديدية. أردت أن أكون سائق قطار. ورغبت أن أقود عربة تسافر إلى بورما العليا. ولكن خاب أمني. لقد جعلونا ننقل سلال الفحم على رؤوسنا. وكان عملاً شاقاً، لا يمكنك أن تتخيل- ساخن جداً- والرجل الذي يشرف علينا، اسمه السيد فاندِير، كان إنجلو هندياً. كان ينهرنا، بالطبع، وطوال الوقت، خمسة عشر دقيقة للغداء، ومع ذلك يصرخ أيضاً. كان رجلاً بديناً، وقاسياً جداً. وكان هناك الكثير من الأنجلو هنديين في السكة حديد آنذاك. ربما علي القول إن معظمهم كانوا من الأنجلو هنديين. تخيلت أنني أقود عربة بخارية، وها أنا أنقل الفحم! كان العمل كثيراً جداً عليّ، فهربت.

" أحببت عملي الذي تلاه كثيراً. كان هذا في مطبخ دار الضباط في المدفعية الملكية. مازلت أحتفظ ببعض الشهادات، ومكتوب عليها المدفعية الملكية. ساعدت الطهاة في

البداية، وفي آخر المطاف أصبحت طاهياً أنا الآخر. كان اسم الطاهي ستيورات وقد أراني كيف أقطع الخضروات بعدة طرق، وكيف أصنع السلطة، وكؤوس الفاكهة، والترايفل، وجميع أنواع شرائح اللحم.

كان هذا عام 1912، وكانت أفضل فترات بورما. ولن نرى أياماً جميلة مثلها مرة أخرى. كان الغذاء وفيراً، وكانت الأسعار زهيدة، وحتى بعد الحرب العالمية الأولى في بورما؛ لم نسمع شيئاً. لم نشعر بها. عرفت عنها القليل فقط من أخي. كان يحارب في البصرة- أنا متأكد من أنك تعرفها- البصرة في ميسوبوتاميا Mesopotamia .

"كنت أتقاضى في ذلك الوقت، حوالي خمساً وعشرين روبية في الشهر. لم تبد كثيرة أليس كذلك؟ ولكن هل تعلم أنني أحتاج فقط إلى عشر روبيات لنفقات العيش، وأوفر الباقي، وابتعت مزرعة فيما بعد.

عندما كنت أذهب لاستلام راتبي، أتلقى جنيهاً من الذهب وورقة مالية فئة عشر روبيات. جنيه الذهب كان يعادل خمسة عشر روبية. ولكن لأريك كيف كانت الأشياء زهيدة، كان القميص يكلف أربعة أنات، والطعام كان وفيراً، والحياة طيبة جداً. تزوجت وكان لي أربعة أطفال. كنت في دار الضباط منذ 1912 حتى 1941، عندما أتى اليابانيون. لقد أحببت القيام بالعمل. كل الضباط عرفوني، وأعتقد أنهم كانوا يحترمونني. ولم يسؤهم مني إلا إن تأخر شيء ما. كل شيء كان يتم في الوقت المحدد، وبالطبع إن لم يكن كذلك- إن حدث تأخير- كانوا يغضبون بشدة.

ولكن لم يعاملني أي منهم بقسوة. فوق كل شيء كانوا ضباطاً- ضباطاً بريطانيين. وكانت لهم معايير سلوك ممتازة. أثناء تلك الفترة كانوا يأكلون في زيهم الكامل، وأحياناً كان هناك ضيوف أو زوجات في ملابس السهرة، ربطات عنق سوداء، أما السيدات فكن يرتدين الفساتين. جميلات كالفراشات. كان لدي زي رسمي أنا الآخر: بزة بيضاء وربطة سوداء، وحذاء ناعم- أنت تعرف نوع الأحذية الناعمة. لا تصدر أي صوت. كنت أدخل إلى الغرفة بدون أن يسمعي أحد. لم يعد هذا النوع من الأحذية يُصنع، النوع الذي لا يصدر صوتاً. " مضت الأمور على هذا النحو بضع سنين. أذكر في إحدى الليالي في الدار. كان الجنرال سليم حاضراً. أنت تعرفه. والسيدة سليم. جاء إلى المطبخ. الجنرال والليدي سليم وبعض الأشخاص الآخرين، الضباط وزوجاتهم.

" نهضت انتباهاً."

سألتني السيدة سليم: "هل أنت برنارد؟"

قلت: "نعم سيدتي."

"فقلت كانت وجبة رائعة، وطيبة المذاق للغاية. كانت تعني الدجاج المقلي، والخضار والترايفل.

"قلت: "إنني سعيد لأنها أعجبتكم."

قال الجنرال: "ذاك هو برنارد." ثم خرج الجميع.



"تشيانغ كي-شيك، ومدام تشيانغ جاءا أيضاً، كان طويلاً جداً ولم يتحدث. خدمته. ظلاً ليومين- ليلة ويومين. وجاء الوالي، وكان اللورد كيرزون. جاء كثيرون- دوق كينت، وأشخاص من الهند، وجنرال آخر، سأحاول تذكر اسمه. ثم جاء اليابانيون. آه، أذكر ذلك جيداً. كان الأمر هكذا. كنت أقف في شجيرة بالقرب من منزلي- خارج مايميو، حيث يتشعب الطريق. كنت أرتدي سنغليت ولونجي، كما يفعل البورميون. كانت العرببة كبيرة جداً، وعلي رأسها علم- العلم الياباني، شمس مشرقة، ولونان أحمر وأبيض. "

"توقفت العرببة في مفترق الطرق. لم أعتقد أنهم رأوني. ناداني رجل. قال لي شيئاً ما باللغة البورمية، فقلت "إني أتحدث الإنجليزية."

قال السيد الياباني: " هل أنت هندي؟" قلت نعم. فضم يديه هكذا وقال: " الهند واليابان أصدقاء!" ابتسمت له. لم أزر الهند يوماً في حياتي.

ضمت العرببة رتباً رفيعة من الضباط. لم يقل شيئاً، ولكن قال رجل آخر: " هل هذه هي الطريق إلى مايميو؟"

"قلت نعم، وذهبوا إلى أعلى الهضبة. هكذا دخل اليابانيون إلى مايميو. "

" كانت زوجتي قد توفت. في 1941 تزوجت مجدداً، وأنجبت ثلاثة أبناء، جون هنري، وأندرو بول، وفي 1945 فيكتور، فيكتور كما تعرف لأنّ الحرب انتهت. حاولت التقاعد. كنت أتقدم في السن، ولكن الحكومة البورمية كانت تطلبني كل ما كان لديهم عشاء- إلى ماندالاي. لم أعد إلى رانغون منذ عام 1924 أو 1925، بيد أنني زرت ماندالاي عدة مرات، وأنا قادم منها الآن. كان هناك عشاء قبيل يومين. شريحة كبيرة، ونوعان من الخضار. لم يكن فاخراً كعشاء النصر. كنتُ مسؤولاً كامل المسؤولية عن عشاء النصر في 1945 لعدد مائتي شخص. بدأنا بحساء كريمة الخضار، ثم مايونيز السلمون، ثم الدجاج المحمّر، ثم الخضار، والبطاطا المحمرة والمقلية، والصلصة. وختماً بترافل السانداي، والمملحات. حسناً قد يكون المالح أي شيء، ولكن في تلك المناسبة قدمنا طبق "جن على جواد." نلف القديد والجبن حول قطعة من الخبز المحمص ثم نثبتها بخلة أسنان.

كان الجميع سعداء في عشاء النصر. اجتهدت في العمل واستمتع الجميع. آه هذه هي مايميو."

كانت ثمة بيوت مرفوعة على أعمدة أسطوانية، ملطخة باللون الأحمر، مثل شرائط الاحتفال التي ترفرف من الأغصان- كانت هذه هي أشجار البوينسييتيا poinsettia ، بعضها يصل ارتفاعه إلى ثمانية أقدام. ثم بعد معبد ودير، كان خشبهما مهترئاً حتى اكتسب مظهر البرونز الملطخ، وظهرت المزيد من المباني، صف من بيوت الحوانيت، ومسرح، وجامع في طريق طيني واسع. ومحطة برصيف عريض غير مسفلت، وأجزاء منها كانت تحت الماء، وما زالت تمطر، وسحقت البقية إلى عصيدة من القاذورات.

قال السيد برنارد: " أين ستنزل؟"

قلت لا أملك أدنى فكرة.

" إذن عليك القدوم إلى كانداكريغ، أنا المدير- هل أحجز لك؟"

قلت: " نعم، سألحق بك، علي شراء تذكرة إلى غوكتيك."

وصادفت أثناء بحثي عن مكتب بيع التذاكر غرفة تشغيل إذاعة حيث جلس رجل أوراسيوي ملتج، ذو ربطة عنق صفراء وشعر منسدل، يستمع إلى إشارة مورس وهي تُطرق على لوحة. نظر إلي ثم قفز، وهو يحاول الوصول إلى يدي. "هل هناك ما يمكنني فعله لأجلك؟"

استمرت إشارة مورس. قلت له: ربما عليك الاستماع لها.

فقال: "إنها ليست مهمة جداً."

لاحظت اللوح، وقد خطت عليه بالقلم الرصاص حروف بورمية.

"هل يرسلون إليك برقية بشفرة مورس البورمية؟"

"لِمَ لا؟" أوضح لي أنَّ هناك ستة وثلاثين حرفاً في اللغة البورمية، ولكنهم يستخدمون اللغة الإنجليزية أحياناً مع إشارات مورس.

"كيف تعرف ما إذا كانوا سيرسلون باللغة البورمية أو الإنجليزية؟"

لنقل إنَّك تتلقى رسالة باللغة البورمية. ستمضي لفترة. ثم تتلقى اثنتي عشر نقطة. هذا يعني أنَّ الرسالة القادمة باللغة الإنجليزية. ثم تأتي الرسائل الإنجليزية، وبعدها اثني عشر نقطة أخرى تعني أنك ستعود إلى اللغة البورمية. انظر، ليس هناك كلمة تكافئ "Piston-rod"، و"crankshaft" في اللغة البورمية. إنَّه أمر مثير للاهتمام.

كان يتحدث بسرعة وبإشارات عصبية. لقد كان أسمر البشرة مثل البورميين، لكن له ملامح مدببة ووجه مستقيم كفلاح إيطالي.

"إنجليزيتك ممتازة."

"إنَّها لغة أمي!" قال إنَّ اسمه كان طوني. "هذا المكان يثير جنوني. سأُنزل في هسيباو، ولكنني جئت إلى هنا لأنَّ رجل مايميو اقترحها. ليس لديهم راحة، لذلك سأبقى هنا حتى التاسع عشر. عائلتي في هسيباو، وكان علي العودة قبل أسابيع مضت. لدي ستة أطفال،

وسيتساءلون متى أعود. إلى أين أنت ذاهب؟"

أخبرته أنني أردت أخذ القطار إلى غوكتيك، ولكنني سمعت إنَّها محظورة.

"لا مشكلة، متى تريد الذهاب؟ غدا؟ هناك قطار في السابعة. متأكد من أنني أستطيع أخذك إلى هناك. أظنك ترغب في رؤية الجسر. إنَّه جسر جميل. والمضحك أن لا كثير من الناس يأتون هنا. حوالي سنة مضت كان هناك رجل. كان إنجليزياً. يتجه إلى لاشيو. أوقفه العسكر وأنزلوه من القطار في هسيباو، كان في هيئة مريعة. مفصول عن الواقع تماماً. أخبرته ألا يقلق. جاءت الشرطة وأثاروا مشكلة صغيرة، ولكن في اليوم التالي، أخذوه إلى القطار المتجه إلى لاشيو، وعندما عادت الشرطة في التاسعة صباحاً قلت: "إنَّه في لاشيو" وهكذا لم يكن لديهم ما يفعلونه."

"هل زيارة غوكتيك تُعد مخالفة للقانون؟"

"ربما نعم، ربما لا. لا أحد يعلم. ولكنني سأدبر لك أمر القطار، فلا تقلق."

سار معي حتى الفناء الأمامي للمحطة، في المطر، على ذلك الميدان الواسع الموحل، كانت هناك حوالي ثلاثين عربية. عربات خشبية بطلاء باهت، ومصاريع مخلعة، وقد ارتدى السائقون قبعات واسعة الأطراف، ومعاطف بلاستيكية، يضربون بسيطان صلبة أمام

المهرات الحارنة. كانت المهرات تصك حوافرها، وتجاهد لتجرّ العربات المحملة خارج الوحل. لقد كانت أثقل مما يجب، من صناديق وجذوع مربوطة إلى السقف وستة أوجه في الشباك. ومع محرك البخار يجر العربات وراءهن، ومنظر تلك ال gharries - والمطر والوحل، والبورمييين متدثرين بأوشحتهم من البرد- أكملوا لوحة البلدة الحدودية. أسرع السير نحوي سائق في حذائه الملطخ بالطيني (كان الآخرون يرتدون صنادل مطاطية، والبعض حافي القدمين، على الرغم من أن جميعهم ارتدوا معاطف ثقيلة)، وأخبره طوني أن يقلّني إلى الكانداكريغ.

رفع الرجل المسنّ حقيتي على السقف وغطاها بقطعة صلبة من القماش قبل أن يثبتها بحبل. ودخلت أنا إلى الصندوق الخشبي وانطلقنا، استغربت، لأنني كنت أجلس بارتياح، وأراقب المطر في شوارع ماييميو الواسعة المزدانة بصفوف بأشجار الكافور أو الكينا. الخشب المقوّس، ومنازل الطوب بدت قديمة ومتهاكة تحت المطر، وفي ركن من الشارع الرئيسي، أمام منزل خشبي من طابقين بشرفة مسقوفة، وعربة كانت تتعطف، كان الرجل يضرب المهر بينما كان يركض في الشوارع الجانبية في الطريق المعطّل-ليس ثمة عربة على مد البصر-يتدمر في المدينة التي زادها المطر ظلاماً، ومن كآبة العاصفة القاسية على الطريق المبلل، أمام المتاجر الصينية دبابيس شنغهاي ومطعم شارلي كانت مثل صورة فوتوغرافية بنية داكنة لكلونديك، بنية وصامتة، عمرها قرن من الزمان ولا شيء يتحرك سوى الحصان الأسود المشوش يسير في وسط اللوحة.

كان كانداكريغ فوق المدينة، على الطرف الشرقي، حوالي ثلاثة أميال من المحطة. كانت المنازل كبيرة هنا، الطوب اكتسى حمرة تحت المطر، مثل الأسقف المبلّطة والأبراج، المنازل السابقة للموظفين المدنيين البريطانيين الذين جاؤوا إلى ماييميو عندما انتقلت العاصمة إلى هناك في أشهر الصيف. اجتزنا أشجار الصنوبر، وبيت الجرف، ومنظر الغابة؛ كان الكانداكريغ على قمة هضبة صغيرة، كمزل في نيويورك أو إيستبورن، له بوابات وأسقف هرمية، وفوق الباب علّق بعناية قوس مقصوص مجدول من شجر اللبلاب. دفعت للسائق ودلفت إلى الداخل، إلى بهو في صحن المنزل، وفي ارتفاعه. كانت الغرف مصفوفة على طول الجوانب العلوية لهذا البهو، في معرض لم يكسره إلا درج مزدوج على شكل قيثارة، يصعد حتى ممر المعرض. وكانت هناك طاولة خالية وراء مدفأة مكسوة بخشب التيك، والجدران كانت خالية، أيضاً، الأرضية لامعة مصقولة، والحواجز تبرق، ولم يكن في هذه القاعة الخشبية الكبيرة أية زينة. كانت خاوية. تفوح منها رائحة الشمع. فطرقت على الطاولة.

ظهر رجل. توقعت أنّه السيد برنارد، لكنه كان رجلاً يرتدي نظارات سمكة، لا بورمي ولا هندي، بأسنان بارزة وكفين مرهقتين كبيرتين. (تبين لي لاحقاً أنّه كان سيلانيا، ولكنه لسبب أو آخر تُرك في بورما العليا لثلاثين عاماً.) قال إنّ السيد برنارد أخبره بقدمي؛ وكان من الحكمة أن جئت إلى كانداكريغ- لم تتمتع الفنادق الأخرى في ماييميو بأية مميزات. "مانوع المميزات التي لا تتوفر لديهم؟"

"الصابون يا عمي."

" أليس لديهم صابون؟ "

" لا سيدي، والبطانيات، والملاءات، والمناشف، والطعام في بعض الأحيان. ليس لديهم أي شيء. فقط مكان تنام عليه وحسب. عمي، " قال للسيد برنارد الذي كان قد دخل لتوه إلى الغرفة. " سأخذ هذا السيد إلى الغرفة رقم 10 ". قادني السيد برنارد إلى الغرفة، ثم أحضر لي سطلاً من الفحم، وأشعل ناراً في مدفأتي، وكان يتحدث طوال الوقت عن كانداكريغ. كان الاسم اسكتلندياً، والمكان "مريحاً" بالنسبة للضباط غير المتزوجين في شركة بومباي-بورما للتجارة، لحماية الأصدقاء من المشكلات في الفصل الحار بعد شهور في منازل خشبية نائية: بوسعهم هنا الاستمتاع بحمام بارد، ولعب الرجيبي، والكريكت، والبولو. كانت الإمبراطورية البريطانية تعمل بنظرية أن المرتفعات تسمو بالأخلاق. استمر السيد برنارد في الحديث. ضرب المطر النوافذ واستطعت سماعه وهو ينساب على السقف. ولكن النار كانت تشتعل في لهب مضيء، وكنت أجلس على مقعد مريح، وأدفيء قدمي، وأنفث دخان غليوني، وأفتح نسختي من كتاب البراوني.

سألني السيد برنارد اللطيف: " هل ترغب في حمام ساخن؟، حسن جداً، إذن سأبعث ابني مع بعض الدلاء. متى تحب تناول عشاءك؟ الساعة الثامنة؟ شكراً لك. هل ترغب في بعض الشراب؟ سأجلب لك بعض الجعة. أترى كم غرفتك دافئة؟ إنها غرفة كبيرة، ولكن النار جميلة. يا للأسف هناك مطر وبرد في الخارج. ولكن غداً ستأخذ القطار إلى غوكتيك. لقد اعتدنا على التخيم هناك- المدفعية الملكية. لن يكون هناك شيء يؤكل في غوكتين، لكنني سأصنع لك إفطاراً طيباً، وسيكون الشاي جاهزاً عند عودتك. المكان لطيف هنا، ولكن ليس هناك سوى الأدغال".

تعشيت وحدي تلك الليلة، على ضوء الشموع، وعلى سفرة هائلة. أعدّ السيد برنارد لي مكاناً بالقرب من العائلة. ووقف على مسافة مني، يقول شيئاً ما، ويتسلل من وقت لآخر ليماً كاسي أو يجلب لي طبقاً آخر. أعتقد أنني في شجاعة الرجل الذي بجانبني، لكن هناك جزء مني- وربما كان ذات الجزء الذي يميل إلى القطارات- يستمتع بالرحلة فقط بسبب حالات التأخير المفيدة أثناء الرحلة، يسعى المسافر الشهواني الكسول إلى الحصول على الملذات في آسيا، أما أنا فتمتعي تكمن في السفر الطويل، لذلك قطعت 25.000 ميل للوصول إلى هنا، للاسترخاء في مايميو، وتدفئة عظامي بالقرب من النار، وتقويت مقعدي في "اعتذار المطران بلوغرام 'Bishop Blougram's Apology' " كل مرة كنت أنتظر فيها: الضيف الوحيد في المنزل البورمي ذي العشرين غرفة.

-----

## الفصل التاسع عشر

## قطار لاشيو

-----

في ركن صباح مايميو الباكر، وهي ساحة بعد بستان الصنوبر، كان يقف ثلاثون شخصاً في مقاعد التيك المعطرة بكنيسة الحمل الطاهر ينشدون ترنيمة كيري، من نشيد الملائكة. تسلفت خارج الطريق، ومررت تحت الأشجار الندية باتجاه صوت الغناء الرخيم، القديس الجريجوري المقدس الذي تعلمته قبل عشرين سنة في صيف من البطالة والتكريس. كان هذا صوت شبابي الذي سمعته هنا، شجاع في براءة نقية، بعمر الثانية عشر، أطلب المغفرة لذنب عنيد. ومن قبيل الاحترام لهذا الصبي الصغير بقيت حتى انتهت الخدمة، واقفاً خلف رجل بورمي فقير من العامة يجثو على البلاط القاسي وعليه أحزمة دراجته. وعندما غادرت، تبعني القديس وهو يتمتم "باتر نستور"، طوال المسافة إلى الطريق، حيث الرهبان الجدد والأطفال في العباءات الصفراء، حليقي الرؤوس، حفاة الأقدام، يسرعون إلى الدير وهم يضمنون أوعية خزف سوداء إلى صدورهم. كان المسافرون إلى لاشيو يتجمعون في المحطة: مواكب العربات التي يجرها الناس والحياد تصلصل على طريق أشجار الكافور أو الكينا؛ والنساء يركضن وهن يحملن حقائب التسوق، ويعضضن على لفائف التبغ بأسنانهن، والرجال يرتدون أزياء حرس الحدود، بأحذية طويلة، وقبعات سوداء، وهم يقودون الثيران المربوطة إلى أنيارها، في الاتجاه المقابل يسحبون عربات محملة بخشب الوقود (مقسم ولامع في لون اللحم المقطوع). كنت قد تركت آلة التصوير خاصتي وجواز السفر ورائي، وساورني الشك في قانونية رحلة غوكتيك، وأردت أن أبدو كمسافر بعيد عن الشبهات قدر الإمكان.

انتظرني طوني الأوراسيوي. أخذ ثلاثة كايات واشترى لي تذكرة لنوانغ بينغ، المحطة التي تلي غوكتيك. لم يكن في غوكتيك شيء غير الجسر، هذا ما قاله، ولكن هناك حانوت ممتاز في نونغ بينغ. سرنا في الرصيف الموحد حتى آخر عربة. كان هناك ثلاثة من الجنود في زي غير متناسق- يوحي مظهرهم المهمل بأنهم تعرضوا للسرقة في الظلام من بعض الأعداء الصغار، وقفوا بجانب العربة، يمررون التنبول المقطع عبر براميل من البنادق التي يحملونها باسترخاء في أكتافهم. تحدث طوني إلى أطولهم، الذي أوماً لي إيماءة ذات معنى. صدمتني خوداتهم التالفة، والأزياء الرسمية البالية كستهم نظرة رمادية، شجاعة كتلك التي تراها في اللصوص المأسورين- نوع من الفوضى التي بدت غير متميزة من التجربة الشخصية المكتسبة عن جدارة. قال طوني: " سوف تكون آمناً هنا، اصعد على هذه العربة"

عشر سنوات من حروب الغوريلا في الولايات الطرفية لبورما العليا، وكذلك هجمات العصابات المستمرة الذين كانوا يحتجزون القطارات بالمدافع المصنوعة يدوياً، جعلت العربة الأخيرة من القطار محجوزة عرفياً لمجموعة من الحراس المسلحين. إنهم يجلسون في هذه العربة، وأسلحتهم العتيقة ملقاة على المقاعد كيفما اتفق، وأغطية آذانهم الصوفية تتأرجح، يسترخون، يأكلون الموز، ويشرخون الـ betel، تكتسي الأرضية حمرة من بصاقهم، ويأملون في طلقة على ثائر أو لص. قيل لي نادراً ما يحالفهم الحظ.

الثوار مجردون من الأخلاق، ولا يظهرون وجوههم، ولكن اللصوص، أذكاء بالنسبة للجنود في العربية الأخيرة، تعلموا أن يهاجموا العربات القليلة الأولى بسرعة، مهددين الركاب بالخناجر، ويعودون إلى الغابة قبل أن يستطيع أيّ من الجنود الركض على الخط.

أفزعت صافرة انطلاقنا الغربان فطارت، ثم انطلقنا، مسرعين في مسار منفرد. ضباب الصباح الباكر أصبح مطراً خفيفاً، وكان يهطل زخات، ولكن حتى كمية المطر الكبيرة التي صبت عبر النافذة لم تقنع أيّاً من الجنود (يأكلون، يقرأون، ويتشاجرون في مرح) بإغلاق الشيش. أدخلت النوافذ التي سربت الضوء المطر أيضاً: عليك أن تختار ما بين هذا والظلام الجاف على قطارات أعلى البلاد.

وجلست على طرف مقعدي، أتحسر على عدم إحضار أي شيء للقراءة، وأتساءل عما إذا كان قانونياً بالنسبة لي أن أسافر إلى غوكتيك، وأشعر بالرتاء حيال الأطفال الذين رأيتهم في ملابس مبللة يخوضون في البرك الباردة بأقدامهم الحافية.

ثم انسحب القطار إلى جانب الطريق، وتوقف. كانت هناك محطة في الأعلى، وسقيفة خشبية بحجم مرآب سيارتين. كانت تحمل في صناديق نوافذها البرتقال، والورود الحمراء التي يسميها البورميون "زهور ماييميو".

خرج بعض الرجال في المقاعد المتقدمة للتبول. فتاتان صغيرتان كانتا تركضان من الدغل القريب من الخط، لتبيعاً الموز من حوضين مسطحين على رأسيهما. مرت عشر دقائق، وظهر رجل على النافذة يلوح بقطعة من الورق، ورقة شجر من النوع الذي عليه بطانة والذي كان يخربش عليه طوني رسائل شفرة مورس. مررت هذه الورقة للجندي الطويل صاحب المسدس، والذي قرأها بصوت مرتفع معلناً عما فيها.

كان الجنود الآخرون ينصتون باهتمام؛ عاد أحدهم، وبسرعة خلته محرّجاً، نظر إلي. وقفت وسرت إلى خلف العربية، ولكن قبل أن أصل إلى المخرج، خاطبني الجندي الذي يراجع الرسالة. وهو رجل ابتسم لي فقط معتذراً في وقت سابق عندما سألته ما إذا كان يتحدث الإنجليزية. قائلاً: "اجلس من فضلك".

جلست. همهم أحد الجنود. زاد المطر، فأصبح له شخير يغلي على السقف. وضع الجندي مسدسه جانباً وجاء إليّ. أراني الرسالة. كانت مكتوبة بقلم الرصاص، صفوف و صفوف من النصوص البورمية التي شكّلت الشفرة في قصة شيرلوك هولمز "مغامرة الرجال الراقصين" ولكن في منتصف جميع الرجال الراقصين، تلك الرؤوس المحنية، والأذرع، وتلك الأرجل الراكلة، كانت كلمتين إنجليزيّتين بالحروف الكبيرة: "PASS BOOK"

"هل لديك كتاب مرور؟"

قلت: "لا كتاب مرور،"

"إلى أين أنت ذاهب؟"

قلت: "غوكتيك، ناونغ-بينغ، فقط من أجل السفر. من يريد أن يعرف؟"

فكّر للحظة، ثم طوى الورقة، وبقية من قلم رصاص كتب عليها بدقة شديدة، في عمود متعرج، الاسم، الرقم، البلد، وكتاب المرور. سلمني الورقة. أعطيته المعلومات، بينما كان بقية الجنود- كانوا ستة جميعهم- يتجمعون حولنا.

مدّ أحدهم رأسه من فوق كتفي، امتص أسنانه، وقال: " أميركي". أكد الآخرون هذا، بوضع رؤوسهم قريباً مني، والنفخ في يدي.

أخذت الرسالة إلى السقيفة الخشبية. ووقفت أنا. قال لي أحد الجنود: " اجلس".  
مرت ساعتان، كانت الأريكة تقطر، ولأسقف يغلي تحت وطأة الانهمار، والجنود الذين كانوا يتحدثون همساً، ربما يخشون أنني أعرف اللغة البورمية، استأنفوا أكلهم، يقشرون الفول السوداني، والموز، ويشرحون جوز ال betel. لم أعتقد أن الزمن قد يمر ببطء أكثر مما يفعل في عربة مقطورة تقف تحت المطر بين جدارين منخفضين لأدغال بورما العليا.

لم يكن هناك حتى إلهاء الباعة المتجولين، أو الكلاب الضالة الهزيلة، ولا منازل أيضاً، وكان الدغل بلا ضوء ولا شكل. لم يكن ثمة منظر طبيعي حتى. جلست أرتعش من البرد وأنا أراقب اتساع الدوائر التي تصنعها قطرات المطر في بركة مياه بالقرب من القضبان، وحاولت فهم ما قد يكون السبب في المشكلة. لم يكن لدي شك في أنني سبب التأخير. كان هناك اعتراض على وجودي في القطار، وقد شوهدت وأنا أصعد إلى القطار في مايميو.

سأضطر إلى العودة أدراجي؛ أو ربما سأعتقل لمخالفتي لوائح الأمن، ويلقى بي إلى السجن. يبدو أن جهود الوصول إلى تلك النقطة باءت بالفشل، هل جئت حقاً كل هذه المسافة لأدخل السجن، بينما يكابد الناس وعشاء السفر ومشقاته إلى أقاصي الأرض عبر الأدغال، وسوء الأحوال الجوية لأسابيع وأسابيع، ليسرعوا إلى طائرة محكوم عليها بالموت، أو يضعون أنفسهم في طريق رصاصة؟ من المخزي أن يسافر المرء مسافة طويلة ليموت.

لم يكن الموت ما يقلقني. إنهم لن يكونوا أغبياء بما يكفي لقتلي. ولكن قد يزعجونني. وقد حدث فعلاً. تجاوزت الساعة العاشرة، ووصلت حد الانسحاب. إن خرجت الشمس سأعود طائعاً إلى مايميو، وأحول الورطة كلها إلى رحلة تسلق. ولكن كان المطر أغزر من أن يسمح بغير الجلوس والانتظار.

وأخيراً ظهر جندي طويل القامة، يحمل مسدساً من نوع ستن. كان بصحبة زميل ضئيل الحجم، وأصغر سناً، يرتدي سترة مبلة، وقبعة مبلة، وكان يمسح وجهه بمنديل عندما دخل إلى العربة.  
قال: " هل أنت السيد بول؟"

" أجل. من أنت؟"

قال: " ضابط الأمن يو سيات آي" وذهب ليسأل عن وقت دخولي بورما، ولم، ولكم من الزمن. ثم سألني: " هل أنت سائح؟"

"نعم"

فكر للحظة، وهو يهز رأسه، ويضيق عينيه وارتخاء عينيه، وقال: " إذن أين آلة التصوير خاصتك؟"

قلت: "لقد تركتها خلفي، نفذت أفلامي."

" نعم ليس لدينا أفلام في بورما." تنهد قائلاً: " لا عملة أجنبية."

وبينما كان يتحدث، توقف قطار إلى جانب القطار الذي كنا فيه.

"سنلتحق بذلك القطار."

في آخر مقعد مسلح في هذا القطار الثاني، وهم يجلسون مع دفعة جديدة من الجنود، وقال يو سبت أي إنه مسؤول عن أمن السكة الحديد؛ كان لديه ثلاثة أطفال، وكان يكره فصل المطر. لم يقل شيئاً آخر. افترضت أنه كان حارسي، ومع ذلك لم يكن لدي أدنى فكرة عن تبديلنا القطارات، كنا نسير في رحلتنا باتجاه غوكتيك.

اتخذ رجل بورمي متعب، يرتدي قبعة صوفية، مقعداً قبالتنا، وبدأ يفرغ لفافة تبغ على ورقة صغيرة مربعة. كان نوعاً من الأعمال التي يقوم بها المقيمون الأجانب في الفنادق الأفغانية، تحضيراً لملء الأسطوانة الخالية بحبوب الحشيش والتبغ. ولكن هذا الرجل ليس لديه حشيش. دواؤه في زجاجة صغيرة، كان مسحوقاً أبيض، ربت على الأنبوب، وكان يضع طبقات من التبغ بين دفعات المسحوق. حشا الأنبوب بعناية كبيرة، وحزمه بإحكام، ثم ربتة مسوياً إياه.

"ماذا يفعل؟"

قال يو سبت أي: "لا أدري."

نظر الرجل داخل سيارته. كانت قد امتلأت تقريباً، فركزها بعود ثقاب من الداخل.

"إنه يضع شيئاً ما في جوفها."

قال يو سبت أي. "أستطيع أن أراه،"

"ولكن ليس الجانجا."

"لا."

والآن انتهى الرجل. أفرغ آخر جزء من المسحوق، ورمى الزجاجة من النافذة.

قلت: أعتقد أنه أفيون."

رفع الرجل عينيه، وغمغم: "أنت على حق!"

كانت لغته الإنجليزية واضحة كالجرس، أذهلني. لم يقل يو سبت أي شيئاً، ولأنه لم يكن يرتدي زياً رسمياً، لم يكن الرجل ليعرف أنه يقوم بلف سيجارة أفيون تحت بصر ضابط أمن.

"خذ نفساً"، قال الرجل. ثنى الطرف العلوي، ولحق السجارة بكاملها حتى ييطيء من احتراقها. وقدمها لي.

"لا شكراً"

بدا متفاجئاً. "لِمَ لا؟"

"يسبب لي الأفيون الصداع."

"لا! جيد جداً! أنا أحبه." وغمز لي يو سبت أي. "أحبه لما يتيح من أحلام يقظة جميلة!" ودخن لفافته حتى القعب، ثنى معطفه ورفعته وراء رأسه. ثم تمدد على المقعد، ونام وعلى وجهه ابتسامة. لقد كان هادئاً تماماً، أسعد رجل على ذلك القطار البارد الصاخب.

قال يو سبت أي: نحن لا نعتقلهم ما لم يكون لديهم الكثير. لأنها مخاطرة كبيرة. نحن نضع الرجل في السجن، وعندما نرسل عينات إلى رانغون لفحصها. ولكن رقمه ثلاثة؛ أستطيع أن أعرف الأمر باللون. وبعد أسبوعين أو ثلاثة، يرسلون إلينا التقرير. تحتاج إلى الكثير من الأفيون لإجراء الفحوص، ما يكفي لعدد من الاختبارات."

ونحن نقرب من الظهيرة كنا في جوار غوكتيك. كان الضباب كثيفاً، والشلالات الصاخبة تنثر الماء عبر أنابيب من خشب البامبو الأخضر. تسللنا حول الأطراف العلوية من الهضاب، نصّفر



مع كل منعطف، ولكن لا شيء يُرى خارج النوافذ سوى بياض الضباب، تزيحه الرياح لتكشف عن بياض السحب الأكثر كثافة. كان الأمر مثل السفر بطائرة بطيئة مفتوحة النوافذ، وحسدت مدخّن الأفيون على راحته.

قال يو سيت أي: "المشاهد غائمة."

صعدنا إلى ارتفاع يقارب 4000 قدم، ثم بدأنا نهبط إلى المضيق حيث، في الأسفل، قطع السحاب على هيئة الزوارق تسير بسرعة عابرة بين جانبي الهضبة وأطوال أخرى من البخار تسير فوق المضيق بسرعة شديدة البطء مثل غلالات من الحرير البالي.

كان الجسر، وحشاً من الهندسة الفضية في مكان كله صخور وعرة وغابات، انضم للمشهد ثم انزوى خلف صخرة ناتئة. ظهر مرة أخرى في بعض المرات، وكان أكثر ضخامة، وأقل لمعناً، وأكثر حضوراً. كان وجوده هناك غريباً، هذا الشيء من صنع الإنسان في مكان قصي بعيد، ينافس روعة المضيق الهائل ويبدو أكثر عظمة من محيطه الذي لا تكاد العين تخطئه. المياه تجري بسرعة عبر الأعمدة الداعمة، وتسقط على الأشجار، وتحلّق الطيور عبر السحابات المدوّمة وعتمة الأنفاق وراء الجسر. كنا نقرب منه ببطء، متوقفين قبل محطة غوكتيك بقليل، حيث سكان الهضبة، الشان بأوشامهم والصينيون التائهون، وجدوا لهم مأوى في عربات السكة حديد غير المستخدمة. عربات الشحن والسقائف. لقد وقفوا على الأبواب لمشاهدة مرور قطار لاشيو.

كان لدى المدخل إلى الجسر حرّاس عابسون، بنادقهم على أكتافهم، وتهب الرياح على سقائفهم غير المسوّرة ولم تتوقف زخات المطر.

سألت يو سيت أي عما إذا كان بإمكانني التعلق على النافذة. قال إنه لا يمانع، "ولكن احترس من السقوط." كانت عجلات القطار تضرب القضبان الفولاذية، والمياه المنهمرة ترمي بالطيور من أعشاشها لآلاف الأقدام باتجاه الأرض. أصابني التأخير الطويل في البرد بالاكنتاب. وكانت الرحلة غير ممتعة، ولكن هذا رفع من روحي المعنوية، عبور جسر طويل تحت المطر، من هضبة منحدرية إلى أخرى، فوق غور كثيف الغابات، مندفعين مع نهر انتهره الخريف بصوت قاسٍ، وانطلقت صافرة القطار مرة، بعد مرة، كان الصدى ينتقل عبر المضيق إلى الصين.

بدأت الأنفاق، وكانت لها أصوات، وتقوح منها رائحة مخلفات الخفافيش، والنباتات الرطبة، وما يكفي من الضوء فقط لينثر بعض الومضات على الماء، تجري بسرعة على الجدران، وتنمو الزهور الغريبة المتفتحة ليلاً وسط نوافير من النباتات المتسلقة والأوراق في الحجارة الملتفة. عندما خرجنا من النفق الأخير كنا بعيدين جداً عن جسر غوكتيك، وناونغ-بينغ على بعد ساعة أو أكثر من السفر الحثيث، كانت نهاية الخط بالنسبة لي. وكانت عبارة عن مجموعة من الأكشاك الخشبية والسقائف المغطاة بالقش. أما "الحانوت" الذي أخبرني عنه طوني فقد كان أحد هذه الأكواخ المسقوفة بالقش.

في الداخل طاولة طويلة عليها يخنة خضراء أو صفراء، وبورمي يرتدي ملابس خفيفة بالنسبة لمكان بارد كهذا، كانوا يدفنون أنفسهم بجانب قدور الأرز التي تغلي فوق المواقد. بدا كأنه مطبخ ميداني لقبيلة مونغولية تستجم بعد معركة ضارية.

الطباخات كنَّ سيدات صينيات متقدمات في السن، ذوات أسنان سوداء وكان الآكلون من عرق مختلط من الناس، ومزيج من الجينات تنحدر من الصين وبورما، ولم يكن يدل على أعراقهم سوى ملابسهم، بناطيل أو سارونج، قبعات ظليلة واسعة، أو أغطية رأس صوفية، رطبة ولا شكل لها مثل القفازات.

وضعت الطباخات اليخنة على أوراق كبيرة من شجر النخيل، وأضفن إليها قبضة من الأرز؛ أكلها المسافرون مع أكواب من الشاي الخفيف الساخن. كان المطر يضرب السقف، ويطرق على الوحل خارجاً، ويسرع البورميون إلى القطار بالدجاج المقيد جيداً في حزم من الريش، فبدا كنوع غريب من الأعمال اليدوية المحلية. اشتريت سيجاراً بسنتين، ووجدت مقعداً قريباً من أحد المواعد، فجلست أدخن حتى وصل القطار.

القطار الذي سافرت به لنونغ-بينغ لم يغادر إلى لاشيو حتى وصل القطار القادم من لاشيو. ثم غيرت كتيبة الحراس القادمة من مايميو، والأكثر تسليحاً القادمة من لاشيو القطارات حتى تعود كل منهما إلى المكان الذي جاءت منه في الصباح.

لاحظت في كل قطار وجود سيارة مصفحة ملحقة خلف المحرك تماماً، كانت عبارة عن صندوق فولاذي معبأ بأجزاء البنادق، مبسطة إلى حد بعيد، كرسم طفل لدبابة، لكنه كان فارغاً لأن الجنود كانوا في نهاية القطار، على بعد تسع أرائك.

كيف سيقاثلون في الطريق، تحت النار، وعلى ارتفاع ثمانين ياردة فوق القطار أثناء الحملة، لا أعرف ولا يعرف يو سيت أي الذي أوماً متعجباً. كان من الواضح لماذا لا يسافر الجنود في العربة المصفحة بالحديد: كانت مكاناً لا شيء فيه يمت للراحة بصلة، ومظلماً لأن أجزاء البنادق كانت صغيرة جداً.

العودة إلى مايميو، نزولاً من الهضبة في معظم أجزاء الطريق، كانت سريعة، واستمر تناول الطعام في المحطات الصغيرة. شرح لي يو سيت أي الأمر بأن بعض الجنود أبرقوا مسبقاً طلباً للطعام، وكان الأمر صحيحاً، لأنه في أصغر المحطات حتى يهرع طفل إلى القطر حالماً يصل، في احترام باد يحضر هذا الصبي حزمة من الطعام لباب أريكة الجنود، والمطر يبلل وجهه. وعندما اقتربنا من مايميو أبرقوا طلباً للزهور، لذلك عندما وصلنا نزل كل جندي وعلى قميصه بقع من الكاري، وقضمة من ال betel في فمه، وباقة من الزهور تثبتها على بندقيته بعناية فائقة.

قلت لأوسيت أي: "أيمكنني الذهاب الآن؟" ما زلت لا أعلم ما إذا كنت سأعتقل بسبب تواجدي في منطقة محظورة.

قال: "يمكنك الذهاب" وابتسم: "لكن عليك أن ألا تتركب القطار إلى غوكتيك مرة أخرى. إن فعلت فستقع في ورطة."

----

## الفصل العشرون

### القطار الليلي السريع من نونغ كهاي

-----

أقضي القطار السريع من بانكوك إلى نونغ كهاي، في أقصى شمال تايلاند. نونغ كهاي متواضعة-خمسة شوارع من المنازل النظيفة، ولكن رحلة بالقرب عبر نهر الميكونغ تأخذك إلى فينتيان في لاوس. فينتيان استثنائية، ولكنها غير مريحة. المواخير أنظف من الفنادق، والماريجوانا أقل تكلفة من تبغ الغليون، والأفيون أسهل من كوب من البيرة الباردة. الأفيون عقار مريح، وهو الأنسب للشيخوخة، ولكن الغفوة التي يسببها تعالج الإرهاق، فبعد أمسية واحدة منها، يصبح آخر شيء ترغب فيه هو النوم مرة أخرى. وعندما تجد الجعة في منتصف الليل، وتكون جالساً بهدوء، وتتساءل عن أي نوع من الأمكنة هذا، تعرض عليك النادلة المتعة الجنسية في مكانك، ولكنك مع ذلك لا تعلم. تعتاد عينك على الظلام، وترى النادلة عارية. بدون سابق إنذار تقفز على أحد المقاعد، وتغرس سيجارة في مهبلها وتشعلها، وتتفخ فيها بتقلصات رئتي رحمتها. قدرات جنسية عديدة جداً! يمكنك أن تعلم هؤلاء الناس أي شيء. هناك حانات كثيرة في فينتيان، الديكور والجعة هما هما في كل الحانات، ولكن الممارسات غير الطبيعية متنوعة. الفيلم الإنجليزي الوحيد الذي استطعت العثور عليه في فينتيان كان فيلماً إباحياً.

الاحترام الكئيب للسياح اليابانيين، الذين يراقبون مثل المتدربين في مسرح العمليات، يملأونني بالعجز. تسوّقت من أجل بعض الهدايا، وفي ذهني بعض الكنوز اللاوتية، ولكني اكتشفت هناك مشغولات يدوية تقليدية، منها الأبرونات، ومساند المفكرات، ومساعات القدور، وربطات العنق. ربطات العنق! حاولت أن أذهب في رحلة ترفيهية على نهر ميكونغ، ولكن قيل لي إن النهر لا يستخدمه سوى المهربين. كان الطعام غير عادي. طبق من الحساء، الشوارب، الريش، الغضاريف، وأجزاء صغيرة من الأمعاء تقطع بحيث تبدو مثل المعكرونة. نقلت هذه الأخبار لأمير استحثتي لزيارته. أخذني إلى مطعم حيث تناولنا. افترضت أن هذه كانت طريقته في الاعتذار- رجل خروف، وصلصة نعناع وبطاطا محمرة. سألته ماذا يعني أن تكون أميراً في لاوس. قال لي إنه لا يستطيع الإجابة على السؤال لأنه لم يقض وقتاً طويلاً في لاوس، كان مهتماً أكثر شيء بالغوص الجوي، وسباقات الدراجات البخارية. أقنعني وصفه للحياة السياسية أن لاوس كانت روريتانيا، مملكة سائبة لإخوة غير أشقاء متخصصين، مثقلة بالديون أمام الولايات المتحدة. ولكن هناك أعداء في لاوس، قال في ذاك المساء. أين هم؟ سألته أنا. كنا في منزله هذه المرة. أشار إلى النافذة، وعبر الشارع، ظل في النافذة العلوية لمبنى من ثلاثة طوابق، كان رجلاً ومعه بندقية آلية. قال الأمير، " هو، إنه Pathet Lao."

قال الأمير عندما أخبرته عن رحلتي: "إن أنت كنت تستقل القطار، هل تعلم إلى أي مدى تصل سرعة قطار بانكوك ذاك؟"

قلت أن لا فكرة لدي.

"خمسون كيلومتراً في الساعة!" ورسم على وجهه الدهشة.

لم تكن زوجته تصغي. رفعت رأسها من إحدى المجلات وقالت: " لا تنسَ أن علينا أن نكون في باريس في السادس والعشرين-"

لاوس، ضفة نهر، وقد فاضت، وسُرقت؛ كانت واحدة من أعلى نكات أميركا العملية، مكان بلا دافعية، حيث لا يُصنع شيء، كل شيء مستورد. مملكة ذات ادعاء غامض بالفرنسة. أما المفاجأة فإنها إن كانت موجودة قط، فجلّ ظني بها، طريقة متدنية للعيش. ما أفكر بها، بدت مثل صيغة دنيا للحياة.

دودة البلاناريا المثقوبة أو أميبا هلامية، ذلك النوع من المخلوقات الذي لا يموت عندما تقطعه إلى شرائط.

الانطلاق من محطة نونغ كهاي (والأطفال التايلنديون يلعبون بالطائرات الورقية على طول القصبان) كنت أتجه إلى الجنوب، إلى سنغافورة. وكانت هناك ثمة منظومة للسكة الحديد متصلة من هذه المحطة الشمالية وحتى سنغافورة، عبر بانكوك، وكوالا لامبور، 1400 ميل من الغابات تقريباً، وحقول الأرز، ومزارع المطاط. حديد دولة تايلاند مريح ويُدار بخبرة، والآن أعرف عن السفر بالقطارات في جنوب شرق آسيا ما يكفي لتجنب عربات النوم المكيفة الهواء، والتي كانت باردة حد التجمد ولا تشتمل على أي من فوائد عربات النوم الخشبية: أسرة واسعة، وغرفة استحمام. لم يكن هناك قطار آخر في العالم به جرة طويلة من الحجر في ملحق الاستحمام، حيث، قبل العشاء، بوسع المرء أن يقف عارياً ليغسل نفسه بالماء. القطارات في كل بلد تحتوي على الأدوات الأساسية في تلك الثقافة: قطارات التاي تحتوي على جرة استحمام على جانبها تتين مصقول، والسيلانية تحجز عربة للرهبان البوذيين، والهندية بها مطبخ نباتي، وست درجات، والإيرانية سجاد للصلاة، والماليزية كشك شعيرية، والفيتنامية زجاج مضاد للرصاص على القاطرة، وعلى كل عربة من القطار الروسي براد للشاي. بازار السكة الحديد، بأدواته وركابته، يمثل المجتمع بشكل تام لدرجة أن الصعود على متنه كان تحدياً من قبل الشخصية القومية. في بعض الأحيان كان أشبه بسمنار نشط، ولكنه أيضاً يبعث شعوراً بأن الراكب سجين أحياناً أخرى، ومن ثم يُعتدى عليه من قبل الرمزية الوحشية.

في قطار الليل السريع من نونغ كهاي يوجد الكثير من الميكانيكيين الصينيين والفلبينيين، وقد اسمرت بشرتهم بعمق نتيجة العمل في المطارات الأمريكية وهم يرتدون قبعات البيسبول التي تدلت لتغطي أعينهم. كان التايلانديون يقامرون في عربة نوم الدرجة الثانية، حيث جلس رجال الخدمة الأمريكية في نعاس مع الفتيات التايلانديات، وقد بدا عليهم الحنين للوطن، بخلاف مظاهر الطيبة وهم يتماسكون بالأيدي.

كنت في مقصورة مع مدني أمريكي قال إنه كان يعمل في المبيعات. لم يبد كمندوب مبيعات. كان شعره قصيراً جداً، واستطعت أن أرى أثر جرح أبيض يمتد من الخلف إلى الأمام على طول الجزء العلوي من رأسه مثل الفرق. وكان يرتدي قلادة حظّ تايلاندية حول عنقه، وأظافره المتكسرة، على ظهر كفه اليمنى وشم لنمر، وقد كان يتحدث بشكل مستمر عن "خنزيره"، مزلة هارلي-ديفنسون الإلكترونية. وقد أقام في تايلاند خمس سنوات. لم يكن لديه خطة للعودة إلى الولايات المتحدة، وقال إنه يطمح إلى جني 30 ألف دولار في السنة، أو كما قال: ثلاثة ك.

" إلى أي حدٍ اقتربت من ذلك الرقم؟"

" قريب جداً، ولكني أعتقد أنّ عليّ الذهاب إلى هونغ كونغ." كان لتوه قد أمضى أياماً قليلة في فينتيان. قلت إنّني لم أجد المكان موافقاً لذوقي. فقال: " لا بد أنك ذهبت إلى الوردة البيضاء."

قلت: " لقد ذهبت إلى الوردة البيضاء."

" هل رأيت الفتاة الطويلة هناك؟"

" كان المكان أشد عتمة من أن يسمح لي بالجزم بمن كان طويلاً أو قصيراً."

" كانت هي الفتاة المرتدية الملابس. معظمهن كن عاريات المؤخرة صحيح؟ ولكن هذه كانت ذات شعر طويل وترتدي بنطالاً.

بقيتهن كنّ يضعن السجائر في فروجهن، ويفتنها، ولكن هذه جاءت فقط لتجلس بجانبني. لم تكن ترتدي حمالة صدر، وكانت من أولئك العارضات اللواتي قدمت لهن الجعة، ولكنها احتست البيبسي، وكانت مرحة بما يكفي لدرجة أنني دفعت فيها أكثر مما هو مطلوب. لقد أحببت ذلك!

" جلسنا هناك نلهو، ووضعنا يدي داخل قميصها، فصدرت عنها صرخة. ضحكت وقالت: " أترغب في بعض التدليك؟" قلت لها انسي ذلك. هنّ لا يقصدن التدليك. ثم قالت: " تعال إلى الطابق العلوي- ادفع إلى ماما سان أربعة دولارات وستسمح لي بذلك."

" ماذا يحدث عندما نذهب إلى الطابق العلوي؟"

"تتحني. وتقول: " أي شيء. بوسعك فعل أي شيء تريد فعله بي. سأفعل أي شيء تريدني أن أفعله. فأنا أعرف كيف." هل أثارني هذا أم ماذا؟

" يا لها من فتاة جميلة- أعني فتاة مغرية- قالت لك ذلك؟ " افعل أي شيء تريده بي." إنّهُ أشبه باتخاذ جارية. فكرت في شيء أو اثنين- أشياء مجنونة؛ لا أستطيع حتى أن أخبرك بها. إنّها تقول، " ماذا، ماذا؟" كنت أشد إخراجاً مما يسمح لي بإطلاعها على خواطري تلك، ولكني فكرت، إنّها تعتقد اتفاقاً، ولا تستطيع الرجوع عنه. وظللت أفكر بتلك الأشياء الجامحة، وأقول: " أي شيء؟" وتقول: " بكل تأكيد، ماذا تريد؟" ولكني لم أرد البوح.

ثم قالت: " اخبرني." قلت لها: " سأخبرك في الأعلى" وأذهب إلى ماما سان، عاهرة جامدة الملامح، وأعطيتها أربعة دولارات. ثم ذهبنا إلى الطابق العلوي. كان اسمها أوي. فنزعت عنها بلوزتها، وأسفرت عن نهدين رائعين، وظهر بطني جميل. قالت: " ماذا تريد؟" قلت: " أي شيء؟" قالت " مقابل خمسة دولارات- أي شيء."

فاعطيتها ورقة من فئة خمسة دولارات، فنزعت عني ملابسني. وبدأت تغسل في أعضائي الخاصة، وتساألني إذا ما كنت أعاني من عدوى تناسلية. أثارتنني طريقتها في التنظيف، فطلبت منها أن تتعجل. فأطفأت الأنوار، ودفعتني إلى الفراش، ويا إلهي لم يراودني مثل هذا الشعور في حياتي. كان لسانها يلتف حول قضيبني، وأنا أكاد أغيب عن الوعي. ولكني سحبتة منها قبل أن أقذف. والآن ماذا؟ خطرت لي تلك الأفكار العجيبة، وقلت لها أول شيء خطر ببالي. " استديري، أَرغب في أن أتبول عليك."

قالت: " حسناً! حسناً! فنزلت من الفراش، وانحنيت عليها. لكنني لم أستطع فعلها- لم أخالني أريد ذلك فعلاً- عليه أتيتها من الوراء، وفوق كل شيء كان الأمر يستحق. قذفت، وأدرتها إلى الناحية

الأخرى ثم أدخلت يدي في فخذها ولمست أكبر فرج رأيت في حياتي- انظر، لم أرد أفسد عليك عشاءك."

أعتقد أنني سمعت هذا من قبل،" قلت بينما كنت أمر في طريقي إلى عربة الطعام.  
قال تايجر: " لا، لا، لم تفهمني."

تناولنا بعض جعة سينغا. وطلبت أرزاً محمراً مع الروبيان، وخضروات مشكلة، كان المكان في الخارج منبسطة بشكل مثالي، هضبة كهورات تامة الاستواء. كان تايجر يشرب الويسكي في المقصورة، وعندما وصل الطعام كان يبدو عليه الثمل، كان وجهه محمراً، وحتى الندبة في أعلى رأسه كانت محمرة قليلاً.

" لقد سمعت القصة، أليس كذلك؟ الفتاة التي تبين أنها رجل، صحيح؟ "حسناً هذه ليست هي القصة ذاتها. بالتأكيد هلعت أنا وضحكت هي- أو هو. وقال: " ألا تحب الفتيات؟" وابتسم لي تحت سُرّ الظلام ابتسامة غاية في الفظاعة. ارتديت ملابس- وكنت أرغب الخروج من ذاك المكان لا أوي على شيء. ولكن في الأسفل في الحانة، قررت أن أحتسي كوباً آخر من الجعة. فجلس وجاءت أوي مرة أخرى. قال: " أنت لا تحبني." فاشتريت له المزيد من الببسي، ثم تحليت ببعض الهدوء. " أنا أحبك، " وقلت- صدق أو لا تصدق- أعطيته قبلة في الخد. أعني، لا تسيء فهمي. لم يكن رجلاً حقاً- كان فتاة ذات قضيب! كان أمراً عجباً. على الأرجح ستظنني جننت- أعرف أنه يبدو نوعاً من الجنون- ولكن إن ذهبت إلى فينيتيان مرة أخرى فإني سأذهب إلى الوردة البيضاء وإن كانت أوي هناك فإنني نعم- على الأرجح سأفعل.

في وقت ما أثناء الليل، غادر تايجر القطار. استيقظت في مقصورة خالية في السادسة صباحاً، ورفعت ستائر النافذة، فرأيت أننا نتحرك بسرعة كبيرة مجتازين القنال الأسود إلى مدينة المعابد، والمباني المربعة التي أضفى عليها الشروق لوناً قرمزيّاً. ولكن الضوء كان لفترة وجيزة. تحوّل إلى اللون الشاحب، ثم تبدد إلى اللون الرمادي، وسرعان ما وصلنا إلى محطة بانكوك في المطر الغزير.

-----

-----

## الفصل الحادي والعشرون

### القطار الدولي السريع إلى باترورث

-----

عندما غادرت القوات الأمريكية فيتنام، وتوقفت جميع برامج الراحة والتأهيل، كان أغلب الظن أن تنهار بانكوك. بانكوك مدينة مزدهرة جداً، بمعابدها ومواقعها، تحتاج إلى الزائرين. الحرارة، الزحام، الصخب، التكلفة في تل النمل المسطح هذا يجعلها غير قابلة للعيش، ولكن بانكوك التي تبدو منعصاتها كمثبطات محسوبة للسكان، ليست سوى مدينة للعابرين. استطاعت بانكوك الحفاظ

على اقتصادها المبني على صالات التدليك، بدون الجنود، وفقط بالترويج لنفسها كمكان حيث يستطيع أكثر الأجانب حياة أن يحصل على تلك الخدمة، لذلك ازدهرت. وبعد جولة السوق العائم الصباحية، وجولة المعبد في الظهيرة، تأتي جولة كازانوف في المساء. الأزواج المرضى، معظمهم من المسنين الذين يرتدون ديباجات صفراء عليها عبارة "أورينت سكيبيد" أي مغامرة الشرق، مُقادين إلى عروض الجنس، والأفلام الإباحية، أو "العروض الحية" التي تحفز مزاجهم لزيارة لاحقة في المساء ذاته. إن كانوا مستعدين- إلى دار للبغاء أو صالة للمساج. وكما تفوح من كلكتا رائحة الموت، ومن بومباي رائحة المال، تفوح من بانكوك رائحة الجنس، ولكن هذا الأريج الجنسي يمتزج بنفحات أكثر حدة من روائح الموت والمال.

الانتهاكات هي إحدى مناحي مدينة بانكوك، تراها في القناة السوداء المكتظة، والشوارع الضيقة التي تختنق بالزحام المروري، وفي المعابد: كل محاولة ملحة لإصلاح الأخيرة تبدو مبادرة من السائحين أكثر منها من العابدين. هناك تجارة جادة في المنحوتات والقطع الفنية المسروقة من المعابد في المناطق الداخلية من البلاد. وقد شجع معظم السكان هذه الأطماع- وهذا أمر جديد على التايلانديين الذين لطالما تحلوا بالسكينة والاطمئنان. من طبعهم الهدوء والسكينة. كما لو أنّ هؤلاء الفرنجة المغتربين يتوقعون نوعاً من التعويض على البؤس الذي تفرضه المعيشة في مثل هذا المكان التعس. يندمج التايلانديون بسهولة، كمدلكين ولصوص، ولكن قبل شهر من وصولي، سار بضعة آلاف من الطلاب التايلانديين (الذين بمزيد من الغرابة يدعون أنفسهم "الملكيون الثوريون") إلى المقر الرئيسي للشرطة، وأسقطوا الحكومة، وتمكنوا في بحر نهار واحد من هدم سبعة مباني ضخمة. كان الأمر مثل عملية موضوعة أفقية لتمثال بوذا، وهو انتهاك شائع، والآن أصبح شارع المباني المهدمة ضمن جولة المعبد: "هنا ستري المكان الذي حرقه طلابنا-". كانت محطة السكة الحديد غير مدرجة في أي من الجولات، وياله من عار. فهي من أكثر المباني المدارة بعناية في بانكوك. لها هيكل جميل ومنظم، بشكل وأعمدة أيقونية لملاعب رياضي تذكاري في كلية أمريكية ثرية، ولقد شيدت في 1916 برعاية الملك راما الخامس ذي التوجهات الغربية. كانت المحطة مرتبة ونظيفة، ومثلها مثل السكة الحديد، تدار بفعالية بواسطة رجال يرتدون زياً رسمياً بلون الكاكي، ويتسمون بالحزم مثل قادة كشافة يتنافسون على ميداليات الأداء الممتاز. كان الظلام قد حل عندما غادر القطار الدولي المتجه إلى الجنوب المحطة (وقد سمي كذلك لأنه يمر عبر ماليزيا إلى باترورث).

كان أطفال التاي يضعون مراكب أوراق الموز التي تطفو على القنوات المائية، وعليها عقود الياسمين والسواري ذات الشموع المتراقص لهبها إحياءاً لمهرجان الهوي كراثونغ. نزلنا تحت القمر المكتمل الذي كان مناسبة الاحتفال، أشعة القمر تسقط على ضواحي بانكوك فتمنحها الراحة، وتضفي على نهر تشاو فرايا عذوبة ناعمة دامت حتى تغيرت الرياح. بعد خمسة عشر دقيقة من الخروج من ثونبورى، على الضفة المقابلة- والتي كانت في وقت ما العاصمة- كان الريف وجميع صراصيره يتجهون بسرعة نحو القطار، أما نحن فوقعنا في أسر العشب الأخضر إذا تنفس.

جلس السيد ثانو، المسافر العجوز في مقصورتى يقرأ الكولونيل سان، لكنيسلى آميس. وقال إنه كان يدخرها للرحلة، ولم أرد مقاطعته في ما ذهب إليه. ذهبت إلى الممر، حيث رجل من التاي في الأربعين من العمر تقريباً، ذو شعر ناعم، وابتسامة ساحرة، قال مرحباً. قدّم نفسه: " ادعني بينسا-كولا. إنه ليس اسمي- اسمي صعب عليك نطقه. هل أنت معلّم؟"

قلت: " نوعاً ما، ماذا عنك؟"

قال: " بوسعك أن تدعوني رحالة."

عبر النافذة، بدت قبعات التايلنديين مثل السلال المقلوبة، وهم على قواربهم الصغيرة في الأنهار التي تجري بجانب القصبان. كانت مصابيح قواربهم الرفيعة تلمع في المياه الجارية وأسراب الناموس. " أسافر فقط من مكان إلى آخر."

" من أين تحصل على المال؟"

" من هنا وهناك، من الهواء؛ ومن الأرض." كان يتحدث بجزل، وبضحكة في حلقه، بنبرة المعرفة العريضة.

" من الأرض؟ هل أنت مزارع؟"

" لا! المزارعون سخفاء."

قلت له: " ربما لا تملك أي مال."

" الكثير!"

ضحك واستدار، والآن لاحظت إنه يحمل محفظة تحت ذراعه. كانت في حجم يقارب صندوق أحذية مضغوط، وكانت تلتصق بشدة إلى جانب جسمه، وتكاد لا ترى.

" ماهو مصدر أموالك يا سيد بينساكولا؟"

" مكان ما!"

" هل هو سر؟"

"لا أعلم لكني دائماً أحصل عليه. لقد زرت بلدك ثلاث مرات. من أي ولاية أنت؟"

" ماساتشوسيتس."

قال: "بوسطن، زرتها. لكني أظنّها مملة. بوسطن مكان كئيب جداً. الملاهي الليلية! ذهبت إلى كل الملاهي الليلية في بوسطن. كانت مريّة. اضطررت للمغادرة. بل ذهبت حتى إلى ملاهي السود الليلية. لا أبالي- كنت مستعداً للشجار، ولكنهم اعتقدوا أنني من بورتريكو، أو ما شابه. يفترض أن يكون السود سعداء ومبتسمين لكن حتى ملاهي السود كانت مريّة. لذلك ذهبت إلى نيويورك، وواشنطن، وشيكاغو، ثم، لنر، تكساس، و-)

" لقد كنت هناك بالتأكيد."

" لقد أخذوني إلى كل مكان. لم أدفع شيئاً، فقط أستمتع، وأنظر، وماذا، وماذا."

" من أخذك؟"

" بعض الأشخاص. أعرف بعضهم. ربما كنت مشهوراً. في ذاك اليوم في بانكوك اتصل بي مدير المعونة الأمريكية الدولية. لا بد أنّ شخصاً ما أخبره عني. قال لي: " تعال للغداء. سأتحمل كل



النفقات." قلت " حسناً، لا أهتم." وعليه ذهبنا. لا بد إنه كلفه الكثير من المال. لم أبال. كنت أتحدث عن هذا وذاك، وفي نهاية الغداء قال لي: " بينساكولا، أنت مذهل!"

" لم قال ذلك؟"

" لا أدري؛ ربما رُفْتُ له." ابتسم وكان شعره رقيقاً جداً، وقد تسببت ابتسامته وحركات عينيه الخبيثتين في انتشار التجاعيد على فروة رأسه.

في كل مرة قال فيها " لا أعلم." كان يطبق شفثيه كمن يستحث محدثه على طرح المزيد من الأسئلة. قال: " في أحد الأيام أخذت القطار إلى بانكوك. كانت هناك حقبة في مقصورتي. رميتها على الأرض."

" لماذا فعلت ذلك؟"

" لا أعلم، ربما لأنها كانت على مقعدي. لم أهتم. ولكني كنت سأقول: إنَّ الحقائق كانت لضابط شرطة."

" هل رآك وأنت ترميها على الأرض؟"

" ولم لا؟ التايلنديون يتمتعون بنظر ثاقب."

" أراهن أنه لم يكن سعيداً بذلك."

" كان غاضباً! " ما عملك؟ " " السفر." انزعج جداً وطلب رؤية هويتي. " لا هوية لدي"، لاحقاً ذهب للنوم- وجعلته ينام في التخت العلوي. ولكنه لم يستطع النوم. كان يتقلب طوال الليل يمناً ويسرة. وهو يحمل رأسه، ماذا، وماذا."

" أظنك أزعجته."

"لا أعرف. شيء مثل ذلك. كان يحاول أن يفكر من أكون."

" أنا أحاول الشيء ذاته."

" استمر. لا أمانع. أنا أحبّ الأمريكيين. لقد أنقذوا حياتي. كنت في الشمال حيث يزرع الناس الأفيون والهيروين. ما يسمى "المثلث الذهبي". كنت عالقاً، وجميع الرجال كانوا يوجهون بنادقهم ونيرانهم إلي، فأرسلوا لي طائرة، ولكنها لم تستطع الهبوط وسط تلك النيران، لذلك أرسلوا لي طائرة عمودية. نظرت إلى الأعلى ورأيت ثلاث مروحيات تحوم في الأنحاء. كنت أصوب ناحية الرجال المختبئين خلف الشجرة. كنت وحيداً تماماً، لم يكن بالأمر السهل. حاولت إحدى المروحيات الهبوط، لكن الرجال أصابوها. لذلك ذهبت إلى الجهة المقابلة وأطلقت النار على أحد الرجال، وهبطت المروحية الأخرى على الجرف. كان يناديني، " بينساكولا، تعال!" ولكني لم أرد الذهاب. لا أعلم لماذا. ربما أردت قتل المزيد. لذلك بقيت في مكاني واقتربت أكثر وقتلت- ماذا؟ ربما اثنين آخرين. الصينيون. كنت ما زلت أطلق النار، وزحفت إلى المروحية-)

استمرت قصته العجيبة التي سرّدت بنبرة مسرحية موحدة. لقد اعتقل عصابة مهربي الأفيون، وانتزع سلاح اثنين آخرين، وداخل المروحية أعاد تعبئة بندقيته، وقتل بقيتهم من الجو. عندما انتهى قلت: " يا لها من قصة."

" ربما. إن كنت تعتقد ذلك."

" أعني، أنك قد تكون شخصاً مهماً حقاً."

" بطل." هرّ كتفيه.

ولكن الأمور وصلت إلى حدها.  
قلت: "انظر، أنت لا تتوقع مني تصديق كل هذا أليس كذلك؟"  
"لا أعلم. ربما."  
"أعتقد أنك قرأتها في كتاب، ولكنه ليس بكتاب جيد."  
قال السيد بينساكولا: "أنتم أيها الأمريكان". ثم أوماً إلي بدخول مقصورته، ووقف يريني المحفظة المنتفخة التي كان يحملها تحت ذراعه. وربت عليها. "إنها رخيصة أليس كذلك؟"  
قلت: "ربما، لا أعلم."  
قال: "بلاستيك"، قبل أن يسحب شريطها فيفتحها، ثم قال: "لا تخف. الق نظرة."  
انحنيت عليها، فرأيت مسدسين، واحد كبير أسود وآخر أصغر منه داخل جراب، وكلاهما يرقدان في مزيج من الرصاصات النحاسية. واجهني بينساكولا بابتسامة مأكرة، وقال وهو يحكم شريط المحفظة: "ثمان وثلاثون، واثنان وعشرون. ولكن لا تخبر أحداً، أتعدي؟"  
همست: "ماذا تفعل بمسدسين؟"  
قال: "لا أعلم" وغمز بعينه. ووضع المحفظة تحت ذراعه وسار إلى غرفة الطعام، حيث رأيته لاحقاً في المساء وهو يحتسي ويسكي الميكونغ، وقد دخل في حوار عميق مع رجلين صينيين بوجهيهما حمرة.  
سرت إشاعة في القطار بأننا سُنحتجز في هوا هن، حوالي 120 ميلاً إلى الجنوب من بانكوك، على خليج سيام. وقيل إن الأمطار ابتلعت نهراً لدرجة إنه صار يهدد جسراً مشيداً على مسار القطار. ولكن القطار لم يُبد أي إشارة على الإبطاء، ولم يكن هناك مطر بعد. أضاء القمر حقول الأرز المغمورة، فجردها من العمق، والمياه في الأفق حوّلت مسرح الرحلة إلى ما يشبه الإبحار عبر محيط لا حد له.  
قال السيد تانو: "لَمْ تقرأ كتاباً حزيناً؟"  
لقد رأى الغلاف: أرواح الموتى. قلت: "إنه ليس حزيناً على الإطلاق. إنه أحد أكثر الكتب تسلية التي قرأتها على الإطلاق."  
قدم لي لفافة تبغ وأشعلها: "أعتذر عن هذه اللفافة. فهي دونية الجودة. هل تقولون "دونية الجودة؟ لأنني لا أتحدث الإنجليزية بطلاقة. دائرتي الاجتماعية من التايلنديين الذين يفضلون التحدث بلغتهم دائماً. فأقول لهم: "لقد وقع معي حادث غريب جداً اليوم"، فيقولون: "لا نتحدث الإنجليزية!" أحتاج إلى التمرّن. أقترف كثيراً من الأخطاء، ولكنني كنت أتحدث بصورة جد جيدة. عندما كنت في بينانغ. أنا لست ملاوياً على الرغم من ذلك. أنا تايلندي بالكامل، أباً عن جد."  
"كم تظنني أبلغ من العمر؟ أنا في الخامسة والستين. لست عجوزاً جداً. أبي على سبيل المثال، تلقى تعليمه في لندن- إنجلترا. وكان ملازم لورد بينانغ- أي مثل الحاكم. ولهذا التحقت بالمدرسة هناك. كانت تدعى المدرسة الإنجلوصينية، ولكنها الآن المدرسة المنهجية. يطبقون معايير عالية." أمر واحد ندمت عليه في حوار مع السيد بيرنارد على القطار إلى مايميو، وهو أنني لم أسأل بدقة عن مواده في مدرسة سان زافير عند نهاية القرن في ماندالاي. وهذا ما فعلته مع السيد تانو.  
قال السيد تانو: "اللغة الإنجليزية هي مادتي المفضلة. لقد درست الجغرافيا- البرازيل، إكوادور، كندا. وأيضاً التاريخ- التاريخ الإنجليزي. جيمس الأول. معركة هاستنغ. وأيضاً الكيمياء. رمز

القصدير هو Sn. والفضة Ag، والنحاس Cu. لقد كنت أعرف الذهب أيضاً لكنني نسيت. أحببت أكثر شيء الأدب الإنجليزي. كان معلمي هم: السيد هندرسون، والسيد ب. ل همفريس، والسيد بيتش، والسيد ر. ف. مك دونالد، وغيرهم. الكتب المفضلة لدي؟ جزيرة الكنز. وميكاه كلارك لكونان دويل، كاتب شيرلوك هولمز. وحكاية مدينتين كانت جميلة جداً، وجزيرة السم، للورد تينيسون- كانت كالحلم. ووردزورث. مازلت أحب ووردزورث. وشكسبير. أفضل مسرحيات شكسبير هي إن كنت تحبه أم لا. Like it or not.

أمل أنك قرأتها. ديفيد كوبرفيلد- عن صبي فقير يتعرض لسوء المعاملة من الناس- يثير ذلك الحزن في النفس. لقد اجتهد في العمل، ووقع في الحب. لا أستطيع تذكر اسم الفتاة. حكاية مدينتين كانت عن فرنسا وإنجلترا. سيدني كارتون. كان من العباقرة، وعانى. من أيضاً؟ دعني أتذكر. أحب إدجار والاس، ولكن أفضلهم جميعاً هو لوك شورت. كاتب من رعاة البقر. أعيش في جزيرة فوكيت، وهي مكان صغير جداً. يضحك الناس عليّ عندما يرونني أقرأ الكتب الإنجليزية في الجزيرة، ماذا يخرف هذا الرجل العجوز؟ لماذا يتظاهر بقراءة كتبه الإنجليزية؟ لكني أحب ذلك. هل ترى هذا الكتاب؟ الكولونيل سان؟ كنت أخاله كتاباً جيداً، لكنه غير ذي جدوى.

توقف القطار بينما كان السيد تانو يتحدث، وكاد أن يرمي بنا على أرضية العربة. لقد توقف بفجائية كالتي تسبق التأخير المطول، ولكنني نظرت من النافذة، وعرفت أننا وصلنا مدينة هوا هين: كانت وقفة مجدولة. أدخلت نسمة عليّة أريج البحر إلى المقصورة التي أثقلتها الرطوبة، والملح، ورائحة الأسماك. كان مبنى المحطة في هوا هين عالياً ومشيداً من الخشب، وله سقف مقوّس، وزينة خشبية على الطراز التايلندي- وهو قديم الطراز بالنسبة لبانكوك لكنه ملائم لمثل هذه المدينة الصغيرة، الخالية في وقت الخريف. كان وصول القطار الدولي السريع يعتبر حدثاً جلاً هنا: اقترب منا مدير المحطة ورجل الإشارة في صمت، اصطفت عربات الركشا في فناء المحطة الأمامي المحاط بأشجار النخيل، وغادرها سائقوها ليقفوا على رجل واحدة مثل الرافعات ليراقبوا الركاب وهم يتلقون أخبار الجسر المهدد. تقديرات التوقف، تُعطى في أرقام مقربة، تتراوح ما بين اثنين إلى ثماني ساعات. إن أكتسح الجسر فقد نزل في هوا هين ليوم أو اثنين. ثم قد نذهب جميعاً للسباحة في الخليج.

كان على متن القطار الدولي السريع فريق لألعاب القوى والأكروبات من الفتيات الصينيات القادمات من تايوان، أثرن حماسة الركاب الآخرين بالظهور في قاعة الطعام بملابس نوم خفيفة هفافة. ونزلن على الرصيف في هوا هين، متماسكات بالأيدي، ضاحكات: كن متبرجات بمستحضرات التجميل الثقيلة، بما في ذلك الماسكارا وأحمر الشفاه، وهن يرتدين ملابس النوم- مزيج فعّال. تبتعن العيون من مجموعات الركاب الصغيرة الذين توقفوا عن التذمر عندما مررن بهم راقصات. اشتريت ربع رطل من عين الجمل (بعشرة سنتات)، وراقبت السيدة العجوز وهي تحمّص الحبار على موقد نصبته بالقرب من القطار. اشترى الناس الذين لم يتوقفوا عن الثثرة حول التأخير، ما كانت تبّيعه لهم، وتناولوه في كآبة، كما لو كانوا يفكرون في طريقة للنجاة، ويلقون بالأطراف المحروقة على القضبان.

كان السيد لو أحد أكلي الحبار، وهو من كوالا لمبور. لم يكن جائعاً، ولكنه قال إنّه يأكله لارتفاع ثمنه في كوالا لمبور كان مستاءً للتأخير. ولم يكن يملك فراشاً.

سألني عن ما دفعته من مال للحصول على مكان في عربة النوم، وبدأ منزعجاً لأنّ تذكرتي كانت زهيدة الثمن، فأصبح يتصرف كما لو أنني، وبطريقة مأكرة، سلبته فراشه. كان يكره مقعده. كانت عربة المقاعد باردة جداً، وفي ركبها فظاظة، ولم تكن فتيات الجمباز يرغبن في الحديث إليه. قال: أنا في ماليزيا مواطن من الدرجة الثانية، وراكب من الدرجة الثانية في تايلاند. ها! ها!". كان السيد لو مروّجاً لأنابيب الفلورسنت. كان موظفاً مدنياً أيضاً ("ربما بوسعك القول إنّ أنابيب الفلورسنت هي عملي الثانوي.") أدخله والد زوجته إلى هذا السوق، رجل ذكي هاجر من شنغهاي إلى هونغ كونغ، حيث تعلّم كيف يصنع لافتات النيون. قال السيد لو: "يمكنك أن تجني ثروة من لافتات النيون في هونغ كونغ." فقلت إنني متأكد من ذلك.

"ولكن هناك منافسة قوية. لذلك جاء الرجل العجوز إلى كوالالمبور." في البداية لم يكن هناك منافسون، ثم تخطى عنه أصحابه الشنغهاويون بعد أن درّبهم على صنع اللافتات، وأنشأوا متاجرهم الخاصة. لقد كادوا أن ينجحوا في إخراجه من السوق، حتى بدأ الرجل العجوز تدريب الملاويين للقيام بالعمل. لقد اختار الملاويين ولم يختر الهنود أو الصينيين الأكثر اجتهداً في العمل، فكسلهم يضمن له عدم استقالتهم وتأسيس أعمالهم الخاصة.

سألته: "لماذا أتيت إلى بانكوك؟"

قال: "أنابيب الفلورسنت."

"بيع أم شراء؟"

"الشراء. أرخص."

"أرخص إلى أي حد؟"

"لا أعرف. علي حساب التكلفة. كلّ الأوراق في حقيبتني."

"اعطني قيمة تقريبية."

"لدي مائة وخمسون نموذجاً. لم أحسب التغليف بعد، والنقل، وغيره. الكثير من عوامل التكلفة." أحببت تعبيره، لكن السيد لاو غير الموضوع، وأخبرني بينما كان يمضغ وجبته من المحار، مدى صعوبة أن تكون صينياً في ماليزيا. لقد تم تجاوزه عشرات المرات بالترقيات والعلاوات المالية لأنّ: الحكومة تريد جلب الماليزيين. إنّهُ أمر فظيع. لا أحب العمل الخفيف، لكنهم يستمرون في إبعادي أكثر وأكثر، مما يجعلني أكثر انشغالاً بعمل أنابيب الفلورسنت."

عدت إلى فراشي والقطار ما زال واقفاً في وهج أنوار المحطة، وفي الثالثة وعشر دقائق من صباح اليوم التالي (أيقظتني الصافرة) بدأنا نتحرك. انهزم المطر من خلال النافذة، فأيقظني مرة أخرى بعد ساعة تقريباً، وعندما أغلقت الشيش، أصبحت الغرفة خائفة سيئة التهوية. عبرنا الجسر المحفوف بالخطر في الظلام، وظل المطر يهطل حتى الفجر. كان طريق القطار مغموراً بالمطر طوال اليوم التالي فكان سيرنا وثيلاً، ونتوقف في بعض الأحيان في أماكن مجهولة حيث تحيط بنا الحقول المغمورة من جميع الاتجاهات، مثل قارب عالق. جلست وكتبت، ثم قرأت وعدت للنوم، وشربت، وعادة ما كنت أنظر ولا أتذكر أين كنت، تركيز الكتابة والقراءة يضيف علي نظرة حالمة. السفر الكثير يبعث على الشعور بالاحتواء، والسفر الذي يوسع العقل في البدايات، يقيّد الذهن. لقد حدث هذا الأمر بشكل مقتضب في القطارات الأخرى، ولكن في هذا القطار استطالت

مدته بسبب تشابه المناظر، أو رتابة ضربات المطر الذي ظل طوال اليوم. لم أستطع تذكر أي يوم كان، لقد نسيت البلد. كوني في القطار جمّد إحساسي بالزمن. صارت ذاكرتي بطيئة بسبب الحرارة والرطوبة. أي يوم كان على أية حال؟ ليس في الخارج سوى حقول الأرز، مضيئة منظرًا مزعجاً للمهار اشترا في الهند. كانت لافتات المحطة لا تشير إلى أي شيء: مرت شامفون، ولانغ سوان من النافذة لتتركاني نهباً للحيرة.

كان يوماً طويلاً في القطار الحار الرطب مع التايلانديين المتعرقين، الذين زادت الحرارة من سرعة حديثهم. اختفى بينساكولا، وكذلك السيد تانو. قال المحصلّ إننا متأخرون عشر ساعات، ولكن لم يقلقني هذا بقدر ما فعلت ذاكرتي التي خذلنتي، ونوع من الخوف الملازم الذي خلته إشارة لجنون الارتياب. كانت الغابة كثيفة بعد هادياي، مثالية لنصب كمين (بعد شهر، في 10 ديسمبر قفز خمسة لصوص مسلحون ببندقيات 16 مم من دورات مياه الدرجة الثانية حيث كانوا يختبئون، وسرقوا سبعين شخصاً ثم اختفوا). بعد نقطة التفتيش في بادانغ بيسار أوصدت باب مقصورتي، وذهبت للنوم رغم أنّ الساعة لم تتجاوز التاسعة.

أيقظتني صلصلة مقبض الباب. كان القطار ساكناً. والغرفة حارّة. ففتحت الباب، ورأيت رجلاً ماليزياً يحمل قطعة مبللة. قال، "هذه بترورث." "أعتقد أنني سأنام هنا حتى يأتي قطار الصباح." قال: "لا تستطيع، عليّ تنظيف القطار،"

"دونك، نظفه. سوف أعود للنوم." نحن لا ننظفه هنا. علينا أخذه إلى الظل." "ماذا يفترض بي فعله في هذه الأثناء؟" قال الرجل المالوي الضئيل الجسم: "سيدي، أريدك أن تخرج وبسرعة." لقد نمت حتى الوصول. كانت الساعة الثانية صباحاً: ال

قطار خالٍ، والمحطة مهجورة. وجدت غرفة انتظار حيث رجلان ألمان، ورجلان أستراليان، صبي وقتاة، كانا ينامان على المقاعد. جلست وفتحت كتاب أرواح الموتى. استيقظ الصبي الأسترالي، وطوى رجليه وأعاد طيهما، وهو يتهدد. ثم قال: "يا إلهي!" وخلع قميصه. كوّر قميصه ونزل إلى الأرضية الاسمنتية، استخدم قميصه كوسادة، والتف على نفسه كدب الكوالا، وبدأ في الشخير.

نظرت إلى الفتاة الأسترالية، وهزت كتفيها، ولسان حالها يقول: "إنّه يتصرف على هذا النحو دائماً!" وضعت قبضتيها في حجرها، وانثنت في مقعدها، بالكيفية التي يموت بها الناس في الغرف شبه الخالية من الأثاث. استيقظ الألمان، وسرعان ما شرعا في الجدل حول خريطة كانا يحددان عليها مساراً. كانت الساعة آنذاك تقارب الرابعة صباحاً. وعندما لم أستطع التحمل ركبت عبّارة مصفّرة إلى بينانغ، عائداً إلى بترورث مع بزوغ الفجر، ثم اكتسى كل شيء بألوان بسيطة، العبارة برتقالية، والماء زهري، والجزيرة زرقاء، والسماء خضراء. بعد دقائق أحرقت السماء الألوان الغازية فتبددت. تناولت إفطاري في مقهى تاميلي، الشاي بالحليب، وبيضة نصف مسلوقة مع قطعة مربعة من خبز الباراثا. تسكعت عائداً إلى المحطة، ورأيت رجلاً وسيدة يغادران فندقاً مغموراً.

كان الرجل غير الحليق أوروبياً يرتدى قميصاً قطنياً، والمرأة الناعسة، التي كانت ترش أنفها بمسحوق التجميل بينما تسير صينية. كان يسرعان إلى سيارة قديمة جداً، ثم قاداها مبتعدين. إمارة

الزنا الاستوائي الحزينة- الثنائي المدمر في الصباح الماليزي- ذات نزعة كوميدية أورثنتي مزاجاً رائقاً.

## الفصل الثاني والعشرون السهم الذهبي إلى كوالا لمبور

تشتمل درجتا الخطوط الحديدية الماليزية على ثماني أنواع من العربات، بدءاً بعربة الماشية البسيطة بكنباتها الخشبية إلى عربات النوم ذات الألواح المصنوعة من خشب التيك بأسررتها الواسعة، والكراسي ذات مساند اليد، ومبصقة، وستائر خضراء مزينة بشعار السكة الحديد (نمر، عريض يمسك بقضيب كاشف عن المعادن). ولكن أفضل مكان للإقامة أثناء رحلة الساعات العشر هذه إلى كوالا لمبور هو في الشرفة الخشبية بين الأرائك. هذه المساحة في الهواء الطلق، حيث تلتقي سقيفة إحدى العربات بسقيفة العربة الأخرى، تمتد على طول سبعة أقدام: كانت هناك أسقف معلقة على كل طرف، وعلى الجانبين اصطفت أعمدة وحواجز، ولوحة نحاسية تحذيرية بثلاث لغات من الخطر على هذه السقيفة- في الحقيقة، محظور عليك التواجد هناك صراحةً- ولكنه مكان آمن جداً، وفي ذلك اليوم كان أكثر أماناً حتى من عربة الاستراحة، حيث كان خمسة من الجنود الماليزيين يحتسون جعة أنكور، ويتتمرون على من يمر بهم من الصينيين. لقد كنت في غرفة الاستراحة أقرأ، ولكن عندما تغلب الجنود على حيائهم الطبيعي بالمشروبات بدأوا يغنون "عشر زجاجات خضراء"، قررت الانتقال إلى الشرفة. وفي داخل العربة حشر صيني نفسه في رف للأمتعة، حيث كان يتذمر، وتحتي، على عتبات السقيفة، جلس صبية ماليزيون وهم يؤرجحون أقدامهم.

الأسعار العالمية المرتفعة للمطاط، والقصدير وزيت النخيل هي السبب في ازدهار ماليزيا التي بدت لي وادعة ومطمئنة بقدر ما كانت عندما رأيتهما أول مرة، عام 1969. ولكن الابتسامة الماليزية مضللة: بعد فترة قصيرة من انطباعي بأنها إحدى أكثر بلدان العالم هدوءاً، خرج الماليزيون في صخب من المساجد وهم يلفون عمامهم البيضاء حول رؤوسهم. وعندما كانوا بين ألفين من جنث الصينيين الموتى الملقاة على الأرض، وقد حرق مئات من المتاجر حتى سويت بالأرض. كان السيد لاو، الذي كان يتسكع في تايلاند عبر القطار متضجراً من التأخير عشر ساعات، جلس الآن قلقاً على السهم الذهبي، وهو يحتضن حقييته، وبين ركبتيه صندوق العينات القابلة للكسر. وفتيات الجمباز القادمات من تايوان لم يعدن يتهادين في الممرات. لقد أسقط في يد الصينيين: كان قطاراً ماليزياً، ولم يكن من المتوقع لمجموعة من الصينيين أن تكون في عربة الاستراحة، وهم يغنون (مثلما فعل الجنود الماليزيون) "اغمرني بالسعادة". تمتع الماليزي في الدرجة الثالثة بامتيازات أكثر مما للصيني في الدرجة الأولى.

تناولت طبقي المفضل القديم حساء المي هون على الغداء، مع بيضة نصف مستوية ممزوجة مع أوراق الخس الصيني، واللحم المفروم، وشرائح الروبيان، والفول النابت، وشعيرية الأرز، وعدد من المكونات الدقيقة التي زادت من قوامها لدرجة أصبحت معها قابلة للأكل بالعيدين. لم تكن هناك طاولات سفرة في عربة الطعام التي كانت عبارة عن كشك للشعيرية حيث الموائد الدبكة والمقاعد المفردة المرتفعة، ويجلس الصينيون جنباً إلى جنب، يصبون صلصة الصويا على طبق الشعيرية ويدعون النُدل، وهم صبية صغار في قباقيب حمر، يحملون قوارير البيرة على صوانٍ من القصدير.

إيبوه كانت هي أول محطة كبرى على طريق كوالالمبور، وبها فندق محطة، مثل أوبرا غورمنغاست فكتورية حديثة بنوافذ طويلة مغطاة بستائر قاتمة. كانت الأقمشة البنية تتدلى في ثنيات سميكة، فتحجب الهواء وتحفظ الحرارة، التي كانت تتوزع في أرجاء غرفة الطعام بواسطة عشر مراوح بطيئة. كانت جميع الطاولات جاهزة، والنادل الذي قد يكون ميتاً كان يقف بجانب الجدار في الطرف القصي من الغرفة. من المؤكد أن في الطابق الأعلى جريمة انتحار في انتظار أن يُمات عنها اللثام، والذباب الذي ينز عبر الحانة ذات السقف العالي يعنى بجثمان هذا المزارع المكلوم أو المدير المغدور. إنه من أنواع الفنادق التي تحتوي على هيكل عظمي في كل خزانة، وسجل سميك من الاسماء المستعارة للزناة. كنت قد دخلت إلى فندق المحطة في إيبوه مع ولدي الصغير، وسرعان ما عبرنا العتبة أخذ الصبي في الصراخ. كانت أنفه البريئة قد استشعرت ما لم تستشعره أنفي، وهرعت معه مبتعداً، طالباً النجاة، متذوقاً رفاهية الخلاص.

ظالت في شرفة السهم الذهبي أستمع إلى حديث الركاب المتحمسين. كانت اللغة الإنجليزية شائعة في ماليزيا بلهجة تتميز بغنة من الأنف، وإدغام مستمر، وتبصق التعبيرات بصقاً، وتقضم نهايات الكلمات قضمًا.

إنها نسخة مختصرة من اللغة الإنجليزية، وتشبه بالنسبة للآخرين اللغة الصينية حتى تعناد عليها الأذن بجانب ضجيج أصوات الغابة القريبة من القضبان، ونعيق الجراد والبيغاوات، والقرود التي تنظف أسنانها على أشرطة تخليل من نباتات البامبو. هذه النسخة من اللغة الإنجليزية خالية من أية مشاعر ولكنها عبارة عن هستريا هامسة؛ وتعادل اللغة الماليزية على طرف النقيض، والتي تُفهم عندما تُسمع- المضاعفة المتسللة للجموع وثوابت الكلمات المنتهية بلفظة غونج مثل بيسانغ، وكاشانغ، وسارونغ. الإنجليزية الماليزية تستخدم في الحوارات وتحضر في لافتات محطة القطار، وتتسم بسهولة الفهم مثل: feri-bot ، jadual ، setesyen ، tiket ، terafik ، nombor.

تسلل اثنان من الهنود إلى الشرفة. كانا صغيري الحجم، وسلوكهما ينم عن الخوف، فقالا على الفور إنهما ليسا ماليزيين. كانت لديهما سمات الزواحف التي يتسم بها أشد من رأيت جوعاً في كلكتا. كان المسافرون الآخرون في الشرفة من الماليزيين في الغالب، وقد أفسحوا لهما، ووقف الهنديان، وقد ذهب الاضطراب بتغضنات بزاتهما، وهما يتحدثان في هدوء بلغتهما الأم. كانت المحطات تمر بسرعة: البيدور، والترولاك، والتاباه، والكلانغ- اسماء مثل كواكب الخيال العلمي، وكثيراً ما تظهر مزارع المطاط في الغابات، وهي عبارة عن خزانات متناسبة ودروب معبدة تطوقها أحراج تقليدية، تتدلى عليها تعريشات نبات الليانا، والنوافير الأشبه بالنخيل، وأشجار

متشابكة في المساحات الخضراء التي تنقطر منها حبات المطر. "نحن ننقب عن القصدير في تايلاندا وماليزيا، مثل قورنولية في بريطانيا" قال السيد تانو على القطار السريع الدولي، وكانت هنا الأكواخ البالية، وأحزمة ناقلة متداعية تبدو كمناطق مهجورة للقفز بالزلاجات، والمداخل، والتلال الصغيرة التي غسل المطر تربتها.

قال أحد الهنود: " صناعة"

وقال الآخر: " ولكنها معطلة."

وقال الصبي الماليزي: " ولكنها معطلة" وهو يقلّد لهجة الهنود أمام أصدقائه. فضحكوا جميعهم. صمت الهنود.

مع اقتراب نهاية الظهيرة خلت الشرفة من الناس. اخترق الضوء الشاحب الضباب، وأصبح الهواء راكداً، كان رطباً وساخنًا. وعندما توقف القطار طوّق الهواء كتفّي. ذهب الماليزيون إلى الداخل للنوم، أو ربما لتصيد الفتيات. كان هذا هو موسم فاكهة الدوريان، وهذه الفاكهة التي يعتبرها الماليزيون ذات خصائص منشطة جنسياً، ألهمت الماليزين المقولة: " عندما تسقط فاكهة الدوريان، ترتفع السراويل."

ثم لم يبق سواي والهنديين على الشرفة. كانا في عطلة- وكانت في نهايتها- لقد أمضيا الأسبوع السابق في مؤتمر في سنغافورة. كانا من بنغلادش، واسماهما غوش ورحمان، وكان المؤتمر يتعلق بتنظيم الأسرة.

" هل تعملان في مجال في تنظيم الأسرة؟"

" نحن موظفان." قال السيد رحمان.

قال السيد غوش: " بالطبع لدينا وظائف أخرى، ولكننا ذهبنا إلى المؤتمر كموظفين في تنظيم الأسرة."

" هل قرأت الصحف؟"

" لقد كنا مراقبين. يقرأ الآخرون الصحف."

" هل كان مثيراً للاهتمام؟"

هزا رأسيهما، وهذا يعني "نعم".

" الكثير من الصحف" قال رحمان: " أسرة الطفلين كنظام اجتماعي، ووسائل منع الحمل، وأيضاً التعقيم، واستئصال القناة الدافقة، والأجهزة وتركيب اللولب."

قال السيد غوش: " بعض المناقشات المفيدة، لقد كان سمناً يغطي قضية تنظيم الأسرة من كافة جوانبها. كان عملياً، وحافلاً بالمعلومات بالطبع. ولكن لم يخل الأمر من مشاكل عديدة."

" ماهي المشكلة الأكبر المتعلقة بتنظيم الأسرة في اعتقادك؟"

قال غوش: " التواصل بلا شك،"

" من أية ناحية؟"

" المناطق الريفية،" قال السيد رحمان. أعتقد أنّه سيضيف شيئاً آخر لهذه الملاحظة، ولكنه طفق يربت على لحيته المدببة، وشرّد بعينه خارج الشرفة، وقال: " الكثير من الفتيات يقدن الدراجات البخارية في هذا البلد."

قلت: " لقد شهدت المؤتمر صحيح؟ وأفترض أنك عائد إلى بنغلاديش-"



عائد إلى سنغافورة، ثم بانكوك بالطائرة، ثم إلى دكا. " قال السيد غوش.  
" نعم لكن عندما تعود إلى هناك- أعني لقد سمعت كل تلك الأوراق عن تنظيم الأسرة- ماذا ستفعل؟ "

" غوش؟ " قال رحمن وهو يدعو زميله ليتولى الإجابة على السؤال.  
تنح السيد غوش. وقال: " هناك مشاكل كثيرة. عليّ في البدء أن أقول إننا سنبدأ العمل على المناهج مباشرة. المناهج هي الأهم. وسنضع نموذجاً- العمل وفق نموذج للأهداف. ماذا نحاول فعله؟ ماذا نهدف لتحقيقه؟ ولم؟ وينبغي وضع التكاليف في الاعتبار. جميع هذه الأسئلة تتطلب إجابات. هل تتابعني؟ " تنح مرة أخرى. " ثم التالي في الأهمية، هو مراكز المعلومات " مد يديه ليشير إلى حجم المراكز- " هذا هو، علينا إنشاء مراكز للمعلومات حتى يستطيع عامة الناس فهم أهمية عملنا. "

" أين ستقوم بعمل ذلك؟ "

" في الجامعات. " قال السيد غوش.

" الجامعات؟ "

قال السيد رحمان: " لدينا الكثير من الجامعات في بنغلادش، "

" أتعني أنكم ستذهبون للجامعات للقيام بمهام تنظيم الأسرة؟ "

قال السيد غوش: " لا، إنما لدراسة المشكلة. "

" ألم تتم دراستها مسبقاً؟ "

قال السيد رحمان: " ليس بهذه الطرق الجديدة، لم نملك مراكز للمعلومات " كما أفاد غوش. وليس لدينا أشخاص مدربون. كنت أنا وغوش المبعوثين الوحيدين من بنغلادش في المؤتمر. والآن علينا العودة بكل هذه المعارف. "

" ولكن لم الجامعات؟ "

" قال السيد رحمان للسيد غوش: " اشرح. "

قال السيد غوش: " إنه لم يفهم. أولاً إلى الجامعات، ثم عندما يتوفر الأشخاص المدربون ننقل إلى المناطق الريفية. "

" كم تبلغ كثافة بنغلادش السكانية؟ "

" هذا سؤال صعب. " قال السيد غوش: " هناك عدة إجابات. "

" اعطني تقديرات تقريبية. "

" حوالي خمسة وسبعين مليوناً. " قال السيد غوش.

" ماهو معدل النمو؟ "

" يقول البعض 3 بالمائة، ويقول البعض الآخر 4 " قال السيد غوش: " كما ترى لا يمكن بدء العمل مالم يتم إجراء إحصاء سكاني دقيق. هل تعلم متى كان آخر إحصاء سكاني في بلادنا؟ خمن. "

" لا أستطيع التخمين. "

" كان قبل سنوات. "

" متى؟ "

" كثيرة جداً، عن نفسي لا أعلم. سنوات وسنوات منذ عهد البريطانيين. وبما أننا تعرضنا لأعاصير، وحروب، وفيضانات، يتعين إجراء الكثير من عمليات الطرح والإضافة. لا نستطيع أن نبدأ ما لم نجر إحصاءً للسكان."

" ولكن قد يحدث هذا بعد سنوات من الآن!"

قال السيد رحمان: " حسناً، تلك هي المشكلة."

" في هذه الأثناء ستزيد الكثافة السكانية أكثر فأكثر- سيصبح الأمر رائعاً."

" هل تفهم ما أعني؟" قال السيد غوش. " شعبنا لا يعرف هذا. أستطيع القول إنهم يفتقرون للدافعية الآن."

" الدافعية؟"

" نعم، والهدف."

" هل لي في سؤال آخر يا سيد غوش؟"

" تفضل. أنت تطرح الكثير من الأسئلة!"

" كم طفلاً لديك؟"

" لدي أربعة."

" السيد رحمان؟"

" أنا لدي خمسة."

" هل هذا حجم مناسب للأسرة في بنغلادش؟"

"ربما لا، من الصعب الجزم. لا إحصائيات." قال السيد رحمان.

" هل هناك أشخاص آخرون يعملون في مجال تنظيم الأسرة مثلكم في بنغلادش؟"

" الكثيرون! لدينا برنامج مستمر لكم؟ سيد غوش- ثلاث سنوات؟ أربع سنوات؟"

" هل لدى أولئك الموظفين الآخرين العاملين في مجال تنظيم الأسرة أسراً كبيرة أم صغيرة؟" سألت أنا.

" لدى بعض العاملين في تنظيم الأسرة أسر كبيرة، ولدى البعض الآخر أسر صغيرة."

" ماهي الأسرة الكبيرة؟"

" أكثر من خمسة." قال السيد رحمان.

قال السيد غوش: " حسناً من الصعب التحديد."

" هل تعني أكثر من خمسة في الأسرة؟"

قال السيد رحمان: " أكثر من خمسة أطفال"

" حسناً ولكن إن ذهب موظف تنظيم الأسرة إلى قرية، وشاع أنّ لديه خمسة أطفال هو نفسه، كيف سيقنع الناس بالتنظيم-"

قال السيد رحمان: " إنّ الطقس حار جداً، أعتقد أنني سأدخل."

قال السيد غوش: " كان رائعاً أن نتحدث إليك. أعتقد أنك معلّم. اسمك؟"

كان الظلام قد حل بوصولنا إلى محطة كوالا لمبور التي تعتبر الأكبر في جنوب شرق آسيا، بقبابها الشبيهة بالبصل، ومناراتها، والمظهر العام لجناح برايتون لكنه أكبر بعشرين مرة، باعتباره صرحاً للتأثير للنفوذ الإسلامي فهو أكثر إقناعاً من المسجد الوطني على الطريق ذاته

والذي كلف إنشاؤه مليون دولار والذي يستأثر بجميع السياح. أسرع للخروج من القطار، وركضت إلى قاعة الحجز للحصول على تذكرة للقطار التالي إلى سنغافورة. إنه يغادر في الساعة الحادية عشرة تلك الليلة، عليه كان لدي الوقت لشرب بعض الجعة في هدوء مع صديق قديم، وطبق من ساتيه الدجاج في أحد الممرات الخلفية التي جعلت كوكتو Cocteau يدعو المدينة كوالا النجسة "Kuala L'impure".

----

-----

### الفصل الثالث والعشرون قطار نجم الشمال الليلي السريع إلى سنغافورة

-----

" ما كنت لأذهب إلى سنغافورة إن دفعت لي." قال الرجل في أقصى الحانة في عربة الاستراحة. كان مفتشاً في الشرطة الماليزية، تاميلي مسيحي اسمه سيدريك. وكان يشرب في ثقة كسلى، مثلما يفعل الناس على متن القطارات، وعندما يكونون مقبلين على رحلة طويلة. كانت رحلة ليلية إلى سنغافورة، وعلى وجوه الناس في عربة الراحة تلك النظرة المسترخية التي تسم وجوه الأعضاء في حانة النادي الماليزي (يلعب الصينيون الماهجونغ، والهنود الورق، ومجموعة من الزراعيين ومديري العقارات الإنجليز يروون الحكايات). قال سيدريك فقدت سنغافورة سحرها. كانت باهظة، ويتعرض المرء فيها إلى التجاهل. "إنها الحياة سريعة الإيقاع. إنني أرثى لك."

سألت أنا: "إلى أين تتجه؟"

قال: "كلوانغ، منتقلاً."

قال أحد الزراعيين: "دعونا نسمع هتافاً لكلوانغ!" "مرحى! مرحى!"

الآخرون، أصدقاؤه، تجاهلوه. رجل في الجوار، بقدميه المفتوحتين على اتساعهما، مثل بحار في سطح مؤخرة المركب. إنها وقفة معاقر الخمر في السكة الحديد. قال تشاب: "لقد أحرق هاف أصابعه في ميناء سويتتهام."

سرت نحو سيدريك وقلت: "ما هو عنصر الجذب في كلوانغ؟" كلوانغ مدينة صغيرة في ولاية جوهور، وهي محطة خارجية ماليزية نموذجية، بناديها، واستراحاتها، ومصانع المطاط، وحصتها من الزراعيين الذين يتحولون إلى بياض في أكوأخهم جيدة التهوية.

قال سيدريك: "مشكلة، ولكن هذا هو السبب وراء حبي لها. انظر أنا عامل." لقد كانت هناك مشكلات عمالة تتعلق بالتاميل من جامعي المطاط، وقد فهمت أن سيدريك قد أختير بسبب لونه وحجمه وصوته المخيف.

"كيف تتعامل مع مثيري الشغب؟"

"أستخدم هذه" قال هذا وأراني قبضته المشعرة. "أو إن كنا سنُدان، فالعصا لمن عصى."

عصا الروتان وهي نوع من أنواع القصب- أربعة أقدام طويلاً، ونصف أصبع عرضاً. قال سيدريك إنَّ معظم أحكام السجن تشتمل على الضرب بالروتان. وكان العدد المعتاد ستة ضربات، ولكن ضُرب رجل في سنغافورة مؤخراً عشرين ضربة. " ألا تترك أثراً؟ "

قال هندي قريب من سيدريك: " لا. " وقال سيدريك: " نعم. " ففكر للحظة ثم أخذ رشفة من كأس الويسكي خاصته. " حسناً، يعتمد الأمر على لون بشرتك. لبعض الرجال بشرة داكنة جداً، ولا تظهر عليها آثار الروتان. ولكن أنت مثلاً- ستترك عليك أثراً كبيراً. " قلت: " إذن أنت تجلد الناس؟ "

قال: " لا أفعل. على أية حال، الأمر أسوأ بكثير في سنغافورة، ويفترض بهم أن يكونوا متحضرين جداً. لنواجه الأمر، يحدث هذا في كل مكان. " قلت: " لا يحدث هذا في الولايات المتحدة. "

وقال أحد الزراعيين وكان يتنصت على الحوار: " ولا يحدث في المملكة المتحدة. " لقد فعلوا هذا بحزم البتولا قبل سنوات خلت. قال سيدريك: " وقد لا يزالون. " كانت معارضة وديّة.

بدا الزراعي مرتبكاً قليلاً، كما لو أنّه يقرّ العقاب البدني، ولكنه لا يريد الاعتراف باتفاقه مع وجهات نظر رجل اعتنقها ازدراءً. قال: " إنّه ضد القانون في المملكة المتحدة. " سألت سيدريك، لماذا، إن كان إرساله إلى كلوانغ يعتبر حلاً عبقرياً، حيث من الواضح أنّهم يضربون الرجال بالعصي على مدى السنوات.

قال: " أنت لا تعرف أي شيء، هذا يعطيهم درساً جيداً. وام! وام! ثم يصبحون هادئين ولطفاء. " بينما كان الوقت يمر، غادر بعض الشاربين عربة الاستراحة، وأمر سيدريك ساقى الحانة التاميلي منادياً إياه "يا ولد!" أن يفتح النوافذ. فأطاعه، وفي الظلام، فويق ضجة العجلات، كانت هناك غمغمة مستمرة، مثل انفجار سريع لفقاعات مكبرة، ونواح، ولحن قوي، أشبه بطقطقة مكالمات مباشرة على هاتف ماليزي: صوت الجراد، والضفادع، والصراصير، تختبيء في الرطوبة المنتشرة التي كتمت ضجتها.

أنهى سيدريك شرابه وقال: " إن جئت إلى كلوانغ قط، حدثني. سوف أرى ما يمكن تدبيره من أجلك. " ثم خرج مترنحاً.

قال أحد الزراعيين للساقى: " فيراسوامي، اعط كل واحد من هؤلاء السادة كأساً كبيراً من الجعة، وحاول أن تجد بعض الويسكي لي. "

قال أحد الرجال وهو يجيل بصره في عربة الاستراحة: " هناك واحد مفقود. " اخبرني من هو- أليس ثمة جائزة؟ "

قال رجل آخر: " هينش! اعتاد الوقوف إلى جانب ذاك العمود، وكان يقول: " ساحر، يا إلهي، هل بوسع ذلك الرجل الشرب! "

" لا تبدو الحياة كما هي بدون هينش. " ماذا سمعت عنه؟ "

" كان ريف على اتصال به. "

قال ريف: " لا لم أكن، فقط سمعت بعض القصص. أنت تعرفها. "

" قال أحدهم إنه أصيب بالعمى " قال رجل كان يصب الجعة في أحد الأكواب.

وقال: " نخبكم، بويس، " ثم شرب.

قال بويس: " أجمل الأمنيات. "

قال ريف: " لم أصدق تلك القصة قط. "

قال ثالث: " ثم سمعنا إنه مات. "

" ألم تقل إنه ذهب إلى استراليا يا فرانك؟ "

قال بويس: " ذاك أسوأ من وفاته. "

" بحياتك، يا بويس " قال فرانك.

" لا لم أقل ذلك. في الحقيقة، اعتقدت أنه في مكان ما من الاتحاد. "

قال ريف: " يذكرني، برجل في العزبة، كان يعتقد أنه سيصاب بالعمى. إيرلندي- محض توهم للمرض، عادة ما كان يشد خديه ويريك محجريه الرهيبيين. كان مرضاً مميتاً، ولكن الجميع كان يضحك عليه. على أية حال، كان يذهب ويقابل ذلك الاختصاصي في سنغافورة. ويعود غاضباً، فنسأله: " ما المشكلة يا بادي؟ " ويقول: " إن ذاك الدجال لا يعرف شيئاً عن الجلوكوما! "

قال بويس: " يبدو كفروجيت. "

قال فرانك: " شكراً جزيلاً لك. "

قال بويس: " حدث ريف عن مرضك بالسكر. "

قال فرانك متذمراً: " لم أقل أبداً إنني مريض به. " ثم تحدث إلى ريف. " لقد قلت إنه محتمل. عرض واحد لمرض السكر- كنت أقرأ هذا في مكان ما- إنك إن تبولت في حذائك وتحولت البقعة إلى اللون الأبيض فأنت في خطر. "

" أعتقد أنني في خطر " قال بويس وهو يرفع قدمه متجهاً إلى الحانة.

قال فرانك: " هذا مضحك جداً. "

قال ريف: " أين نحن؟ " وانحنى باتجاه النافذة. " لا أستطيع رؤية أي شيء. يا فيراسوامي، ماهي المحطة التالية؟ وبينما تجيب على السؤال احضر لنا قارورتي جعة إضافية، وبعض الويسكي لوالدي هنا. "

قال بويس: " هذه قارورتي الأخيرة. لقد دفعت للحصول على فراش وأنوي استخدامه. "

قال فيراسوامي: " نحن على مشارف سيريمبان. " وهو يفتح قارورتين من البيرة، ويزحلق كأساً من الويسكي.

قال ريف: " يا إلهي، إنني أفنقد هينش. " " لقد كان ينتظر فرصته للذهاب. لم أعرف ذاك قط. أرجو ألا يكون ميتاً. "

" حسناً، أنا خارج. " قال فرانك وهو يأخذ قارورة الجعة خاصته، وأضاف: " سأخذ هذه معي. أتمنى لو كانت لدي امرأة. "

وعندما ذهب قال بويس: " أنا قلق على فروجيت. "

" تلك الدعابة عن مرض السكر؟ "

" هذا جزء واحد فقط. إنه بدأ يتصرف كما فعل هينش قبل أن يختفي. يجوز القول إنه متكتم. ويذكر استراليا بعض الأحيان- انظر إلى ما يقول. لقد صار منحرفاً تماماً." انطلقت الصافرة في سيريمبان، لتطرد الحشرات. التفت ريف نحوي. " رأيته تتحدث إلى ذلك الرجل الهندي. لا تدعه يقلقك. في الحقيقة، لو كنت مكانك سأقسم كل ما قاله على عشرة. طابت ليلتك."

ثم صرت وحيداً في حانة قطار نجم الشمال الليلي السريع. في الطرف الأقصى من العربة، ما زالت لعبة الماهجونج تدور، وقد تأرجحت الستائر بينما كنا نغادر سيريمبان. بعض الحشرات طارت عبر النوافذ، وتجمعت حول المصابيح، وطاردت بعضها البعض في دوامات مثيرة للدوار.

قال فيراسوامي: " سنغافورة؟"

قلت نعم، تلك وجهتي.

" كنت أنا نفسي في سنغافورة العام الماضي. لقد ذهب إلى الاحتفال بالتاييوسام، كما قال. وحمل الكافادي<sup>13</sup>. التاييوسام احتفال تاميلي محظور في الهند. ولكنه مسموح في سنغافورة من أجل السياح الذين يصورون التاميل المتحمسين وهم يسيرون إلى شارع تانك وقد غرزوا في خدودهم وأذرعهم أسياخاً معدنية.

يلتقي التاميل في معبد بعينه في الصباح، ثم بعد أن يُثَقَّبُوا بأسياخ طوال، ويُعلق الليمون على أجسادهم بخطاطيف صيد الأسماك، ويحملون أضرحة خشبية هائلة على رؤوسهم لحوالي ميلين قبل أن يصلوا إلى معبد آخر. كنت مهتماً بمعرفة ما إذا كان فيراسوامي قد فعل كل ذلك، فسألته عنه.

"لدي ستة عشر- واحد- ستة- ماذا تسميها؟ مدى؟ في الجسم. هنا وهنا وهنا. وواحدة تخترق اللسان. وخطاطيف في الركبتين، وفوق هنا، في كتفي.

" أفعل هذا لأن زوجتي كانت تستعد للحمل وكنت قلقاً، فظللت أصلي وأصلي لهذه المسألة، وجاء الإبن، فقدمت فروض الشكر لربي موروغان، أخ لسوبرامانيام. وقدمت المزيد من الصلوات. لا نستطيع النوم على الأسرة، ولا على الوسائد، فقط على الأرض لأسبوعين كاملين. ثم قبل ذلك بأسبوع لا نتناول اللحم، فقط الحليب- والموز والفواكه. أرتاد المعبد. هناك أشخاص آخرون، ربما مائة أو مائتان. أصلي، وأستحم. يأتي الأب ونغني " أراني كيف غني. وكان يضم يديه أسفل ذقنه، وتحفظ عيناه ويهز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف- وبعد أن ننهي الأغنيات، نصلي. فيحضر الرب في الداخل! نسرع، لا ننتظر. يأخذ الأب اللسان، ويحضر الناس بسكاكينهم. وبالخطاطيف، ولا يخرج الدم، ولا يؤلم الجرح- وبوسعه أن يقتلني حتى! لا أبالي! يأتي دور الأغنية ويأتي الرب،

<sup>13</sup> [هيكل حديدي مثبت على رمح وبه بعض الأشياء في إشارة إلى الإخلاص عبر التضحية بحمل الأثقال تقريباً إلى الإله موروغون [Murugan]، في يوم احتفال التاميل باكتمال القمر في شهر التاي.]

ولا نعرف شيئاً بعد. نرغب في الخروج، ولا نريد التوقف. تُغرز فينا المِدى، والخطاطيف، ونحن نسير لا نلوي على شيء.

"ثم يجيء الحشد - الكثير من الناس. تتوقف حركة المرور - تسمح لنا السيارات بالمرور - وتصلي زوجتي وأختي كثيراً، فيحل فيهم الرب، ويغمى عليهما. لا أرى شيئاً. أسير مسرعاً، أكاد أركض ركضاً على طريق سيرانغون. وطريق أوركارد، وطريق تانك، وأطوف بالمعبد ثلاث مرات. ثم يأتي الأب. فيصلي، ويضع المسحوق على الوجه، وينتزع الحديد. نحن لا نعلم شيئاً. فقط نفقد الوعي داخل المعبد."

تسارعت أنفاس فيراسوامي. كان يبتسم. اشتريت له قارورة غرين سبوت، ثم انطلقت لمقصوري، وأنا أربت على كتفي بينما أتلصص طريقاً على طول ممر القطار المسرع. نهضت باكراً للخروج للشرفة لمشاهدة عبور الجسر من جوهور باهرو. ولكنني قابلت في الممر رجلين، اعترضاً طريقاً، وطلبا رؤية جواز سفري. قال أحدهم: " دائرة هجرة سنغافورة." قال الآخر: " شعرك طويل جداً."

قلت: " وشعرك قصير جداً." وبني شعور بوجوب مقابلة الوقاحة بمثلها. ولكن ووفقاً لقانون سنغافورة من حق ضباط الهجرة رفض دخولي إن رأوا أنّ شعري لم يكن مرتباً. وشرطة سنغافورة التي لم تكن لديها أية سلطة على القتلة والمبتزين في مجتمعات الصينيين السرية، اعتادت على تسيير الشباب طويلي الشعر كالضفادع في قسم شرطة شارع أوركارد لحلاقة رؤوسهم.

" كم لديك من المال؟"

" ما يكفي" قلت أنا. والآن صار القطار على الجسر، وكنت أتلّف لإلقاء نظرة على مضيق جوهور.

" المبلغ بالضبط."

"ستمائة دولار."

"بعملة سنغافورة؟"

"أمريكا."

"ابرزها."

وعندما أحصيا كل دولار، منحاني تأشيرة الدخول. لكنني فوّت الجسر. كان سهم الشمال ينطلق مروراً بالمستنقعات الغابية على الجزء الشمالي من الجزيرة باتجاه طريق جيرونغ. كنت أربط هذا الطريق بالدين: قبل خمس سنوات كنت أقود عبره في الصباح لتوصيل زوجتي لعملها. كان الوقت بارداً على الدوام عندما نغادر المنزل، ولكن حالما تدفّء الشمس المشرقة الجزيرة ترتفع درجة الحرارة إلى ما يقارب 80 درجة، وعندما نعود أنا وابني الصغير (وهو مصاب بدوار السيارات في مقعده المملد) أعيده إلى أمه، وأنا أعود إلى روايتي الأفريقية التي لم تكتمل. كانت رحلة عجيبة عبر الجزيرة، وقد تسارعت الذكريات على وقع روائح السوق الحريفة بالقرب من سيرك بوكيت تيماه، ومنظر النباتات الاستوائية التي أحببتها. النخيل بالقرب من القضان يسمى البينانغ راجاه، وهو ذو سعف ريشي يتجمع في الأعلى ويبدو كمظلات احتفالية، والمصانع التي تصبغ الأعمدة الخضراء من كوى وأكوام الأشجار القديمة، زينة الخمر تسمى "ورقة الشبح التي

تمنح الأشجار الميتة الحياة". شعرت بالدفء تجاه سنغافورة. كيف أشعر بغيره في مكان ولد فيه أحد أطفالي، حيث كتبت ثلاثة كتب، وحررت نفسي من روتين التدريس الممل؟ لقد بدأت حياتي هناك. والآن نحن نمر بكوينز تاون، حيث درست أن في فصول المدرسة الليلية في ماكيبث، مستشفى شارع اوترام العام، حيث عولجت من حمى الضنك. والجزيرة في المرفأ- هناك عبر الأشجار- حيث في الكثير من نزهات أيام الأحاد، علقنا في عاصفة مرعبة، ورأينا ثعبان بحر ساماً، ومررنا بجثة بشرية عجوز، ومفعمة بالحياة (لا تدع الأطفال ينظروا!!)، ملقة في الهواء الطلق مثل دمية من دمي الشواطيء.

وقد أدرجت محطة سنغافورة للهدم بسبب اعتبار التماثيل الانجلوسكسونية للرجال المفتولي العضلات الذين جسدوا "الزرعة"، و"التجارة"، و"الصناعة"، و"النقل" طرازاً قديماً مثلها مثل اللافتة الحجرية على الجدار: سكة حديد اتحاد الولايات الماليزية. تعتبر سنغافورة نفسها جزيرة الحداثة في جزء متخلف من آسيا، والكثير ممن يزورونها يؤكدون هذا الشيء بأخذ الصور للفنادق الحديثة، والشقق السكنية التي بدت مثل صناديق الموسيقى، وخزانات الملفات على التوالي. سياسياً، لا تختلف سنغافورة في بدايتها عن بوروندي، بقوانينها القامعة، والمخبرين مقابل المال، والحكومة الدكتاتورية، والسجن الذي يعجّ بالسجناء السياسيين. أما من الناحية الاجتماعية فهي أشبه بالهند الريفية، حيث تعتمد الأسر على النساء الغسّالات، والمربيات والبستانيّين، والطباخين، والخدم. في المصنع، العمال- مثل غيرهم في سنغافورة- ممنوعون من الإضرابات- يتلقون أجوراً متدنية. الإعلام ممل لدرجة لا تصدق، بسبب الرقابة المشددة. سنغافورة جزيرة صغيرة، لا تتجاوز مساحتها 227 ميلاً مربعاً عندما ينحسر المد، بيد أن الحكومة تشير إليها في مبالغة واضحة بالجمهورية، وبالنسبة لآسيا فهي أصغر من ضفة رملية- ولكنها ضفة أثرتها الاستثمارات الأجنبية (مواطنيها من أعظم مجمعي الأجهزة)، وحرب فيتنام. حجمها الصغير يسهّل إدارتها: يتم التحكم في الهجرة بقوة، وتنظيم الأسرة منتشر، غير مسموح لأي شخص بحضور الجامعة مالم يحصل على ترخيص أمني لإثبات خنوعه، ويُشجّع الصينيون (القادمون من أمريكا، وهونغ كونغ، وتايوان) على الاستقرار هناك، وما عداهم على المغادرة.

تضطلع الشرطة في سنغافورة بأغرب المهام: المحاكم تعجّ بالمظلومين. في أي بلد آخر على وجه الأرض قد يرى امريء ما مثل هذه الأشياء مكتوبة على ورقة؟

أحد عشر مقالاً، ثلاثة من أعضاء الأسر، ومالك متجر بترو، غُرموا ما مجموعه 6.035 دولاراً أمريكياً بالأمس لتربية الناموس.

تان تيك سن، 20، عاطل عن العمل، غُرم 20 دولاراً على الصراخ في استقبال فندق كوكبيت أمس.

غُرم أربعة أشخاص مبلغ 750 دولاراً تحت قانون تدمير الحشرات الناقلة للأمراض للسماح بتوالد الناموس.

غُرم سليمان محمد 30 دولاراً أمس لرميه قطعة من الورق في مصرف في الميل 15 1/2 من طريق وودلاند.

والسجن لسبع أو ثماني سنوات شائعة على المخالفات السياسية، وتشتمل المخالفات الجنائية في العادة على الجلد. يمكن ترحيل أجنبي بسبب طول شعره، ويجوز تغريم أي شخص غرامة تصل



إلى 500 دولار للبصق أو رمي الأوراق على الأرض. وقد مررت هذه القوانين من الأساس حتى يأتي السياح إلى سنغافورة، وإن ذاعت الأخبار بأنها بلد نظيف ومنضبط، فسيرغب الأمريكيان في نصب المصانع، وتوظيف السنغافوريين الذين لا يضربون. تشدد الحكومة على السيطرة، إلا أن فرض السيطرة في بلد صغير كسنغافورة ليس بالأمر الصعب.

هنا مجتمع حيث الصحف مُراقبة، وتوجيه النقد للحكومة محظور، وحيث التلفاز مصدر للتسلية الفارغة بعروض المسابقات، وكوميديا الأوضاع البريطانية والأمريكية، والبرامج الوطنية؛ حيث يعيث بالبريد، وتُجبر البنوك على إفشاء بيانات الحسابات السرية لعملائها. إنه مجتمع حيث لا خصوصية، وحيث تفرض الحكومة سيطرة تامة. هذه هي فكرة السنغافوريين عن التقدم التكنولوجي:

كيف تحب أن تعيش في سنغافورة المستقبلية حيث يصل البريد والصحف إلى منزلك إلكترونياً عبر طبعة من جهاز الفاكسميلي؟

الأمر أشبه بالخيال العلمي، ولكن بالنسبة للمدير العام المكلف لمجلس هاتف سنغافورة، السيد فرانك لوه "قد أصبح واقعاً في وقت ليس بالطويل".

وقد قال: "التطور في الاتصالات الهاتفية قد ساهم بالفعل بالكثير لتغيير أنماط عيشنا. المفاهيم مثل "المدينة السلكية" حيث تُسد احتياجات الاتصالات جميعها من خلال كابل واحد لأي منزل أو مكتب قد أصبح قيد التطبيق قريباً".

كان السيد لوه يتحدث عن "الاتصالات الهاتفية" في مجمع معهد سنغافورة-ماليزيا للمهندسين، وقدم تفاصيل أكثر عن تلك التطورات المثيرة التي ستحدث في المستقبل. قال: "تخيل، في منزل، مركز اتصالات، قد تصل الصحف والبريد إلكترونياً عبر نسخة مطبوعة من جهاز الفاكسميلي".

(صحيفة ستريت تايمز، 20 نوفمبر 1973)

لقد صعقتي كنوع من التكنولوجيا التي تقلل الحرية، وفي مجتمع كان في الأساس مصنع تجميع للمصالح التجارية الغربية، معتمداً على حسن نوايا النساء الغاسلات، والطلاب الجبناء، هذه التكنولوجيا كانت مفيدة لجميع أنواع البرامج والحملات. "في المدينة السلكية لن تحتاج إلى مكان على الجدار، لأن سنغافورة تريد عائلات صغيرة، ضَع قلبك في الرياضة، وبلغ عن أي شيء مريب: سوف يتم حشو جهاز الفاكس بهذه الرسائل بكل بساطة وترسل إلى كل منزل.

ولكن هذه ليست كل سنغافورة. هناك هامش، ضاق مؤخراً عما كان عليه، حيث الحياة تستمر، بلا هدف، لا تعيقها الشرطة، ولا وزارة التكنولوجيا. وعلى هذا الهامش، الذي كان سميكاً بحاناته، يحتفل الناس يوم السبت بوجبة الكاري على الغداء، ويشربون الجعة طوال فترة ما بعد الظهر وهم يقولون: "سنغافورة خرائب- أنا ذاهب إلى استراليا"، أو "أنت محظوظ إذ يسعك الخروج متى أردت". إنها مكان حيث يتحدث الجميع عن المغادرة، ولكن لا أحد يغادر، كما لو أنه بمغادرته سيُحاسب على جميع تلك السنوات الخالية، المهذرة في تشغيل ماكينات الدخول في نادي السباحة، وتوقيع العقود في دار العمل، اللعب بالقهوة، وانتظار وصول البريد. وعلى الهامش ما زالت قلة من المواخير، وصالات التدليك، والمقاهي، والحسومات للأصدقاء القدامى، هناك مراوح عوضاً

عن مكيفات الهواء، وبعض الحانات بها سقائف حيث قد تجد مجموعة من الشاربين نصف ساعة من التسلية في مراقبة وزغ سمين وهو يبتلع في صوت عالٍ ذبابة سجع.

كان ذاك وزغاً على الحائط، ما أثار الفكرة التي أرسلتني بعيداً. كنت أقيم في ذا ميس، وهو منزل عالٍ جيد التهوية على هضبة وريفة، وأدركت أنني كنت أبخلق في وزغ على الحائط لخمسة عشر دقيقة أو أكثر. كانت عادة قديمة، تبدأ عند الملل. بدا الأمر كما لو أنني كنت في سنغافورة قبل وقت طويل جداً، عندما كنت صغيراً ولا أعرف أي شيء، ووجودي هنا للمرة الثانية بعد غياب عامين، لمحت هذا الشخص الآخر. لقد كان من الممكن من على البعد الحفاظ على وهم السعادة السابقة- الطفولة أو أيام الدراسة، ثم تعود إلى وضع سابق، وتتساقط السنوات وتدرك بمرارة كم كنت حزيناً. لقد شعرت أنني عالق في سنغافورة، شعرت كما لو أن الضجيج يقتلني- الطرق، وزحام المرور، أجهزة المذياع، والصراخ- واكتشفت أن معظم السنغافوريين أفظاظ، وعدائيون، وجبناء، وغير مضيافين، ونفوسهم ملأى بالمخاوف العنصرية، وفيهم حساسية تجاه كل سلطة متنمرة. كنت أعتقد أنها مكان بغيض: اتفق معي الكثيرون من طلابي، ولم يستطيعوا تخيل لماذا قد يريد أي شخص البقاء هناك. على الأقل غادرت أنا، وفي هذه العودة لم أستطع تخيل ذلك، وأنا أراقب هذا الوزغ، لماذا بقيت ثلاث سنوات هناك؛ ربما كان السبب ترددي الخادع الذي خلته صبراً، أو ربما احتياجي للمال. لقد كنت متأكداً من أنني لن اقترب الخطأ ذاته مرة أخرى، وعليه بعد رؤية قلة من الأصدقاء- وقد أخبرني الجميع بتخطيطه للمغادرة قريباً- غادرت جواً. أمضيت اليوم السابق في نادٍ كنت من أعضائه فيما سبق. كان سكرتير هذا النادي رجلاً متعجرفاً ذا ضحكة تتم عن الهوس، ولكنه كان يعيش في سنغافورة منذ الثلاثينيات. لقد كان حقاً من الطراز القديم، كما يقول الناس. سألت عنه. قال الرجل المسؤول عن الحانة: " هل أنت صديقه؟" قلت إنني أعرفه. " سأبقي ذاك سرّاً إن كنت مكانك. في الشهر الماضي، اختفى ومعه 180,000 دولار من مال النادي. " "مثلي- " مثل الجميع في سنغافورة- كان ينتظر فرصته ليغادر.

----

-----

## الفصل الرابع والعشرون

### قطار سيهون-بيان هوا للركاب

-----

ذهبت إلى فيتنام لأخذ القطار، يفعل الناس أشياء أكثر غرابة في ذلك البلد. استغرق تشييد طرق ترانسفيتنام الحديدية، التي كان الفرنسيون يدعونها ترانساندوشينوا، ما يزيد على ثلاثة وثلاثين عاماً، ولكن في عام 1942، بعد ست سنوات فقط من إكمال بنائها، نُسفت ودكت دكا ولم ترمم أبداً. حلوى استعمارية، مثل تلك الأطباق الفرنسية التي يستغرق إعدادها زمناً طويلاً ثم تستهلك بسرعة: حلوى قصيرة العمر لا يبقى منها سوى التعب والذكرى. يمضي الخط على طول الساحل الجميل، امتدحه عدد قليل من إنكشاريينا المالكين، من سيهون إلى هانوي، ولكنه الآن مجزأ مثل دودة مقطعة كطعم، قسم هنا وقسم هناك تتلوى إعلاناً عن حياتها. زرعت الألغام فيها بواسطة

الفيت كونغ- وبشكل أكثر وحشية منذ وقف إطلاق النار (الذي كان تعبيراً ملطفاً ومؤملاً، طوعاً أو كرهاً)؛ كما لغمه رجال الشحن المحليون، والإرهابيون الساعين وراء المال، الذين يعتقدون أنّ اتصال أجزاء السكك الحديدية هذه (إلى دالات، وهيو، إلى توي هوا) سيحول بينهم وبين كسب رزقهم الذي ينتظرونه وفقاً لما تعلموه من الأمريكيان. مثلها مثل غيرها في فيتنام، تحولت السكة الحديد إلى أطلال- في مقاطعة بين دين الشمالية، تم تحويل السكة حديد إلى حقول للأرز، ولكن الأمر المذهل أنّ جزءاً منها ما زال يعمل. قال لي تران مونغ تشاو، مدير خطوط فيتنام الحديدية بالإنابة، وهو رجل قصير، ذو نظارات سميكة: نحن لا نستطيع إيقاف السكة الحديد. نحن نحافظ عليها ونخسر المال. ربما نقوم ببعض الإصلاحات. ولكن إن أوقفناها سيعرف الجميع أننا خسرنا الحرب."

حذرني مونغ تشاو من الذهاب من نها ترانغ إلى توي هوا، ولكن قال إنني قد أستمتع بالرحلة من سيهون إلى بين هوا- كانت هناك أربع عشرة رحلة في اليوم. أُنذرتني أنه لن يكون كالقطار الأمريكي. ذاك التحذير على وجه التحديد (ولكن كيف كان له أن يعلم؟) كان أشبه بتوصية. سألت ديال خارج المكتب، وهو مترجمي الأمريكي، محارب بحري تحول إلى مرشد في الشؤون الثقافية (لقد قام —وابتسم مما في العبارة من فسق- بعملية "دخول جانبي") : هل تعتقد أنّه من الآمن ركوب القطار إلى بين هوا؟"

قال ديال: " قبل شهر تقريباً، ضربته جبهة تحرير جنوب فيتنام، وقبضوا على ستة أو سبعة من الركاب في كمين. أوقفوا القطار بعمود من الملح- ثم بدأوا إطلاق النار. " ربما علينا التخلي عن الفكرة."

" لا إنّه مؤمن الآن. على أية حال. لدي مسدس."

في الصباح التالي على الإفطار، أخبرني الكوبرا واحد- وهذا هو الاسم الحركي لمضيفي الأمريكي في سيهون- أنّ لجنة فيتنام للسياح أرادت رؤيتي قبل أن أستقل القطار إلى بين هوا. قلت إنني سأكون مسروراً بزيارتهم. كنا نأكل على سقف منزل الكوبرا واحد الكبير، ونحن نستمتع ببرودة الطقس، وأريج الأشجار المزهرة. من وقت لآخر تمر بنا طائرة عمودية أثناء تحليقها على ارتفاع منخفض، تتردد بين أسطح المنازل. قال الكوبرا واحد إنّ حملة كبيرة أطلقت هناك لجذب السياح إلى فيتنام. وأشرت إلى أنّ الفكرة قد تكون سابقة لأوانها فوق كل شيء فما زالت الحرب دائرة.

قالت زوجة الكوبرا واحد، الكوبرا اثنين: " هذا ما لن تعرفه أبداً هنا." وقد رفعت ناظريها عن صحيفتها. إلى الأسفل منا في مركز المجمع، كانت هناك بركة سباحة، وضعت بين أحواض الزهور وصفوف أشجار النخيل. وقد حمل السور البعيد ملفاً من السلك الشائك، ولكن هذا جعلها أكثر شبهاً بسنغافورة. كان هناك سياج من الكركديه الأحمر على طول طريق السيارات ومستعمرات من السرخس العملاق، ورجل بقميص أصفر يكشط الدروب المفروشة بالحصى تحت أشجار زهرة البستان، أو السلسلة الذهبية. قالت الكوبرا اثنان وهي تحت خطواتها في صندلها الفرو، ساحرة في رداءها الحريري ذي الأشرطة والنجوم المصلصلة: " بعض من أفضل- أي نصف هذا من الكرة الأرضية؟"

قال الكوبرا 1: " الشرقي."

"صحيح. بعض من أفضل المناظر في نصف الكرة الشرقي موجودة في هذا المجمع." مكتب مدير لجنة تخطيط السياحة بفيتنام كان مزيناً بالمخمل الأحمر من الأرضية للسقف، وكانت هناك شرائط على هوامش الجدران. بدونا وكأننا نجلس في صندوق شيكولاتة فخم وخال. قلت إنني لا أملك من الوقت الكثير، إذ أنني كنت ذاهباً لأخذ القطار إلى بين هوا. تبادل مدير التخطيط والمفوض بالإنابة النظرات القاسية. قال فو دوان تشاو، المدير، إنَّ القطار كان في حالة سيئة- ماذا علي أن أفعل، قال خذ عربة إلى فانغ تاو وانزل للسباحة. قال: "فيتنام مشهورة بشواطئها."

مشهورة بشواطئها! والكثير غيرها،" كنت سأقول، ولكن تران لونغ نغوت المفوض بالإنابة المدرب الأمريكي، بدأ شرح الحملة. لقد كانوا يسعون لجذب السياح بقوة، وقد ابتدعوا حبكة دعائية غير قابلة للفشل: مشروع اتبعني! كانت الملصقات المطبوعة تصوّر الفتيات الفيتناميات الجميلات في أماكن مثل دانانغ، وهيو، وجزيرة فو كوك، والعبارة المكتوبة على الملصق هي: "اتبعني!" وسترسل هذه الملصقات التي تحمل عبارات مثل (بليكو- اتبعني! دالات- اتبعني!) إلى جميع أنحاء العالم، ولكن تم توظيف الجزء الأكبر من أموال الحملة لتشجيع السياح في الولايات المتحدة واليابان. قدّم لي السيد نغوك كومة من المطويات ذات العناوين البراقة مثل هيو اللطيفة، قم بزيارة فيت-نام، وسألني عما إذا كانت لدي أية أسئلة. فقلت: "عن هذه الشواطئ؟" قال السيد نغوك: "شواطئ جميلة جداً، وغابات وخضرة أيضاً."

قال السيد تشاو: "فيتنام أوتيت من كل شيء نصيباً." قلت: "ولكن السياح قد يشعرون ببعض القلق من الإصابة بطلق ناري،" قال السيد نغوك: "خارج مناطق المواجهات! ماذا يقلقك؟ أنت تنتقل في أرجاء البلد بنفسك، أليس كذلك؟" "نعم، وأنا قلق."

قال السيد نغوك: "نصيحتي لك هي ألا تقلق. نحن نتوقع الكثير من السياح. ونعتقد أنهم سيكونوا أمريكيين، وربما بعض اليابانيين. اليابانيون يحبّون السفر." قلت: "قد يفضلون الذهاب إلى تايلاند أو ماليزيا، لديهم شواطئ جميلة أيضاً." قال السيد تشاو: "إنهم يفرطون في الدعاية، لديهم فنادق ضخمة، وطرق، وجماهير غفيرة من البشر. إنَّها مثيرة للاهتمام بتلك الدرجة- لقد رأيتهما. في فيتنام يستطيع السياح العودة إلى الطبيعة!" قال السيد نغوك: "ولدينا فنادق أيضاً، ليست من فنادق الخمس نجوم لكنها في بعض الأحيان مكيفة الهواء أو تستخدم المراوح الكهربائية. يسعك أن تقول أنَّها توفر الحد الأدنى للراحة. ولدينا ذلك الكوخ الذي شُيّد للرئيس جونسون عندما زار البلاد. يمكن تحويله إلى شيء ما. نحن لا نملك الكثير في الوقت الراهن، ولكن لدينا وفرة في الفرص."

قال السيد تشاو: "وفرة في الفرص، سوف نستفز فضولهم- الأمريكيين. لدى الكثيرين منهم أصدقاء أو أقارب في فيتنام. لقد سمعوا الكثير عن هذا البلد." وقال بطريقة مميزة تدعو للحذر: "سيتسنى لهم الآن معرفة كيف يكون حقاً."

قال السيد نغوك: " الأماكن مثل بانكوك وسنغافورة تجارية محضة. لا تثير الاهتمام. نحن نقدم العفوية والضيافة وبما أنّ فنادقنا ليست ممتازة فقد نجذب الأكثر رغبة في المغامرة. هناك كثير من الأشخاص الذين يحبّون استكشاف المجهول. ثم بوسع هؤلاء العودة إلى الولايات ليخبروا أصدقاءهم أنّهم رأوا المكان الذي دارت فيه هذه المعركة أو تلك." قال تشاو: " سيقولون: " لقد نمت في خندق في بليكو!"

لقد كانت هناك نقطتان للإقناع حقاً، الشواطيء، والحرب. ولكن الحرب ما زالت دائرة، على الرغم من حقيقة عدم ذكر أي شيء عن وجودها في الدليل ذي الأربع والأربعين صفحة والمعنون: " زر فيت-نام، ما عدا جملة مبهمة، " اللغة الإنجليزية تحرز تقدماً مطرداً تحت ضغط الأحداث المعاصرة"، وهو الشيء الذي قد يستشف منه إشارة طفيفة إلى الاحتلال الأمريكي، وربما إلى الحرب. في ذلك الوقت- ديسمبر 1973- تم قتل 70.000 شخصاً منذ وقف إطلاق النار، ولكن مفوضية فيتنام للسياحة كانت تصوّر هيو (وهي مدينة مدمرة ذات شوارع موحلة، وتتعرض للقصف من وقت لآخر) كمكان خلّاب المناظر، حيث الصروح التاريخية، والأفنية والبوابات التي تحمل علامة ماضيها المجيد. " وتحثّ الزائرين على المرور بدانانغ، والسفر ستة أميال جنوب المدينة لرؤية "الرماح والأعمدة الرائعة" بدون أن يأتوا على ذكر الحرب الحامية التي ما زالت تشتعل في تلك المنطقة على وجه التحديد، حيث يختبيء حاملو البنادق في المغارات بالقرب من جبل الرخام.

قبل مغادرتي المكتب، أخذني السيد تشاو جانباً وقال لي: " لا تذهب إلى بيان هوا بالقطار." سألته لماذا؟، فقال: " ذاك هو أسوأ قطار في العالم،" كان محرّجاً من أن تكون بي رغبة في ركوب ذلك القطار. ولكني صممت، وانطلقت إلى المحطة وأنا أدعو لنجاح حملته لجذب السياح إلى مواقع المعارك.

لم تكن هناك لافتة في محطة سيهون، بيد أنني ربما كنت على بعد خمسين قدماً منها، لم يكن أي شخص يعرف في المنطقة أين موقعها. ثم عثرت عليها بمحض الصدفة، عندما كنت أمر بمكتب تذاكر الخطوط الجوية الفيتنامية، ولكن حتى عندما وصلت إلى الرصيف، لم أكن متأكداً من أنّها محطة السكة الحديد: لم يكن على الرصيف ركاب ولا قطارات. وتبين أنّ القطار كان للمسافات القصيرة على طول الخط، ولكنه كان سيتوقف لعشرين دقيقة. كانت العربات عبارة عن صناديق خضراء بالية، بعضها خشبي (ذات أجزاء نائئة)، وبعضها معدني (عليه أختام). كان نظام المقاعد، أريكة ضيقة تمتد على طول جدار العربة، فهي غير مريحة ولا مناسبة، ومعظم الركاب كانوا وقوفاً.

كانوا مبتسمين وهم ممسكون بما لهم من بط ودجاج تبدو عليه المسكنة، وأطفالهم النصف أمريكيين، الذين تركت أشعة الشمس الحارقة سيماها على بشرتهم بقسوة.

كان ثمة قطار آخر أقدم، يقف على الجانب البعيد من الفناء. يجر بواسطة حواجز حديد مطاوع مثبتة على الشرفات- وهي سمة فرنسية في هذه العربة- فسرت الهوينى عليها. ثم صعدت إلى داخل هذا القطار نصف المهجور، وسمعت صرخة تذر حادة. قفزت فتاة على بعد عربتين (رأيت شبها بين الأبواب المكسورة)، وارتدت بنطالاً من الجينز بسرعة. ثم رأيت صبياً يثور وهو

يقلب ثيابه. فذهبت في الاتجاه الآخر، ودخلت بين فتاتين من مدمني الهيروين النائمين، بنمش وأوشام وندوب إبر على أذرعهن. استيقظت إحداهما وصرخت في وجهي. فأسرعت مبتعداً: كان ثمة عشاق على القطار وأطفال وشباب بملامح خطيرة يتسللون إلى القطار عبر العربات. ولكن لم يكن للقطار محرك: لم يكن ذاهباً إلى أي مكان. عبر مأمور المحطة القضبان، وكان يرتدي قبعة ذات حافة بلاستيكية، وهو يلوح لي بيديه. قفزت خارج القطار المهجور، وذهبت إليه أضافه. شرح لي وهو يضحك كالخروف، إن هذا ليس هو القطار المسافر إلى بيان هوا، ولكنه ذلك القطار، وأشار إلى صف من العربات الصندوقية المنتفخة.

اتجهت إلى إحدى العربات، وكنت على وشك الصعود عندما هتف بي مأمور المحطة: " لا!، لا!"

أوماً لي أن أتبعه، و ما زال يضحك، وهو يقودني إلى ذيل القطار، حيث، كانت هناك عربة مقطورة من نوع مختلف تماماً. كانت هذه العربة الخشبية مزودة بمطبخ وثلاث مقصورات نوم، واستراحة كبيرة، وكان من الواضح أنها بقية من القطار العابر للهند الصينية، وعلى الرغم من أنه ليس فاحراً حتى بالمعايير الهندية، إلا أنه كان مريحاً وواسعاً. وقال مأمور المحطة، إنها عربة المدير: طلب المدير أن أستقلها! فصعدنا على متنها، وأوماً مأمور المحطة إلى رجل الإشارة، وانطلق القطار.

رحلة مجانية في عربة المدير المقطورة الشخصية، لإرباك خيالية المكان أكثر مما هي عليه: لم يكن الأمر كما توقعت. ليس في فيتنام. ولكن هذا التركيز على الامتياز نسخة من البذخ الأمريكي. إنها وظيفة الحرب، التي أنتجت نظاماً ملتزماً لاستدراار تعاطف الزوار، جميع الزوار الذين أرادوا جميعهم أن يحصلوا على معاملة خاصة ممتازة (للمخاطرة التي يعتقدون أنهم يعرضون أنفسهم لها).

كان كل زائر بمثابة مشروع دعائي، المفارقة تكمن في أن حتى أكثر المستقطبين سخطاً كان يحصل على راحة ورصيد غير محدود يحول في ظلها مشاعره إلى غضب محتدم. وتستمر هذه الضيافة، التي زادها الكرم الفيتنامي الفطري. كاد قبولها أن يكون فعلاً مستوجباً للخي، لأن لها جنوراً في الخطة ذاتها التي تطورها الشركة عندما تتحول بسخرية إلى حملة للترويج لمنتج غير ناجح. لقد شوّهت الحقيقة. ولكنني احتفظت برأيي لنفسى: لقد ورث الفيتناميون عادات التبذير الفادحة والمرهقة.

جلسنا حول الطاولة في الاستراحة التي احتلت ثلث عربة المدير. وضع مأمور المحطة قبعته جانباً، وملس شعره. قال إنه تلقى عدداً من عروض الوظائف بأجر جيد بعد الحرب العالمية الثانية، ولكنه اختار بدلاً من ذلك العودة إلى وظيفته الأولى في الطرق الحديدية. لقد أحب القطار وكان يؤمن بالمستقبل الرائع للخطوط الحديدية الفيتنامية. وقال: " بعد أن نفتح الخط المتجه إلى لوك نينه، سوف نصل إلى تركيا." سألته عن مدى إمكانية هذا الأمر.

" ذهبنا إلى لوك نينه، وشيّدنا خطاً إلى بنوم بنه. ذلك الذي يصل إلى بانكوك، أم سواه؟ ثم في هذا المكان وذاك وذاك- ربما الهند؟- ثم تركيا. لدى تركيا خطوط حديدية."

كان متأكداً من أنّ تركيا ليست أبعد من الهضبة، وكانت الصعوبة الوحيدة التي يراها- في الحقيقة لقد كانت تبدو سمة لفهم أهل جنوب فيتنام للجغرافيا السياسية- هي استعادة لوك نينه من قبضة الفيت كونغ ثم وضع القضبان عبر مستنقعات كمبوديا.

ولم تعترض طريق رؤيته العابرة للقارات للسكة الحديد، مشتملة على ثمانية بلدان واسعة، سوى عقبة واحدة: إجلاء العدو من هذه المدينة الحدودية المحلية الصغيرة. بقية العالم بالنسبة للمواطن الفيتنامي تنعم بالسلام وتتسم بالبساطة، كان يعاني من أنانية رجل مريض، يرى أنّه الشقي سيء الحظ الوحيد في عالم من الأصحاء.

قال مأمور المحطة: "نحن نتعرض هنا لكمائن في بعض الأحيان. قبل بضعة أسابيع لقي أربعة أشخاص حتفهم رمياً بالرصاص."

قلت: "ربما علينا إغلاق النوافذ إذن."

قال: "ها! حسن جداً!" وترجم النكتة لنائبه الذي كان يعدّ كؤوس مشروب الكوكاكولا. كان خط القطار ذا اتجاه واحد، لكنّ المشردون نقلوا أكواخهم إلى منطقة قريبة جداً منه، كان بوسعي النظر من خلال نوافذهم وعبر الغرف حيث يجلس الأطفال على الأرض يلعبون، وكانت تصلني روائح الطعام المطبوخ- السمك واللحم المحترق- وكنت أستطيع رؤية الناس يستيقظون ويرتدون ملابسهم، وفي إحدى النوافذ اقترب رجل على أرجوحة شبكية حتى صار على بعد بوصات من أنفي. كانت هناك فواكه على حواف النوافذ، وتحركت- بدأت إحدى البرتقالات تتدحرج- بينما كان القطار يمرّ بها مسرعاً. لم أشعر من قبل بأنني داخل المنازل التي كنت أمرّ بها بهذه القوة، واستمر شعوري بمقاطعتي بعض الأعمال المنزلية العادية بظهور وجهي من نوافذ المنازل. ولكنني كنت أتخيل التطفل: فقد بدا الناس في هذه المنازل الفقيرة غير عابئين بالدخلاء المطّلين من النوافذ.

كنت أرى من خلف القطار نساء وأطفال السوق وهم يعيدون احتلال القضبان، ومرة- منظر سريع لرجل يقفز- اعتقدت أنني رأيت أمريكياً، ملتجئاً يرتدي منامة فضفاضة، طويلاً فاتح اللون، مستدير الكتفين، ولكنه ذو قدمين كبيرتين مكشوفتين، وخطوة واسعة. اختفى بين مبنيين خشبيين متداعيين، وتوارى خلف صفوف غسيل منشور باهت الألوان. كان هذا في أحد أكثر المناطق العشوائية ازدحاماً في ضواحي سيهون، وظهور هذا الرجل، الذي كان حجمه غير متناسب مع المكان- فظاظته تزيد من وضوح طوله فوق الجميع ممن سواه- جعلني أتساءل عنه لاحقاً. أخبرني ديال أنّه ربما كان متسرباً من الجندية، واحد من حوالي مائتي متسرب ظلوا في البلاد، وتركزوا بشكل رئيسي في منطقة سيهون. كان بعضهم من مدمني الهيروين، و البعض يعمل في وظائف قانونية، ولديهم زوجات فيتناميات، والبعض الآخر لصوص- الكثير من حالات الاقتحام والسطو في سيهون تُنسب إلى المتسربين متنوعي الأنشطة الإجرامية: هم يعرفون ما يأخذون في الثكنات؛ بوسعهم سرقة العربات بدون ترك أي أثر يدل عليهم متفوقين بذلك على الفيتناميين. ليس لأي من هؤلاء الرجال أوراق تثبت هويتهم. وفيتنام بلد تصعب مغادرتها. أملهم الوحيد هو أن يستقلوا زورقاً عبر نهر ميكونغ إلى تايلاند، أو تسليم أنفسهم. لقد كان مجتمعاً غريباً من المتطفلين مجهولي الهوية على المستوى الفعلي، وفكرتي عنهم- يحضرني هنا الظهور الخاطف للرجل الملتحي

بملابس نومه وهو يعبر القضبان في ذلك اليوم المتوهج الإشراف- تملؤني بالفضول والشفقة بالدرجة ذاتها.

لقد رأيت فيهم إمكانية خيالية، حالة تشتمل على أزمة وبعض المفاتيح لحلها. إن كان المرء كاتباً عن فيتنام على أي نحو متماسك فعليه أن يبدأ بهؤلاء الغرباء. غادرت العرببة الخاصة، وتنقلت عبر القطار. كان مليئاً بالأشخاص المشوّهين على نحو مروع، مبتوري الأطراف بنهايات مستديرة، وجنود في ملابس رسمية مجمّدة، ورجال مستنّين بلحيّ شعناء خشنة، ينحني كلّ منهم على عكازة تسند خطاه،

ورجل أعمى يرتدي قبعة من القش كان يعزف الغيثار ويؤدي أغنية نشازاً أمام مجموعة من الجنود. ولكنه لم يكن قطاراً للعجزة والمنبوذيين فقط. الانطباع الذي تكوّن لدي عن القطار المتجه إلى بيان هوا، ظلّ معي طوال وقتي في فيتنام، وكان أحد مظاهر ثراء فيتنام. لقد كان الأمر يبدو صعب التصديق، إلا أنني وجدت هنا فتيات المدارس بحقائب كتبهن، والنساء وهن يحملن حزمًا ضخمة من الخضروات، ورجالاً يمسكون بالطيور، وآخرين يقفون على أبواب عربات كانت مخصصة في الأساس للشحن، ذاهبين إلى أعمالهم في بيان هوا. بعد عدة سنوات يتوقع المرء أن يراهم مهزومين، لكن المفاجأة كانت أنهم أكثر من مجرد ناجين. من عقبات الحرب القاسية ابتدعوا بعنادٍ نمطاً روتينياً: المدرسة، السوق، المصنع. كان القطار يتعرض لكمين مرة في الشهر على الأقل، ويجري الحديث عن "الهجوم" بنبرة الحتمية التي تسود عندما يتحدث الناس عن الرياح الموسمية، ولكن قام هؤلاء الركاب برحلتهم اليومية. كانت رحلة محفوفة بالمخاطر، وكانوا مستسلمين للخطر، لأنّ حياتهم سوف لن تتغير، وخبت العدو كان متوقّعاً وثابتاً كحالة الطقس.

تبعنتني خلال عربات القطار امرأة تحمل طفلاً نصف أمريكي، وعندما توقفت عند أحد الحواجز لأقوم بقفزة حذرة، ربّنت على ذراعي وحاولت تسليمي الطفل. كان في عامه الثاني تقريباً، ببشرة فاتحة، منتفخاً، مستدير العينين. ابتسمت وهزّزت كفتي. أرّنتي وجهه، وهي تقررص خديه، وتقدمه لي. بدأ في البكاء ثم بدأت السيدة تتحدث بصوت مرتفع، وتجمهرت مجموعة من الناس لتتصّت. كانت تشير إلي، وتوميء إلى الطفل في اتهام.

قال ديال: "من الأفضل لنا أن نتحرك"،

وقال إنّ الطفل قد كان متخلياً عنه، وإنّ المرأة وجدته وكانت تعتني به. ولكنه ليس طفلها. كان طفلاً أمريكياً. أرادت أن تعطيني الطفل، ولم تكن تفهم لماذا لم أرغب في أخذه. كانت ما تزال تصرخ. استطعت سماعها بوضوح بينما كنا نتحرك عبر العرببة التالية المزدحمة. شققنا طريقنا حتى وصلنا إلى المحرك، محرك ديزل جديد، ثم إلى داخل عربّة المحرك نفسها وعلى طول الشرفة إلى الرصيف الأمامي، مواجهين الريح، ومديري العيون في كل مرة نسمع فيها صوت الصافرة. ولكن المنظر لم يكن مشجعاً، وقال ديل وهو يشير إلى هضبة إلى اليمين: "هناك حيث الفيت كونغ شنوا هجوماً بالصواريخ قبل بضعة أسابيع. ولكن لا تقلق فهم ليسوا هناك الآن. لقد أطلقوا بضعة صواريخ بسرعة، ثم لانوا بالفرار." استطعت رؤية طريق القطار وهو يمتد أمامنا بينما كنت أعلق على حاجز الشرفة في مقدمة القطار، ووراء ذلك مشهد الأطلال الأصفر، خالٍ من الأشجار، وفي الأفق حيث تقع بيان هوا، خليط من الأسقف والمداخل الرمادية.



كانت الرياح تفوح برائحة الفضلات النتنة، وعلى طول القضبان كان هناك فيضان من القذارة، أسوأ من كل ما رأيته في الهند، يطفح حتى خط القطار، وما يزال يتدفق من المصارف المفتوحة الجارية حتى الضفة من تجمعات الأكواخ. لم تكن أكواخاً عشوائية البناء: كانت هذه منازل صغيرة بناها مقاولون، كان لوجودهم بعض العقوبات الرسمية. لم يكن للمنازل نظام تصريف. ولكنها كانت ملائمة في بلد حيث لا تؤدي الطرق الكبرى إلى أي مكان، ولا هدف للطائرات تسافر إليه، حيث الحكومة ليست سوى طاغية للخدمة الذاتية.

كانت وجهة النظر التقليدية تتهم الأمريكيين بالرأسمالية، ولكنها تهمة باطلة. فالمهمة الأمريكية كانت تشجيعية وعسكرية، لم يكن هناك ثمة دليل على الاهتمامات البلدية المعتادة للسلطة المحتلة- صيانة الطرق، الصرف الصحي، أو المباني الثابتة.

في سيهون، السفارة ومكتبة إبراهيم لנקولن أرهقت خدمات أحد المعمارين الذي أرسل في تسع سنوات. كان هذان المبنيين سينجوا من الهجوم لأن ذلك المهندس تعلم تضمين شاشة صواريخ في لوحة لتزيين الجدار الخارجي- ولكن هذا لم يكن إنجازاً يُذكر بالنسبة لمكتب البريد الذي بناه الفرنسيون، إحدى الكاتدرائيات، وعدد من المدارس، والنوادي الصامدة مثل نادي الدائرة السيهوني، وجميع المباني الضخمة، التي كان منزل كوبرا واحد أحد نماذجها البسيطة للغاية، خارجاً هنا في ضواحي بيان هوا، أنشئت بناءً على ضغط من الاحتلال الأمريكي، كانت الشوارع تتداعى وتتقطع إلى أجزاء ودخلت الكوليرا إلى الباحات الخلفية. التخطيط والصيانة يميزان حتى أقصر الإمبراطوريات وأكثرها وحشية، وفضلاً عن تأسيس نظام قانوني، ليس هناك الكثير من الفضائل الإمبريالية. ولكن الأمريكيون لم يتعهدوا بالصيانة للصيانة. وهناك محطة بيان هوا، المبنية قبل خمسين سنة. إنها تتداعى، ولكن هذا ليس بالأمر المهم. ليس هناك من إشارة تدل على صيانتها من قبل الأمريكيين، حتى وهي تتداعى تحت هالتها المرسومة بالأسلاك الشائكة، إلا أنها بدت أكثر قوة من حظائر الطائرات في قاعدة بيان هوا الجوية. قال ديال في محطة بيان هوا، وهو يقفز من المحرك: " إن ضرب الفيت كونغ هذا القطار، لكننا أول من يُقتل."

في تلك الظهيرة قدمت محاضرة، تفاخري المعتاد حول الرواية- في جامعة فان هانه في سيهون. لقد أثارت المحاضرة عدداً من الأسئلة المعادية حول موقف السود في أمريكا، والتي أجبت عليها بالقدر الممكن من الصدق. بعد ذلك بعدها أعطاني المدير، الموقر تيتش هوين-في، راهب بوذي- نسخة مخطوطة من أطروحته لرسالة الدكتوراة، " دراسة نقدية لحياة وأعمال ساريبوتا ثيرا"، وذهبت منها إلى نادي سيركل سبورتييف.

قال كوبرا واحد: " نحن هنا في سيهون المحاصرة. أخذني في مشوار يقترب من العشرة أفدنة حيث الصينيين، والفيتناميين، وربما زمرة من الرجال الفرنسيين الكسالى، الذين كانوا يلعبون الألعاب (تنس الريشة، وكرة التنس، والمبارزة، والجودو، والبنغ بونغ، والبولينغ) في ضوء الشمس تحت الأشجار. لعبنا البلياردو، ثم ذهبنا إلى أحد المطاعم. كان هناك عشاق يهتمون في بعض الطاولات، وانسحبوا من بين مجموعة من الرجال - "منفصلين عنهم". قال كوبرا واحد: " نحن هنا في سيهون المحاصرة.. " ذهبنا إلى ملهى ليلي على شارع تو دو، وهو شارع رئيسي في سيهون. كان شديد العتمة في الداخل. وقدمت لنا مكعبات الثلج في كؤوس الجعة، ثم أشعلت أنوار حمراء، وغنت فتاة فيتنامية في تنورة قصيرة، نسخة سريعة الإيقاع من أغنية "أين ذهبت

كل الزهور؟ [Where Have All the Flowers Gone?] كانت الرؤوس المتمائلة في تلك في الظلمة الخفيفة لأولئك الناس الذين يرقصون بحرارة على إيقاع الأغنية. رأيت الكوبرا واحد وهو يوميء في الطرف البعيد من الطاولة وسمع صوته بالكاد فوق صوت المغنية الشجي، "- سيهون المحاصرة."

طرت في اليوم التالي- لم يكن ثمة قطار- إلى دلتا كان تو في طائرة ذات جسم فضي مجعد، مثل ورق القصدير في علبة سجائر قديمة. كانت كان تو في السابق وطناً لآلاف من القوات الخاصة الأمريكية. وبمواخيرها وحاناتها المغلقة، اكتسبت مظهر أرض معارض مهجورة بعد صيف ساخن. في خضم هذا الخراب ظهرت قوة الإرادة: نحن لا نريد الإقامة في فيتنام، وليس ثمة رؤية صيغت لهذا البلد قط، ما عدا الأفكار المحضة للنظام السياسي والعسكري. كان المطار في كان تو شبه مدمر، والشارع الرئيسي مليئاً بالحفر؛ وجميع المباني الحديثة، اتسمت بتصميمات مؤقتة مجمدة- المنازل الجاهزة، والأكواخ والسقائف من رقائق الخشب المضغوطة. إنها آتلة إلى السقوط- وبعضها قد سُرق وهدم بالفعل- وماهي إلا فترة مؤقتة، بضع سنين، وسوف لن يكون هناك أثرٌ يدل على أنَّ الأمريكيين كانوا هنا من قبل. وهناك حقول الأرز المسمومة بين أصبعي دلتا ميكونغ المتشابكين، وهناك مئات من الأطفال الشقر ذوي الشعور الشعثاء، ولكن في جيل ستتغير فيه حتى هذه السمات غير العادية.

----

## الفصل الخامس والعشرون

### قطار هوي-دانانغ للركاب

-----

بدأت مياه بحر الصين الجنوبي الرمادية المعتمة باردة كالجليد من الجو، كانت المقابر البوذية المستديرة تنتشر في جميع أنحاء المستنقعات، ومدينة هوي الملكية تربض نصف مغمورة تحت ركام الثلوج. ولكن هذا كان رملًا رطباً وليس ثلجاً، وهذه المقابر الدائرية كانت فوهات من أثر القنابل.

كان مظهر هوي مثيراً للاستغراب. تنتشر فيها الأسلاك الشائكة على المتاريس، ولكن ضرر الحرب قليل في سيهون؛ تعرضت المنازل في بيان هوي للقصف، وفي كان تو قصص الكمائن والمستشفى التي تعج بالجرحي. في هوي استطعت رؤية الحرب واستنشاق رائحتها: لقد كانت

طرقا موحلة مزقتها شاحنات الجيش، والناس الذين يركضون تحت المرض وهم يحملون الحزم، والجنود في ضماداتهم، يترنحون في وحل المدينة المحطمة الموسمي، أو ينظرون من وراء خزانات بنادقهم على ظهور الحاويات المحملة فوق ما تطيق. تتسم حركة الناس بتزامنية كئيبة. لفات منتظمة من السلك الشائك تسد معظم الشوارع، والمنازل كانت قدرة ومرتسة بالزكائب المملوءة رملاً.

في اليوم التالي، في القطار، قال كوبرا واحد (الذي جاء بصحبة كوبرا اثنين وديال من أجل الرحلة): " انظر لكل منزل ثقب رصاص خاص به!" كان هذا صحيحاً. قلة من المنازل فقط لم تحمل آثار العنف، وكانت لمعظمها سلسلة من المقابس الخشنة المنتزعة من جدرانها. كانت المدينة كلها تتشخ بلون بني قاتم من أثر الانتهاكات، وبصمات الهجمات بين البرك الموحلة. لقد حملت بعضاً من آثار التصميم الإمبريالي (الفيتنامي، والفرنسي) ولكن هذه الرقة كانت أكثر بقليل من مجرد وعد أجوف.

وكان الطقس بارداً جداً، مع سقوط الثلج فجأة من السحب المنخفضة، والرذاذ العالق في الغرف الرطبة. أسرعت في خطوي، وأنا أطوق جسدي بذراعيّ لأبقى دافئاً، أثناء محاضرتي في جامعة هوي- وهي أحد المباني الاستعمارية، في الحقيقة، ليست أكاديمية البتة، ولكنها كانت متجراً فاخراً يدعى الإخوة مورين، كان يستخدمه الزراعيون كدار للضيافة، والتموين. قدمت محاضرتي في إحدى الغرف السابقة، ومن الشرفة ذات الهواء العليل استطعت رؤية الفناء الخلفي المهمل، والبركة المتشققة، والشيش المتقشر على نوافذ الغرف الأخرى.

قدنا في وقت لاحق إلى جرف فوق المقابر الملكية، على نهر العطور. قال السيد ماكاتاغارت: " تلك أرض تابعة للفييت كونغ،" وهو ضابط محلي في شركة تحقيقات الولايات المتحدة. كان رجلاً دمثاً في شعره شيب، وقد كان يطبخ وجباته بنفسه وفي بعض الأحيان يتنقل بالدراجة، ويتمرن على اللغة الفيتنامية مع الحراس على الجرف. على الضفة الأخرى للنهر، الأرض التابعة للفييت كونغ كانت عبارة عن عدد من الهضاب الجرداء: لقد نُزعت منها أوراق الشجر. ولكن ما زال هناك إطلاق نار أحياناً. كان أحد الزوارق التابعة لجيش جنوب فيتنام يحدث ضجة بالقرب من الضفة العدو، ويمضي الظهيرة وهو يطلق النار على الهضاب، بدون هدف محدد، ولكن أشبه برجل الحرب الفرنسي، في قلب الظلام بلا هدف وبعنون. قال كونراد- يقصف الحرج الإفريقي. قال أحد الفيتناميين: " لا بد أن آتي أثناء الصيف". عندها قد أستأجر قارباً وفتاة وأحضر بعض الطعام، وربما أمضيت ليلة على النهر مثل هذه، أمارس الحبّ وأتناول الطعام في مكان رائع. اقسمت أنني سأفعل. ذهبنا إلى المقابر بعد ذلك. كل ما كان المبنى أقدم في هوي، كان أفضل حالاً من حيث المحافظة: تهاوت السنة الماضية أكواخ كونسنت وتحطمت إلى شظايا.

كان منزل السيد مكاتاغارت مهلهلاً ولكنه مريح، وكانت المقابر الملكية التي يمتد عمرها مائة عام تبدو بحال جيدة جداً، على الرغم من إنها بنيت بمواد مستعملة، ووفقاً للتقاليد الفيتنامية (تشديداً على تواضعها)- الحجر والأخشاب القديمة، والفخار المحطم، والبلاط المتصدع. كانت هناك حدائق متشابكة وبوابات منقوشة برسوم التنانين المتكئة على الأقواس، وفي الغرف الداخلية، والأضرحة المتربة، وتعرج نساء مسنات من قطعة أثرية إلى أخرى. تستدق الإضاءة لتُظهر لنا الساعة الفرنسية (عقاربها مفقودة)، والشمعدان الكريستالي، والمذابح المذهبة، والخزانات

المطعمّة بالأصداف، ومراوح الطاووس ذات الريش المتساقط ("قالت إنها من الملك الفرنسي"). كانت أيدي السيدات المسنّات ترتجف بينما كنّ يمسكن بشعاع الضوء المقترّب من الكنوز القابلة للاشتعال، وكنت أخشى أن يشعلن المكان بالضوء. وعندما غادرنا أطفئت جميع الشموع، وظلّلت في المقابر المظلمة. كنّ من مدينة يهرب أهلها باستمرار، ولكن هنا في المقابر، النساء المسنّات- خدم الملوك من العشرينات والثلاثينات- لم يغادرن أبداً. لقد كنّ يأكلن وينمن في أفنية الأضرحة الملكية.

كان البرد شديداً في تلك الليلة، وكانت الكلاب تتبج في المرج الموحل، وعلى الرغم من البرد الشديد كانت غرفتي ملاءى بالناموس المعذب.

في الصباح التالي، في محطة هوي، تقدم رجل فيتنامي صغير الحجم، في بزة جبردين رمادية، وقبعة مرتفعة ضيقة الحواف، وأخذ بذراعي. "مرحباً بكم في هوي، عربتك جاهزة." كان هذا هو مأمور المحطة. لقد تم إخطاره بوصولي، وقد ناور ليصل إلى قطار دانانغ للركاب، إحدى عربات المدير الخاصة الأخرى. لأنّ خطوط فيتنام الحديدية تم تفجيرها إلى شظايا، فكل قسم منفصل به عربة للمدير على أحد جوانبه. كل خط حديدي يحتوي على عربة كهذه، ولكن خطوط فيتنام الحديدية تتكون من ستة خطوط منفصلة، تعمل في استقلال تام. كما في سيهون، اعتليت الأريكة الخاصة، وفي قلبي هواجس، وأنا أعلم أنّ أيدي سترتتش إن حاولت كتابة أي شيء غير محمود في حق هؤلاء الناس. شعرت بالفضاضة في مقصورتي الخالية، في أريكتي الخالية، وأنا أرى الفيتناميين يقفون صفوفاً لشراء التذاكر حتى يتمكنوا من اللحاق بالعربات المزدحمة.

أسرع بي مأمور المحطة بعيداً عن نافذة بيع التذاكر (إنّها ليست ضرورية!) ولكنني تمكنت من أخذ لمحة من الرسوم: 143 قرشاً (خمسة وعشرون سنتاً) للذهاب إلى دانانغ، ربما أرخص رحلة لخمس وسبعين ميلاً في العالم.

صعد كلّ من ديال المترجم، وكوبرا واحد، وكوبرا اثنين على متن القطار ولحقوا بي في المقصورة. جلسنا في صمت، ونحن نحدّق في المناظر الخارجية من النافذة. مبنى المحطة المطليّ باللون الأبيض، نسخة من الأمو تكثر فيها ثقوب الرصاص التي حطمت قطع الجصّ، كاشفة عما تحته من بناء بالطوب الأحمر، ولكن المحطة العتيقة مثل قصر مكتاغارت المطلّة نوافذه على الخليج، ومتجر الإخوة مورين، قد بنيت لتخلّد- صرخة بعيدة من رقعة التراب وأساسات الأسمنت خارج هوي مباشرة، حيث التكنات المهدمة لقسم البحرية الأول، وسلسلة حواجز محطة غارقة في الوحل. كان الأمر يبدو كأنّ جميع أجهزة الحرب قد ضبطت على التدمير الذاتي في يوم انسحاب الأمريكيين، فلم يتركوا خلفهم أثراً للمغامرة الوحشية. في فناء القطار، عدد من العربات المصفحة أصيبت بشروخ في جوانبها الفولاذية، حيث قسمتها الألغام. كانت هذه العربات منازل لعدد من الأطفال ذوي الملامح الحزينة. في معظم البلاد الاستوائية يقف الراشدون، مثل من رسمهم وليام بليك، على حافة اللون الأخضر المنعكس، وهم يراقبون الأطفال في لعبهم.

يلعب الأطفال في فيتنام وحدهم، ويبدو أنّ الكبار قد انجرفوا بعيداً، تبحث عن الآباء بين مجموعات الأطفال الكبيرة، لشخصية راشد في الخلفية. ولكنهم غائبون (في هذا المنظر الشائه). تلك المرأة المسنة تحمل طفلاً على ظهرها، بتنورتها الطويلة الملطخة بالطين، وشعرها المنقوع بماء المطر، هي طفل آخر.

سأل ديال: "هل رأيت المغسلة الموجودة في دورة المياه؟"  
"لا".

"خمن ماذا سيخرج إن فتحت الصنبور؟"  
قلت: "صدأ".

قالت كوبرا اثنان: "لا شيء".  
قال ديال: "ماء!"

قال كوبرا واحد: "صحيح، بول، دُون ذلك. الصنبور يعمل. الماء الجاري متاح. ما رأيك في هذا؟"

ولكن هذه كانت المغسلة الوحيدة في القطار.

قال مأمور المحطة إنَّ خط دانانغ عاد إلى العمل منذ أربعة أشهر بعد توقف دام خمس سنوات. ولم تحدث أية عراقيل مذاك. لم يستطع أي شخص تفسير تزامن هذا الأمر مع انسحاب الأمريكيين. في رأيي أنَّ ذلك يعود إلى عدم وجود شاحنات أمريكية تسير جيئةً وذهاباً في الطريق الوحيد الذي يربط بين هوي ودانانغ، الطريق السريع 1، الذي أطلق عليه اسم: "الطريق الخالي من البهجة" على نحو محزن؛ وقد اضطر تقليص حجم الزحام في هذا الطريق الباهظ الفيتناميين إلى الاتجاه الأكثر عقلانية وفتح الطرق الحديدية. لقد عَقِدَت الأموال والقوات الأجنبية الأمر، ولكنَّ الفيتناميين تراجعوا عن الأعمال العدائية تجاه البنية الفوقية الاستعمارية على غرار الشركات الأمريكية. الاتصالات الأكثر بطناً، والعودة إلى الزراعة، والسكن في المباني القديمة، ونظام النقل القائم على الطرق الحديدية، وتعرض تصميم الحرب الأمريكي للهجران- المستودعات الخالية، وهياكل الثكنات، والطرق الممزقة تدل على صدق ذلك، وهي واضحة للعيان من قطار الركاب الذي تقعقت عجلاته وهو يصُوب شطر دانانغ مثقلاً بحمولته من الخضروات التي أنتجتها أراضي هوي.

تحكي الجسور المشيَّدة فوق الخط الحديدي قصة الحرب، فهي حديثة العهد، كالصدأ الذي يغطي عوارضها. الجسور الأخرى محطمة، تتحدث لغة الإشارة في سكونها، وهي ترقد خلف الجديدة، حيث نثَّتها العبوات الناسفة وقذفت بها في الوديان.

وبرزت من سطح الماء كتل سوداء من الفولاذ ببشاعة. ليست كلها حديثة العهد. أعتقد أنَّ أقدم القطع التي كانت في المضائق وهي اثنتان أو ثلاث من بقايا القصف الياباني، والأخريات قد تكون عينات من التخريب الناجم عن الإرهاب الأخير غارات الخمسينيات والستينيات، فقد تركت كلَّ من تلك الحروب ركامها الخاص. كانت كلها مشوهة على نحو يثير الانبهار، مثل منحوتات معدنية غاضبة. يعلِّق عليها الفيتناميون غسيلهم. والأنهار هي أكثر مكان يظهر فيه الجنود- على هذه الجسور. كانت هذه هي المناطق الاستراتيجية: قد يعطّل جسر مقصوف العمل على الخطوط الحديدية لفترة تصل إلى سنة. عليه وفي كل من جانبي الجسر، فوقه مباشرة على نتوءات صخرية، شيدت أكواخ من الزكائب المملوءة رملاً، والمعازل والمخابيء، حيث يلُوح الحراس- ومعظمهم من اليافعين- للقطار بنادقهم الصغيرة. وقد رفرفت على مساكنهم أعلام حمراء وبرتقالية عليها بعض الشعارات. ترجمها لي ديال. كان الأول يقول: "عائق السلام بسعادة، ولكن لا تنم وتنس الحرب."

وقف الجنود في المكان بأقمصتهم الداخلية، ويمكن رؤيتهم وهم يتمايلون على الأرجوحات، كان بعضهم يسبح في الأنهار أو يغسلون ملابسهم. ويراقب البعض القطار، وبنادقهم على الأكتاف، في تلك الأزياء الرسمية التي تفوقهم حجماً. رمزاً للتناقض الذي لم يفتأ يذكرني بأن هؤلاء الرجال- الفتيّة- حصلوا على أسلحتهم وأزيائهم بواسطة رجال أمريكيين أكبر حجماً. وعندما ذهب الأمريكيون بدت الحرب أكبر منهم، مقاس غير مناسب، حقاً مثل تلك الأقمصة التي وصلت أطراف أكمائها إلى عقل أصابع الجنود، وغطت الخوذات أعينهم.

قال كوبرا واحد: " ذاك جيش الفيت كونغ، في الأعلى هناك." وأشار إلى سلسلة من التلال التي تشرئب على المدى، ففتحول إلى هضاب. " بوسعك الجزم بأن 80 بالمائة من البلاد تحت سيطرة الفيت كونغ، ولكن هذا لا يعني أي شيء، لأنهم لا يمثلون سوى 10 بالمائة من حجم السكان." قال ديال: " لقد كنت هناك." كنت أنسى باستمرار أنّ ديال كان في البحرية. " لقد كنا نعمل في دورية لثلاثة أسابيع. يا إلهي كنا نشعر بالبرد! ولكن من وقت لآخر كان يحالفنا الحظ بالخروج والبحث عن قرية. كان الناس يهربون عند رؤيتنا نقترّب، فكنا نستخدم أكوأخهم، وننام في أسرّتهم. أذكر في بضع مرات- كدت أموت حقاً- أننا اضطررنا لحرق أثاثهم كله لنحافظ على دفء أجسادنا. لم نستطع العثور على أي خشب للتدفئة."

بدأت الجبال تظهر، وتتخذ شكل المسرح المدرج، بإطلالتها على بحر الصين، عجيبة، عارية، وزرقاء، وقد توارت قممها في الضباب، تختفي عندها آثار الدخان المتصاعد من نيران القطع والحرق. كنا على الشريط الساحلي الضيق، نتجه جنوباً على شاطئ طولي خاضع لسيطرة حكومة فيتنام بين البحر والجبال.

تغير الجو، أو ربما أصبحنا أخيراً خارج منطقة الرذاذ الذي ساد باستمرار في مدينة هوي. أصبح الطقس الآن مشمساً ودافئاً: صعد الفيتناميون على أسقف أكوأخهم وجلسوا وأرجلهم تتدلى من المزاريب. كنا قريبين من الشاطئ بحيث تتناهي إلى أسماعنا أصوات تكسر الأمواج، وأمامنا في المداخل المقوسة التي أجبرت القطار على الانعطاف فجأة، امتطت زوارق الصيد والقوارب الصغيرة الموج المزبد نحو الشاطئ. حيث مجموعة من الرجال بقبعات شمسية، يديرون شباكاً دائرية منسوجة فوق جراد البحر.

قالت كوبرا 2: " يا إلهي، هذا بلد جميل." كانت تلتقط الصور من النافذة، ولكن لم تستطع أي من الصور تجسيد الجمال الممغن في التعقيد: هناك، أضاءت الشمس ندبة أحدثتها القنابل في الغابة، وبالقرب منها عبأ الدخان الوادي كما لو أنه كان كأساً، و من كأس الوادي المعبأ بالدخان، ومن إحدى السحب الهاربة انصب عمود من المطر يميل على منحدر آخر، وأفسحت الزرقة المجال للخضرة الداكنة، للأرز الأخضر على حقول مسطحة عامرة بالشتول، تحولت بعد شريط رملي، إلى محيط أزرق هائل. كان الأفق رحباً، والمشهد ضخماً جداً، بحيث يجبرك على مشاهدته قسماً قسماً، كما يشاهد صبي إحدى اللوحات الجدارية.

قلت: " ليس لدي فكرة." من جميع الأماكن التي أخذتني إليها الطرق الحديدية من مدينة لندن إلى الآن كانت هذه هي الأجمل.

قالت كوبرا 2: " لا أحد يعرفها،" " ليس لأحد في الولايات أدنى فكرة عن مدى جمالها. انظر هناك- يا إلهي، انظر هناك! "

كنا على أطراف خليج أخضر يتلألأ تحت ضوء الشمس المشرقة. وراء ألواح يشم البحر المتطايرة كانت هناك نتوءات صخرية معلقة، ومنظر الوادي كان ضخماً استوعب الشمس والدخان، والمطر والسحب كلها معاً، في كميات من الألوان المختلفة. فاجأني كل هذا الجمال، وصدمني واضطرتني إلى الشعور بالضالة تماماً كما فعل الخواء بي في ريف الهند. من ذكر تلك الحقيقة البسيطة عن أن مرتفعات فيتنام هي مواقع لعظمة لا يدركها الخيال؟ بيد أننا بالكاد نستطيع لوم مجند مذعور على إغفاله الحديث عن هذه الروعة. كان من المفترض أن نعلم جميعاً أن الفرنسيين لم يسعوا لاحتلالها، والأمريكان لم يخوضوا فيها حرباً طويلة الأمد، إن لم تتجذب أنظارهم لجمال أينع فيها، وأغوى قلوبهم لطلبها.

قال كوبرا واحد الذي ما فتأ يقلّد والتر برينان على نحو مذهل: "ذاك وادي اشاو". اشرأبت سلسلة التلال حتى اخترقت الضباب، وتحتها، في غمرة الدخان والشمس، مضائق سوداء عميقة تحدها الشلالات. كان كوبرا واحد يهزّ رأسه: "مات هنا العديد من الرجال العظام".

سرت عبر القطار، وأنا في ذهول من المشهد، فرأيت رجلاً ضريعاً يتلمس طريقه إلى الباب. كان بوسعي سماع رثتيه وهما تعملان كوسادتين؛ سيدات مسنّات متعضنات البشرة بأسنان سوداء، وملابس نوم داكنة، يحملن البصل الأخضر في سلال من الخوص. والجنود- كان أحدهم ذو وجه رمادي على مقعد مدولب، وآخر يستند على عكازين، وآخرون على أذرعهم ورؤوسهم ضمادات حديثة، وجميعهم يرتدون الزي الأمريكي الذي يجسد الزيف في معناه الحقيقي. تنقل أحد الضباط عبر الأرائك وهو يدقق في بطاقات هوية الرجال المدنيين، باحثاً عن المتهربين من الجنود. فتعثر هذا الضابط في خيط معقود حول خصر طفل يقود رجلاً أعمى يمسك بطرف الخيط. كان في القطار عدد كبير من الجنود المسلحين، ولكن لم يبد أن أيّاً منهم من الحرس. كان القطار محمياً بأعداد من الجنود تتركز على متاريس في الجسور، وربما كان هذا هو السبب في سهولة تفجير الخط بالألغام الموجهة. وكانت هذه الألغام تنزلق على قضبان القطار ليلاً، وعندما يسير القطار فوق إحداها، يقوم رجل خفي- قد يكون من الفيت كونغ، أو مفجراً يستأجره صاحب شركة شحن في دانانغ بتفجير اللغم.

عُرض عليّ الأطفال مرتين في محطة صغيرة، من قبل نساء مسنات، وكانوا ذوي بشرة شاحبة وشعر فاتح اللون مثل من رأيتهم في كان تو وبيان هوا. ولكن كان هؤلاء أكبر سناً، ربما في الرابعة أو الخامسة، وكان من المثير للاستغراب رؤية هؤلاء الأطفال ذوي الملامح الأمريكية وهم يتحدثون اللغة الفيتنامية. أما الأمر الأغرب فقد كان يتمثل في رؤية المزارعين الفيتناميين في رحابة مشهد يختبئ أعداؤه خلف أشجاره الجميلة ووديانه وصخور اليشم- التي تخرج من سحب الضفة.

استطعت أن التفت بعيني من القطار إلى الجبال، وكدت أنسى اسم البلد، لكن الحقيقة كانت أقرب وأقسى: لقد دُمر الفيتناميون ثم هُجروا، وهم في أزيائنا تكاد العين تخطئهم، وتخالهم منا، فتُطلق عليهم النيران، كما لو انسحبنا عندما وصلوا إلى قنعة بتماهينا فيهم. لم يكن الأمر بتلك البساطة، ولكنه كان أقرب إلى وصف ذلك التأريخ الحزين أكثر من الخيارات العاجلة للأمريكيين المنكوبين الذين شحذوا موسى أوكام وهم يصنفون الحرب باعتبارها سلسلة من الفظائع، ومتسلسلة من

الأخطاء السياسية المحضة، أو قطعة من بطولة ناقصة. وكانت المأساة تتمثل في مجيئنا منذ البداية، ونحن لم نخطط للبقاء: دانانغ هي أبلغ برهان على ذلك. كان القطار تحت مضيق هاي فان العملاق ("ممر السحب")، وهو منطقة طبيعية على الجانب الشمالي من دانانغ مثل جدار روماني. إن مر به الفيت كونغ، سيصبح الطريق واضحاً وخالياً حتى دانانغ، وكان الفيت كونغ يعسكرون بالفعل على المنحدرات البعيدة، ينتظرون. مثل جميع المسافات الأخرى بين هوي ودانانغ، شكّلت الجبال والوديان البديعة الرائعة وما زالت، أفضع ميادين القتال. بعد أن اجتزنا ممر هاي فان دخلنا في نفق طويل. وبحلول هذا الوقت كنت قد سرت على طول القطار وأقف على الشرفة الأمامية لمحرك الديزل، تحت ضوء المصابيح الأمامية، وأمامي خفاش كبير ابتعد من السقف، وصفق بجناحيه دون هدى، وهو يصطدم بالحائط محاولاً التقدم على المحرك الهادر. انطلق الخفاش كالسهم يكشط القضبان، ثم أخذ في الارتفاع ببطء الآن، بينما ظهرت نهاية النفق للناظرين، فصار يقترب من المحرك أكثر لحظة بعد لحظة. كان يشبه لعبة من الخشب والورق، وكان يقفز باتجاه الأرض، وفي النهاية أصبح على بعض عشرة أقدام من وجهي، مخلوق بني مذعور يعرض جناحيه العظميين. كان متعباً، وارتمى على بعد أقدام قليلة، ثم في ضوء مخرج النفق-وهو ضوء لم يستطع أن يراه- انهار جناحاه، فقفز إلى الأمام، وسرعان ما سقط تحت عجلات العربة.

كان "الطريق الخالي من البهجة" فوقنا بينما كنا نسابق الريح عبر شبه الجزيرة متجهين إلى جسر نام هو، وقد أمنت خمس مناطق مظلمة من أخطار المتفجرات المائية بواسطة أكاليل صدئة وكبيرة من السلك الشائك.

كانت هذه هي نفايات دانانغ الخارجية، وهي حي كان يستخدم كقواعد تموين احتلته عليه قوات جيش جمهورية فيتنام، وجموع المستوطنين، وشيدت فيه الملاجيء، والأكواخ، والسقائف من مخلفات الحرب فقط، زكائب الرمال، والمشمعات البلاستيكية، والألواح المعدنية المموجة التي تحمل ختم جيش الولايات المتحدة، وأغلفة الطعام التي تحمل الأحرف الأولى من أسماء وكالات الإغاثة. دُفعت دانانغ ناحية البحر وجُردت الأرض التي تحيط بها من أشجارها بالكامل. وإن كان ثمة مكان يبدو ساماً فهو دانانغ. كانت السرقة والنهب مهارات فرضت الحرب على الفيتناميين تعلّمها.

خرجنا في محطة دانانغ، وبعد الغداء قدنا السيارة برفقة ضابط أمريكي إلى الجزء الجنوبي من المدينة، حيث يسكن المتهربون من الجيش الأمريكي في معسكرات كبيرة متعددة. وكان عددهم في وقت ما يُقدر بالآلاف من الجنود الأمريكيين، لكن لم يتبق منهم أحد الآن. أما ثكناتهم فامتلات حد الانفجار باللاجئين، لعدم توفر من الصيانة، فالمعسكرات كانت في حالة مزرية وبدأت كما لو أنّها تعرضت للقصص. كان الغسيل يتطاير من سوارى الأعلام، والنوافذ محطمة، أو مسدودة بالألواح الخشبية، وكانت نيران الطبخ تشتعل في الطرقات. أما اللاجئون الأقل حظاً فبنوا منازلهم على الشاحنات الخالية من العجلات، وكان الصرف الصحي مريعاً. ويمكنك أن تجد رائحة المعسكر من على بعد مائتي متر.

"كان الناس يجلسون منتظرين لدى البوابات، وعلى الأسيجة عندما يبدأ الأمريكيون في حزم أمتعتهم." قال الضابط الأمريكي. "مثل الجراد، أو لا أعلم ماذا. حالما غادر آخر جندي هرعوا



داخليين. فسرَقوا المتاجر، واحتلوا المنازل". واحتال اللاجئون لسرقة الثكنات، واستغل موظفو الحكومة صلاحياتهم لسرقة المستشفيات. كنت أسمع الأخبار في دانانغ، وفي ميناء نا تارانغ الجنوبي عن تنظيف المستشفيات يوم غادر الأمريكيين من الأدوية، واسطوانات الأكسجين، والأغطية، والأسرة، والأجهزة الطبية وكل ما يمكن أخذه. كانت السفن الصينية تقف على الشاطئ بانتظار الغنائم، التي تُنقل لثُباع في هونغ كونغ. ولكن في السماء ربّ عدل: أخبرني رجل أعمال سويسري عن وصول بعض هذه الأغراض الطبية لمدينة هانوي من هونغ كونغ.

لم يعرف أي شخص ما حدث لموظفي الحكومة الذين جنوا ثروات طائلة. بدت بعض أخبار السرقة مبالغاً فيها، صدقت منها ما تعلق بالمستشفيات المنهوبة إذ لم أجد موظفاً أمريكياً واحداً بوسعه الجزم بوجود مستشفى يستقبل المرضى للعلاج، وهذا هو نوع المعلومات الذي يهتم بمعرفته الأمريكي.

وعلى ذلك الطريق جنوباً بعدة أميال احتشدت المعسكرات المهجورة بالفيتناميين الذين يتركون آثارهم المتعجلة على الأبواب المفتوحة في جدران الثكنات، وتمزيق المبنى بكامله لإنشاء عشرة أكواخ خفيفة. كانت المعسكرات نفسها مؤقتة- ألواح من رقائق الخشب المجمعّة، وقد فرّقتها الرطوبة، وألواح معدنية مقشّرة، وأسيجة ذات أعمدة متداعية- لم يكن أي من هذه الملاجئ الهشة ليصمد طويلاً. وإن شعر أي منهم بالشفقة حيال اتهام اخلاق الجنود الأمريكيين الذين سكنوا في هذه المعسكرات المريعة، فإنّه يأسى أكثر على من ورثوا كل هذه المخلفات.

الحانات ذات اللافتات المهرتنة التي تعلن عن الجعة المبرّدة، والموسيقى والفتيات كانت خالية وبدت مفلسة، ولكن في وقت متأخر من الظهيرة رأيت الإهمال الذي تتعرض له دانانغ على حقيقته. قدنا حتى وصلنا إلى الشاطئ، حيث على مسافة خمسين قدماً من الأمواج المنكسرة وقف كوخ جديد لحد ما. كان منزلاً ساحلياً صغيراً، مبنياً لصالح جنرال أمريكي انسحب من الخدمة مؤخراً. من كان هذا الجنرال؟ لا أحد يعرف له اسماً. لمن هذا المنزل الساحلي الآن؟ لا أحد يعرف أيضاً، ولكن تطوع كوبرا واحد قائلاً: "إنه على الأرجح لبعض كبار الجيش الجمهوري الفيتنامي." جلس جندي فيتنامي ببندقية خفيفة على مدخله، وخلف طاولة بها مجموعة من القوارير: فودكا، ويسكي، جعة الزنجبيل، مياه الصودا، ودورق به عصير برتقال، وسطل مملوء ثلجاً.

وينبعث من داخل المنزل صراخ وضحك.

قال كوبرا واحد: "أعتقد أنّ أحدهم انتقل إليه، لنلق نظرة."

سرنا مروراً بالحرس ثم صعدنا الدرج. كان الباب الأمامي مفتوحاً، وفي غرفة المعيشة أمريكيان على أريكتين يجالسان فتاتين فيتناميتين بارزتي الصدر. كانت المجالسة الغريبة لا تخلو من تجانس واتساق- فتاتان بارزتا الصدر، ورجلان بدينان، الفتاتان كانتا تضحكان، وكانت الأريكتان مصفوفتين جنباً إلى جنب.

إن كان تجسيد كونراد المظلم للحركة الاستعمارية، في قصته "بؤرة التقدم"، لتحوّل إلى كوميديا فستبدو بالتأكيد أشبه بهذا.

قال أحد الرجلين: "هيا، لدينا ضيوف!". وطرق على الجدار خلف رأسه بقبضة يده، ثم جلس وأعاد إشعال سيجاره. وبينما كنا نعرّف بأنفسنا، فُتح باب جانبي من الحائط، وخرج منه رجل يدخل سيجاراً، ورجل أسود مفتول العضلات خرج مسرعاً وهو يثبت حزام بنطاله. ثم ظهرت من الغرفة فتاة فيتنامية صغيرة الحجم تشبه الخفاش. قال الأسود: هاودي، وتقدم ناحية الباب الأمامي.

قال كوبرا واحد: "لم نقصد مقاطعة نز هتكم"، ولكنه لم يبد أي نية في المغادرة. فعقد ذراعيه ووقف يتفرج، كان رجلاً طويلاً ذا نظرة حادة.

قال الرجل صاحب السيجار، وهو يتدحرج من الأريكة "أنت لا تقاطعنا". قال الضابط الأمريكي الذي قادنا إلى المكان: "هذا هو رئيس الأمن." وكان يتحدث عن الرجل البدين صاحب السيجار. وكما لو كان يؤمن على ذلك، أشعل الرجل البدين سيجاره مرة أخرى. ثم قال: "نعم، أنا الشبح الأكبر هنا. هل جئت لتوك؟" وكان في مرحلة من السكر تمنحه وعياً قوياً بحالته، فيحاول جاهداً إخفاءها. سار خارجاً، بعيداً عن الوسائد الملقاة أرضاً، ومنافض الرماد الممتلئة بأعقاب السجائر، والفتيات المستقيات على ظهورهن.

"جئتم بالماذا؟" سأل رجل الاستخبارات الاتحادية الأمريكية عندما قلنا له إننا أتينا إلى دانانغ من هوي بالقطار. "أنتم محظوظون إذ وصلتكم! لقد فجره الفيت كونغ قبل أسبوعين." "هذا ليس ما قاله مأمور المحطة"

قال رجل الاستخبارات الاتحادية الأمريكية "مأمور المحطة في هوي لا يعرف كوعه من بوعه. أنا أخبرك بأنهم فجره. قُتل اثنا عشر شخصاً، لا أعلم كم عدد الجرحى." "بلغم؟"

"نعم، موجه بالأوامر. لقد كان الأمر مروّعاً."

كان رجل الاستخبارات الأمريكية، ورئيس الأمن في المقاطعة كلها يكذب، ولكني لم أكن أملك ما يكفي من المعلومات لدحض قصته آنذاك. قال مأمور المحطة في هوي إنّه لم يقع حادث انفجار لغم منذ شهور. وقد أكد موظفو الطرق الحديدية في دانانغ هذا الأمر. ولكن رجل الاستخبارات الأمريكية كان حريصاً على إبهارنا باطلاعه على بواطن الأمور في البلاد، لاسيما بعد أن انضمت إلينا عشيقته، وكانت تطوق عنقه. أما الرجل البدين الآخر الذي كان في الكوخ، فطفق يتحدث إلى إحدى الفتيات في همس وبتعابير هيسيرية على الوجه. وكان الرجل الأسود على مسافة قصيرة من المدخل، وهو يقوم بتمارين العقلة على قضيب معلق بين نخلتين. قال رجل الاستخبارات: "يتعين عليك وضع أمر واحد في الحساب. ليس للفيت كونغ أي دعم في القرى - ولا للقوات الحكومية. أترى، هذا هو السبب في الهدوء السائد الآن." قرصت فتاة فيتنامية خده، وهتفت لصديقتها التي تقف على طرف الشاطيء، وعيناها تراقبان الرجل الأسود وهو يلوح بسلسلة حول رأسه. خرج الرجل الذي كان في الكوخ، وصب لنفسه بعض الويسكي. ثم احتساه في قلق، وينظر إلى رجل الاستخبارات وهو يتبجح.

قال رجل الاستخبارات: "إنه وضع مضحك، كأن تقول إن هذه القرية نظيفة، وهذه القرية كلها من الفيت كونغ، ولكن هناك أمر واحد ينبغي أن تفهمه: معظم الناس لا يقاتلون. لا أبه ماذا تقرأ

في الصحف- فهؤلاء الصحافيون يحشون رؤوسهم بالترهات أكثر من ديك رومي على مائدة عيد الميلاد. إني أؤكد لك أن البلاد هادئة." "وماذا عن اللغم؟"

"نعم اللغم. عليك الابتعاد عن القطارات، هذا كل ما أستطيع قوله." "إنَّ الأمر مختلف في الليل" قال الرجل صاحب الويسكي. قال رجل الاستخبارات: "حسناً، انظر، البلاد تغيّر وجوها بعد أن يحلّ الظلام." قال كوبرا واحد: "أعتقد أنّ علينا المغادرة."

"لِمَ العجلة؟ اقم في الجوار." قال رجل الاستخبارات. ووجه لي حديثه: "أنت كاتب، وأنا كاتب أيضاً- أعني أقوم بشيء من أعمال الكتابة. اكتب بعض المقالات من حين لآخر. إنّها حياة هذا الصبي- إني أعيش الصبي إلى حد كبير. أمم"

بدأ انتباهه يتشتت بسبب الفتاتين اللتين تصيحان باللغة الفيتنامية وتفقهان "على أية حال، إلى أين قلت ستذهب؟ جبل الرخام؟ عليك الابتعاد عن ذاك المكان في هذا الوقت." نظر إلى ساعته. كانت تشير إلى الخامسة والنصف. "قد يكون هناك شارلي [لقب يُطلق على مقاتلي الفيت كونغ (المترجمة)] لا أعلم، لا أريد أن أكون مسؤولاً عن ذلك." غادرنا وعندما وصلنا إلى السيارة نظرت إلى الكوخ مرة أخرى. لوح رجل المخابرات الأمريكية بسيجاره ناحيته؛ وبدا غير منتبه للفتاة الفيتنامية التي ما زالت تلتصق به. وقف صديقه على المدخل معه، يقلّب في يده كأساً من الورق مملوءاً بالويسكي وجعة الزنجبيل. وعاد الرجل الأسود إلى الحانة العلوية: كان يلعب تمارين العقلة والفتيات يحصين. وجلس الحارس وهو يعانق بندقيته. وراءهم كان البحر. هتف رجل الاستخبارات، ولكن كان المد يتجه إلى الشاطئ وابتلع صوت البحر الهادر كلماته. استولى اللاجئون في دانانغ على الثكنات. أخذ هؤلاء الثلاثة منزل الجنرال الساحلي. ومن ناحية ما كان آخر ما تبقى من حصّة الأمريكان من الحرب: الضمير المنحل، والمخاوف الصاخبة والتبسيط. انتهت الحرب بالنسبة لهم: لكنهم كانوا يسلّون أنفسهم فقط، مثيرين بعض المشكلات.

على بعد أربعة أميال جنوباً من هنا، وبالقرب من جبل الرخام، كانت عربتنا تزحف خلف عربة بطيئة يجرها ثور. وبينما كنا ننتظر، أسرع باتجاهنا صبي فيتنامي في العاشرة من عمره تقريباً، وصرخ عبر النافذة.

سأل كوبرا واحد: "ماذا قال؟"

قال ديال: "ناكح أمه"

"دعنا نخرج من هنا."

في تلك الأمسية التقيت الكولونيل توان الذي يكتب الروايات تحت اسم دوي لام. لقد كان واحداً مما يقارب عشرة كتّاب في فيتنام أخبروني عن شدة الرقابة تحت حكم ثيو- ليست مجرد رقابة سياسية، لأنها منعت عملاً مثل "عربة تدعى الرغبة" أيضاً. وقد عمد الروائيون الفيتناميون إلى اختيار مسار أكثر أماناً من تعريض كتبهم لمصيدة الرقابة، فلجأوا إلى ترجمة الروايات الودية: تمثلي مكنبات سيهون بنسخ فيتنامية من جين أير، ويوناثان ليفنجستون سيغول، وأعمال لوانشطن

إريفنج، ودوروثي باركر. قال العقيد تان إنّه أحب الكتابة باللغة الفيتنامية، مع أنّه يستطيع الكتابة بالسهولة ذاتها باللغتين الفرنسية أو الإنجليزية.

وقال: " اللغة الفيتنامية جميلة جداً، ولكنها صعبة الترجمة، على سبيل المثال، إن كان رجلاً ما يخاطب زوجته بوسعه فعل ذلك بعدة طرق. فقد يقول لها "أنتِ"- ولكن يعتبر هذا الخطاب فظاً. أو قد يناديها "اخوتي الصغيرة"، وقد تدعوه "أخي"، أما التعبير الأجمل فهو أن يناديها "نفسى". فيقول لها: " كيف نفسى؟". وهناك تعابير أخرى. فقد يناديها " الأم" وقد تناديه " الأب".

قال كوبرا واحد: " الأم، والأب؟"

"لم، يقول الأمريكيون بلغة رسمية السيد والسيدة."

وسألت العقيد تان قبل أن يغادر، عن الشعور العام في فيتنام حيال الأمريكيين بعد تلك الحرب الضروس، والمشكلات والموت، وبعد كل سنوات الاحتلال.

فكر الكولونيل تان مطوّلاً قبل أن يجيب، وعندما فعل اختار كلماته بعناية: " نعتقد أنّ الأمريكيين،" وتوقف لبرهة قبل أن يستأنف حديثه: "نعتقد أنّهم على درجة من الانضباط، وأنهم اقتربوا عدداً كبيراً من الأخطاء في الحرب.

وبالطبع وجدناهم أسخياء. ولكننا نظنهم غير مثقفين. لم نقابل منهم مثقفاً. أنا لا أتحدث عن نفسي: لقد قرأت فوكنر وعدد من الكتاب الأمريكيين الآخرين.

أنا اضع في اعتباري الشخص العادي- معظم الناس في فيتنام، هذا ما يعتقدونه."

سافرت من دانانغ إلى نا ترانغ حتى أخذ القطار من هناك إلى تاب شام، ولكن في يوم وصولي وقع هجوم من قبل فرقة خبراء المتفجرات على مستودع للوقود خارج مدينة سيهون، في نا بي، وفي الصباح مُسح عن الأرض ما يعادل 50% من وقود فيتنام. وبدأ توزيع حصص الوقود فألغيت رحلتي، إذ كان علي قطع مسافة مائة ميل بالسيارة حتى أعود، وهذا تبذير لا طائل يرجى منه.

حصلت على دراجة وسرت بها حول مدينة القصور المهجورة، ثم تناولت وجبة من ثعابين البحر في مطعم مطلّ على البحر. وفي اليوم التالي انتظرت طائرة سيهون لساعات في مطار مطار نا ترانغ، ووصلت واحدة في النهاية، موديل لادن ج-123 وبها مناديل ورقية، وفوط صحية، وفول، ومناديل لدورة المياه، وعصير قريب فروت، وحاوية خشبية كبيرة من أرز ميناء كال، الذي يحمل علامة كالروز الفاخر الممتاز (وهو أمر غريب إذ أنّ نا ترانغ من مناطق زراعة الأرز)، وسيارة دودج موديل 1967، يملكها أمريكي يقيم هناك.

كانت رحلة العودة إلى سيهون تحت عاصفة رعدية امتلئت منها رعباً، وكنت مثبتاً في جدار معدة هذا الحوت المغمور، ولم يطمئنني أي من القباطنة الصينيين الثلاثة. فاستعدت قواي بما يكفي لتقديم محاضرتين أخريين أذكر منهما النذر اليسير عدا ما وصفه كملاحظة سخيفة حقاً بأنه: وجه يسحر الروح. في كتابه "على الحلبة."

انطلقت وانتظرت في مطار تان سون نوت في طريقي لليابان. إن كانت الظروف أفضل لذهبت بالقطار إلى هانوي، ثم انتقلت إلى قطار هانوي، وسافرت عبر سينيانغ وسيول إلى بوسان لأستقل القارب إلى أحد قاطرات كيوشو اليابانية.

أو كنت سأمضي مباشرة من بكين إلى موسكو عبر أولان باتور في منغوليا، ومن هناك إلى الوطن. فالطريق خال، بالقطار من محطة تقاطع هانوي وحتى محطة شارع ليفربول في لندن. وربما في تاريخ مستقبلي ما...\*

\*الآن – أبريل 1975- تم تدمير جميع المدن الفيتنامية التي مررت بها عبر القطار، جميعها سقطت، وقتل من أهلها أناس كثر. وأصبح المستقبل في نظر الناجين حزناً وكآبة، واللم يعد القطار الصغير يسير مابين هوي ودانانغ.

--

-----

### الفصل السادس والعشرون

#### قطار هاتسوكاري ("طائر الصباح") السريع المحدود إلى أوموري

-----

خطت للترود من اليابان استعداداً لرحلة سيبيريا، حيث القطارات بالطبع والمحاضرات التي تؤمن تكلفة السفر بها، ولكن الملابس اللازمة لرحلتي القادمة كانت هي هاجسي الأساسي. وصلت إلى طوكيو بملابسي التي رافقتني طيلة ثلاثة أشهر في المناطق الاستوائية، ومعطفي المقاوم للبلل. هذه الملابس ملطخة بعصير الكاري، وبالية بعض الشيء، كما إنَّ ظهر البنطال اكتسى لوناً باهتاً من أثر قعود السفر، ولم يعد كافياً لمقاومة طقس اليابان شديد البرودة، وهذا نذير بوقوع ما كنت أحذر. (يعطي جدول رحلات القطار السوفيتي متوسط درجات الحرارة). ستكون ثلاثين درجة تحت الصفر في خاباروفسكي. كان ذاك شهر ديسمبر. وقد فاقمت من برد طوكيو حبيبات الرمل التي تذروها الرياح وأدخنة العوادم، وتلك التيارات الصاعدة المختنقة بين المباني والتي يتسم بها فصل الشتاء في المدن الكبيرة.

لقد أمضيت يومين في البحث عن ملابس شتوية. ولكن الملابس اليابانية ليست مصممة للشتاء السيبيري، فهي مصنوعة بمقاسات صغيرة، وتكلف غالياً. وهو نوع من الكبرياء المتعسف الذي يظهر من خلاله اليابانيون ما أصبح عليه بلدهم من غلاء. ولكن هذا الأمر يعد مقياساً للثروة بقدر ما هو للتضخم، وبدأت أتساءل عما إذا كان معطلاً بحسب زعم الناس.

سألت عنه، ولكن هذا الاستفسار الخجول هو أول ما يطرحه الأجنبي، وبالتالي فإنَّ المقيم المطلع المتوقع سؤالك يصدمك بابتدار الطرائف حول الأسعار. كم تكلف قطعة كيمونو واحدة؟ "يمكنك الحصول على واحدة مقابل ألف دولار." وجبة؟ "في معظم المطاعم يمكنك دفع عشرين دولاراً فقط- للشخص الواحد." زجاجة جن؟ "لأغراض المستوردة قد تكلفك عشرين دولاراً أو أكثر." ثم عندما ضحكت ساخراً، التفت إليّ أمريكي وقال في قسوة غير مبررة في اعتقادي: "حسناً، لن تحصل على كوب من القهوة هنا بأقل من دولار!" ولكن لم يكن هذا صحيحاً، فقد اكتشفت لاحقاً مكاناً في ضواحي طوكيو حيث يكلف كوب القهوة (شاملاً الكريمة والسكر) أربعين دولاراً. كنت أحصل على هذه المعلومات بشكل عابر، كالدعابات المدرسية عندما يقدم طلاب الفصول المتقدمة معلومات صادمة لترويجه. يبادر الأمريكيون في تايلندا بقولهم: "لا تربت على رأس تايلندي –

فالرأس مقدس هنا. فقد تقتل بسبب ذلك. " التجارة بالمال لدى المتصوفة التايلنديين، مثل متصوفة المال في اليابان، من المفترض أن تحتك على إعادة التفكير في المجاعة. لا أحد يجزم بإمكانية العيش في اليابان على ميزانية منخفضة، ولكن من الممكن الإقامة في نزل اليابان والاعتقاد على مذاق الأطباق الكبيرة من حساء الشعيرية المسمى "را-مين" (الشاي مجاني)، واستخدام القطار في التنقل. الفواكه هي الأخرى زهيدة الثمن لأنّ اليابان تشتري البرتقال والتفاح واليوسفي المخفض من الجنوب أفريقيين الذين يمتنون للحصول على أجهزة الراديو بالمقابل، وقد اعتبروا اليابانيين من البيض رسمياً. هناك ركن هامبورغر ماكدونالد على الجينزا، أما الملابس الشتوية فهي قصة أخرى. معظم المعاطف التي رأيتها تزيد عن 100 دولار، أما المعطف الذي اخترته وهو ضيق وذو ياقة من الفراء، فكلفني 150 دولاراً. واستنزفت القفازات والشال والقبعة الصوفية وما إليه ما تلقّيته من أجر عن محاضرتي الأولى. ولكني أعددت العدة ليس فقط لسيبيريا ولكن لفعالية خطابي في صقيع ديسمبر بهوكايدو، رحلتين بالقطار صوب الشمال.

امتلات شوارع طوكيو بعد أن حلّ الظلام بمجموعات من اليابانيين السعداء المهلّلين. أما الأقل حماسة منهم فيفترشون الأرض من أثر السكر على مداخل مطعم موري للشعيرية، ومطعم وحانة غلاسكو، أو يتجمعون بعشوائية على أرصفة المروج الخلفية المريبة، حيث داهمهم الإنهاك الكحولي. كان هؤلاء هم ضحايا العلاوة. يتلقى موظفو اليابان علاوات نصف سنوية: وديسمبر هو الموعد الثاني لهذه العلاوة، وكان من قدرتي الوصول في يوم تسليم المال.

وباقتراب الوقت من منتصف الليل، كنت أرى جميع مراحل الثمالة في اليابان، بدءاً من الأطوار المبكرة منها، حيث ترتفع الأصوات، وانتهاءً بالمرحلة الأخيرة حيث يسقطون على الأرض، منهارين على أرضية أحد المطاعم، أو في شارع مغطى بالثلوج. وبين ارتفاع الصوت والشلل كانوا يتقيأون ويرقصون. تخيلت الضحايا "علاوات"، وربما رأيتهم وهم يُسندون على أذرع الرفاق والأصدقاء، الذين كان كثير منهم في مرحلة الغناء، قد احتسوا ما يكفي ليكتسبوا شجاعة الهتاف باتجاهي. وبعد الثانية عشرة، قلّ العدد كثيراً، وأصبحت الشوارع هادئة بما يلائم السيدات في أزيائهن الشعبية، والأوشحة والصنادل السمكية ليسرن مع كلابهن- التي دائماً ما كانت من سلالات ممتازة. كانت السيدات يثرثرن برقة، وسبقنني. أما الكلب فتوقف، وثبت في مكانه وتغوط، فوضعت إحدى السيدات ورقة كانت تحملها على استعداد، بدون أن تتوقف عن الحديث إلى صديقتها، وكشطحت براز الكلب في لطف، وألقت به في سلة قريبة.

لم ألاحظ وجود السلة إلا عندما استخدمتها: نظام تخطيط طوكيو يظهر فقط عن كثب- فهي تبدو من على البعد كفوضى، ولكن عليك تفحص هذه الفوضى حتى يظهر التخطيط. ثم ترى الأبواب المنزلة، والأضواء المخبأة بعناية في الجدران وتحت الطاولة المرتطة بمفاتيح تبدو بالكاد من خلال إشارات السطوع والعممة عليها، كانت الطاولات والنُدل والصمامات التي تعمل من الجدار، والآلات المنصوبة في الأنفاق لبيع التذاكر ثم ثقبها، والمقاعد الخفية، والقطارات الصامتة التي تصعد إليها بمساعدة ذراع خفية لرجل يعين خصباً لمساعدة الناس على الصعود إلى القطار. في الساعة السابعة مساءً، وعندما تُغلق المتاجر، تظهر فتاتان ترتديان زياً رسمياً على الباب، تتحنيان وتقولان: " شكراً لكم" و"عودوا مجدداً" لكل عميل، ثم تعودان في الصباح. في متجر

إشتان ديبارتمنت الضخم في شينيوكو، يقف فريق العمل بالقرب من طاولات العرض ليقولوا: "صباح الخير" لأول العملاء، فيشعرون بأنهم مساهمين وليسوا عملاء فقط. العمل هو كل شيء: يزخر المكان بالتهذيب البديع.

في جدار متجر القسم ثمانية وأربعين تلفازاً، في عرض رائع للإلكترونيات، وعلى الرغم من أن ظهور ثمانية وأربعين صورة لسياسي ياباني صغير لن تجعل منه ونستون تشرشل، إلا أن المصنوفة تبين ذوق اليابانيين في الأجهزة. في الشخصية اليابانية ميزة تحميمهم مما يشعر به الأمريكيون من إحباط في نوبات الاستهلاك العاطفية المماثلة.

يغصّ الأمريكي نفسه بالامتيازات، ويكتسب شعوراً بالوعي الذاتي المذنب، فإن كان لدى الياباني هذه الشكوك فهم لا يظهرونها. ولكن ربما التردد ليس جزءاً من الشخصية القومية، أو ربما كان المترددون هم المتعثرون في زحام المتسوقين- ذلك الانتخاب الطبيعي الذي يمارسه المجتمع الرأسمالي ضد الانعكاسي. الانطباع القوي الذي علق في ذاكرتي عن الأشخاص الذين يتصرفون مع انطلافاً من خطة متصورة مسبقاً: أشخاص مبرمجون. تراههم يصطفون بشكل آلي في الأنفاق، ويفقون بعفوية صفوفاً لدى طاولات وآلات بيع التذاكر، ومن الصعب تفادي الخلوص إلى أن جميع هؤلاء الناس يملكون دوائر إلكترونية. ولكن تقيمي تغير مع الوقت، وبدأت أرى الناس وهم يناهضون النظام في صفوف الأنفاق هذه: وحالما يدخل القطار وتنتفتح الأبواب ينعق العدد الكبير من الناس الذين كانوا ينتظرون في صمت لوقت طويل من ترتيب الصف، وهم يدفعون أمتعتهم، ويثبتون ما يحملون من حزم ويرتمون باتجاه الباب.

حتى الآن في هذه الرحلة (فائدة أخرى لعربة النوم) نجحت في تجنب ما يسمى بالأمسيات الثقافية التي يحتجز الفرد فيها أسيراً في غرفة ساخنة ليصفق لعرض ماجن من الراقصين والمغنين في زينتهم من الريش والخرز وهم يؤدون وصلات يلتمس لردائها العذر كونها تقليدية. ولكن الليلة السابقة لالتحاقني بقطار هاتسوكاري المتجه إلى اوموري، كان لدي بعض وقت الفراغ، وبلا سبب معين أذكره، قررت الذهاب إلى قاعة نيتشجيكي للموسيقى لحضور عرض مدته ساعتان، يسمى سقوط الأزهار الحمراء على بشرة فاتحة [Red Flowers Fall on Fair Skin].

أعلن عن هذا العرض على نطاق واسع إحياءاً للذكرى المائتين والخمسين لميلاد الكاتب المسرحي الياباني تشيكاماتسو مونايزيمون. وحتى الساديون في اليابان، كنت سأكتشفهم، لم يتجردوا من الحس التاريخي. لم يكن ثمة أجانب بين الجمهور عدا اثنان أو ثلاثة. وكانت الأمسية الثقافية في أي مكان آخر لتكون حدثاً سياحياً: لقد شعرت أن التحول المحلي الكبير يستحق بعض الآراء في التوظيف الياباني للتواصل.

تماماً حالماً انطفأت الأنوار، وثبت امرأتان في منتصف العمر على طول الممر وأخذتا مقعديهما في الصف الأول، وهما تضحكان. كانت الوصلة الافتتاحية رقصة بالأرجل، عشرة فتيات يابانيات تزدان رؤوسهن بحلي تايلندية الطابع، وليس ثمة أكثر من ذلك عدا ملابس تحتية ضيقة موشاة بخيوط ذهبية. صعدت الراقصة الرئيسية من أرض المسرح على منصة دوارة، وقد تألفت الثعابين الذهبية أمام ركلات الصف الأمامي للفرقة الرشيقية. تأوهت. بدأت الموسيقى. وبعد البحث في الأورا، ورفض لعروض مسارح النوه والكابوكي، تورطت في عرض للأثداء. أردت المغادرة،

وكدت أفعل بعد الوصلة التالية، أغنية يابانية، أداها شبح مخنت متبرج، جعلني أشعر أنني تعرضت لحالة تشبه تجريد آلة بيانو من أوتارها بالكامل.

تماسكت، منجذباً قليلاً إلى العري، ملتصقاً في وصلات الرقص متعة غريبة، "شير يو شارلستون!" و "صرخة أسود" (فقرة صارخة، تتعلق بموت الفنانة بيلي هوليدي، ووجه أسود ياباني- عرض فيه من الكوميديا ما يفوق التعليق على مسألة العرق). وبذات القدر كانت الفقرات الأخرى تقلد قاعة موسيقى راديو المدينة [Radio City Music Hall]، ولكن ما تبع ذلك لا يدين للغرب بشيء البتة.

بدأ "أبوراغوروشي"، والذي ترجمه جاري الياباني بسرور بوصفه: "القتل بالزيت"، بمقطع لسيدتين تركضان إلى غرفة حيث على الأرض، يسيل الزيت في بركة واسعة. وربما عرضها الفيلم في إحدى جمعيات السينما بالجامعات التي كانت تقدم عروضاً سنوية لأعمال لا أفينتورا، باثر بانشالي، وأفلام كارتون أوربا الشرقية المملة: حيث المطاردة المبالغ فيها، وزوايا التصوير الغريبة، وذلك النوع من الهستريا الرسمية الذي طالما ربطته بعروض جمعيات السينما. ثم انزلت سيدة واحدة في الزيت، وقفزت عليها الأخرى ثم بدأتا الشجار. فرفعنا الصوت بالصراخ، وجذبت كل منهما شعر الأخرى، وصرّت أسنانهما، وكلما حاولت الضحية الهروب انزلت في الزيت، وثبتت إلى الأرض بيدي غريمتها. كانت هناك لقطات للأظافر التي تقطر زيتاً، والشعر اللامع، والمؤخرات، والأثداء، والركب أيضاً، بجانب المؤثرات السينمائية المغالية، مثل ظهور فم يوشك أن يلتهم الشاشة.

وبينما كانت سادية هذا الفيلم بازدياد- لمحت في الكواليس، فتاتين يابانيتين عاريتين، ظهرتتا من فجوة في وسط المسرح، وأدتا عرضاً مباشراً لنسخة مطابقة مما يحدث على الشاشة- متظاهرتين بالسادية، وتمثلان صراعاً بينهم. كانت المرأتان في الشاشة تلمعان بالزيت، وبوسعك أن ترى النهاية السيئة التي سينتهي بها الأمر عندما غرست إحدهما أسنانها في مؤخرة الثانية، مما جعل الضحية تنتفض. فامتطت العاضّة ظهرها. استمر العرض المتزامن، عاريتان تتثنيان على المسرح، وأخريان تتلويان على الشاشة. تحولت الكاميرا لتعرض الجروح، والدم الممزوج بالزيت، والدم والزيت يسيلان على نهدي امرأة تحبو على أربعة. انتهى هذا العرض بلقطة لقاتلتين تتصران على جثتي ضحيتيهما الممددتين على الأرض، وصفق الجمهور بحرارة.

بدأت الفقرة التالية "الحب ينتحر في أميشيما" بقر من البراءة، بمشهد رجل يداعب امرأة. سألت جاري المبتسم عن معنى العنوان. فقال إنه ليس سوى اسم جزيرة على بحر اليابان حيث تحدث هذه اللقطة، وأمّلت، وقد حدث، ألا تكون في مسار رحلتي. أصبح الرجل خلف المرأة الآن، وتطلب الأمر القليل من الخيال لأخلص إلى أنه كان يأتيها من ورائها بعنف، بينما يعتصر نهديها كما يفعل أحدهم بثمرة ليمون- ليمون وليس غريب فروت. انضمت الفتاتان إلى المسرح كالسابق، ومثلتا بأسلوب يجوز وصفه بالرمزية، ما كان يفعله الرجل والمرأة في الفيلم، ومرت عشر دقائق من الجنس الفاحش قبل مشهد النهاية. كان هذا عناقاً، وبينما كانت الفتاتان على المسرح تمثلا الوحش ذا الظهرين، كان الرجل في الفيلم قد قفز إلى وضع المقابلة وفي لحظة الذروة- لم يزد التنبيه على آهة واحدة- سحب سيفاً لماعاً من تحت البساط، وقطع به حلق حبيبته. كانت هناك لقطة قريبة للجرح المميت، حيث يسيل الدم بين نهدي السيدة المتوفاة (بدت هذه الذروة رائجة)،



خرجت للمدخل بحثاً عن نسمة هواء نظيفة. لم يكن لدي دافع كافٍ للعودة إلى حيث "الجسد الأبيض الملطخ بالدم" إلا أنني رأيت "اليابان تغرق". كان هذا إعلاناً صارخاً، من عشر فتيات عاريات وعشرة رجال مخنثين يرقصون. كانت الفقرة الأخيرة فردية بعنوان "أونا هاراكييري"، ومعناها يتضح عندما تعرف أن "أونا" هو اسم الفتاة التي تتعري من الكيمونو الذي ترتديه، وتشهر سيفاً وتثبتته على بطنها. ويتلو رجل من خارج المسرح ما يشبه قصيدة يابانية ساخرة بايقاع ووزن قصيدة "الغراب". تبدأ أونا المعذبة عارية، وتدفع برأس السيف باتجاه بطنها، وتسحب جانبياً، فانفجر الدم من بطنها، وانتثر على المسرح، فسقطت أرضاً ولكن ما زالت حية. جثت مرة أخرى، وبينما القصيدة تُتلى، سددت طعنة إلى فخذها الأيسر، ثم الأيمن، وتحت كل من ذراعيها، قتلطخت بدفقات من الدم. اليابانيون في غاية من الذكاء لدرجة لم أر قبل طعناتها السادسة، أنها كانت في كل مرة تثقب مغلفاً من السوليفان مملوء دماً. والآن أصبحت مغطاة بالدم، وصار بساطها دبقاً مما فيه من دم، وطفق الجالسون في الصف الأمامي في مسحه من وجوههم بالمناديل. ونجحت في آخر المطاف: عرضت جسدها الملطخ بالدم للحضور الموقر ثم دفعت بالنصل الذي يقطر منه الدم في حلقها، فحملت رأسها مثل حلوى لولي بوب على عصا. اندفع الدم إلى فكها، وتناثر الكثير منه، وانهارت ثم سقطت على الأرض. كانت الأرضية تدور فتمنح الفرصة للجميع ليرى مشهد القتل قبل أن تهبط المنصة إلى المسرح، مع وقفات وجيزة من وقت لآخر حتى ترفع أونا يدها التي توهجت من الدم المتدفق: كانت هذه هي اليد التي هتف لها الجمهور بينما انطفت الأنوار. أما خارج قاعة موسيقى نيشيجيكي، كان الرجال الذين شاهدوا العرض باسترخاء شديد، ثم صفقوا بحماس للوحشية الجنسية التي لم يتنسى لهم الاستمتاع بإعادة لها، هؤلاء الرجال كما قلت، انحنوا لبعضهم البعض باحترام شديد وهم مبتسمون، وغمغموا لأصدقائهم مودعين في تهذيب، وشبكوا الأذرع مع زوجاتهم في لطف عشاق من الطراز القديم، وفي أضواء الشارع الصارخة، بدوا -مبتسمين- في براءة الملائكة.

يعود لقب "طائر الصباح" الذي أطلق على قطار هاتسوكاري السريع المحدود ذي الوجه-الرصاصية، إلى وصوله في أموري وليس مغادرته من طوكيو، فهو يغادر محطة أوينو في الساعة الرابعة ظهراً يومياً. أوينو مزدحمة بالأشخاص الذين يرتدون قبعات الفرو، وهم يحملون الزلاجات والمعاطف الثقيلة بسبب الثلج في نهاية الخط:

هؤلاء مسافرو العطلات. ولكن هناك المقيمون العائدون أيضاً، أصغر حجماً، وأكثر اسمراراً، الأشخاص ذوو وجوه اسكيمو، في طريق عودتهم إلى هوكايدو. يوصفون بالتعبير الياباني نوبوري-سان [البنين]: تعني حرفياً "التحتيون"، كونهم استقلوا النوبوري "القطار التحتي"، هؤلاء الزائرون، الأقارب الريفيون، الذين يمضون العطلة في طوكيو يعتبرون أجلاً. أما في القطار فيظلون في مقاعدهم، ويتخففون من أحذيتهم الثقيلة، ثم ينامون. يساورهم شعور بالراحة إزاء رحلة عودتهم ويحملون معهم الهدايا التذكارية من طوكيو: الكعك المغلف بالسوليفان، والأزهار في قراطيس ورقية، والفواكه المجففة المربوطة بالأشرطة، والعرائس في أقمشتها، والألعاب داخل صناديقها. اليابانيون بارعون في تغليف الهدايا. تلك التذكارات المكدسة في حقائب التسوق البلاستيكية تشكل متاعاً أساسياً للمسافر الياباني. وهناك طرود أخرى، لأن النوبوري-سان، لا يثق في طعام السكك الحديدية الوطنية اليابانية، يحضر حافظة غدائه. وعندما يستقيظ،

ينقّب أمام قدميه فيعثر على علبة مغلقة تحتوي على الأرز والسّمك، فيأكلها بدون أن يتمدد أو ينهض من كرسيه المبطن، وينفخ ويصفع. القطار ذاته هادي، وذكرياتي عن الأصوات في القطار الياباني لم تتعد صوت الأكل هذا، الذي كان يشبه صوت رجل كبير ينفخ بالوناً. مشغّل موسيقى بمكبرات صوت يصدر عشر نغمات نقرية، ورسالة مسجلة تسبق وقفاتنا. التحذير ضروري لأنّ الوقفات قصيرة: أربع عشرة ثانية في مينايمي-أوراوا، ودقيقة واحدة في اوتسنوميا، وبعد ساعتين، وقفة دقيقة واحدة أخرى في فوكوشيميا. قد يصطدم الراكب غير المستعد بالباب، أو يفوّت محطته تماماً. يحمل اليابانيون من ذوي الخبرة حقائب التسوق الخاصة بهم ويتجهون إلى الباب قبل وقت طويل من صدور الموسيقى والرسالة، وحالما يقف القطار ويظهر شق في الباب يتدافعون بجنون باتجاه الرصيف. الرصيف مصمم ليناسب الأشخاص المثقلون بالامتعة والسائرين ببطء، فهو على مستوى الحاجز. الأضواء في العربات لا تنطفئ أبداً، مما يجعل النوم مستحيلاً، ولكنها تمكّن الراكب من جمع مقتنياته في الثانية صباحاً عندما يبطيء القطار ويقف لخمس عشرة ثانية في محطته.

يا للإتقان! يا للسرعة! ولكني اشتقت لشسوع الخطوط الحديدية الهندية، الأسرّة الواسعة في المقصورات الخشبية التي تفوح منها روائح الكاري والشירות، وإيصالات الغسيل بما عليها من علامات القمصان والياقات. وعلى مغسلة المياه دورق للشرب، وفي القاعة رجل يحمل زجاجة من الجعة في صينية: القطارات التي تسير على إيقاع الابامي باوند، أو شاتانووغا كوكو، فتجسد الأفضل في مهرجان السكة الحديد. يستحيل تفويت قطار وئيد السير مثله.

كانت قطارات اليابان عديمة الرائحة ترعبي، وتبعث فيّ شعوراً بالتوتر والتعرق، لطالما ارتبط عندي بالسفر جواً. لقد تسببت في عودة أعراض الهلع الشديد الذي شعرت به في قطار جنوب تايلاند الدولي السريع- نوع من الارتياب الحاد الذي تسلل إلي بعد أشهر عديدة من الترحال. بدأ السفر يثير قلقي، حتى في ظل الظروف المثالية، ورأيت أنّ الحركة المستمرة في عدد من الأماكن فصلتني تماماً عن محيطي لدرجة كوني في مكان غريب، ويورقني شعور مبهم بالذنب كرجل عاطل يشعر أنّه ينتقل من فشل إلى آخر.

استولت علي هذه الهدنة المحيرة في طريقي إلى أوموري، وأعتقد أنّها ذات علاقة كبيرة بالسرعة الكبيرة لحركتي، والقطار المنطلق بسرعة الرصاصة، وسط أناس صامتين، حتى إن تحدثوا، ما كنت لأفهمهم. كنت محاصراً بالزجاج المزدوج، عجزت عن فتح النافذة حتى! كان القطار ينطلق ماراً بالأرصعة المتوهجة الخالية في المحطات الريفية ليلاً، وشعرت بنوع من الغربة الطاغية للحظات طويلة، كانت تنتابني لفترات أقصر في السابق، وفي فترات خاصة من الوقت لم أكن أستطيع تخيل موقعي، أو علة وجودي فيه.

أزعجني الكتاب الذي كنت أقرأه على ذلك القطار أكثر. لقد كان حكايات يابانية من الغموض والخيال لإيدو-غاوا رامبو.

كان اسم رامبو الحقيقي هو هيراي تارو، وهو اسم على مسمى- واسمه الأدبي نسخة يابانية من إدجار آلان بو- وهو مختص في حكايات الرعب. كانت ابتكاراته الخيالية قاسية، وأسلوبه سلخ الجلد النثري المثير للانفعال، لكني مع ذلك انبهرت، وفنتت بسخافة القصص، لأنه كان من المستحيل تجاهل هذه الفضاءات بينما يحسب جمهور نيتشيجيكي هذه الرقصة المروعة ضرباً من الترفيه. وهذا ملمح آخر من الروح اليابانية المعذبة. ولكن كيف السبيل إلى مصالحتها مع الشخوص الصامتة في القطار الليلي، والذين كانوا ينتقلون كما لو أنهم تحت سيطرة ترانزستور؟ هنالك خلل ما، ما قرأت يناقض منظر هؤلاء المسافرين. كان هنا الصبي بطل "جسيم المرايا" بهوسه الغريب بالبصريات، يحبس نفسه في مرآة كروية، ويستمني على مشهد انعكاسه الوحشي، ويجن جنونه باستعراض جسده العاري، وهناك في المقعد المقابل في القطار كان يجلس صبي في عمر مماثل، يطعنه رأس الشخص الجالس أمامه في هدوء وسلام. في رواية أخرى، "المقعد البشري"، صانع مقاعد شهواني، "أقبح مما يمكن وصفه"، يخفي نفسه داخل أحد منتجاته، مزوداً نفسه بالطعام والشراب، ومن أجل احتياجات طبيعية أخرى أدخل معه حقيبة مطاطية كبيرة الحجم". كان المقعد الذي يجلس عليه يُباع لسيدة جميلة، تزوده بالإنارة في كل مرة من مرات جلوسها عليها، ولا تعلم أنها تجلس على حجر رجل يطلق على نفسه وصف "دودة". مخلوق قميء". يستمني المقعد البشري، ثم يكتب بطريقة ما رسالة للسيدة الجميلة. على بعد بضعة مقاعد مني في الهاتسوكاري، ثمة رجل متشرد دميم، كانت قبضته مثبتتين على ركبتيه: ولكنه يبتسم. مدفوعاً بالهاء رامبو، قررت أخيراً أن أتركه. كنت نادماً على معرفتي القليلة جداً باللغة اليابانية، ولكنني أكثر ندماً من عدم وجود ملجأ على هذا القطار السريع.

جلست فتاة شابة بجانبني. وقد خلصت منذ وقت مبكر في الرحلة إلى أنها لا تتحدث الإنجليزية، وكانت تقرأ كتاباً مصوراً طوال الوقت تقريباً منذ أن غادرنا محطة اوينو. وعندما وصلنا إلى أقصى شمال هونشو، وفي محطة نوهيجي (خمسين ثانية) على خليج موتسو، نظرت من النافذة ورأيت الثلج- كان يستقر بين القضبان والحقول التي اكتست زرقاً من ضوء القمر. وقفت الفتاة، ووضعت كتابها المصوّر جانباً. وسارت على طول العربة حتى دورة المياه. أضيئت إشارة الحمام الخضراء، فطفقت أقرأ في القصة المصورة أثناء ذلك. كنت قد تلقيت تعليمات وتحذيرات. تضمنت الصور أجزاء من عمليات فصل رؤوس، وأكل لحوم البشر، وأناساً يشهرون أسهماً مثل القديس سباستيان، وأشخاصاً يحترقون، وجيوشاً صارخة من الغزاة تمرّق القروبين، وأشخاصاً بلا أطراف تقطر من جذوعهم الدماء، بالإجمال، فوضى عارمة. لم تكن الرسوم متقنة، ولكنها واضحة. تخللت القصص الفظيعة، قصصاً رسومية قصيرة، وثلاثاً منها تعتمد في تأثيراتها على الضراط: رجل أو سيدة من السجناء ينحني على بطنه، مبرزاً مؤخرة ضخمة ويطلق سحابة من النتانة (رسم انفجار هوائي بخطوط مقوسة وسحب)، في وجوه الخاطفين. انطفأ الضوء الأخضر. تركت الكتاب المصوّر. عادت الفتاة إلى مقعدها، ساعدني يا إلهي، وشرعت في قراءة كتابها الوحشي من جديد.

عادت مكبرات الصوت للعمل في في أوموري، ورسّت العبّارة، أعطيت التعليمات، ثم انسحب القطار إلى المحطة، أما الركاب الذين ازدحموا داخل المعبر مع أول مقطع من الرسالة المذاعة، ونزلوا مسرعين من الأبواب وعبر الرصيف.

مربو الدجاج وتذكاراتهم، السيدات المسنات وهن يزحفن بقباقيبهن الخشبية، والشباب بمزاجهم، وفتاة تحمل كتاباً مصوراً: من خلال استقبال المحطة، وعلى الدرج، على مسافة درجات للأسفل، يهرعون ويتدافعون، ويسيرون بالصنادل التي تقسم أقدامهم إلى أصبعين عريضين- تهرول النساء، ويركض الرجال. ثم إلى صف من البوابات حيث تباع التذاكر وتُنقّب، وستة من المحصلين يلوحون للناس بالصعود عبر الممر وإلى الأقسام المخصصة لكل: تذاكر غرفة الدرجة الأولى الخضراء، والغرف العادية، والأرائك، والدرجة الثانية غير المفروشة، والثانية المفروشة (وهنا يجلس الركاب على الأرض وهم يربعون أرجلهم). خلال عشر دقائق انتقل الألف ومائتا راكب من القطار إلى العبّارة، وعقب خمس عشرة دقيقة من وصول هاتسوكاري إلى أوموري، أطلقت تاوادا مارو صافرة المغادرة، وانسحبت من المرسى لتعبر ممرات تسوغارو. استغرقت عملية تبديل مماثلة بين قطار وعبّارة في ميناء راميشوارام الهندي ما يقارب السبع ساعات.

كنت في غرفة التذكرة الخضراء ومعني حوالي 150 شخصاً آخرين، كانوا مثلي يحاولون ضبط مقاعد الحلاق التي خصصت له. كانت هذه المقاعد المنزلة مائلة للوراء، وقبل أن تخفت الأنوار، تصاعد صوت شخير الكثيرين. كان عبور الأربعة والعشرين ساعة صعباً للغاية، وكان الثلج في أوموري كثيفاً، وكنا في تلك اللحظة نبحر في عاصفة ثلجية. انعطفت السفينة بشدة، وأصدر هيكلها صريراً خافتاً، وطار الرذاذ على متنها، وكانت رقائق الثلج المتساقط تُرى من خلف النوافذ. خرجت إلى متن السفينة العاصف، ولكنني لم أستطع تحمّل البرد ومنظر المياه الداكنة والثلج، فعدت إلى مقعدي، وحاولت النوم. وبسبب العاصفة الثلجية- كان بوق السفينة يطلق أنينه في الممرات كل خمس وأربعين ثانية.

في الساعة الرابعة كان هناك صوت تغريد طائر- يزقزق، ويغني- على مكبر الصوت: تسجيل آخر. ولكن ما زال الظلام حالكاً. كلمات قليلة من مكبر الصوت، واستيقظ الجميع وأسرعوا إلى أبواب الكابينة. انزلت العبّارة على الجانبين، تم تأمين الرصيف، وفتحت الأبواب، وانتقل الجميع إلى القطار الذي كان بانتظارهم بازار السكك الحديدية الكبير.

-----

## الفصل السابع والعشرون

### قطار اوزورا (السماء الواسعة) المحدود السريع إلى سابورو

----

خرج القطار من النفق الطويل إلى بلد الثلج. امتدت الأرض بيضاء تحت سماء الليل. السطور الافتتاحية لقصيدة كاواباتا بلد الثلوج ( في مكان آخر من هونشو الغربية) تصف الأوزورا، عقب

مغادرة هاكوداتي بساعة. ما زالت الساعة الخامسة والنصف بعد في ذلك الصباح من شهر ديسمبر. لم أر مسافات كهذه من الثلج، وبعد السادسة عندما طلعت الشمس اكتسى ركام الثلج منها صُفرة، منحت الثلج وهج رمال الصحراء القاسي، كان النوم مستحيلاً. نهضت وسرت في القطار ألنقط الصور لكل ما يقع عليه بصري: وهو أمر لا يعترض عليه ياباني.

أخبرني رجل ياباني أن: " هذا القطار يسمى "السماء الواسعة" لأنّ هوكايدو هي أرض السماء الواسعة." حاولت جره إلى حوار مستفيض، لكنه هتف: " رجاء!" وابتعد مسرعاً. ولم يبد ثمة من يتحدث الإنجليزية غيره في القطار، لكن وبينما كنت أتناول إفطاري، استأذني أحد الأمريكيين في الانضمام إليّ معرفاً بنفسه على أنّه شيلستر، فوافقت. كنت سعيداً لرؤيته، وحتى أؤكد لنفسني على أنني ما زلت قادراً على تقييم الغرباء وتقدير السفر. لقد أزعجني اعتلال الذهن الذي مررت به اليوم السابق، وكنت أعتبره خوفاً، إلا أنّه كان حالة ذهنية مزعجة في اليابان. كان شيلستر من لوس أنجلوس، ذو شارب معقوف، ويرتدي ملابس حطّاب: قميص صوفي عليه مربعات على نسق لوح الشطرنج، وبنطال قطني مضلع، وحذاء ذو رباط. كان الناس في هاكوداتي لطفاء حقاً، ولكن الطقس كان سيئاً جداً، والإيجار كان مرتفعاً، والمعيشة باهظة الكلفة. كان في طريقه إلى سابورو في عطلة نهاية الأسبوع ومقابلة فتاة يعرفها. ماذا كنت أفعل؟ اعتقدت أنّ الكذب سيكون من سوء الحظ: نفحة من جنون الارتياح جعلتني مؤمناً بالخرافات. أخبرته بالضبط عن الأمكنة التي زرتها، مسمى البلدان؛ وقلت إنني كنت أدون ملاحظاتي، وإنني عندما أعود إلى إنجلترا، سأؤلف كتاباً عن الرحلة وأسميه بازار السكة الحديدية الكبير. بل تجاوزت ذلك: قلت إنني حالما يغيب عن ناظريّ سأكتب ما قاله من إنّ الناس لطفاء حقاً، والطقس كان سيئاً جداً، وسأصف شاربه.

كان لكل هذه الصراحة أثر عجيب: اعتقد شيلستر أنني أكذب، وعندما أقنعتني أنني أقول الصدق، بدأ في الحديث بأسلوب أقرب لالتماس الصلح في شيء من السخرية، كما لو كنت مختلاً وربما سأكون عنيفاً عما قريب. تبين أنّ لديه معارضة لكتبت الرحلات: قال إنّ لم يرد جرح مشاعري ولكنه كان يظن أنّ كتب الرحلات غير مفيدة. فسألته لم؟

" لأنّ الجميع يسافر، عليه من يريد القراءة حول السفر؟"

"الجميع يمارس الحب، أيضاً، ولكن هذا لا يجعلهم يصمتون عن الحديث حوله. أعني، ما زال الناس يكتبون عنه."

"بالطبع، ولكنك تتحدث عن السفر، ولا يفكر المواطن العادي في أمريكا سوى في السفر إلى بالي. أعرف الكثير من الناس- العاديين من الطبقة الوسطى- الذين سافروا إلى مناطق بعيدة خارج البلاد مثل اسطنبول، وأنقرا، وتاهيدي، وما شئت بعد من مدن، إنّ قومي بها هذه اللحظة أيّها السكير. إذن فهم وصلوا هناك بالفعل: من يرغب في القراءة عن ذلك؟"

" لا أعرف، ولكن حقيقة أنهم يسافرون قد تعني أنّهم أكثر اهتماماً بالقراءة حول السفر."

لم يفتأ يكرر العبارة بعناد: " ولكنهم هناك بالفعل،"

قلت له: "بالطائرة. وهذا أشبه بالسفر على متن غواصة، القطار مختلف. انظر إلينا: ما كنا لنحظى بهذا الحوار إن سافرنا على متن الطائرة. على أية حال لا يرى الناس الأشياء ذاتها دائماً في البلاد الأجنبية، ولدي نظرية تقول إن ما تسمعه يؤثر على ما تراه وربما يحدده حتى.

قد يتحوّل شارع عادي بفعل صرخة، أو رائحة ما قد تضيء الجاذبية على مكان مربع. أو ربما ترى ضريحاً مغولياً مهيباً وبينما تنظر إليه تسمع شخصاً يقول: "تشكينزولا"، أو "جحر الفأر"، وسرعان ما يبدو الضريح كله كما لو كان مصنوعاً من المعجون".

ما هذه النظرية الغريبة التي كنت اخترعها لشيستر؟ لم أستطع تخليص نفسي من فكرة التزامي بإثبات عقلانيتي له. حاجتي الشديدة لإثبات منطقي جعلتني أترثر، وترثرتي دحضت زعمي. كان شيستر يحدّق فيّ، ويجمّمني في شفقة مما أثار فيّ -أكثر من أي وقت مضى- شعوراً كشعور بينفولد في رواية إيفلين.

فقال: "ربما أنت على حق، انظر، أود الحديث إليك لكنّ لدي أكوام من العمل." وأسرع مبتعداً، وكان يتجنبني طوال ما تبقى من الرحلة.

عبر القطار جزيرة جرداء من هاكودات إلى موري. درنا دورة كاملة حول خليج أوشيورا حيث تُستقبل الشمس التي سطعت لتوها بترحيب رائع من المياه ومن الثلج الذي يفرش الشاطئ. سرنا على طول الساحل، على الخط الرئيسي الذي كان مستقيماً ومستوياً، أما في الأراضي الداخلية فكانت هناك الجروف والرفوف الجبلية، والبراكين المتفرقة. اشرأب جبل تاروماي إلى اليسار بينما بدأ القطار ينعطف بحدة إلى الداخل، باتجاه سابورو على خط شيتوز. أناس يرتدون قبعات لها أغطية للأذان تصطفق، ومعاطف مبطنّة، طفقوا يربطون الأعمدة معاً لينشئوا منها سياجاً صاداً للثلوج. تركنا ساحلاً ما كان حداً غربياً للمحيط الهادي، وفي غضون ساعة كنا بالقرب من سابورو، حيث يستطيع المرء رؤية بحر اليابان الأزرق من الهضاب. يملأ هذا البحر رياح سيبريا الباردة بالثلوج. الرياح ثابتة مستمرة، وثلوج ديسمبر عميقة جداً في هوكايدو. ولكن ليس على متن القطار سوى أربعة متزلجين. فطلبت تفسيراً في وقت لاحق. وعرفت أنّ موسم التزلج لم يحن بعد: سيأتي المتزلجون لاحقاً في أعداد كبيرة، فتكتظ بهم المنحدرات. كان اليابانيون يحسنون التصرف في **الحفلات**، ويضفون على عطلاتهم طابعاً موسمياً منتظماً، لا يتقدمون في المواقيت ولا يستأخرون، فهم يتزلجون في موسم التزلج، ويطلقون الطائرات الورقية في موسم الطائرات الورقية، ويبحرون بزوارقهم ويسيرون في الحدائق في أوقات أخرى مخصصة لكل. كان الثلج في سابورو مثالياً للتزلج لكنني لم أر أكثر من شخصين قط على أي منحدر، حلبة تزلج قفزة التسعين متراً على الرغم من الثلوج التي تغطيها بالكامل، وما عليها من غبرة، ما زالت فارغة وستظل مغلقة حتى افتتاح الموسم. التقيت السيد واتانابي، سائق القنصلية في المحطة، وعرض عليّ جولة في سابورو برفقته. كانت واجهة سابورو كمدينة ويسكنسن في الشتاء: مخططة بدقة وقد اكتسبت شبكة الطرق فيها إطاراً من الثلج المتسخ، واصطفّت على جوانبها أكداش السيارات المستعملة، والمتاجر متعددة الأقسام، واللافتات المضيئة، وأكشاك الهامبورغر البلاستيكية، والملاهي الليلية، والحانات. وبعد عشر دقائق أردت أن أنهي الرحلة لكن كان الوقت متأخراً فقد علقنا في زحام السير، وتوقفنا عن الحركة. بدأ الثلج يتساقط، فهطلت قطع كبيرة منه منذرة بالعاصفة ثم انهمر المزيد من القطع الأصغر حجماً.

قال السيد واتانابي: "الثلج!"

فسألته: "هل تحب التزلج؟"

"أحبّ الويسكي."

"الويسكي؟"

"نعم" قال وقد بدت عليه سيماء العبوس. تحركت العربة التي تسير أمامنا بضعة أقدام، وتبعها السيد واتانابي ثم توقف.

قلت: "هل تلك مزحة يا سيد واتانابي؟"

"نعم."

"أنك لا تحب التزلج. وتحبّ الويسكي."

قال وهو ما زال عابساً: "نعم، وهل تحب أنت التزلج؟"

"أحياناً."

"لدينا قفزة تزلج بارتفاع تسعين متراً."

قلت: "ليس الآن" كان الظلام قد بدأ يهبط، وقد كست العاصفة الثلجية في منتصف ذلك الصباح سماء المدينة حمرة كشفق المغيب. قال: "هذا هو المسكن." وهو يشير إلى صف من المنازل المكعبة، كل منها في قطعة من الأرض مزدحمة، ومنكمشة بفعل المجمعات السكنية، والفنادق والمزيد من الحانات، تضيء لافتاتها اللامعة.

كانت هوكايدو هي آخر مناطق اليابان تطوراً: وكان مركز سابورو التجاري حديثاً، بقياسات أمريكية، وجفاء أمريكي، وليس من الأمكنة التي يُدعى الغرباء للإقامة فيها. أدرك السيد واتانابي شعوري بالملل. قال لي: "أترغب في رؤية حديقة الحيوان؟"

فقلت له: "أي حديقة؟"

"ذات الحيوانات."

"حيوانات في أقفاص؟"

"أجل، حديقة كبيرة جداً."

"لا شكراً." تحرك الزحام خمسة أقدام أخرى وتوقف. زاد انهيار الثلج، وعلى الرصيف رأيت ثلاث سيدات يرتدين الكيمونو والأوشحة، ويسرن بين المتسوقين، وقد ثبتن شعورهن على طريقة ذيل الحصان بأمشاط عريضة. كن يحملن المظلات ويحملنها إزاء الثلج المنهمر بينما كن يهرولن على قباقيب ذات كعب عالٍ [3بوصات]. قال السيد واتانابي إنهن من مغنيات الجيشا.

"وإلى أين قد تذهب مغنيات الجيشا في هذه الساعة؟"

"ربما إلى حيث يتناولن طبق سلطعون."

فكرت للحظة، فقال: "أتحب السلطعون؟"

قلت: "جداً."

"أذهب؟"

كان علي أن أقول لا. أردت رؤية المنتجع ليس إلا، جوزانكي، على بعد ميلين من سابورو في الجبال، حيث الربيع الدافئ. إنه تأثير كاواباتا، تلك الرواية التي كانت تزداد في نظري شبهاً بنسخة من رواية تشيكوف [السيدة صاحبة الكلب الصغير]. شيمامورا، في أحد أيام العطلات، يدبر موعداً عابراً مع واحدة من الجيشا في منتجع ربيعي دافئ، ومن ثم يقع في غرامها ويعود، وهو متيمّ بالعشق قسراً. يقول: "ما الذي قد يجعل أياً كان يأتي إلى مثل هذا المكان في ديسمبر؟"

وافق السيد واتانابي على أن يقلني، وقال: "تعزّ؟"

قلت: "ربما، أو ربما نظرة."

أدرك ما أريد، وفي اليوم التالي ذهبنا إلى جوزانكي. التعريّ كلمة مناسبة للحمام الياباني، لأنّه لا يقتصر على الاغتسال فقط بل يتعداه إلى الاستلقاء دون ثياب في بركة بخار جماعية، وتسخين جسدك حتى تشعر بالصحة. ولكن زيارة الحمام تكلف 5000 ين، أي ما يعادل عشرين دولاراً تقريباً، أدركت أنني لا أملك من الينات ما ينقني إلى تلك الدرجة. على أية حال، لقد وصل الثلج في جوزانكي إلى درجة العاطفة الثلجية: طبقات من السحب الثلجية تطفو فوق الخوذة القبيحة، التي تبدو كما لو كانت قد تدرجت من جدران المضيق الجبلي الرائع. تنهمر الثلوج طوال الشتاء في جوزانكي، وتكون عميقة جداً، يمر الناس عبر أنفاق تحت الركاب العنيد. وللمنازل أطناف سويسرية عريضة، ويصل ارتفاع أعمدة صنادير الإطفاء لخمس عشرة قدماً. الصنادير ترتفع لخمس عشرة قدماً.

لقد كتم هطول الثلج كل الأصوات، وأوقف السيارات، وحبس الناس داخل منازلهم. ما يزال الثلج يتساقط فيزداد الركاب سمكاً وتتجمع طبقات الثلج الهشة على أرض المضيق، مما يقلل من مدى الرؤية، ويجعل المنازل المنخفضة تتحول إلى أشباح داكنة وسط ذلك البياض-إفريز بارز، وجزء من جدار، ومدخنة تنفث الدخان من أنبوبها. هنا قمة نصف إشارة، وفي متاهة الجليد الضبابية، تحول بستان الصنوبر إلى أشكال بسيطة متفرقة بفعل كتل الثلج. أفزعت أنا سرباً من الغربان، وبطيرانه ظهرت الأشجار التي كات تختبيء خلفه. كان ثمة المزيد من الغربان تتغذى على الفئات في ظهر نُزُلٍ صغير؛ طارت وظلت ترفرف في الهواء الأبيض، وريشها المتقطع الأسود يشير إلى الفروع. لقد أردت التقاط صورة للغربان وهي تطير في الثلج. صفقت بيدي وهرعت باتجاهها. فلم تتحرك. حاولت مرة أخرى ووقعت في شاطئ جليدي. وبينما كنت أنهض على قدمي مرت بي امرأة يابانية تحمل سلة، تحدثت بصوت عالٍ باللغة اليابانية وابتعدت مترنحة. ضحك السيد واتانابي وغطى وجهه.

"ماذا قالت؟"

تردد السيد واتانابي في الإجابة.

"اخبرني."

"تقول إنك غريب الأطوار."

التفت إلى المرأة وصحت: عاصفة! عاصفة! عاصفة! فالتفتت إلي وصرخت: (بحسب واتانابي): "ماذا قلت لك؟!"

سرنا إلى طرف الخوذة، إلى جرف حيث بعض المتزلجين المحاطين بالثلوج، ثلاث بقع وسط عاصفة ثلجية، كانوا يلوحون بأذرعهم مثل طيور محاصرة.

ليس ثمة صوت، فقط حركتهم الضبابية. ثم تتبعنا خطواتنا ووجدنا مطعماً. أكلنا بينما كانت أحذيتنا تجف على طاولة الكواتسو. موقد الفحم هذا هو مصدر الدفء الرئيسي في معظم المنازل اليابانية، وهو العنصر الوحيد في قائمة طويلة تثبت أن اليابانيين يعملون في القرن العشرين ويعيشون في القرن الماضي. غادرنا والوقت يميل إلى الظهيرة. وتوقف الثلج ونحن على بعد نصف ميل من جوزانكي. أصبح الطقس والجبال أكتست ضخامة مع الضوء. نظرت خلفي لأرى جوزانكي قائمة، رمادية، وثمرّة عاصفة تحلق فوقها كاللعنة.



قال السيد واتانابي: " أتريد أن ترى الدكتور كراك؟" ويليام س. كلارك واحد من أسمى الشخصيات مكانة في تاريخ سابورو، وهو من مواطني ماساتشوسيتس. لم أسمع به من قبل لكني عرفت أنه كان رئيس كلية ماساتشوسيتس الزراعية في أمهرست. كان رجلاً صارماً ذا جبهة تتم عن ذكاء، وشارب كث، كان الدكتور كلارك أحد مؤسسي كلية سابورو الزراعية في 1876. وتمثاله المصنوع من البرونز يعتبر من حرمت المدينة.

تقول القصة إن عميد سابورو، ركب حصانه بعد ثمانية أشهر وعاد إلى ماساتشوسيتس. وتبعه طلابه حتى ضواحي سابورو حيث، أخذ دورة عندما وصل إلى شيماماتسو، وخطب فيهم. كانت كلماته الأخيرة: " أيها الفتيان، تحلوا بالطموح! ليس الطموح للمال، ولا المجد الشخصي، أو المتعة المؤقتة التي يسمونها الشهرة. كونوا طموحين لتحقيق ما يجدر بالإنسان تحقيقه"

أثار هذا الوداع الغامض حماسة اليابانيين ( جسدت عبارة "تحلوا بالطموح أيها الفتيان!" صارت هدفاً لحياة شبابنا. " كتيب سابورو)، ولكن فكرة الرجل الذي ينتمي للجماهير. أدهشني ما حظي به آغي من ذكر في حثه الناس على الطموح بشدة. الدكتور كراك!.

قدمت محاضرتي. وتحدثت قبل ثلاثة أشهر في اسطنبول حول تقاليد الرواية الأمريكية، مبيناً محليتها وخصوصيتها. وناقضت معظم هذه الأقوال في الهند، وبمرور الوقت وصلت لليابان، وكنت قد أخذت دورة كاملة، زاعماً أن لا تقاليد حقيقية في الكتابة الأمريكية غير الأوروبية. كانت الرواية عن الغرب، وحتى الكتاب الذين اعتبرناهم أكثر أمريكية، مثل توين وفولكنر كانوا متأثرين بالرواية البريطانية باعتبارها مصدر إلهامهم القومي. كان من السهل تعريف التقاليد الأمريكية كما عرّف بورخيس الرواية الأرجنتينية: كل الثقافة الغربية. أربكت هذه الفرضية- التي قد تكون صادقة- اليابانيين. فوقفوا وانحنوا في نهاية المحاضرة قائلين: " نحن لم نقرأ أعمال السيد بورخيس، ولكننا قرأنا ليزلي فيدلر. وقد كانت مكتوبة كما يلي:

" لم لا تجلس وتحسني كأساً؟" قلت بعد ذلك وأنا أخطب فتاة يابانية حسناء في الممر.

كان الشيمامورا الذي بداخلي يتحدث. لقد خبأت وجهها في ياقعتها المصنوعة من الفرو، وأرسلت شعرها الأسود.

قالت: " لا أستطيع."

: " لِمَ لا؟"

قالت وهي تحاول إيجاد مخرج: " لأنني، لأنني أستحي جداً!"

قوبل عرضي بأهمية ما، وكان ينبغي رفضه لذلك السبب. لقد كان في الوقت الخطأ: لدى اليابانيين حس احتفالي، قد توضح ملامحه القصة التالية: في تلك الليلة ذاتها بسابورو، تلقت سيدة أمريكية، لها ابنة تدرس في روضة أطفال يابانية، دعوة للعشاء من أم رفيقة طفلتها في الفصل. قُدمت الدعوة لهدفين: الأول هو تعريف السيدة الأمريكية بالثقافة اليابانية، والثاني تملق المعلمة التي كانت مدعوة هي الأخرى. وإطعام المعلمين- بدعوتهم إلى المطاعم الفاخرة- سمة شائعة في الأعراف اليابانية، ويعتبر ضماناً لحصول طفلك على الاهتمام الذي يستحقه. قُدمت العشاء مغنيتان، وعزفت ثلاث أخريات الموسيقى. وكانت كميات الطعام وافرة، حتى إنه بعد ساعة من

الزمن توقف ثلاثة من المدعويين عن التظاهر بالأكل، وبدأوا الحديث حول موضوعات في إطار الاهتمام المشترك. أبدت النساء اليابانيات اهتماماً كبيراً بالسن الذي يبدأ فيه الحيض لدى الأمريكيات.

توقفت المضيفات عن تقديم الطعام، وحل محله الشاي، وأخذت الأم اليابانية طرداً ملفوفاً بالقماش. وقالت إنه مفاجأة وبحياء حلت الأربطة وفصت الغلاف، وأخرجت لفيفة. قالت إنها قديمة جداً، رُسمت قبل 150 عاماً تقريباً، ووضعنها على الأرض. تركت المغنيات آلاتهن، وجثت السيدات الثماني على حصيرة التاتامي التي كست أرضية هذا المطعم المكعب الخاص. وبينما فردت المالكة اللفيفة التي تدرجت على مسافة ثماني بوصات هي طولها. كانت هذه لوحة يظهر فيها راهب قوي الجسم أصلع الرأس يرمق إحدى فتيات الجيشا بعينين ملوئهما الشبق. كانت ثمة قصيدة على جانب الصورة. قرئت وترجمت قبل أن تُعرض اللوحة التالية. وهنا كان الراهب يتحسس فتاة الجيشا المذعورة ويشق النصف السفلي من قميص الكيمونو الذي كانت ترتديه. وقرئت القصيدة المصاحبة لهذه الصورة بالرسمية التي اتسمت بها قراءة اللوحة السابقة، وظلت السيدة على حالها من نشر اللفاف. جسد هذا العرض المتسلسل للفاف المنشورة بكاملها سلسلة من الرسوم الإباحية تصور مختلف مراحل اغتصاب هذا الراهب الشهواني لتلك الفتاة. تمكنت لاحقاً من تفحص اللوحة، ويسعني الشهادة بأن المهبل المجروح والقضيب المنتفخ كالمسدس جُسيدياً بتفاصيل أقرب للحياة، بيد أنني أتفق مع الناقد الإنجليزي ويليام إيمبس، الذي قال (كاتباً على بيردسلي): إن اليابانيين رواد في الطباعة أيضاً، يتركون خطهم المميز جانباً عندما يميلون لإنشاء المواد الإباحية. "في اللوحة الثامنة، بدت على الراهب سيماء التعب، على عكس فتاة الجيشا التي بدت في غاية من الشبق: كست عينيها حمرة، واتخذت أوضاعاً تعبر عن الإثارة. أما اللوحة التاسعة فصورتها وهي تمسك بالراهب الهارب من قضيبه الرخو؛ واللوحة العاشرة حملت صورة الراهب المتألم وهو يستلقي على ظهره، والفتاة منكبة عليه تحاول جاهدة حشو قضيبه في فرجها دون جدوى؛ وفي اللوحة الحادية عشرة، الفاصلة، فصورة لراهب مسنّ جداً يُجبر على مداعبتها: وفتاة الجيشا تبتسم في نشوة، وتقبض على يده بقوة، وتضعها على خرزة بظرها اللامعة.

صفقت الأم اليابانية، وضحكت السيدات جميعهن- وكانت مغنيات الجيشا أعلاهن قهقهة. ساهمت احتفالية الطقس، ورسمية العشاء، وكلفة الطعام، وحضور الجيشا، وغياب الرجال- توفر جميع الشروط- في جعل عرض هذه القطعة الأثرية الإباحية أمراً ممكناً. وكان أقل تلميح عارض كفيل بإفساد هذه المناسبة.

طويت اللفيفة، وغُلفت، وتم تقديمها للسيدة الأمريكية بكل سخاء: قيل لها إن بوسعها أن تريها لزوجها، وألا تسمح لابنتها الصغيرة أن تراها. وأن تعيدها بعد أسبوع إلى مالكتها، وأن تمتنع عن السماح لابنتها الصغيرة برؤيتها. أسقط في يد السيدة الأمريكية- وأصابها شيء من الحرج بسبب مشاهدة معلمة الروضة للعرض بكامله. ولكن السيدة الأمريكية (التي أخبرتني بالقصة) كانت مغتربة لما حظيت به من لمحة على هذا النادي النسائي الثقافي الياباني، والتي كانت بلا شك الهدف الأساسي للمناسبة برمتها.

" أشخاص قصار في عجلة من أمرهم " قال رجل على قطار الجنوب السريع، وظن أنه أفلح في وصفهم. ولكني كلما فكرت في ذلك الاحتفال في دار شاي سابورو، بدت هوكايدو أقل شبهاً بويسكنسن.

عبر الجليد الجاف على عتبات محطة هاكوداتي. والآن صرت أنا الآخر أركض: بالسرعة اليابانية. تعلمت في أموري أنني أملك أقل من ربع ساعة للالتحاق بالقطار المتجه إلى سابورو في الشمال، ولم أكن أرغب في أن أتدوغل في مثل هذه البقعة المنعزلة.

-----

-----

## الفصل الثامن والعشرون

-

### قطار هيكاري ("شعاع الشمس") الفائق السرعة إلى طوكيو

----

لدى العودة إلى محطة طوكيو المركزية، على الرصيف 18، وقف مئة من الرجال اليابانيين في بدلاتهم الرمادية وهم يراقبون قطاري، تكسو وجوههم مسحة من الحزن الوقور. لم يحملوا أمتعة، فهم ليسوا مسافرين. تجمعوا حول إحدى العربات في شبه دائرة باحترام، وكانوا يحدّقون، أنظارهم مثبتة على نافذة واحدة. داخل العربة، عند النافذة، وقف رجل وامرأة بجانب مقعديهما، يظهر ذقناهما فقط من إطار النافذة. أطلقت الصافرة، وبدأ محرك القطار، ولكن قبل أن يتحرك القطار بوصة واحدة بدأ الرجل والمرأة ينحيان أمام النافذة، مرة بعد الأخرى، وفي الخارج على الرصيف، فعل الرجال المئة الشيء ذاته في شيء من السرعة، ليجاروا سرعة القطار التي تزايدت. توقف الانحناء: وشرع الرجال المائة في التصفيق. ظل الرجل والمرأة واقفين حتى خرجنا من المحطة، ثم جلسا، وفتح كل منهما صحيفة يقرأ فيها.

سألت الرجل الياباني الجالس إلى جانبي عما يكون.

فهزّ رأسه. للحظة اعتقدت أنه سيقول لي: " لا أتحدث الإنجليزية "- ولكنه كان يفكر. قال: " ربما، كان مدير شركة. أو قد يكون سياسياً. لا أعرفه. " يا له من وداع. "

"إنه أمر مألوف في اليابان. الرجل شخص مهم. وعلى موظفيه إظهار بعض الاحترام- وأردف مبتسماً- حتى إن لم يكن نابعاً من قلوبهم."

رغبت في متابعة الحوار، لكن كنت أحاول صياغة سؤال عندما تناول هذا الرجل الجالس بقربي حقيبته، وأخذ نسخة من كتاب القصعة الذهبية لدار بنغوين، أبلتها أصابع القراء، وفتحها في الوسط، وطواها من المنتصف، وأخذ في القراءة. فعلت الشيء ذاته مع كتاب الصمت، لشوزاكو إندو، وأنا أشعر بالامتنان إذ معي نسخة إندو لتنعش روحي بدلاً عن هنري جيمس. نقر الرجل

على قلمه ذي السنّ المكورة، وخرش ثلاثة حروف في الهامش المعبأ أصلاً بالخربشات، وقلب الصفحة. مراقبة شخص يقرأ كتاب جيمس الأخير الراحل لأمر مرهق جداً. قرأت حتى وصل المحصل. وعندما أنهى تنقيب تذاكر الجميع، سار بحركة خلفية على طول الممر وهو ينحني ويقول: " شكراً لكم! شكراً لكم! شكراً لكم!" حتى وصل إلى الباب. يتقن اليابانيون حسن الخلق حتى لم يعد التمييز بينها وبين الوقاحة أمراً سهلاً.

نظرت من النافذة، أراقب نهاية ضواحي طوكيو، لكنها لم تنته، بل تمددت إلى آخر الأفق، على السهل المنبسط بلون البسكويت. قطار هيكاري فائق السرعة، هو أسرع قطار ركاب في العالم، يسير فوق الثلاثمائة ميل من طوكيو إلى كيوتو في أقل من ثلاث ساعات، لا يغادر في الحقيقة الرعب الخالص للحاضرة التي تضم هاتين المدينتين كليهما. تحت السماء- التي أكسبتها الأدخنة المصفرة مظهر الصوف- أبراج مثبتة بالكابلات، ومبانٍ تشبه المقاومات الضخمة، ومنازل مبعثرة بلا انتظام، لا يتعدى ارتفاعها طابقين، ذات نوافذ ثابتة تطلّ على المصانع. أما من الداخل- أعرف هذا من زيارة مسائية قمت بها في طوكيو- فتتسم هذه المنازل بالتقشف التام والمثالية، ولا يسهل تحديد عمرها بدقة. ويكتسي الخشب من الخارج بطبقة من السخام المنبعث من مدخنة المصنع المجاور، لا تتجاوز المسافة بين كل منزل وآخر قدماً واحداً. مع هذه الكثافة السكانية، نستنتج أنّ الازدحام المفرط يتطلب أخلاقاً طيبة؛ فأي نوع من الإزعاج، أي شيء لا يصل إلى مستوى النظام التام، سيحولها إلى تمدد سكاني.

نظرة واحدة على فدانين من الأراضي المزروعة بعثت فيّ الأمل لرؤية المزيد من الحقول، ولكنها كانت يتيمة، ولم يكن هناك سواها: المحراث الصغير، الأخاديد الضيقة، والمحاصيل الشتوية المبذورة وبينها بوصات فقط، القش لا يُكوّم بل يجمع في حزم صغيرة- مزرعة مصغّرة. وعلى البعد كان النمط يتكرر على عدد من التلال، ما عد الأخاديد التي عبأها الثلج، فأكسبها مظهراً أشبه بالأقمشة القطنية المقلّمة.

كانت هي تلك الصورة التي خطرت على بالي، ولكن حالما تذكرتها كنا قد ابتعدنا أميالاً عنها. يفوق القطار ذهني في السرعة، سريع جداً حتى إنّ الجميع ظلوا في مقاعدهم. كان من الصعب التجول في قطار يسير بتلك السرعة- كنت لتسقط أرضاً من أقل حركة- لم يكن ثمة من يخاطر بالسير على الممر سوى الفتيات اللواتي يدفعن الصواني المدولبة بالشاي والكعك.

مع افتقاره إلى السمات التقليدية لبازار السكة الحديد، يعتمد القطار الياباني على مزايا الطائرة: الهدوء، المسافة المريحة بين المقاعد، وضوء للقراءة- يكلف عشرة دولارات أكثر عند جلوس اثنين (بدلاً من ثلاثة) جنباً إلى جنب. وهناك تحذير للركاب من الوقوف والتزاحم لدى الأبواب. تتسبب السرعة العالية للبعض في النوم، وللبعض صعوبة في التنفس. لا تشجع على الحديث. لقد افتقدت القطارات الأبطأ، ذات الاستراحات، والعجلات الصاخبة، وهي تصرّ. الرحلات عبر القطارات اليابانية من مدينة إلى أخرى عملية لكنها غير اجتماعية: أهم ما فيها هو الوصول في الوقت المحدد. القطارات الآسيوية المجانية كانت ورائي. لكن ما زال بي شغف بها.

" أرى أنك تقرأ لهنري جيمس."

ضحك الرجل.

قلت: " كتب جيمس الأخيرة في رأيي مراوغة."

" صعبة الفهم؟ "

" يمكنك أن تستفيد من دورتي الدراسية. "

" هل تقدم دورات حول جيمس؟ "

" حسناً، لقد سميت الدورة الدراسية-ببساطة- "القصة الذهبية".

قلت: " تبدو رائعة، كم من الوقت يحتاج طالباً عادياً من طلابك لقراءة "القصة الذهبية"؟ "

" تنتهي الدورة التدريبية في عامين. "

" ماهي الكتب الأخرى التي يقرأونها؟ "

" فقط هذا الكتاب. "

" سبحان الله! كم محاضرة تقدم أثناء الدورة؟ "

أجرى بعض الحسابات على أطراف أصابعه، ثم قال: " حوالي عشرين محاضرة بالعام. أي أربعون محاضرة في المجمل. "

" أنا أقرأ لشوساكو إندو. "

" لاحظت ذلك. إنه من مواطنينا المسيحيين. "

" هل تدرّس اليابانيين الأدب؟ "

" أوه، نعم. ولكن الطلاب ما يفتأون يقولون إننا لا نواكب الحداثة بما يكفي. إنهم يريدون قراءة الكتب الصادرة بعد الحرب. "

" أي حرب؟ "

" الحرب العالمية- الكتب الصادرة بعد إصلاحات ميحي. "

" إذن أنت تركّز على الكلاسيكيات؟ "

"نعم، القرن الثامن، القرن التاسع، وأيضاً القرن الحادي عشر. عدد بعض الأعمال وخصّ كتب جيمس بنصيب الأسد. قال إنه كان أستاذاً في الجامعة. كان اسمه الأستاذ توياما، وكان يدرس في جامعة بمدينة طوكيو. وقال إن طوكيو ستروق لي. لقد أحبّها فوكنر كثيراً، وأحبّها سول بيلو كذلك. " السيد سول بيلو لم يستمتع بنفسه. فأخذناه إلى عرض تعرّ. فأحبّه حبّاً جماً! "

" أنا متأكد من ذلك. "

" هل أنت مهتم بعروض التعري؟ "

قلت: " لحدّ ما، لكن العرض الذي شاهدته لم يكن عرض تعرّ. ساديوون يضاجعون مازوخيين، انتحاريون عراة- لم أر في حياتي مثل تلك الدماء! حقاً لا أستطيع تحمل ذلك. هل زرت قاعة نيكينغكي للموسيقى من قبل؟ "

قال الأستاذ توياما: " نعم، هذا أمر عادي. "

" حسناً، أنا لا أرى في عمليات نقل الدم ما يثير. معذرة. أود رؤية اليابانيين وهم يخرجون بالجنس من عنبر الطواريء. "

قال: في كيوتو، كان لدينا عرض تعرّ مميز- مدته ثلاث ساعات. إنه معروف. اعتبره سول بيلو الأمر الأكثر إثارة. وهو إلى حدّ كبير عرض أنثوي مثلي. على سبيل المثال، ترتدي إحدى الفتيات قناعاً- قناعاً خاصاً يستخدم في مسرح الكابوكي. إنه قناع وحشي ذو أنفٍ طويل جداً. يبدو أنه

رمز للقضيب الذكري. لا ترتديه الفتاة على وجهها- بل هنا- تحت الخاصرة. تميل شريكها إلى الوراء، وتُدخل الأنف وتتظاهر بأنّها تضاجعها. ذروة الأمسية، اعذرني، هي إظهار الفرج. وعندما يحدث هذا، يصفق الجميع. ولكنه عرض رائع. أعتقد أنّ عليك رؤيته يوماً ما." " هل تذهب إلى هناك كثيراً؟"

" عندما كنت أصغر سناً، كنت أذهب دائماً، ولكني لم أعد أذهب مؤخراً إلا بصحبة الضيوف. لكن لدينا ضيوف كُثُر!"

كان يتحدث بدقة، ويده تصطفقان، كان خجولاً ولكنه أدرك أنني مهتم، وأخبرته أنني كنت محاضراً في الجامعة أيضاً. سألني عن سفري، وركّز استفساراته على رحلاتي بالقطار عبر تركيا وإيران.

" كانت رحلة طويلة من لندن لليابان على متن القطار."

قلت: " لم تخل من الأوقات السعيدة" أخبرته عن كتاب مارك توين بعد خط الاستواء، والرحالة الساخر هاري دي ويندت، الذي كتب في نهاية القرن من باريس إلى نيويورك براً، ومن بكين إلى كالايه براً. ضحك الأستاذ توياما عندما اقتبست ما استطعت من نصائح دي ويندت في كتابي الأخير هذا:

لا استطيع سوى أن أصدق أنّ هذا الكتاب قد يمنع الآخرين من أن يحذوا حذوي، وسأشعر بالرضا لمعرفة أنّ صفحاته لم تكتب سدى. لخصّ م. فيكتور مينيان عمله المذهل " De Paris a Pekin Par Terre " كالتالي: - " N'allz pas Id! C'est la moral de ce livre. " دع القاريء يستفد من تجربتنا.

قال الأستاذ توياما: " أبحرت ذات مرة من لندن إلى يوكوهاما. استغرقت الرحلة أربعين يوماً. كنت أعمل في النقل البحري- لذلك كان عدد الركاب قليلاً. كانت معنا امرأة واحدة على هذه السفينة. وهي عشيقّة أحد الرجال- مهندس معماري. ولكنهما كانا يتصرفان كأنهما زوجان. تلك هي الرحلة الأطول التي اضطررت لتحملها بلا نساء.

بالطبع، نزلنا إلى البر عندما وصلنا إلى هونغ كونغ، وشاهدت بعض الأفلام الإباحية، ولكنها كانت سيئة جداً. كانت غرفة العرض مكتظة، وجهاز العرض ما فتأ يتعطل. أفلام ألمانية على ما أعتقد. كانت الطبعات غاية في الرداءة. ثم ذهبنا إلى اليابان."

" هل كانت هونغ كونغ هي محطتكم الوحيدة؟"

" توقفنا في بينانغ أيضاً."

توقف القطار، محطة "شعاع الشمس" الوحيدة، خمس وأربعون ثانية في ناغويا، ثم انطلقنا.

قلت: " ما أكثر الفتيات في بينانغ!"

" هذا صحيح. ذهبنا إلى حانة ووجدنا قواداً. احتسينا بعض الجعة، وقال القواد: " لدينا فتيات في الطابق العلوي." كنا خمسة- جميعنا من الطلاب اليابانيين القادمين من إنجلترا. سألناه ما إذا كان بوسعنا الصعود إلى هناك، ولكنّه أصر على أن يخبرنا بقائمة الأسعار قبل أن يسمح لنا بذلك. واجهتنا صعوبة في اللغة أيضاً. كان لديه قلمّ وفرخ ورق. كتب عليه: " نوبة واحدة من الجماع"- بهذا السعر؛ " مرتان"- بهذا السعر مرة أخرى. أشياء أخرى- حسناً، أنت تعرف هذه الأمور.

طلب منا الاختيار. كان هذا مهيناً جداً! كان علينا أن نبوح بعدد المرات التي نرغب بها قبل أن نصعد إلى الأعلى. لذلك رفضنا بطبيعة الحال.

" سألته عما إذا كان لديه عرض مثلي أنثوي. ولكنه كان قوَّاداً ذكياً، فتظاهر بعدم الفهم! ثم فهم- شرحنا له الأمر. قال: " لا يقوم الصينيون في بينانغ بهذه الأمور. ليس لدينا عرض مثلي." قررنا العودة إلى السفينة. كان حريصاً على دفعنا للبقاء هناك. فقال: " بوسعنا ترتيب عرض. أستطيع إيجاد فتاة، ويمكن لأحدكما أن يلعب دور الرجل ويشاهد البقية."

"لكن الأمر كان غير قابل للنقاش." أخبرته رداً على ذلك بماخور الأطفال في مدراس، والقواد في لاهور، والمواهب الجنسية في فينيتيان وبانكوك. كان مخزوني من الحكايات في هذا الفصل من رحلتي زاخراً بالكثير، وأعطاني الأستاذ توياما بطاقة الاتصال خاصته من شدة الإعجاب بما سمع. حتى نهاية الرحلة، كان هو يقرأ كتاب جيمس، وأنا أقرأ كتاب إندو، ومدير الشركة يعمل على ما قد يكون خطاباً أو تقريراً، يغطي ورقة فولسكاب يسندها على حقيبته في عمودين متماثلين من الأحرف.

ثم انطلق مكبر الصوت منبهاً لقصر الوقفة التالية في كيوتو باللغتين اليابانية والإنجليزية.

قال الأستاذ توياما: " لا داع للعجلة، سيتوقف القطار هنا لدقيقة كاملة."

السفر الطويل أصبح بعد ثلاثة أشهر مثل تذوق النبيذ أو الاقتراف من مائدة عالمية. يُقصد المكان، وتؤخذ منه لمحة، ويُعطى علامة. زيارة، وانتظار قبل أن يخرج القطار التالي من المحطة، يُمنع تناول الطعام، لكن العودة ممكنة. عليه من كل جداول السفر الطويلة تظهر الأسهل، التي تكتب فيها إيران بقلم الرصاص، وتحذف أفغانستان، وبيشاوور "نعم"، وسيلما "ربما"، وهلم جرّاً. ويحدث أنه بعد فترة تغدو رائحة المكان نفسه، أو منظره من المقعد الركني في العربة الخضراء، كافية للتأثير على المسافرين للرفض والمضي في طريقه. عرفت في سنغافورة أنني لن أعود أبداً، وفي كيوتو خططت لرحلة للعودة. كيوتو كانت كقارورة نبيذ تتذكر ديباجتها لتؤمن بعض اللحظات السعيدة في المستقبل.

إنه ضريح هاين، وهو معبد رسومي ملون في حديقة الشتاء المقفرة حيث عربة جر عتيقة وسط أشجار القصيرة، على بعد أربعين قدماً من القضبان، ترتفع كأغراض مقدسة، إنه الطقس الرائع، ومنازل الشاي الخشبية، والجمال المحيطة، وعربات الترام على الطرقات، وطقس الأنس الذي يتسم به الشرب بين الرجال المثقفين في الحانات الصغيرة على المروج خلف المدينة. لا عملات تُبدل في هذه الحانات، ولا أوراق تُوقّع. الأشخاص الذين يشربون في هذه الأماكن هم من العملاء الدائمين- إنهم أفراد. تسجل المضيئة ما يأكلون، والشراب أسهل في الحساب. لكل رجل في خزانة الحانة قارورته الخاصة من ويسكي السنتوري النادر جداً، اسمه أو رقمه مكتوب على الزجاج باللون الأبيض.

بحلول الساعة الثانية صباحاً، في واحدة من حانات كيوتو هذه، تتقلنا بين الأحاديث من أنواع الفكاهة اليابانية إلى الأيروسية الرقيقة في مسرحية ميدلتون "النساء يحذرن النساء". أثرت موضوع يوكيو ميشيما، الذي رُوّع خبر انتحاره قراءه في الغرب، ولكنه على ما يبدو كان مصدر راحة لكثير من اليابانيين. الذين رأوا فيه ميولاً امبريالية خطيرة. بدا أنهم يرونه كما يفعل

الأمريكان، السيدة ماري مكارثي مثلاً، إن كانت ابنة الثورة الأمريكية صوتاً. قلت أعتقد أن ميشيم نسج رواياته في الغالب على أسس من المبادئ البوذية.

قال البروفيسور كيشي: "بوذيته غير حقيقية- سطحية جداً، لقد كان يعدها هواية فقط." قال سيد شيغاهارا: "لا يهم. الياباني لا يعرف شيئاً عن البوذية، وميشيما لا يشعر بها. نحن لا نشعر بها بعمق كما يشعر الكاثوليكي بالكاثوليكية. إنه نمط حياتنا، ولكن ليس ولاء ولا صلاة. الكاثوليكيون عندكم ذوو حس روعي."

قلت: "هذا أمر جديد علي." ولكني عرفت لمخلص اليابانيون إلى تلك النتيجة بعد قراءة كتاب الصمت لإندو، الذي يتحدث عن الاضطهاد الديني، ودرجات الإيمان. قلت إنني قرأت روايات "بحر الخصوبة" لميشيما. وأحببت ثلج الربيع جداً، والأبطال الهاربون كانت أكثر صعوبة، ومعبد الفجر، كان عنواناً غامضاً جداً حول موضوع التناسخ.

قال البروفيسور كوشي: "حسناً، هذا ما نتحدث عنه."

قلت: "أجده صعب التصديق."

قال السيد إيوايما: "إنه صعب التصديق بالنسبة لي أيضاً!"

قال السيد شيغاهارا: "ولكنك عندما تقرأ الروايات الأخيرة ستعرف لماذا انتحرت."

قلت: "شعرت بذلك. لقد كان يؤمن بالتناسخ. عليه فقد توقع أن يعود قافلاً للحياة بعد فترة قصيرة." قال البروفيسور كيشي: "أمل ألا يحدث ذلك."

"حقاً؟"

"نعم، حقاً أمل ألا يفعل. أمل أن يظل حيث هو."

قال السيد إيوايما: "مثال على الفكاهة اليابانية!"

قال البروفيسور مياكي: "فكاهة سوداء [بلكنة يابانية]!"

شيء بخاري أبيض، على شكل لوح صابون، وضع أمامي في المشرب.

"هذا نبات اللفت. كيوتو مشهورة به. كله- ستجده شهياً للغاية،" قال البروفيسور كيشي الذي اضطلع بدور المضيف.

أخذت قضمات: كان ليفياً ولكنه زكي الرائحة. قالت مضيضة المشرب لبروفيسور كيشي شيئاً ما باللغة اليابانية.

"إنها تقول إنك تبدو مثل إنجيليرت همبيردينك."

قلت له: "أخبرها، أنني أعتقد أن لها ركبة جميلة."

أخبرها. فضحكت وتحدثت مرة أخرى.

"إنها معجبة بأنفك!"

في اليوم التالي، أخذت الدواء المضاد للدوار إلى قمة جبل هايي. ذهبت بقيادة البروفيسور فارلي، وهو معلم سابق لي، رأى في كيوتو ملاذاً مؤقتاً من الغباء المستفحل الذي وجده في امهيرست.

وانسحب قبيل أن يصل إلى سن التقاعد اشمزأزاً، وهرب إلى كيوتو. جلسنا على المقاعد المخملية لسكة حديد كيوفوكو الكهربائية إلى ياسي بارك، حيث ما زالت تحتفظ بعض أشجار القيقب بأوراقها،

نجوم مدورة صغيرة برتقالية اللون، ثم عربة الكابلات إلى القمة الثانية- يظهر الثلج على الأرض بينما نصعد نحن، ثم طريق الحبال، كبسولة تتدلى، وتمر فوق أشجار الأزر المغطاة بالثلوج، إلى



قمة الجبل. كان الثلج يهطل هنا. سرنا عبر الغابات إلى معابد عديدة وفي نقطة بعيدة قابلنا مجموعة من عشرين مزارعاً ضربهم الطقس، أغلبهم من الرجال والنساء المسنين، وقلة من الفتيات البدينات، خرجوا في عطلتهم الأولى بعد الحصاد وعادوا بوجوههم الحمراء القاسية باتجاه تلك الأضرحة الجبلية.

كان لقائهم لواء لفة حول رأسه، مثل رجل الإشارة السيلاني في موسم المطر، ليقيه الليل. مرت بنا المجموعة، وبعد برهة من الوقت سمعنا قرع جرس المعبد، صوت اصطدام المضرب الخشبي بالبرونز الضخم، نداءً وتحذيراً، وتنتقل هذه الضربات عبر الغابة المتجمدة، وتتبعنا طوال الطريق إلى الأسفل.

-----

-----

## الفصل التاسع والعشرون

-

### قطار الكوداما ("الصدى") إلى أوساكا

----

الكوداما مختصر: إزعاج أربع عشرة دقيقة، تنهيدة، ثم الوصول. وجدت مقعدي، وأخرجت دفترتي، وثبتته على حجري، ولكن حالما دونت التاريخ على الصفحة، كان "الصدى" قد وصل إلى أوساكا، والركاب ينزلون ببطء. ولحقتي "صدى" آخر على رصيف محطة أوساكا، الخاطرة التي فاقها القطار سرعة: ضواحي كيوتو هي ذاتها ضواحي لأوساكا. وهو أمر يستحق التدوين بالكاد مالم ألاحظ أيضاً أنّ ضواحي أوساكا بعثت فيّ شعوراً قوياً بالكآبة، مما جعلني أخلد إلى الفراش فور وصولي. خططت للحصول على تذاكر لمسرح العرائس، بونراكو- بدت خطوة مناسبة لكاتب رحلات في مدينة غريبة. إن لم تر شيئاً فلن تكتب شيئاً: تفرض على نفسك المشاهدة. ولكنني شعرت بكآبة أشد من أن ألقى بنفسي معها في شارع يفوقني سوداوية. لم يكن الشارع الرمادي ومنظر مجموعة من الأشخاص يرتدون الأقنعة الجراحية، وينتظرون على الرصيف حتى يتغير لون الضوء في إشارة المرور، في حد ذاته يثير القلق: مجتمع بدون أرصفة للمشاة قد ينبئ بافتقاره إلى الفنانين؛ إنما هواء أوساكا السام ذاته، قيل إنّ أربعين بالمائة منه غازات سامة. شاهد، إذن، المتطلع إلى تأليف كتاب رحلات، تحيط برأسه الوسادة في فندق بأوساكا، ولا يتذكر من رحلته إلى هناك سوى منظر الصفحة الخالية ما عدا من التاريخ، و ذكرى مريضة لمدينة تشبه فخاً حديدياً وضعه أحدهم ونسي أن يضع فيه طُعماً يغري الطامعين.

بدأت الشرب على افتراض أنّ الشمس تغرب، عندما لا يعتبر الشرب أو مغازلة زوجة رجل آخر جريمة، ولكن الضوء الخافت أقلقني. كان الوقت حوالي منتصف الظهيرة. شربت على أية حال، وأنهيت نصف زجاجة الجن التي معي، ثم شرعت في احتساء صف من زجاجات الجعة التي وضعها مالكو الفندق بعناية في برّاد غرفتي. يجعلني الأمر أشعر كأني مندوب مبيعات مسافر عالق في بالتيমور ومعه حقيبة ملأى بالعيّات: ما الداعي للنهوض من الفراش؟ مثل الباعة

الجائلين المصابين بجنون الارتياب، بدأت في اختراع أسباب لعدم مغادرة الفندق، أَعذار أقوم بتوصيلها حتى المنزل بدلاً من الطلبات. تسع وعشرون رحلة بالقطار كفيلة بتحويل أكثر الكتاب جراً إلى ويلي لومان<sup>14</sup>. ولكن: جميع الرحلات كانت رحلات عودة. كلما سافر المرء أبعد، تعرّى أكثر، حتى، عندما يشارف على النهاية، لا يدهشه أي مشهد، كان المرء على طبيعته أكثر من ذي قبل، رجل على فراش، محاط بزجاجات فارغة. الرجل الذي يقول: "لدي زوجة وأطفال" بعيد عن منزله، في منزله يتحدث عن اليابان. ولكنه لا يعرف- وأنى له؟- أن المشاهد المتغيرة في نافذة القطار من محطة فكتوريا، حتى محطة طوكيو المركزية هي لا شيء مقارنة بالتغيير الذي يحدث على مستوى الذات، وكتابة الرحلات التي لن تكون سوى طرفة في البداية، وتنتقل من الصحافة إلى السرد، وصولاً في سرعة صدى الكوداما إلى السيرة الذاتية. من هناك ينقلب المزيد من السفر إلى اعترافات عبر انعطاف كطيران النحل، الحوار الأحادي المخرج في بازار مهجور. غرفة فندق مجهول الاسم في مدينة غريبة، كنت أفكر- ما زالت الوسادة فوق رأسي- تقود المرء إلى حالة الاعتراف. وما إن بدأت أعدّد ذنوبي حتى رن جرس الهاتف.

"أنا في الاستقبال، في الطابق السفلي. يتعلق الأمر بمحاضرتك-"  
كان اعتذاراً. في المركز الثقافي تنفست الكحول في مكبر الصوت، وتحدثت عن ناثانيل ويست، قلت بغرور: "ربما كان كاتباً غير معروف لديكم-"

بادرت فتاة يابانية: "بروفيسور ساتو-"

وثب رجل وركض خارجاً من الغرفة.

"ترجم كل أعماله."

كان الرجل الراكض هو البروفيسور ساتو. لدى سماع اسمه، أصيب بالرعب تماماً، وعندما سألت عنه بعد ذلك، اعتذر البقية وقالوا إنه ذهب إلى منزله. هل قرأت روايات يابانية؟ أرادوا أن يعرفوا. فقلت نعم، ولكن لديّ سؤال. "اسأل السيد غوتوه!" قال أحدهم وربت على كتف السيد غوتوه. بدا السيد غوتوه كما لو كان على وشك البكاء. قلت إن الروائيين اليابانيين الذين قرأت لهم تناولوا مسألة التقدم في السن كما فعل بعض الكتاب، بشيء من الحكمة والتعاطف، ولكن في أربعة من الأمثلة على الأقل جاءت ذروة الرواية عندما تحوّل الرجل الشيخ إلى متلصص. بحسب عرض بروفيسور توياما المثلي الأنثوي، والكتاب الرسومي للفتاة على قطار طائر الصباح، قلت إن التلصص الجنسي كان دائماً يدار بذكاء من قبل البطل: ما الذي يجعل حضور المسرحيات الجنسية أمراً مرغوباً بشدة لدى اليابانيين؟

قال السيد غوتوه: "ربما، ربما لأننا بوذيون."

قلت: "كنت أعتقد أن البوذية تهدي إلى التغلب على الشهوات"

قال السيد غوتوه: "ربما كان في المشاهدة كبخٍ للشهوة."

"أتساءل."

<sup>14</sup> بائع متجول خيالي وبطل مسرحية آرثر ميلر "موت بائع متجول"

حلّت المسألة، ولكنني ما زلت أعتقد أنّ اليابانيين، الذين كانوا عمال مصانع لا يكلّون، وصلوا إلى حدٍ من الإرهاق الجنسي الذي تجسّد في مشاهدة فعل لا يرغبون في أدائه بأنفسهم. وفي هذا، كما في غيره من الأمور، كان المزيج الياباني من التكنولوجيا المتقدمة والتطرّف الثقافي.

في طريقي للعودة إلى الفندق وحدي، دخلت إلى متجر كتب لشراء دليل للاتحاد الاشتراكي السوفييتي، ولعدم توفره، اكتفيت بنسخة من شارع غراب الجديد لجيسنغ. سرت حتى وجدت حانة. ومن النافذة، مزدانة بزجاجات جعة آساهي وكيرين، بدت الحانة مبهجة، ولكنني لم أر الرجال اليابانيين الخمسة السكارى، والأرض المبللة، والمقاعد المكسورة إلا بعد أن دخلت. كانت وجوه الرجال زهرية، والجلد حول أعينهم متورماً من أثر الخمر، وقد تخلّوا عن تهذيبهم المعتاد. اندهشوا لرؤيتي وأحاطوا بي. قال أحدهم: "من أين أنت!" بإنجليزية ركيكة. ووكزني آخر في ظهري وقال: "أنت صبي، صبي طيب!" ودفع رجل بوجهه في وجهي: "أنفك كبير!" وطلبوا مني التحدث باللغة اليابانية. فقلت لهم إنني لا أتحدث بلغتهم. ألقي الرجل الذي ناداني بالطبيب حبة توت بري عليّ وقال: "أنت فتى سيء!"

طلبت الجعة. صبّتها لي الفتاة اليابانية من وراء طولة المشرب، ونقدتها الثمن. قال رجل منتفخ الوجه، "فتاة يابان! أنت تحبّ فتاة اليابان! هي تمضي!" فرك أنفي بيده وضحك بفجور. قال إنّ عليّ أخذ الفتاة إلى مسكني. ابتسمت للفتاة. فغمزت لي بعينها. غنى أحد الرجال.

ميتسوبيشي، ميتسوي، سانوي، هوندا، ياماساكي، إيشيكاوا!  
أو كلمات شبيهة. توقف. ولطمني في ذراعي ثم قال: "غنّ أغنية!" "لا أعرف أغنية."  
"ولد سيء!"

قال الرجل ذو الوجه المنتفخ: "لم لا تحبّتي؟" بإنجليزية ركيكة جداً. لقد كان رجلاً قصيراً سميناً. أخذ يصرخ ويوجه لي الاتهامات باللغة اليابانية. وعندما حاول أحد أصدقائه سحبه بعيداً، وضعه يديه خلف رأسي، وجرّ وجهي إلى وجهه، وقبّلني. علت هتافات من البهجة وصرخات من السعادة، تمكنت بصعوبة من الابتسام، وسرت على أطراف أصابعي إلى الباب ثم ركضت. كان حدثاً عارضاً، كما طمأنني أحد الأمريكيين. "ما أعنيه هو – لم يحاول أي رجل ياباني تقبيلي." حدث شيء يساويه في الغرابة على قطار الهيكاري في طريق العودة إلى طوكيو، تأخّر القطار عشرين دقيقة. حيث توقف الهيكاري خارج ناغويا، أصيب الركاب اليابانيون بالقلق، وبدأ البعض في الغمغمة بعد مضي خمس عشرة دقيقة. كانت لحظة تعطلّ نادرة، وعندما وصلنا إلى طوكيو قررت الذهاب إلى مكاتب الخطوط الحديدية الوطنية اليابانية لأعرف سبب توقّف القطار. ذهبت إلى مبنى الكونيتسو، وطرحت سؤالاً على رجل في قسم خدمة الجمهور. انحنى الرجل، وقادني إلى مكتبه، وقام بإجراء محادثة هاتفية.

قال: "لقد تم التبليغ عن حريق على الخط، وصلت المعلومات للحاسب الآلي. الحاسب الآلي يصحح الخطأ، نأمل ألا يتكرر مرة أخرى.

أعطاني مطوية توضح عمل الحاسب الآلي الذي ينظّم القطارات ذات السرعة العالية. "كل شيء مدرج هنا."

"هل يمكنني أن أسألك سؤالاً آخر؟"

" إذن. " أغمض عينيهِ وابتسم.  
" تتوقف بعض القطارات اليابانية لثلاثين ثانية في المحطة. هذه فترة وجيزة جداً. هل تقع أية حوادث قط هنا؟ "

" نحن لا نحتفظ بسجل لمثل تلك الحوادث، أستطيع أن أقول إنها ليست كثيرة. قهوة؟ "  
" أشكرك. " وضعت سيدة تدفع صينية قهوة مدولة كوب قهوة بجانب مرفقي. انحنيت قليلاً، وانتقلت إلى المكتب التالي. كنا في مكتب كبير، به حوالي خمسين طاولة عمل، حيث يجلس الرجال والنساء يعملون على أكداًس من الورق. " ولكن ماذا عن الركاب، هل يهتمون لكل هذا القفز من وإلى القطار؟ لابد أن يكونوا سريعي الحركة! "

قال: " شعب اليابان سريع، على ما أعتقد. "  
"نعم، لكنهم يتعاونون أيضاً. "

" يتعاون الركاب حتى تسير القطارات كما ينبغي. التعاون من شيم اليابانيين. "  
" قد يرغب الركاب في البلاد الأخرى بأكثر من خمس وأربعين ثانية في المحطات الرئيسية. "  
" آها! إذن ستكون القطارات بطيئة! "

" صحيح، صحيح، ولكن لماذا هي- "  
بينما كنت أتحدث، ضجت الموسيقى الأوركسترالية في المكتب الكبير. من خبرتي في الخطوط الحديدية اليابانية عرفت أنّ هناك تنبيهاً على وشك أن يُذاع. ولكن لم يكن هناك تنبيه فوري، انطلقت الموسيقى، علت، ثم انخفضت.

" ماذا كنت تقول؟ "

قلت: "لقد نسيت سؤالي. "استمرت الموسيقى. تساءلت كيف لأي شخص أن يعمل في مكان به مثل هذا الصوت المرتفع. نظرت حولي. لم يكن ثمة أحد يعمل. وضع كل كاتب قلمه جانباً ووقف. والآن جاء الصوت عبر المكبرات، بدا أولاً يشرح، ثم يتحدث مثل غناء قائد التمرين. بدأ العاملون في المكتب التلويح بأذرعهم، ويتحسسون سواعدهم، يقومون بإشارات، ثم يلوحون، ينحنون من الوسط، ثم يثبون في قفزات صغيرة مثل قفزات الباليه. كان الصوت الأنتوي على مكبر الصوت يسمى التمرينات، والإيقاع الذي يسري، " والآن هنا تمرين يجعل الدم يتدفق في العنق المتألم. للخلف در.. اثنان، ثلاثة، أربعة. مجدداً، اثنان..، ثلاثة..، أربعة. " كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بدقائق معدودة. إذن يحدث هذا يومياً! لا مفر، أيضاً: كان الموظفون في طريقهم إلى البلدة حقاً، وهم يؤدون تمارين كثيفة لثني الركبة، وتنشيط عضلات الذراع. كان لذلك أثر مشهود في مسرحية موسيقية يقف فيها جميع أفراد المكتب دون حرج على أقدامهم ويرفعون أقدامهم عالياً بينما يسيرون وسط خزانات الملفات.

" أنت تقوّت تمرينك. "

" لا بأس. "

رن جرس الهاتف على المكتب التالي. تساءلت كيف يتولون أمره. أجابت على الهاتف امرأة هفهافة الشعر، وتوقفت لتنفض شعرها، وهي تتمتم بشيء ما، ثم أغلقت الخط. واصلت هزّ شعرها.  
"أية أسئلة أخرى؟ "

قلت لا. شكرته وغادرت. والآن انضم هو إلى الآخرين في المكتب. ومدد ذراعيه إلى اليمين، اثنان- ثلاثة- أربعة، ثم إلى اليسار، اثنان- ثلاثة- أربعة. كانت الآلات توعد إلى اليابانيين في كل البلاد بما عليهم فعله. وقد صنع اليابانيون هذه الآلات وأعطوها أصواتها، وقلدوها المسؤولية. يتطلع الآن اليابانيون إلى الأضواء والأصوات ويطيعونها، وهم يمرنون عضلاتهم الصغيرة، ويركلون بأقدامهم الصغيرة، ويهزون رؤوسهم الصغيرة، مثل ألعاب ساعات معيبة تعمل من أجل آلة قاسية ستسبب في هلاكهم يوماً ما.

-----

## الفصل الثلاثون

-

### السفينة السريعة العابرة للصحراء المتجمدة

الترانس-سيبيريان

1

م. ف. خابروفسكي

----

عابرة سيبيريا السريعة في حدها الشرقي هي سفينة روسية رديئة الرائحة تبحر مرة أو مرتين في الشهر من عاصفة يوكوهاما الترابية الممتزجة بالضباب الدخاني، عبر مضائق تسوغارو العاصفة، وبحر اليابان- الذي تغرق العواصف الثلجية في تياراته الجارفة بالكامل- إلى ناكودكا، في البريمورسك المتجمد، على مرمى حجر من فلاديفستك. إنه الطريق الوحيد الذي يقع في الجزء الغربي من ناكودكا، طريق التهاب الرئة عبر العواصف حتى بداية خط القطارات. مثل القطارات، كانت السفينة تتبع للجمارك السوفيتية: حافلة بالفروق الطبقة الدقيقة جداً، التي لن يفهمها سوى ماركسيّ مدرب.

كنت في مقصورة بأربعة أسرة على مستوى المياه، واحد من التصنيفات الفرعية لما يسمى "الطبقة الخشنة" (وهو وصف أصح من الآخر- "السهلة" الذي تروج له هيئة السياحة). كان بروس وجيف، الأستراليان في التختين العلويين متوترين حيال أمر الذهاب إلى سيبيريا. وعلى التخت المقابل كان أندرس، وهو شاب سويدي، ملتهب البشرة، له وجه كوجوه الاسكندنافيين الأصليين التي تشي بالاشباع الجنسي، وجوع المخيلة، كان يستمع إلى الاسرتاليين، وعندما قال: "مرحباً، لقد سمعت أنّ الطقس بارد في سيبيريا،" علمت أنّ الرحلة لن تكون سهلة. وبعد ظهيرة اليوم الأول اكتسى الطريق الساحلي لهونشو بالثلج، وكنا على مشارف المضائق. وكانت مقدمة الخابروفسكي والجانب الأمامي ملفوفين بغلاف من الثلج الأزرق. لم نر أثراً لحياة هناك في ما عدا المنارة، وقلة من سفن الصيد التي تنجرف بشدة مع التيار القوي. اتسم منظر الساحل والجبال من خلفه بالكآبة. قال أحد الطلاب اليابانيين وهو يشير إلى جبل: "ذاك هو أسورايماء، ثمة عفاريت تعيش على القمة. لذلك لا يقترب الناس من هذا المكان." وقف اليابانيون

على الحاجز يلتقطون الصور لهذا المكان المسحور. ثم تبادلوا تصوير بعضهم بعضاً، وهم يحملون لوحة كتب عليها تاريخ اليوم، والوقت والمكان بالطبشور: كانوا يتخذون وضعية التصوير ذاتها كل مرة، ولكن يتم تحديث المعلومات على اللوحة بسرعة. كانوا طلاباً في الغالب، وبعضهم من السياح. وهناك مجموعة منهم، تذهب إلى كل مكان، ولا يتحدثون الإنجليزية إلا واحداً فقط. كان عالم الاجتماع المسافر إلى السوربون لا يتحدث الفرنسية، ولا الرجل الذي في طريقه إلى معهد ماكس بلانك يتحدث الألمانية. ولديهم كتب العبارات التي يحملونها باستمرار. ولكنها لم تساعدكم كثيراً في الحديث بالإنجليزية. فقد كانت معدة من قبل يابانيين فائقي الحساسية، وتحتوي على جمل مثل: " الغرفة لا تناسبني!" باللغة الألمانية، والإنجليزية، والإيطالية، والفرنسية والروسية.

سرت في شارع غراب الجديد إلى الحانة، ولكن لم أسلم من المقاطعات: سحب الطلاب اليابانيون المقاعد وجلسوا في دائرة، وهم يحملون قواميس العبارات كما يحمل مرئمو الكنائس كتب التراتيل، وهم يتساءلون عن سعر غرفة في لندن؛ أراد زوجان أمريكيان معرفة ما كنت أقرأ؛ وكان هناك جيف؛ الأسترالي الأكبر سناً في طريقه إلى ألمانيا. لم يخلق جيف ذقنه لليوم الثالث، وكان يرتدي قبعة تخفي صلعه طوال الوقت. كان جيف يمقت السفينة، ولكنه لم يفقد تفاؤله. سألتني: " هل سبق لك أن أبحرت في سفينة مثل هذه؟" قلت لا.

" اسمع، لدي صديق كان على سفينة مثل هذه. وكان مسافراً من سيدني إلى هونغ كونغ على ما أعتقد. قال إن الجميع كانوا لطفاء جداً عندما صعدوا على متنها، ولكن حالما وصلوا إلى البحر بدأوا يتصرفون بجنون. هل تفهم ما أعني؟ أي يتصرفون على نحو مختلف عما اعتادوا عليه." ثم نظر شذراً بعينيه وقال: " كما لو أنهم فقدوا عقولهم!" كان ثمة فيلم يبيت في الاستراحة تلك الليلة عن مينسك. ذهب جيف لمشاهدته وقصّه عليّ لاحقاً. كان يصوّر مينسك كمدينة مبهرجة لعروض الأزياء ومباريات كرة القدم، واختتم بلقطات مفصلة لمصنع للحديد الصلب."

بعدها أخذ المضيفون الروسيون آلاتهم وانتظموا في رقصة لم تجد إقبالاً من الحضور. رقص اثنان من موظفي النقل اليوغسلافيين مع أمناء المكتبات القادمين من أديليد، أما الأمريكي فراقص زوجته؛ وظل اليابانيون يتفرجون وهم يحملون قواميس العبارات. سألت: " هل ثمة من فقد عقله؟"

قال جيف: " هذه ليست رحلة، إنها مثل نزهة لمدرسة يوم الأحد. فإن سألتني سأقول لك إن السبب- بحسب اعتقادي- هو أنّ الروس هم المسؤولون عن الرحلة." قالت الساقية وهي سيدة شقراء قوية ذات جسم قوي، ترتدي جوارب زهرية قصيرة، سمعت تذر جيف: " ألم تعجبك؟"

قال جيف: " تعجبني، إلا أنني لم أعتد عليها بعد." انضم إلينا نيكولا اليوغسلافي. قال إنه أمضى وقتاً رائعاً في الرقص. وأراد أن يعرف اسم أمين المكتبة الأقصر قامة. قال: " أنا مطلق- ها ها!" قلت للساقية: " غالينا بتروفا، المزيد من الجعة رجاء."

وضعت الشقراء ما كانت تحيكه جانباً، وملأت كأسى بينما كانت تغغم ببعض كلمات روسية لنيكولا.

قال نيكولا: "إنها تريدك أن تدعوها غاليا. فهو أبسط وألطف."

"لا أعتقد إنني سأكسب أي شيء بمناداتها غاليا."

"نعم أنت محق." وغمز بعينه قائلاً: "ليس ثمة ما يغري بذلك."

تحدثنا عن يوغسلافيا. قال نيكولا: "لدينا ثلاثة أشياء في يوغسلافيا- الحرية، والنساء، واحتساء الخمر!"

"ولكن قطعاً ليس في الوقت ذاته." قلت أنا. أدار ذكر الحرية دفة الحوار حول جيلاس، الكاتب اليوغسلافي المضطهد.

قال نيكولا: "جيلاس هذا، سأحكي لك قصة. كنت في المدرسة. لقد فرضوا علينا قراءة كتبه. لقد قرأت كل مؤلفاته."

حول ستالين. قال، أممم. كان ستالين مثل زيوس. زيوس الإله الروماني. لا يفكر كزيوس، لكنه يبدو مثله. وجه ضخم، ورأس كبير. أنا أعتبر جيلاس خائناً للشيوعية. هذا هو السبب. لقد كتب كتاباً- كتاباً كبيراً- وأسماء، حوار مع ستالين. ولكن، أمم! كان يقول الآن ستالين صار مسخاً. مسخ! أولاً زيوس، ثم مسخ؟ أنا أسألك لماذا. لماذا؟ لأن جيلاس خائن."

كان نيكولا في السابق قبطاناً لسفينة يوغسلافية، ثم الآن ضابطاً لشركة شحن في طريقه إلى ناكودكا لمعاينة ناقلة بضائع معطلة. كان يتمنى لو ظل قبطاناً، وطفق يتذكر وقت أوشكت سفينته على الغرق أثناء عاصفة في مضائق تسوغارو هذه. قال: "كنا نمر بتيارات خطيرة ويتعين عليك الدعاء في بعض الأحيان، ولكن دون أن تقع عليك أعين الرجال!"

في وقت متأخر من الليلة، جمعت حانة الخابروفسكي الزوجين الأمريكيين، ونيكولا، والبولندي الكئيبة الذي لم أتذكر اسمه أبداً، وشخصي الضعيف. قال الزوجان الأمريكيان إنهما كانا "مهتمين بالسحر." طلبت منهما الدليل. فأخبراني بقصص عن شبح. واحدة كانت عن دمى يابانية قُدمت لهما، وكانت ذات أنف مكسور. فقال لهما رجل ياباني: "تخلصا منها! إنها حية!" كانت لها روح. ذهبوا إلى المعبد ونثروا الملح في دائرة، وقاموا بتأدية طقس للتطهير. "أو قد يحدث شيء ما لوجهينا." قلت إن هذا محض تخمين. أخبراني قصة أخرى. حدثت هذه القصة في نيو أورليانز. أعطيا كتاباً غريباً. علّق ضيوف العشاء على الكأبة التي اكتسبها منزلهم؛ كان الكتاب يصدر انبعاثات. فحرقوا الكتاب في مرمدة، وبعد أسبوع احترق منزلهم بكامله- ولم يعلم أحد السبب في ذلك.

قلت: "أعرف بائعاً للمطبوعات القديمة." وبدأت أخبرهم أشد القصص التي أعرفها إثارة للرعب. "الميزوتينت" لمؤلفها م. ر. جيمس.

"ياكي!" قالت السيدة عندما انتهت. قال زوجها: "هل أنت مهتم بالسحر أيضاً؟"

في الصباح التالي كنا خارج المضائق. اعتقدت أن بحر اليابان سيكون أكثر هدوءاً، ولكنه كان أسوأ بكثير. فسّر نيكولا الأمر بوجود نوعين في من التيارات في اليابان، تيار كيوشو الدافئ القادم من الجوب، وتيار بحر الأوخوتسكي: يلتقيان ويثيران صخباً كبيراً. ظلت السفينة تتمايل

طوال اليوم في عاصفة ثلجية تلقي بها في أعماق البحر المتعاطمة أمواجه، ومن قاع كل موجة طويلة تندفع موجة هائلة ترتج لها النوافذ ارتجاجاً.  
بعثت في السفينة المتحدرة شعوراً بالخفة ذهبت به الرجفة بعد لحظة ليتحول إلى غثيان. كان دوار البحر في نصفه خوفاً من الغرق في ذلك البحر المتجمد، لحدٍ يتعين علينا معه التأقلم مع الثلج وتلك الأمواج في قوارب النجاة الهزيلة.  
قال البولندي إنني بدوت مريضاً.  
"أشعر بالمرض."  
"اثمل."

حاولت، بعض النبيذ الجورجي، ولكنني شعرت بعده بالتدهور، كما لو أنني شربت التوربينتين. كانت السفينة تتمايل بشدة، وتصطخب مع صوت انفجارات الموج على الهيكل الخارجي، وخبط الأبواب، وفتح الخزانات، والجدران التي اخترقتها الاهتزازات فبدت على وشك الانفصال عن بعضها البعض. ذهبت إلى مقصورتي. كان أندرس في فراشه بالفعل، ويبدو مصدوماً. جيف وبروس يتأوهان. ثم بدت السفينة كما لو كانت تقفز فوق البحر الصافي، وتظل في الهواء حوالي خمس ثوانٍ صاخبات، ثم تسقط على جانبيها فتنتثني أخشابها بشدة. لم أخلع ملابسني. كنت ممن نزلوا على قارب النجاة السابع. هتف أندرس أثناء نومه: "لا!"

كان البحر أصعب ما يكون قبيل الفجر تماماً. ومرة أخرى، أُلقي بي إلى الأعلى من مقعدي، وضربت رأسي على حاجز المقعد مرة أخرى. في الفجر - ظهرت أشعة الضوء عبر الثلج على الكوة - كان البحر أهدأ حالاً. نمت لساعة قبل أن توقظني قفزة أخرى لأسمع الحوار التالي:

"أهلاً بروس."

"أنا؟"

"كيف صغيرك نيد كيللي؟"

"آآآ بخير"

"هل أصدرت صوتاً؟"

"كلا"

"جي، إنه خشن. تصدر هذه الأسرة ضجيجاً صاخباً."

كان جيف صامتاً لبرهة من الوقت. وتأوه أندرس. حاولت أنا ضبط الراديو الذي اشتريته من يوكوهاما. أخيراً تحدث جيف: "أتساءل عما سيقدمونه في الإفطار؟"

قدّمت مائدة الإفطار لثمانية من الركاب (السلامي، والزيتون، والبيض السائل، والخبز الطري). أما البقية، بما فيهم اليابانيون، فقد كانوا يعانون من دوار البحر. جلست مع نيكولا والبولندي. تحدثت والبولندي حول جوزيف كونراد. كان البولندي يدعو باسم عائلته الأصلي، كورزينيوسكي. اندهش نيكولا من اهتمامي وقال: "أكتب كورزينيوسكي هذا عن ستالين هو الآخر؟"



كان هذا آخر أيامنا على خابروفسكي. كان يوماً مشمساً ولكن درجة الحرارة كانت تحت الصفر بكثير - أبرد بكثير مما يسمح بقضاء بضع دقائق على سطح السفينة. مكثت في الحانة أقرأ جيسنغ. وظهر نيكولا والوقت يقترب من الظهيرة ومعه روسي مسنّ أشيب.

احتسب الفودكا، وحالما دارت الخمر في الرؤوس، بدأ الروسي سرد القصص حول الحرب. كان الروسي -ترجم حديثه نيكولا- وكيل ربانٍ على سفينة اسمها الفانزيتي- وهي أخت للسفينة ساكو- ناقلة بضائع يقودها سكيّر سيء السمعة. في قافلة من خمسين سفينة تعبر المحيط الأطلنطي، فتخلفت الفانزيتي نظراً لبطنها الشديد، وسبقها البقية بمسافة بعيدة. وفي أحد الأيام، عندما كادت القافلة أن تغيب عن مدى النظر، اقتربت منها غواصة ألمانية. أرسل القبطان إشارة استغاثة، ولكن القافلة ابتعدت بسرعة، تاركة الفانزيتي تتولى أمر الدفاع عن نفسها. تمكنت الفانزيتي بطريقة ما من تجنب الطوربيدين الألمانين. صعدت الغواصة إلى السطح استطلاعاً، ولكن عاجلها القبطان السكيّر بلفة من مدفعه الصديء، قذيفة واحدة فقط، ثقت الغواصة فأغرقتها. اعتقد الألمان أنّ هذه السفينة العملاقة التي تدار بواسطة فريق يفتقر إلى الكفاءة، عبارة عن سلاح سري، فلم تتعرض للقافلة مرة أخرى. وعندما دخلت الفانزيتي على ريكيافيك، نظم البريطانيون حفلاً مميزاً للروس الذين حضروا بعد ساعتين من الموعد، يرفعون أصواتهم بالأغاني الماجنة، وكوفيء القبطان الذي شلت الخمر حركته، بميدالية.

في الظهيرة، شاهدت النوارس، ولكن لم يظهر الساحل السوفيتي قبل الساعة الخامسة. تفاجأت بخلوه من الثلج. كان بنياً، منبسّطاً، وخالياً من الأشجار، لم تقع عيني على منظرٍ أشد كآبة منه، كان أشبه بساحل هائل من الأوساخ المتجمدة يغسله البحر الأسود الزيتي.

الركّاب الروس الذين كانوا حتى ذلك الوقت ينزلون ويقفون حول السفينة بملابسهم القديمة، وأحذيتهم الخفيفة الناعمة، ويرتدون ستراتهم المجددة وقبعات الفرو عند الوصول، وعلى طول ميمنة السفينة كنت أراهم يثبتون ميدالياتهم ("العامل النودجي"، جمعية كاكوتسكي التعاونية"، "رابطة شباب بالغوفيشكنسكي") على جيوب الصدر. كانت السفينة ترسو في ناكودكا لفترة طويلة. وجدت على متنها بقعة أوي إليها، أدت مؤشر الراديو خاصتي، وعثرت على موجة تبث عبرها موسيقى غجرية- كمانات تصرّ مثل جوقة من المناشير القاطعة. تفرص عامل يرتدي قبعة فرو بالية، ومعطفاً مهلهلاً بجانب أحد الأعمدة. طلب مني رفع صوت الموسيقى بلغة إنجليزية (سبق وأن زار سياتل!). وهي فقرة نصف ساعة باللغة الرومانية على محطة راديو موسكو. ابتسم بحزن، وأراني طقم أسنانه المعدني. كان من مولداقيا، وتفصله عن موطنه مسافات طويلة.

